ميشال زيفاكو

المركيزة دي بومبادور

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

دار الروائع

www.mlazna.com- RAYAHEEN

دار الروائع ببيروت وحدها

تؤمّن لكِ :

الاطلاع على المجموعة الكاملة

لِروايات :

ميشال زيفاكو

مُترجمة بالنصّ الكامِل

لأول مرّة بالعربيّة

الروايات التي تتحدّث عن :

المؤامرات والدسائس والمكائد والفتن والثورات والحروب والأهوال والبطولات والمظالم والمغامرات والحُبّ والشهامة والفجور والعجائب والغرائب في :

القصور ...

والقلاع ...

والسجون ...

والدهاليز ...

والأقبية ...

في

ظلمات العصور المتوسّطة

الثمن: ١٥ ليرة لبنانية

www.mlazna.com
RAYAHEEN
www.mlazna.com- RAYAHEEN

ميشال زيفاكو

المرأة ذي بومبادور

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

دار الروائع - بيروت

جميع الحقوق محفوظة لـ « دار الروائع »
بيروت — تلفون ٢٤٩٣٠٨ — ص.ب ٤٧٥١

لن نذهب بعد الى الغاب ...

*

كان ذلك اليوم من تشرين الأول عام ١٧٤٤ مضيئاً مشرقاً فبدا وكأنه عيد من أعياد السماء بعصافيره المزقزقة المرفرفة على طول سياج الحدائق وسحائبه البيضاء الشفّافة السابحة في الزرقة اللامتناهية، وتراقُصِ شمسه الذهبية في الهواء الطلق النقيّ العابق بأريج الخريف العطر.

وعلى الطريق المكسوّ بالطحلب وأوراق الأشجار المتساقطة الممتدّ من الإرميتاج إلى فرساي — من الأكواخ الحقيرة لغاية أسوار قصر الملك الشاهقة الضخمة الحجارة — كان خيّال شاب يسير على مهل وقد ترك العنان على عنق جواده الأصيل البارز العضلات العصيّ المزاج وأمال قبّعته على رأسه في فخر واعتداد، وتدلّى سيفه الطويل الدقيق لغاية خاصرة فرسه، وكان خفيف الحركة منتصب القامة أنيقاً لا يكاد يبلغ العشرين من العمر، وقد بدت في ملامحه الجرأة النادرة ولاحت السخرية في شفتيه الرقيقتين وشعّت عيناه الحادّتان ببريق العزيمة والأنفة. وكان يبتسم للشمس المنحدرة وراء أوراق الأشجار الذهبيّة اللون نحو آفاق زرقاء بعيدة الغور، وللغابة الجميلة المكسوّة بجلال الخريف، وللفتاة المارّة بقربه،

www.imlazna.com
^RAYAHEEN^

والقرويّ المترنّم بأغنيته ؛ كان يبتسم لنفسه ، للحياة ، لأحلامه ...

وأمامه ، على مسافة ألف خطوة تقريباً ، سار رجل يتكىء على عصاً من العجرم وقد كسا الغبار وجهه وثوبه الممزّق ، وكان يمشي منذ الصباح آتياً من مكان مجهول — بعيد جدّاً دون شكّ — وربما كان ذاهباً إلى مصير رهيب .

وعلى مقربة من البحيرة وقف الرجل فجأة . فقد وقعت عيناه ، في تلك الفسحة المشرقة من الغابة ، على مشهد خلاّب ورؤيا سحرية عذبة .

كانت هناك فتاة في ريعان الشباب ... آية رائعة من آيات الجمال ... دقيقة الجسم ليّنة الأعطاف متناسقة الأعضاء لونها لون الخمر والورد شعرها غزير ناعم متموّج ، وقد بدت في ثوبها الحريريّ الورديّ اللون المطرّز بالزهور الحمراء ، وبطاقة الورد الكبيرة التي تزين بها صدرها ، تمثالاً حيّاً للرقة والفتنة والعذوبة .

وكانت تضحك بملء فيها وهي تميل نحو عشر فتيات صغيرات السنّ مشوّشات الثياب منفوشات الشعر أحطن بها صاخبات هازجات ، فقالت لهنّ :

— يا للصغيرات المزعجات ! ها إن شيطان الرقص يدعوهنّ أيضاً !... ماذا يا آنساتي ، أتردن أن نعقد حلقة أخرى ؟!

— أجل ، أجل يا جان ، يا جان العزيزة ... إننا نريد حلقة أخرى !...

— ليكن إذن ! وها هي أغنية ألّفتها لكنّ أمس في الطريق !

وبينما أسرعت الفتيات ينتظمن في الحلقة أخذت هي تنشد بصوتها

المؤثر العذب :

« لن نذهب بعد إلى الغاب فقد قُطعت شجيرات الغار »

« وتلك الحسناء هناك ، أندعوها للرقص ؟ »

وعلى نغم هذه الأغنية وبين الضحكات الرنّانة امتدّت حلقة الرقص لغاية ضفة البحيرة المتموّجة الرائعة الزرقة ، وهناك ، على الطريق المكسوّ بالطحلب وأوراق الأشجار ، كان الخيّال الشاب يتقدم بلا مبالاة .

« أندعوها للرقص ؟ »

« هيّا إلى الرقص ... »

« وانظري كيف يرقصون » .

وفجأة ذعرت الفتيات وجمدت الضحكات على شفاههنّ الندية ، فقد خرج الرجل المكسوّ بالغبار من مخبإه واقترب بخطوات بطيئة من جان ، جان العزيزة كما كانت تدعوها الفتيات ، ووقف قربها صامتاً مغلقاً كأنه لغز من ألغاز الطبيعة ، فابتسمت جان دون أيّ خوف وخاطبت الرجل بقولها :

— ماذا تريد ؟

— عفواً ... وعذراً ... أين أنا هنا ؟

— إنك في أرض الإرميتاج . هذه هي فسحة الغاب وتلك هي البحيرة ، وهنا تنتهي حديقة قصر فرساي وهناك تبدأ الغابات !

— أيكون القصر بعيداً من هنا ؟

فمدّت يدها في رشاقة حوريّة الماء وقالت :

— هذا طريق القصر ، أتراه ؟

وفي تلك اللحظة سُمع صوت بوق في البعيد ، في أسفل الغابة ، وعلا نباح الكلاب . فقال الرجل في نفسه وهو يتفرّس في جان :

« ما أجملها ! »

وخاطبها قائلاً :

ـ عفوك أيضاً ... أتستطيعين أن تقولي لي ... الملك ... هل هو في القصر ؟...

فاضطربت جان وشحب وجهها وفكرت لحظة ثم غمغمت قائلة وكأنها تحلم :

ـ الملك !...

ـ أجل ، لويس الخامس عشر ، أتعلمين ما إذا كان في القصر؟

ـ كلاّ ، كلاّ ، لا أدري ... يا لك من رجل مسكين ! إن هيئتك تدلّ على أنك تعس ... ومنهوك القوى !

ـ منهوك القوى ... أجل ... وتعس ... تعس حقاً !

ـ إنتظر لحظة ، فيجب أن آتيك بما يجلب لك السعادة !

واندفعت في خفة الغزال النافر ، وعلى عشرين خطوة منها ، تحت شجرة سُوح ، جلست امرأتان تستريحان ، وكانت إحداهما شقراء ضئيلة الجسم ، والأخرى قويّة ضخمة الجثّة حمراء البشرة وقد أخذت تصيح قائلة :

ـ جان ، جان ! لماذا تركضين هكذا يا ابنتي؟!... ما إن العرق يتصبّب منك وقد تبدّل لونك وتطاير شعرك !

فلم تجب جان بل تناولت صرّة ملقاة على العشب قرب المناديل ففتحتها وأخذت منها قطعة ذهبية وعادت إلى الرجل راكضة أيضاً.

وفي تلك اللحظة اقترب صوت البوق معلناً عن اكتشاف الطريدة . وفي تلك اللحظة أيضاً كان الخيّال الشابّ ذو السيف الطويل الدقيق قد بلغ الفسحة في حين كان صيّاد يدور حول البحيرة على متن جواده السابح في العرق وقد لمعت مديته في منطقته وتدلّى بوقه إلى جانبه .

ومدّت جان يدها بالقطعة الذهبية نحو الرجل وقالت له بلطف متناهٍ :

ـ خذ ، خذ !

فقال مزمجراً :

ـ ولكنني لا أطلب الصدقة !

فقالت في تأثّر بالغ :

ألعلّك تريد تعذيبي ؟...

فتردّد الرجل وارتعش ، ثم فتح راحته ببطء فدسّت جان فيها القطعة الذهبية وصفّقت بيديها غبطة ، إلا أنها ما أن رأت الرجل المجهول يجمد في مكانه متجهّم الوجه حتى قالت باسمة :

ـ أعتقد أنني سأكون لك ذات نفع فيما إذا صرّحت لي باسمك !

فانتفض الرجل انتفاضة هائلة ونظر إليها نظرة غريبة ، ثم غمغم قائلاً :

ـ إنني أُدعى فرنسوا داميان ...

وكان الصيّاد قد وصل في تلك اللحظة فأوقف جواده بعنف وصاح قائلاً في لهجة مقتضبة قاسية :

www.mlazma.com ARAYAHEENA

— هوّلا ! إنصرف أنت أيها الصعلوك ! ... وأنتنّ أيتها الصغيرات وأنت يا سيدتي ، إذهبن من هنا فوراً !

فالتفت جان إلى الصيّاد وتفرّست في ملامحه وثيابه لحظة ، ثم ضحكت ضحكة رنّانة وقالت ساخرة :

— ما هكذا يحملون بوق الصيد أيها السيد فأنت فيه على خطأ ، وهذا يدلّني على أنك لست من النبلاء ... إذا احتاج الأمر إلى دليل !

فابيضّ وجه الصيّاد من الغضب وصاح قائلاً :

— سيدتي !...

فقالت في برودة تامّة :

— إذهب أيها السيد ، إذهب واسأل السيد داميير أن يلقي عليك درساً في الصيد والقنص ، واسأل كلّ فرنسيّ يتأتّى لك أن تلقاه في الطريق أن يعطيك أمثولة في التهذيب ، وبعد أن تفعل ذلك ، عندئذٍ يمكنك أن تعود !

واستدارت على عقبيها وأولته ظهرها ففاض الدم في وجه الصيّاد ولشدّة غيظه دفع جواده نحوها وأوشك أن يدركها ... أن يطرحها أرضاً . فصاحت الفتيات الصغيرات صياح الذعر وزمجر الرجل المكسوّ بالغبار ورفع عصاه . إلا أنه قبل أن يهوي بها تراجع الصيّاد فجأة بجواده ، فإن الحيّال الشابّ ، الذي وصل في تلك اللحظة إلى فسحة الغاب ، وقف بينه وبين الفتاة وقبض على عنان جواده فهزّه هزّاً عنيفاً وصاح قائلاً بصوت قاسٍ رهيب :

— قسماً بالله أيها السيد ، ألعلّك مسعور ؟...

ووقف الجوادان صدراً لصدر يضربان الأرض بحوافرهما وينفخان ويصهلان، وسدّد كلّ من الحيّالين إلى الآخر نظرة تهديد رهيبة وقال الذي دافع عن الفتاة :

— يا للشيطان ! أمُنهان النساء في هذا المكان ؟!

فأطلق الصيّاد لعنة هائلة ، بيد أنه لم يلبث أن هدأ وقال في أدب تكسوه برودة جليدية :

— إحذر لنفسك أيها السيد فأنا أقوم هنا بمهمّتي وهي أن أمنع الناس من ارتياد أماكن الصيد ...

فقال الحيّال الشابّ :

— وأنا أيضاً أقوم بمهمّتي وهي أن أؤدّب كلّ فظّ غليظ !

فضرب الصيّاد بيده إلى جنبه في سخط شديد وعندما رأى المدية مكان السيف في منطقته ، قال مهدّداً :

— سوف نلتقي أيها الشابّ البادي بمظهر دون كيشوت في دفاعك عن النساء ... هذا إذا استطعت أن أجدك !

فقال الحيّال الشابّ في سخرية لاذعة :

— أظنك تريد صلم أذنيك أيها السيد ساحق النساء...فإنك تلقاني دائماً عندما تبحث عني ، حتى وإن لم تكن تبحث عني !

فزأر الصيّاد قائلاً :

— إسمك إذن !

— إسمك أنت أولاً !

— أنا الكونت دي باري نافخ البوق في خدمة صاحب الجلالة !

— وأنا الفارس داساس نافخ البوق في فرقة أوفيرن. وإنني الآن

في إجازة قانونية وأنا شاخص إلى باريس ، شارع سانت اونوريه ، فندق الدلافين الثلاثة وسأكون هناك غداً وفي الأيّام التالية في انتظار حضرة الكونت دي باري !

فزمجر الصيّاد قائلاً وقد أعماه الغضب :

— حسناً أيها الفارس داساس ، فإنك لن تنتظر طويلاً !

واستدار نحو الفتاة وقال :

— أما أنتِ يا سيدتي فسوف تصلك أخباري !

فقالت ساخرة وهي تضحك ضحكتها الرنّانة :

— سيكون ذلك شرفاً عظيماً لي !

فبدرت من الصيّاد إشارة تهديد ثم أدار رأس جواده وتوجّه إلى أسفل الغابة حيث كانت تتصاعد أصوات الأبواق .

وفي أثناء ذلك الجدال كان الرجل الذي قال إنه يدعى فرنسوا داميان قد احتجب وراء أحد الأدغال وهناك وقف يتأمّل الفتاة وهو يقول :

— ربّاه !... ما أجملها !...

وكان الفارس داساس قد ترجّل عن جواده وانحنى أمام جان قائلاً :

— أرجوك يا سيدتي أن تعتمدي عليّ مهما يكن من الأمر ، وكوني مطمئنّة فإن ذلك النبيل الوقح سينال جزاءه ، أقسم لك بشرفي !

وعندما رفع أنظاره إليها استولى عليه إعجاب شديد كأنما أدرك في تلك اللحظة أيّة مخلوقة معبودة تمثل أمامه .

واستعادت الفتاة روعها فوراً فقالت في صوت كأنه زقزقة العصفور :

— أيها الفارس كيف أشكرك ؟

— إنك وفّيتني حقّي من الشكر ، فبارك هي هذه الدقيقة التي أبصرتك فيها !

— لن تقاتله ، قل ... قل إنك لن تقاتله ...

— ماذا تطلبين مني هنا يا سيدتي ؟!... فإنني لو اضطررت إلى مجابهة المنايا ...

فقاطعته بقولها :

— وإذا أصابك بجرح ... إذا جُرحت لأجلي ؟!...

وكان في نظراتها الصافية الضاحكة من الفضول اللطيف لمعرفة جوابه أكثر مما فيها من القلق الحقيقيّ . أما هو فكان يرتعش ارتعاشاً خفيفاً وقد شحب وجهه واحتدمت في فؤاده رغبات قاهرة غامضة . لقد اجتاحه الحبّ ، فغمغم قائلاً وهو لا يكاد يدرك ما يقوله ، وهو يعجب من جرأته :

— إذا جُرحت لأجلك ؟... ولكن أيّ شأن سيكون لذلك الجرح ما دامت رغبتي تحدو بي إلى الموت في سبيلك ؟.. وكلّ ما يشوقني أن أعرفه... أو أن أرجوه... هو أنك سوف تبكينني !...

فابتسمت في لطف وقالت متأثّرة :

— أصمت ، أصمت أرجوك ...

— وكيف تريدينني أن أصمت عندما تتصاعد إلى شفتيّ أنغام سماوية ، عندما أشعر بأن كلّ ما فيّ ينشد ويغنّي ، عندما يضطرم

رأسي بنار محرقة مقدّسة ؟... أواه !... عفواً ، عفواً عن مجنون مسكين مثلي... عفوك أنت التي لا أعرفك والتي يُخيّل لي أنني أعرفك منذ الأزل !...

فقالت بسرعة :

ــ أصمت أرجوك ... ها هم قد أقبلوا ... إسمع أيها الفارس، أنا أقيم مع أمّي في باريس ، في شارع الأولاد الصالحين قبالة قصر أرجانسون ... والآن إذهب ... رحماك ... إذهب !

ومدّت له يدها وقد حجبها قفاز أبيض ، فتناول الفارس تلك اليد وطبع شفتيه على رؤوس أناملها وقد تركت تلك القبلة في نفسه أثراً دونه أثر الخمر . وعندما رفع رأسه كانت جان تركض نحو المرأتين ، فقفز إلى صهوة جواده وقد أحسّ بما أحدثته تلك المقابلة في كيانه من الانقلاب وأخذ يسائل نفسه عما سينجم عنها من سعادة أو شقاء . وفجأة أطلق لجواده العنان في غارة جنونية سريعة وفي نفسه رغبة قاهرة للصياح والبكاء والضحك والغناء ...

أما جان ، وربما شاءت بذلك أن تخفي اضطرابها أو ربما لم يؤثّر الحادث فيها ، فقد ابتسمت كأن شيئاً لم يكن وأقبلت على الفتيات الصغيرات تمسك بأيديهن . ودارت حلقة الرقص مرّة أخرى وتعالت الأصوات المطربة على ضفاف البحيرة وأخذت جان تنشد بصوتها الصافي ، ولكن بنبرات أكثر حماسة ، قولها :

« أنترك الغار يذوي في الغابة ؟ »

« كلاّ ، بل كلّ بدوره سيذهب لجمعه ... »

واقترب صوت البوق من البحيرة المتماوجة تحت ملامس النسيم،

تلك الملامس التي كانت تتلاعب أيضاً بالقصب فتلوي أعناقه برفق وهدوء .

وبلغ المسامع وقع حوافر الجياد في الغابة وتراكضت الغزلان والأيائل مرتعبة مذعورة . وكانت جان تنشد قولها :

« إذا نام الصرصور فلا تزعجنه »

« فإن شدو البلبل سوف يوقظه ... »

« أقفزن ، أرقصن ، عانقن ... »

« عانقن الذي تحبينه ... »

وإذا بها تقف فجأة وقد ضاقت أنفاسها في صدرها واغرورقت عيناها بالدموع وغمغمت قائلة في نفسها :

« عانقن الذي تحبينه !... واأسفاه! أين هو الذي أحبه أنا ؟... أين أمير أحلامي الساحر الذي ملك عليّ نفسي ؟... »

وصاحت المرأة ذات الجثّة الضخمة واللون الأحمر قائلة :

ــ الطريدة ، الطريدة !... أنظري الأيّل في الماء ، أنظري يا ابنتي !

والتفتت إلى المرأة الهزيلة الشقراء التي ترافقها وقالت لها في سرعة وصوت خافت :

ــ لنتراجع قليلاً أيتها السيدة دي هوسيه ، فلا فائدة من وجودنا هنا في ما سوف يجري !

ــ وماذا سوف يجري أيتها السيدة بواسون ؟

فألقت السيدة بواسون نظرة مضطربة على رفيقتها وغمغمت تقول :

www.mlazna.com
KRAYAHEENA

— لا شيء ، لا شيء ... يجب أن لا نظهر ... صبراً ، ها هي طريدة الملك !

وسدّدت جان أنظارها إلى البحيرة .

وامتلأت فسحة الغاب بأصوات الأبواق وصهيل الجياد وصياح الخدم ، ونباح الكلاب التي ترامت في البحيرة تطارد الأيّل .

وكانت الطريدة تشقّ الماء وهي رافعة رأسها بنبل . وطوّق الصيّادون البحيرة ، وكانوا كلّهم رجالاً وسيدات ، من صفوة النبلاء وقد ارتدوا ثياب الصيد الفخمة المطرّزة بالذهب والفضّة .

وامتقع لون جان فحدّقت إلى ذلك المشهد بعينين زادهما القلق اتّساعاً ، لقد خافت على الطريدة المسكينة .

وأقبلت الطريدة نحوها وهي تسبح في عظمة متناهية ، وبلغت القصب فوثبت من الماء وخطت بضع خطوات ووقفت على مقربة من جان وقد أعياها عدو طويل شاقّ جاوز الساعات الأربع ، واستسلمت واقرّت بالهزيمة ونظرت إلى الكلاب الأربعة والعشرين الجاثمة أمامها بهدوء ، بعد أن أيقنت من الفوز ، المسدّدة إليها نظرات التهديد .

وكانت ساعة حرجة ، وغشي عيني الأيّل حزن عميق وانحدرت منها ببطء دمعتان كبيرتان ، فغمغمت جان وقد أشفقت على الطريدة ، غمغمت تقول في لوعة وأسىً :

— يا للحيوان المسكين !

— وسكت الصيّادون وصمتت الأبواق والكلاب وتردّدت الأنفاس لاهثة متقطّعة ... إنها اللحظة الرهيبة التي تسبق عادة موت

الأيّل ، وارتفع صوت يقول في لهجة آمرة :

— دامبير ، أنفخ في بوقك !... دي باري ، إذبح الطريدة !

فمدّت جان يديها في توسّل وضراعة نحو ذلك الذي تكلم ... وقد لاح لها منه أنه سيد خطير ... فلا ريب في أنه سيد الصيد . وقد عزّ عليها أن ترى الطريدة تُذبح أمامها ، فإنها لا تستطيع رؤية ذلك المشهد الفظيع ، فقالت بتأثّر بالغ :

— كلا يا سيدي ، لا تقتلها !... أرجوك يا سيدي !...

وفيما هي ترفع أنظارها إلى ذلك السيد ، إذا بها تتراجع فجأة وقد شحب وجهها شحوباً شديداً ، فألقت بيدها على قلبها وتخاذلت قواها وهمست تقول :

— الملك !... الملك !...

وفي طرفة عين ترجّل لويس الخامس عشر عن جواده فأمسك الفتاة بكلتا يديه وهو يصيح قائلاً :

— قسماً بالسماء ، لقد أغمي على هذه الصبيّة الفتّانة !

وكانت جان لا تزال تملك بعض الصواب ففتحت عينيها ، وعندما رأت نفسها بين ذراعي لويس الخامس عشر ارتعشت ارتعاشاً عنيفاً وغابت عن الصواب وهي تهمس في أعماق نفسها :

« أرقصن ، أقفزن ، عانقن الذي تحبينه ... فها هو الذي أحبّه أنا ... لقد أقبل ... فإن أمير أحلامي الساحر الذي ملك عليّ نفسي هو الملك ... ملكي !... »

وألقى الملك نظرة على ذلك الحسن الجلاّب المرتمي بين ذراعيه فاستولى عليه الذهول والتمعت عيناه بالإعجاب الصادق ، فإن لويس

الخامس عشر كان من عبّاد الجمال ومقدّريه حقّ قدره، ومن ملوك الأناقة المتناهين في الذوق .

وسطع في عينيه بريق غريب ...

وإذا الصبيّة التي بين ذراعيه تستفيق وكأنها تخرج من حلم ، وأفلتت من الملك وهي شديدة الخجل والاضطراب وغمغمت تقول:

— الملك !... الملك !..

فقال لويس الخامس عشر بسرعة :

— إن أمامك النبيل الأوّل في الدولة ، وهو لا يستطيع أن يرفض رجاء تتلفّظ به شفتاك الجميلتان !

فاحمرّ وجه جان احمراراً شديداً وطافت بأنظارها على الفرسان الملتفّين حولها وحول الملك وحول الكلاب والأيّل ، فرأت في عيون الرجال سخرية مهينة وفي عيون النساء حسداً وغضباً .

فإن بلاط فرنسا بأجمعه كان هناك، وقد رشقها الجميع بالنظرات الحادّة القاسية .

ورأت أن تصدم ثورة الحسد في النفوس صدمة قويّة نبيلة فرفعت رأسها بعظمة وشجاعة كأنها تشهر الحرب على كلّ أولئك النبلاء المحتشدين حولها وألقت بيدها على الطريدة الجامدة في مكانها تحت نظرات التهديد التي تصوّبها إليها الكلاب ، وانحنت أمام الملك في وقار متناهٍ وقالت برصانة كلّية :

— لست يا صاحب الجلالة سوى فتاة حقيرة وأنت ملك عظيم، وأنا أرى الأسياد يرغبون في ذبح الطريدة بينما تنتظر النساء النبيلات التهامها ، على أنني أرجو مولاي صاحب الجلالة أن يعفو عنها !

فسرت همهمة في فسحة الغاب بين الصيّادين ، وارتفع صوت خشن يقول :

— هذا مما لا يتّفق وعادات الصيد والقنص الملكية !...

وقال الملك في نفسه :

« إن هذه الفتاة تدهشني، فهي تمثل أمامي كأنها دوقة وتتكلّم كأنها شاعر عظيم !... »

والتفت إلى ذلك الذي تكلّم معبّراً عن غضب الحاشية وقال له ببرودة :

— أيها الكونت دي باري ، دقّ نفير الانسحاب !

فاعترض الكونت بقوله :

— مولاي !...

فصعقه الملك بنظرة من تلك النظرات المتناهية في قحتها التي كانت تقوم لديه ، في بعض الظروف ، مقام العظمة . فعلا وجه دي باري شحوب شديد ونظر إلى جان فلمع بارق الغضب في عينيه ، إلا أنه امتثل لأمر الملك ونفخ في البوق يدعو الصيّادين إلى الانسحاب .

وصاح الملك قائلاً :

— لابرانش ، عد بالكلاب !

فهمست جان تقول وقد أشرق وجهها لفوزها التامّ :

— شكراً يا مولاي ، شكراً جزيلاً !...

وأطاع المولّج بأمر الكلاب أمر لويس الخامس عشر فأسرع نحو كلابه وأخذ يدفعها إلى الوراء ، فنبحت الكلاب مدهوشة إلا

أنها تراجعت مع ذلك بما يدلّ على حسن ترويضها .

وعندئذ قال الملك لجان :

— أرأيت يا سيدتي كيف شئتُ أن تحتفظي من مقابلتنا الأولى بتذكار جميل ؟

وابتسم وهو يردف قائلاً :

— أما أنا فسيبقى هذا التذكار في نفسي يغمرها كالسحر .

فارتعشت جان وتأثّرت تأثّراً شديداً وضمّت يديها وهي تقول :

— لن أنسى أبداً هذه الدقيقة من حياتي يا مولاي ، فإن ذكراها ستظلّ راسخة في نفسي ما دمت حيّة !

فارتعش لويس الخامس عشر ... وتردّد هنيهة ، ولما رأى الأنظار كلّها مصوّبة نحوه أشار بيده إشارة وداع ووثب إلى صهوة جواده . فسار به الجواد خبباً ووراءه الصيّادون والسيدات والكلاب . وبعد قليل توارت كلّ تلك الجموع بين الأشجار التي كستها الشمس حلّة ذهبية ، وما لبث أثرها أن تلاشى كأنه الحلم .

وظلّت جان في مكانها وقد وضعت يدها فوق قلبها وتاهت نظراتها وراء ذلك الفارس الأنيق الذي ابتعد عنها ووراءه حاشيته من النبيلات والنبلاء ، ولما توارى عنها تماماً انتفض صدرها وتصاعدت منه زفرة طويلة ، والتفتت إلى الأيّل ، إلى الطريدة التي شلّ التعب حركاتها ، ومن قلب طافح بالحنان والتأثّر حتى ليكاد يفيض ، طوّقت رأس الحيوان بذراعيها ، وفجأة قبّلت مرشفيه الناعمين اللطيفين ، ولبث الأيّل هنيهة في جموده ، وعندما لاحت له فسحة الغاب خالية

تماماً تنفّس بقوّة وضرب الأرض بحافره وانطلق متوغّلاً في أحشاء الغابة وما لبث أن غاب عن العيان .

وتضاءلت أصوات الأبواق وكان صداها البعيد يشير إلى أن حفلة الصيد قد انتهت . وإلى ذلك الصدى البعيد ، إلى ذلك الجمع المتواري عن الأنظار ، أرسلت جان قبلة على أطراف أناملها . وفيما هي ترسل تلك القبلة إلى أمير أحلامها الذي توارى ، كان الرجل الذي يكسو ثيابه الغبار يوجّه إلى تلك الجموع نفسها إشارة تهديد رهيبة ، فإن فرنسوا داميان ، الرجل الممزّق الثياب ، شاهد من وراء أشجار الغابة كلّ ما جرى وقد تمثّلت فصول الرواية كلّها أمام عينيه . ولم يلبث أن غادر مخبأه وابتعد بخطوات واسعة في اتجاه قصر فرساي .

واندفعت المرأة الضخمة الجثّة الحمراء البشرة نحو جان تناديها قائلة :

— جان ، جان ، لقد خاطبك .. فماذا قال لك ؟... وأنت بماذا أجبته ؟ آه ، لقد أصبحت غير آسفة الآن على المال الذي أنفقته في سبيل تثقيفك . ماذا قال لك ؟... تكلّمي يا ابنتي !

فقالت جان في لهجة تحبّب لطيفة :

— أصمتي يا « بوازون[1] »... أصمتي يا « بوازون » العزيزة !...

وشعرت بفرح عظيم تجلّى في حركاتها وإشاراتها وكلماتها ، فرح غامض يثير الضحك كما يثير الدموع ، وركضت في رشاقة تجرّ

١ — إن السيدة تدعى بواسون إلا أن جان نادتها « بوازون » تحبباً .

www.mlazna.com ARAYAHEENA

وراءها الفتيات الصغيرات اللواتي ما برحن عاقدات حلقة الرقص ، وأنشدتهن بملء صوتها وقلبها يخفق خفقاناً شديداً :

« أيها الصرصور ، يا صرصوري اللطيف ، هيّا ولنغنّ ... »

« فقد نبتت شجيرات الغار ... »

« لقد نبتت ... »

وقالت المرأة الشقراء النحيلة للمرأة الضخمة الجثّة :

— سمعتها تناديك « بوازون » أيتها السيدة بواسون ، فلماذا تطلق عليك هذا اللقب ؟

— إنها نزوة من نزواتها المحبّبة ... ولكن ذلك لا يهمّني أيتها السيدة دي هوسيه فإن هذا النهار يساوي عندي مليوناً !

— وأين السيد دي تورنهام ؟... إنه لم يصل !...

فأجابت السيدة بواسون قائلة وقد أشرق وجهها :

— لقد ضرب لي موعداً في هذا المكان ، على أنه سواء أتى أو لم يأت فلا أهمية للأمر عندي ! آه ، كم أنا سعيدة !

وكانت جان تتابع غناءها قائلة :

« وحملت جان الراعية سلتّها البيضاء »

« وراحت تقطف الفريز والورد البرّي ... »

« هيّا ، يجب أن نغنّي »

« وأنت أيتها الحسناء ، شاركينا الرقص »

« وانظري كيف يرقصون ... »

وبرحت الحلقة فسحة الغاب وسارت تحت الاشجار ... وإذا صمت ثقيل الوطأة وقشعريرة من الألم يذهبان عنها بهجتها . فقد

لاح لها هناك ، تحت الشجيرات الشائكة والعلّيق ، تحت أكداس الأوراق المتساقطة في تلك الزاوية النائية من الغاب المكسوّة بالطحلب ، بلاطة كبيرة من الرخام لا تكاد تعلو عن سطح الأرض ! ... قبر ! ... أجل ، إنه قبر ! ... وقد وقف قرب ذلك القبر رجل كان يسند جبينه بيده ويبكي ويشهق مما يدلّ على أنه يعاني ألماً شديداً . وعلى تلك البلاطة الرخامية ، على ذلك الضريح ، على ذلك الرجل الباكي ، على ذلك الألم المضني ، تحطّمت الحلقة المغتبطة السعيدة ، تحطّمت بهجة جان وأغنيتها المرحة ، ووقف الفتيات بأجمعهن وقد جمد الدم فجأة في عروقهن وتكسّرت منهن الأجنحة .

الضريح المجهول

*

وقفت جان شاحبة اللون مرتجفة الأوصال وقد خُيّل لها أن في ما تراه رمزاً لمصيرها ... فرح ، حبّ أناشيد خفيفة ، نشوة ، أحلام برّاقة ، وكلّ ذلك سينتهي إلى القبر ... هكذا ستكون حياتها .

ورفعت أنظارها بجياء إلى ذلك الرجل الباكي وإذا بها تصيح قائلة :

— عمّاه !... يا عمّي الطيّب !...

— جان ... أنطوانيت !... يا طفلتي العزيزة !...

وفي اللحظة التالية كانت جان بين ذراعي ذلك الرجل الذي دعته عمّها، فلاطفها وقد بدا منه أنه يعطف عليها عطفاً أبويّاً، وكان الرجل في الأربعين من العمر يرتدي ، في أناقة ونبل ، ثوباً جميلاً بنّي اللون ويحمل بيده عصاً طويلة ذهبية القبضة . وكانت ملامحه الدالّة على الصراحة والإخلاص تكتسي في تلك اللحظة حزناً عميقاً مذيباً .

فقالت جان وقد اطمأنّت وابتسمت :

— إننا ننتظرك منذ ساعتين في فسحة الغاب ، فالأمّ بواسون هناك والسيدة دي هوسيه أيضاً ...

— لقد كنت في طريقي إليكن ، فقد أبقيت مركبتي في الإرميتاج وأقبلت سيراً على الأقدام يقودني صوتك الجميل . إلا أنني صادفت هذه البلاطة في طريقي فوقفت امامها كما ترين ...

— أتبكي يا عمّي الطيّب ؟... ولماذا ؟... قل ذلك لصغيرتك جان ... وأطلعها على أشجانك !

— سأطلعك عليها يا صغيرتي ... وإنني ما دعوتك إلى فسحة الغاب إلا لذلك !

وفي تلك اللحظة كانت السيدة بواسون تزيح الأغصان بيدها الثقيلة وتطلّ بوجهها الأحمر ، وما أن أبصرت الرجل حتى صاحت تقول وهي تبالغ في إظهار القلق والاحترام :

— السيد دي تورنهام ! ... كم أنا سعيدة بمرآك ، فإن هذه الفتاة قد قطعت من لقائك الأمل !

فقال دي تورنهام عندئذٍ :

— أيتها السيدة بواسون ، هل لك أن تنتظريني في الإرميتاج حيث تجدين مركبتي ؟

— ولكن ...

فقاطعها قائلاً بحزم واقتضاب :

— لترافقك أيضاً السيدة دي هوسيه والفتيات الصغيرات !

فانحنت أمامه وألقت نظرة خبيثة على جان وانصرفت تقود الفتيات اللواتي عانقن صديقتهن الكبرى ومنظّمة ألعابهن .

وعندما أيقن دي تورنهام من أن السيدة بواسون قد انصرفت أمسك بيد جان وجلس وإياها على جذع شجرة من الشوح اقتلعتها العاصفة .

وتأمّل الفتاة لحظة بحنان عميق وقال لها :

— ترى ، أما زلت تكنّين لي شيئاً من العطف رغم غيابي الطويل يا ابنتي ؟

فألقت برأسها على كتف ذلك الذي تدعوه عمها وأغمضت عينيها قليلاً وتاهت أفكارها في ذكريات طفولتها وقالت :

— كان لي من العمر خمس سنوات عندما رحلت عنا إلى الهند يا عمّاه ، وأنا أذكر تماماً أنك، ليلة سفرك ، أجلستني على ركبتيك وألقيت أنا رأسي على صدرك ولبثنا على تلك الحال فترة طويلة أحسستُ خلالها كأن قطرات فاترة من الندى تتساقط على شعري، وعندما نظرت إليك بدا لي أن تلك القطرات لم تكن سوى دموعك ... ندى عطفك ومحبّتك ، ولا أستطيع أن أعبّر لك

عن الأثر الذي تركته تلك الدموع في نفسي، فإنه كان عميقاً جداً... إذ أنني لا أزال حتى اليوم، كلما شعرت بالأشجان تنتاب قلبي، أفزع إلى تلك الذكرى الغالية فأدفع بها الآلام عن نفسي!...

– أنطوانيت!... عزيزتي أنطوانيت الصغيرة!...

وأردفت جان أنطوانيت قائلة:

– وعدت بعد سنتين يا عمّاه، والغبطة التي ملأت نفسي لدى عودتك أظهرت لي كم أنت حبيب إلى قلبي... إلا أنك لم تلبث أن فررت أيضاً إلى البلاد القصيّة وكنت تذهب ثم تعود فلا تقيم بيننا في كلّ مرة أكثر من ثلاثة أشهر. ومرّت السنون... وكنت أشعر بأنني وحيدة في هذا العالم وأنت بعيد عني... ولطالما ساءلت نفسي أيّ قلق وأيّ حزن هائل كانا يدفعان بك إلى الرحيل عن باريس. فإنني أشعر بكثير من الاطمئنان ما دمت إلى قربي كأنني إلى جانب أبي!

فارتعش السيد دي تورنهام ارتعاشاً شديداً، فسألته قائلة:

– ماذا أصابك يا عمّاه؟

فقال في تأثّر بالغ:

– لا شيء يا ابنتي... لا شيء... تابعي حديثك.

فاستأنفت تقول:

– ولم يخفَ عليّ أنك تحبّني وتعطف عليّ سواء كنت قريباً أو بعيداً. فقد كنت تهتمّ بتثقيفي وأنت في غربتك... وكانت الأمّ بواسون تستلم منك رسائل طويلة تشرح لها فيها كيفية الاهتمام بأمري، حتى أنك كنت تعيّن لها بنفسك أستاذ الرقص

الذي يجب أن تعهد بي إليه... وهذه الدقّة في الاعتناء بشؤوني زادتني ثقة بعطفك وزادت من حبّي لك... ألست مدينة لك بكلّ شيء؟... لقد نشأت بعنايتك وسهرك عليّ نشأة الأميرات فتعلّمت الموسيقى والرسم، حتى والحفر، ودرست نظم الشعر. وليس من سيدة نبيلة تستطيع أن تفخر بأنه كان لها من الأساتذة بقدار ما كان لي منهم... كانت نزواتي ورغائبي كلها بمثابة الأوامر فملكت الجواهر النادرة والثياب الرائعة... لقد شئت يا عمّاه أن تجعل مني فتاة سعيدة، فكيف تريد بعد ذلك أن لا أعبدك؟

وطوّقت عنقه بذراعيها فغمغم قائلاً:

– إبنتي العزيزة، أتكونين سعيدة حقاً؟

– أجل، أجل، وإن مردّ القسم الأوفر من سعادتي إلى أنك ستبقى بيننا دائماً من الآن فصاعداً.

– أجل، فإنني لن أنفصل عنك بعد الآن، فالألم الجسيم الذي كان يرغمني على براح فرنسا قد تضاءل مع الأيّام. وعلى افتراض أنه اليوم أشدّ منه بالأمس فإنني لن أبتعد عنك مع ذلك. فالواجب يكرهني على البقاء إلى قربك يا عزيزتي بعد أن أصبحت في التاسعة عشرة من العمر وإن تكن مظاهرك تدلّ على أنك لا تكادين تبلغين السادسة عشرة... ومن جهة أخرى، فإن ساعة الإقرار قد دقّت...

– الإقرار؟!...

– أو بمعنى أصحّ، هناك قصّة من الضروري أن تطّلعي عليها.

– ها أنا مصغية إليك يا عمّي الطيّب...

www.mlazma.com

فمرّ دي تورنهام بيده على جبينه كأنه يجمع شتات أفكاره ، وتاه هنيهة في مجاهل الماضي السحيق ، ولم يلبث أن بدأ قصته فقال بلهجة حزينة :

— منذ عشرين سنة عرفت شاباً كثير الطيش والتهوّر يدعى أرمان . وكان من المخلصين لنائب الملك فأباح لنفسه كل المعاصي والملذّات والليالي الساهرة وحفلات الرقص التنكرية وخطف البنات والمبارزات . وقد ذهب انغماسه في تلك الأمور المخجلة بالشطر الأكبر من ثروته الطائلة ، وكان نصيبه من وراء ذلك التبذير ابتسامة بسيطة كافأه بها نائب الملك . غير أن ذلك كلّه لم يكن إلا من غرور الشباب ... وقد قاده ذلك الغرور أخيراً إلى الجريمة ! ...

فشحب وجه جان شحوباً شديداً وغمغمت قائلة :

— الجريمة ؟ !

— أجل ، فليس من كلمة سوى هذه للدلالة على فظاعة العمل الذي قام به أرمان . فاسمعي يا ابنتي ، فإنك قد بلغت من العمر ما يجيز لك معرفة كلّ شيء ولك من رجاحة عقلك ما يرفعك عن الحياء الكاذب . فإن أرمان لم يكن حتى ذلك الحين قد اتّصل بالنساء سوى اتّصالات عابرة وإذا به في أحد الأيام يتّخذ خليلة تحمل اسم جان... أجل... جان... مثلك ! ... وكانت فقيرة، كانت من أسرة نبيلة حلّ بها الهوان على أثر مضاربات «لو» الشهير. وأبصر أرمان تلك الفتاة الطاهرة السليمة القلب الجميلة كعذراء رافائيل فأحبّها وباح لها بحبّه فأجابت بأنها لن تكون لسوى الرجل

الذي يتوّج حبّه بالزواج ويدعوها إلى أن تحمل اسمه بشرف واعتزاز. فتراءى لأرمان أن رفاقه سيضحكون منه إن هو أقدم على ذلك الزواج ، بيد أنه مع ذلك وعد الفتاة بأن يقترن بها ... إلى أن جاء يوم ... وكان يوم عار وويل ...

وتوقّف السيد دي تورنهام هنيهة عن الكلام فمسح العرق البارد المتصبّب من جبينه ، فتابع حديثه بصوت متهدّج كأنه يختنق شهقة في صدره ، فقال :

— وفي مساء ذلك اليوم كان أرمان يتأهّب لبراح منزله إلى حفلة جديدة، وإذا بابه يُطرق ففتح بنفسه. وكانت جان أمامه... جان... وقد برّح بها اليأس وتناثرت من عينيها العبرات ، فضمّت يديها في توسّل وضراعة وصاحت قائلة : « أرمان ، إن أبي ، أبي الشيخ، سيلقى القبض عليه لأجل دين مستحقّ الإداء يبلغ العشرين ألف ليرة ، وإذا قبض عليه مات همّاً . فباسم الحبّ الذي صارحتني به ... أنقذه !... » فما كان من أرمان إلا أن أسرع إلى منضدته فوقّع حوالة بعشرين ألف ليرة على خزينة الدولة . غير أن نار الفسق اندلعت في رأسه فجأة فأقدم على هذه الفظاعة التي ستنغّص عليه حياته : مشى إلى جان المضطربة المتوسّلة بيده ونجرّ على أن يقول لها : « كوني لي فأنقذ أباك ! ... » فتراجعت مذعورة وهي تصيح مستنكرة ملتاعة فطوّقها أرمان بذراعيه وقال : « إذا استسلمت لي فإنني أقسم لك بشرفي أنك ستكونين امرأتي قبل انقضاء شهر من الزمن!...» فما رأيك في ذلك الرجل يا ابنتي ؟...

وكانت جان تهتزّ كأنها الورقة في مهبّ الريح وقد اتّسعت

حدقتاها رعباً وذهولاً، فسدّدت إلى دي تورنهام نظرات عميقة ملأى بأسئلة موجعة خرساء.

ولما رآها السيد دي تورنهام معتصمة بالصمت أطرق برأسه وقال:

– ألا تجيبين؟... إذن، فأنت تحكمين على أرمان بما حكمت أنا به عليه... ولقد قامت جان بالتضحية المطلوبة وجادت بعفافها كي تنقذ أباها. ولكنها تضحية ذهبت سدًى فانزوت مع أبيها في قرية حقيرة قرب حدائق فرساي. وكان أرمان يقصدها ثلاث مرّات في الأسبوع ويجتمع بها في فسحة من الغاب تتوسّطها بحيرة...

فقاطعت الفتاة السيد دي تورنهام قائلة بصوت حزين رصين:

– أتكون تلك القرية الحقيرة هي قرية الارميتاج يا عمّاه؟... أتكون فسحة الغاب تلك هي نفسها التي كنت أغنّي فيها منذ قليل؟... تكلّم، تكلّم!...

– أجل، يا ابنتي، أجل... فهنا، على قيد خطوتين منا، كان يلتقي أرمان وجان... وذات يوم، بعد ثلاثة أشهر من حادث التضحية المفجع، صارحت جان خليلها بأن جنيناً يتمايل في أحشائها! وزادت فقالت بحزن لا يوصف: «إذا لم تتزوّجني كما أقسمت لي، فإن أبي سيموت عندما يتّصل به أمري... ولا أعتقد أنني سأعيش بعده!...» ومنذ ذلك التصريح باعد أرمان بين زياراته لجان ولم يلبث أن انقطع عنها تماماً...

وتوقّف السيد دي تورنهام عن الكلام وقد بلغ به التأثّر

مدًى بعيداً، فألقت الفتاة بأنظارها على بلاطة القبر تتأمّلها في كآبة صامتة ولم تلبث أن قالت:

– عمّاه!.. لماذا تخلو هذه البلاطة من اسم ساكن الضريح؟..

فرفع السيد دي تورنهام عينيه نحو السماء ثم أطرق برأسه في بطء كأن السماء لم توحِ إليه بجواب يردّ به على ذلك السؤال الرهيب. ومضى في حديثه فقال بصوت خافت شديد الارتعاش:

– وانقضت بضعة أشهر انغمس أرمان خلالها في ملذّاته كي يخنق صوت ضميره وحبّه – أجل حبّه، إذ أنه أدرك أن جان هي الفتاة الوحيدة التي أحبّها في حياته. وفي صباح يوم من أيّام الربيع، بعد ليلة من ليالي السكر والعربدة ضحك فيها أصدقاؤه منه طويلاً إذ رأوه يبكي، امتطى جواده وأسرع إلى قرية الإرميتاج ودخل كوخ جان الحقير الذي تقطنه مع والدها، فرآها منطرحة فاقدة الصواب على سرير يشير إلى ما هي عليه من الفقر وقد انحنى عليها رجل يرتدي الثياب السوداء، وكان عند أقدام السرير، في أرجوحة، طفل يبكي. فقبض أرمان على ذراع الرجل الأسود وقال له: أين أبوها؟... فأجاب قائلاً: لقد دُفن منذ شهر تماماً!... فقال له: وأنت، من أنت؟.. فقال: أنا الطبيب!.. فقال أرمان: وهذا الطفل؟.. فقال الطبيب: وُلد منذ شهر تماماً. فأشار أرمان إلى جان وقال: وهي؟.. هي؟.. فأجاب الطبيب قائلاً: ستموت خلال ساعة!

ومزّق الشهيق حنجرة السيد دي تورنهام، وكأنما خشي أن لا يستطيع المضيّ في كلامه فأسرع يتابع ذلك الكلام قائلاً:

www.mlazna.com

– وانصرف الطبيب. فجثا أرمان أمام خليلته المحتضرة وتناول يدها وبكى وصاح وتوسّل وطلب الصفح والغفران. فاستعادت جان أخيراً صوابها، وعندما أبصرت أرمان أنارت ابتسامة مشرقة عينيها الكئيبتين وأرادت الكلام فتلاشى صوتها على شفتيها الذاويتين، فاستجمعت آخر ما بقي لها من القوى ونهضت فأشارت بحركة مؤثرة إلى الطفل الراقد في أرجوحته وابتسمت بحنوّ ... ثم سقطت جثّة هامدة ...

فغمغمت الفتاة قائلة وهي تهتزّ تأثّراً :

– عمّاه ! .. عمّاه !.. من الذي يرقد تحت هذه البلاطة ؟.. أريد أن أعلم من الذي يرقد تحتها !..

فمضى السيد تورنهام في حديثه دون أن يجيب عن سؤال الفتاة، فقال :

– إسمعي، إسمعي أيضاً يا ابنتي ! .. فإن أرمان كان قد أقسم يميناً مغلظة على جثمان الميتة المنكودة، وهو يعتقد أنه لم يحنث قطّ بيمينه. فقد ذهب بعد يومين بالطفل البريء التعس، الذي كان يرفع إليه ذراعيه الصغيرتين كأنما يستغيث به، ثم عاد ودفن جان في فسحة صغيرة اشتراها في الغاب. وعلى الضريح الذي تعلوه بلاطة الرخام جدّد أرمان يمينه، وستقفين الآن على نصّ تلك اليمين، وعهد بالطفل إلى أسرة صالحة زوّدها بالتعليمات اللازمة بشأنه. فقد شاء فيما بعد أن لا تكون ابنته إبنة سفاح ...

فقالت جان بصوت خفيف :

– إبنته ؟!.. ربّاه !..

فقال دي تورنهام :

– أجل، إبنته ... وقد سجّل إسمها في سجلّ رعيّة سان جاك دي لابوشيري كابنة شرعيّة لـ ... ولكن أيّة فائدة من معرفة الإسم ... أما أرمان فإنه أصبح لا يطيق الإقامة في باريس حتى ولا في فرنسا كلّها، ففي كلّ خطوة من خطواته كان يصطدم بتبكيت الضمير، فقام برحلات طويلة ... وكان كلما عاد إلى أرض فرنسا يقبل على ضريح جان فيبكي ويجدّد يمينه ... أما تلك اليمين، فاسمعيها الآن !...

ونهض السيد دي تورنهام فخطا خطوة نحو القبر وبسط يده فوق بلاطة الرخام التي تعلوه وقرأ :

« للمرة السادسة، أجدّد أنا أرمان لو نورمان دي تورنهام، العهد الذي قطعته لكِ على نفسي وأنت على سرير الموت، أنت التي أحببتها ... وقتلتها ... أرقدي بسلام. وأقسم لكِ أن ابنتنا ستكون طيلة حياتها بعيدة عن الفقر والتعاسة، أقسم لكِ أنني لن أدع قطرة واحدة من الدمع تسيل من عينيها، أقسم لكِ أنني سأضع حياتي وثروتي وذكائي وإرادتي تحت قدميها كي أمهّد لها طريق السعادة ... وأخيراً أقسم لكِ أنها ستحظى بكلّ تلك السعادة التي حُرمتِ أنت لذّاتها ... فارقدي بسلام !...»

فانطلقت صرخة مؤثرة بعد تلك الكلمات تقول :

– أمّاه !... أمّاه !... أمّاه !...

وكانت جان هي التي أطلقت تلك الصرخة، ثم سقطت على ركبتيها وأخذت تمرّغ جبينها على بلاطة الرخام وتردّد في عذوبة

متناهية ، والشهيق يهزّها ، قولها :

ــ أمّاه !... أمّاه !...

ومضى السيد دي تورنهام في كلامه فقال :

ــ والآن ، والآن أيتها الفقيدة المعبودة !... أسألك أمام ابنتنا التي تصغي إليّ : هل غفرتِ لي ذنوبي ؟... هل كفّرت أنا عن آثامي في ما عانيته من النفي الطويل ؟... هل صفحتِ عن جريمتي على أثر ما نالني من قصاص وعذاب ؟... تكلّمي يا جان... أملي على ابنتك كلمات السلام والصفح والغفران التي ما برحتُ ، منذ عشرين سنة ، أرجو سماعها !...

ــ أمّاه !. . أمّاه !... أمّاه !...

ولبثت الفتاة وقتاً طويلاً جاثية على ركبتيها وشفتيها ملتصقتان بالرخام البارد وهي تردّد قولها : « أمّي !... أمّي !... » تلك الكلمة السامية التي تجمع كلّ ما في الكون من الغبطة والألم . وكانت تردّدها في نشوة كئيبة كأنها أرادت أن تعوّض ، دفعة واحدة ، تلك الأمّ المجهولة عن كلّ ما حُرمت منه من الحنوّ في حياتها التعسة .

وعندما نهضت جان أخيراً وطبعت شفتيها على أطراف أصابع يديها وأرسلت قبلة أخيرة للراحلة العزيزة ، كان السيد دي تورنهام مطرقاً برأسه شاحباً شحوب الموتى فلم يرفع أنظاره إلى ابنته بل قال بصوت خافت متقطّع :

ــ إنني أنتظر حكمك يا ابنتي ، فإن ما ستقولينه هو بمثابة قول الغائبة العزيزة لديّ !...

فسارت إليه مفتوحة الذراعين وقد تخاذلت ركبتاها ووهنت قواها وقالت بصوت مختنق :

ــ أبي !... أبي !... أتريد إذن أن أبكي أبي وأمّي ؟... أنا لست سوى ابنتك الصغيرة يا والدي العزيز .

فصاح أرمان دي تورنهام قائلاً :

ــ يا لقدرة السماء ، لقد غفرت لي !... جان !... جان !... لقد غفرت ابنتنا لي !...

واهتزّت حنجرته ومزّقها الزفير ، وترامت ابنته بين ذراعيه فطوّقها بقوّة ورفعها بين يديه كأنها الريشة وسار بها وهو يركض في الغابة كما ركض في الماضي عندما انتزعها من سريرها وهي طفلة صغيرة تمدّ له ذراعيها الصغيرتين .

وعندما مرّ بها في فسحة الغاب وهو يركض بتلك السرعة الهائلة أغمضت جان عينيها ، فقد تذكّرت الملك وحاشيته . وخيّل لها أنها تقترف جريمة في التفكير بالملك في تلك اللحظة فحاولت أن تطرد رسمه من مخيّلتها ، إلا أن ذلك الرسم كان ، على ما يبدو ، أقوى من حبّها لأمّها الفقيدة ومن برّها بأبيها ، فإنه قد ملك قلبها ودخله دخول الفاتح الظافر ... وأيّ رسم هو ؟... رسم فارس أنيق يحيط به كبار النبلاء في إجلال واحترام ... رسم الملك لويس الخامس عشر .

ومن أعماق نفسها... بابتسامة حافلة بالألغاز حامت على شفتيها الشاحبتين ... بعذوبة الحب ... بسلطان قوّة عظيمة تغلغلت في نفسها فملكت عليها نفسها ... غمغمت ابنة الراقدة في الضريح

www.mlazna.com
RAYAHEEN

المجهول قائلة :

— الملك !... الملك المحبوب !... حبيبي !...

التضحية

*

كان ذلك في اليوم التالي للمشهد المؤثر الذي رأيناه أمام الضريح في أطراف الحديقة الملكية . وكان ذلك في باريس ... في شارع الأولاد الصالحين ...

فقد توجّل شابّ من مركبة فخمة وسار توّاً إلى قصر صغير مشيّد على طراز معروف في ذلك العهد بطراز ريجانس . وكان الشابّ في السادسة والعشرين من العمر ، إلا أنه كان أشبه بالأقزام منه بالرجال ، كان نحيلاً هزيلاً متنافر تقاطيع الوجه والجسم ، كريه المنظر رغم ثيابه الفاخرة الفريدة في أناقتها . وقد بدت ملامحه كملامح الشيوخ وذوت نضارة وجهه إما لتهالكه الشديد على الملذّات وإما لانصرافه الدائم إلى التفكير في تحقيق مطامع جسام . ولم تظهر القوّة في سوى عينيه ، فقد كانتا رماديتّين زجاجيّتين باردتين ، وإذا بدا له أن هناك من ينظر إليه انطلقت منهما بوارق تدلّ على عزيمة ماضية لا تتزعزع .

وأسرع خدم القصر الصغير للقائه وانحنوا أمامه في احترام ، فسار دون كلفة نحو الدرج الذي يقود إلى الطابق الأوّل وإذا بامرأة

تخرج فجأة من قاعة الاستقبال فتقبض على يده وتجذبه إليها قائلة :

— تعال ، فإن لديّ شيئاً جديداً .

ولم تكن تلك المرأة سوى السيدة بواسون أو « بوازون » كما كانت تدعوها جان تحبّباً ، وسوف نرى ذلك الرجل قريباً في العمل .

وفي الشارع ، في اللحظة نفسها تقريباً ، كان رجل يمشي متثاقلاً وعصاه بيده ، فبلغ العربة الفخمة الواقفة أمام مدخل القصر الصغير ونظر إلى ما حوله بحذر وقال يخاطب أحد الخدم في لهجة متردّدة :

— عفواً يا سيدي ... أتعرف قصر أرجانسون ؟...

« فتنازل » الخادم وأجاب لما سمع الرجل يناديه : « ياسيدي !... » وأشار إلى قصر شامخ في الجهة المقابلة من الشارع وقال :

— هناك ! ...

فغمغم الرجل يخاطب نفسه وقد سرت القشعريرة في جسده ، فقال :

« تشجّع يا فرنسوا داميان !... »

وتردّد هنيهة كان ريحاً عاصفة تهبّ على أفكاره ، ولم يلبث أن انتصبت قامته وقدحت بالشرر عيناه فاجتاز الشارع في خطوات ثابتة فتوغّل فيه وتوارى في مدخل القصر القائم : قصر وزير الدولة الأوّل المركيز دارجانسون الذي كان الملك يأتي إليه يومياً للتداول مع وزيره في الشؤون العامّة .

وإزاء ذلك القصر المهيب الصامت قام منزل لطيف المظهر كانت تنطلق منه ، بين الفينة والفينة ، ضحكات وغمغمات مصحوبة بصوت آلة للطرب أشبه بالأرغن ، وفي ذلك المنزل ، منذ ستّة أشهر ،

كانت تقيم السيدة بواسون . وفيه أيضاً كانت تقيم « ابنتها » الشبيهة بالآلهات وفاتنة باريس التي يطفح وجهها بالعذوبة والسحر وكأنها ، إلى قرب السيدة بواسون ، زهرة محاطة بالألغاز والغموض تنمو عند جذع بعض النباتات التي ربما تكون سامّة قاتلة .

وفي الطابق الاوّل من ذلك المنزل تقوم غرفة فسيحة تضيئها نوافذ أربع اتّخذت منها جان قاعة للتصوير . وكانت الفتاة تجلس في مقعد كبير في تلك الحجرة الواسعة في اللحظة التي كان فرنسوا داميان يدخل فيها قصر ارجانسون، وكان في الحجرة أيضاً رجل في الأربعين من العمر يتجلّى الذكاء واضحاً في جبينه وقسمات وجهه ، وقد لاحت ابتسامة شكّ على شفتيه بينما برزت من أكمامه الحريرية الفضفاضة يدان رقيقتان حسّاستان كان يشير بها إلى رسم ينتقده .

ولم يكن ذلك الرجل سوى الفنّان الشهير فرنسوا بوشيه الذي عرض في السنة الماضية تحفته الرائعة « حمّام ديانا » التي نالت إعجاب الباريسيّين فأطلقوا عليه لقب رسّام العذوبة .

وفي زاوية من القاعة جلست السيدة دي هوسيه تضرب على آلة للطرب شبيهة بالأرغن ، لحنة مطعّمة بالعاج، أغنية حزينة النغم بينما راحت جان تتابع ، على أنغام تلك الآلة ، أفكارها وأحلامها التي تتوارد على مخيّلتها دون أيّ ترتيب .

وفجأة قالت تخاطب أستاذ الرسم :

— لقد تولاّني الضجر يا سيدي الأستاذ ، فإن في هذا القلب الصغير الذي يخفق تحت هذا القميص كثيراً من الفرح وكثيراً من الحزن !... آيدهشك ذلك ؟... إنك تحدّثني عن الرسم ويأبى

عليك أدبك ، وأنت الرفيق اللطيف ، إلا أن تمتدح فنّي وتثني على ريشتي... ولكن من لي بمن يهتمّ بقلبي... فيثني على قلبي المنكود؟.. وأنت، يا سيدي الرسّام البارع، أتعتقد أن المرأة تستطيع أن تفعل شيئاً آخر سوى أن تحبّ وتتألّم ؟...

فابتسم الرسّام وقال وهو عاكف على عمله :

— إنك في أيّامك السوداء يا جان !...

— بل أنا في أيّام أكاد أختنق فيها !... أتعرف السيدة ليون ؟...

— السيدة ليون !!... العرّافة ؟!... الساحرة ؟!... الكافرة ؟!... إنها لمجنونة خطرة ...

— مجنونة ؟!... إسمع إذن ... فإنها جاءتني منذ خمسة عشر يوماً وتنبأت لي بأنني سأكون أشبه بملكة ... وأوضحت فأعلنت أنني سأكون « نصف ملكة » ! ... فلماذا قالت « أشبه » و « نصف » ؟!...

— ها أنت ترين جيّداً أنها مجنونة ... ما دمتِ سيدة مطلقة بجمالك وملكة تامّة بروحك ...

فقاطعته قائلة :

— وأنت أيضاً ؟!... إن أقوالك هذه ليست سوى ترهات وأباطيل لا أرى فيها سوى الإزعاج والإهانة ، وهي تشبه إلى حد بعيد أحاديث أولئك الذين يقبلون عليّ وفي أفواههم كلمات الثناء والتملّق الكاذبين !... إنني ضجرة يا سيدي الأستاذ ... ضجرة، في حين يجب أن أكون في منتهى السعادة وخاصّة بعد حادث

www.mlazna.com
MAYAHEEN

الأمس ...

فقال الرسّام متأثّراً :

— إنك ثائرة الأعصاب !...

— كلاّ ، كلاّ ! فقد بدأت أشعر بأنني لم أُخلق لأعيش هذه الحياة البرّاقة الخدّاعة ... إن قلبي يريد أن يعيش يا سيدي الأستاذ ... يريد أن يعيش ويحبّ . ويخيّل لي أنني أرى في ظلال هذا الغنى الذي يغمرني يداً خفيّة رهيبة ستدفع بي إلى مصير مشؤوم !... إنني أحبّ الزهور والهواء الطلق والمجال الرحب... بينما أشعر شعوراً مبهماً بأنني سأغرق في لجّة من الأوحال المذهّبة !.. فالشمس تضيء يا سيدي الأستاذ ... وأنا برمة بنفسي ... إنني خائفة ... أحسّ خوفاً هائلاً مجهولاً يضغط على صدري وقلبي !...

وخبّأت وجهها بيديها وتساقطت دموعها بين أصابعها الدقيقة المصقولة ، فتأثّر الرسّام لحالها فنهض وسار نحوها فاتحاً ذراعيه . وفي تلك اللحظة فُتح باب القاعة وأطلّ منه خادم يقول :

— السيد لو نورمان ديتيول !...

فجمد الرسّام فرنسوا بوشيه في مكانه ومسحت جان عينيها بسرعة ونهضت وأنظارها مصوّبة نحو الباب وقد شحب وجهها شحوباً مخيفاً .

وعندئذٍ دخل ذلك الرجل الذي أمسكت بيده السيدة بواسون وهو يصعد الدرج ، ذلك الشاب المزيل النحيل الصعلوك ، دخل وقد تأبّط قبعته وألقى بيده اليسرى على مقبض سيفه المرصّع بالحجارة الكريمة . وقد دخل باسماً مرحاً فانحنى أمام جان

وقال لها :

— ألعلّك تنتظرينني؟.. يا لي من شقيّ لا أستحق الغفران !.. فقد اضطررت إلى أن أكون شاهداً في مبارزة لعينة ... وأرجو أن تتفضلي بقبول عذري واحترامي !

فغمغمت تقول وهي ساهمة حالمة :

— إنك معذور يا سيدي !...

فقال ديتيول وقد انتصبت قامته القصيرة :

إنك حقاً جديرة بالعبادة . وقد فاق كرم أخلاقك كرم أخلاق لويس الكبير ، فإنه كان يغضب إذا انتظره الناس بينما تصفحين أنت مع أنك التي انتظرت ...

واستدار نحو الرسّام وحيّاه ببرودة فقال هذا في نفسه :

« يا لوجه البوم !... »

ثم طبع قبلة على اليد التي بسطتها له الفتاة وردّ على تحية الرجل الكريه في تهذيب رصين وانصرف وهو يدندن بصوت خافت بألحان الأغنية التي كانت السيدة دي هوسيه قد قطعتها عند دخول السيد ديتيول .

وقالت جان للسيدة دي هوسيه بجهد ظاهر :

— دعينا أيتها السيدة دي هوسيه ... أرجوك !...

فامتثلت وتوارت كأنها شبح الكتمان . وبعد انصرافها جلس لو نورمان ديتيول إزاء جان وقال :

— ألا يزال السيد دي تورنهام خارج المنزل ؟

فقالت الفتاة وهي تجهد نفسها في امتلاك أعصابها :

— أجل يا سيدي ... كما ترى !

فتظاهر ديتيول بأنه لم يلاحظ قلق الفتاة وشحوبها وقال بهدوء :

— لقد عرّجت على قصره في رصيف الأوغسطينيّين كي أقول له إن لديك بشرى سارّة ستزفينها إليه ... فتبدّل لونها من الشحوب إلى الاحمرار وصاحت قائلة بدهشة شديدة :

— بشرى سارّة ؟!...

— أجل ، وقد جئت أعلنها لك بنفسي يا ابنة العم العزيزة .

فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

— وما هي ؟

— لي الشرف يا ابنة العم العزيزة بأن أبلغك أنني ذلّلت العقبات الأخيرة التي كانت تعترض سبيل سعادتي ، وأن الكاهن دي سان سورلين خادم رعيّة سان جرمين لو كسيروا ينتظرنا غداً عند الظهر تماماً ليبارك قراننا أمام الله والناس .

فصاحت صيحة رعب ولزمت الصمت ، فبرقت عينا ديتيول الزجاجيّتان بنظرات التهديد ، إلا أن تلك النظرات تلاشت فوراً عندما أردف قائلاً :

— ما بالك يا ابنة العم ؟!... أوه ... يا لي من شقيّ !... فقد كان يجب أن أعدّك لاستقبال هذه البشرى السارة ، أليس كذلك؟... ولكن الحب متهوّر لا يعرف الحذر ، وأنا لا أنكر أنني متهوّر في حبي حتى الجنون ...

فأخذت جان تفرك كفاً بكف وهي لا تدري ما تفعل ، ولم تلبث أن قالت في رعب لا يوصف :

— غداً ؟!...

— أجل ، غداً !... وهي بشرى لطيفة ، أليس كذلك ؟

فغمغمت تقول وقد كاد صوابها يضيع :

— ولكنني كنت أظن ... كنت أفكّر ... بأنه لا بدّ... من شهرين ... آه ...

— إن تذليل العقبات كلفني آلاف القطع الذهبيّة ، غير أن الكنيسة أم رؤوم بعد كل شيء ...

— ولكن دعني يا سيدي على الأقل أطلع ...

فقاطعها بقوله :

— عمي العزيز ... أتريدين إطلاع عمّنا العزيز المحترم على ما وطّدت النية عليه ؟... ولكنه يعرف كل شيء ...

ولم تكن الفتاة تريد التلفظ بكلمة « عمي » بل بكلمة أخرى، فقالت :

— وهل يوافق على ما ترغب فيه ؟...

فأجاب قائلاً :

— تمام الموافقة .

فقالت معترضة :

— ولكنني لست على استعداد .

— إن لديك نحواً من أربع وعشرين ساعة لإعداد نفسك للحفلة المقدّسة التي يستعدّ لها قلبك منذ شهر ، وستأتي إليك السيدة سيلست ليمرسيه خيّاطة البلاط الكبرى تحمل حلّة العرس البيضاء. وقد أبلغت أنا أصدقاءنا الخبر ودعوتهم إلى الحفلة . إذن فلم يبق ما

يحول دون زواجنا ...

فصاحت جان قائلة بيأس :

– لا شيء يحول دون زواجنا ؟!

وكانت دقيقة صمت هائلة ، فإن جان كانت تنتفض كأنها في ساعة الاحتضار وكان ديتيول ينظر إليها نظرات خلت من الشفقة والرحمة .

وتصاعدت الثورة من قلبها إلى شفتيها، وحاول أن يمسك بيدها فتراجعت وهي ترتجف وقالت بصوت متقطّع حادّ :

– أصغ إليّ يا سيدي ودعني أتكلم دون أن تقاطعني ، فإن ما تقوله لي مستحيل... مستحيل... ولك أن تنعتني بناكثة العهد، لك أن تقول عني كل شيء ... أما أن أكون لك فلا ... أنا لا أنكر أنني أبديت موافقتي على هذا الزواج منذ شهر من الزمن ... ولكن أنت تعلم كيف أبديت تلك الموافقة ... وإنني أقرأ في عينيك تماماً أنك تعلم ... فإنني لم أعلن عن موافقتي إلا في ساعة رعب جنونيّ ... وهل من الضروري أن أذكّرك بذلك اليأس الفظيع الذي استولى عليّ في تلك الليلة الرهيبة ؟...

وأخذت تنتحب ، وتابعت قولها وهي تشهق :

– أجل ، اليأس وحده هو الذي جعلني أفعل ما فعلت !... فإنني لم أكن أبصر حولي سوى نظرات وقحة ... وأشياء فظيعة سافلة يُهمس بها في أذني !... وللمرّة الأولى في حياتي أدركت هول مصيري وتجلّت لي بوضوح رغبة أولئك الرجال الذين يقبلون عليّ تحت ستار الموسيقى والشعر ... وأيقنت من أنني أتزحلق

رويداً رويداً إلى الهاوية ... فارتجفت ... وبكيت ... وعندما رأيتك أنت قريبي الوحيد قلت في نفسي إنك تستطيع إنقاذي ... وما أن صرّحت لي بأن أحداً لن يستطيع إهانة تلك التي ستحمل اسمك ولو بمجرّد النظر ، حتى فكّرت بهذا الزواج كالتي تفكّر بدخول الدير ... وقلت ... نعم !...

فقال ديتيول ببرودة :

– وماذا جرى منذ ذلك الحين فأبدل وجهة نظرك ؟ أليست السيدة بواسون أمّك العزيزة إلى قربك اليوم مثلها بالأمس ؟

– لقد تبدّلت الأمور فعلاً يا سيدي ، فاليوم عاد السيد دي تورنهام وهو الذي سيدافع عني ويحميني من الآن فصاعداً .

فقال بسخرية لاذعة :

– ماذا ؟! ألعلّ العم حلّ محلّ ابن أخيه ؟...

فهبّت واقفة وقد احمرّ منها الجبين وصاحت تقول غاضبة لكرامتها :

– إنك تشتمني أيها السيد !... أتجهل ما في كلماتك هذه من قحة وفظاعة ؟!...

فاتّقدت عينا ديتيول الزجاجيتيّن ببارق الغضب وقال :

– إذن ، فأنت تطلبين مني الانصراف ... إن ابن عمّك الصغير الطيّب لم يكن به من بأس منذ شهر من الزمن ، أما الآن فإنك تطردينه كأنه من سقط المتاع !...

فقالت بلطف :

– عفوك يا هنري ، فأنا لا أطردك بل أرجو أن تظلّ قريبي

www.mlazna.com
RAYAHEENA

الودود الذي أهبه كل صداقتي ومحبتي الأخوية ...

— ولكن لماذا أصبح زواجنا مستحيلاً ؟

— هنري ، هنري !... لا تضطرني إلى أن أظهر بمظهر قاسية القلب !...

— تكلمي ، فإنني أستطيع سماع كل شيء .

فقالت ببساطة رائعة :

— إذن ، فأنا لا أحبك !

فضحك هنري ديتيول ضحكة أذهلت الفتاة وصاح قائلاً :

إن السبب غير وجيه ، فأنا أحبك وسأتزوجك !

فضمت يديها وقالت متوسلة :

— إذا قلت لك يا سيدي ...

— ماذا ؟... قولي كل شيء يا خطيبتي العزيزة .

فقالت في ضراعة :

— أنت رجل ذو شرف ومروءة ، ولن تستمر دقيقة يأس لتشقي قلباً ليس لا يحبك فحسب بل يعبد شخصاً آخر !...

— أهذا كل شيء ؟

فاستولى عليها الجمود وتلاحقت أنفاسها واتسعت حدقتاها رعباً وذهولاً كأن مسخاً هائلاً ظهر أمامها فجأة ، وأردف هنري ديتيول قائلاً :

— كفى دلالاً يا عزيزتي ، فإن شئت سنتكلم جدياً الآن.

فغمغمت تقول وهي لا تزال واقفة تنتفض من الذعر :

— نتكلم جدياً ؟!... ماذا ؟... أيكون ما قلته

لك ...

فقاطعها قائلاً في فحة لا توصف :

— لا قيمة مطلقاً لكل ما قلته . أنت لا تحبينني أما أنا فسأتزوج منك !... أنت تحبين سواي ومع ذلك فسأتزوج منك، إن كلا الأمرين واحد كما ترين !...

فاحمر وجهها لفرط الغضب وصاحت قائلة :

— إنها لجرأة متناهية جرأتك هذه !... وأنا أتمرد بكل قواي ! فمن أنت أيها السيد كي تجرؤ على مخاطبتي بهذا الكلام في بيتي ؟... لقد أشفقت عليك وساءني إيلامك إلا أن موقفك الغريب يكفي ليجعلني في حل من عشرين يميناً ! وقسماً بالله أن سوف ترى بأم عينك أنني لست بالفتاة التي ترضى لنفسها بالإهانة ... أخرج من هنا أيها السيد !... أخرج من هنا !

— أتطردينني ؟

— أطردك كما أطرد الخادم الوقح إذ أنك تخاطبني بما يأنف حتى الخادم من التلفظ به !...

فنهض بدوره وزمجر قائلاً :

— وأنا لن أبرح هذا المكان ، وإذا كنتُ قد تكلمت كالخادم فإنني سأعمل كما يعمل السيد !

فوثبت نحو اللوح النحاسي لتدعو الخدم وهي تصيح قائلة :

— إن هذا لا يطاق !...

فمد ديتيول ذراعه وقد تطاير الشرر من عينيه ، وقال بصوت أشبه بالفحيح :

– لك أن تنادي من تشائين أيتها التعسة ، ولكنني أقسم لك أن الطرقة التي ستطرقينها ستدقّ معها أجراس الحزن ناعية أباك !...

فغمغمت قائلة وقد صعقها تهديده :

– تدق الأجراس ناعية أبي ؟!...

وتسمّرت في مكانها وهي ترتعش كالمقرورة ، وألقت بيدها فوق قلبها كأنما لتحول دون انفجاره . ووثب المسخ الكريه نحوها وهو يقول :

– أتمنحينني دقيقتين أحادثك فيها ؟

فأومأت بالإيجاب دون أن تقوى على الكلام ، فقال ديتيول في هدوء رهيب :

– أصغي الي جيّداً ، فأنت لا تعرفين الملك لويس الخامس عشر ، ملكنا المحبوب الصالح ...

فمزّق حنجرتها أنين خفيّ بينما تابع هنري ديتيول كلامه فقال:

– إن ملكنا المحبوب يستطيع كل شيء عندما يشوقه أن يفرض على الشعب ضرائب جديدة ... إنه يستطيع كل شيء ... حتى إرضاء المتذمّرين من رعاياه ... وأولئك المتذمّرون يشكون اليوم السادة القائمين بتوفير المؤونة للجيش ، والسيد دي تورنهام ، على ما أعلم ، يقوم بذلك في مقاطعة بيكارديا .

فعرتها ارتعاشة مؤلمة ، ومضى هنري في حديثه فقال باللهجة الرهيبة نفسها :

– نهار أمس ، عندما عاد الملك من الصيد أمر بتفتيش

مستودعات المؤونة ... والويل للمشرفين على تلك المستودعات إن وُجد لديهم أيّ تلاعب !... فإن أقل ما ينتظرهم هو الرفع على أعواد المشانق ، إلا إذا كانوا من النبلاء كالسيد دي تورنهام ، فيكون لهم الحقّ عندئذٍ في أن « يشرّفهم » الجلاد بضرب أعناقهم ...

فغمغمت جان تقول :

– إنني أحلم دون شكّ !... ويا لها من رؤيا فظيعة !...

فقال ديتيول وهو يضحك ضحكاً رهيباً :

– ما رأيك إذا أمر لويس الخامس عشر بضرب عنق عمنا العزيز ؟...

فقالت بصوت خُيّل لها أنه شديد رهيب في حين كان في الحقيقة أضعف من الهمسة :

– أيها الشقيّ الحقير !... ولكنك تعلم جيّداً أن السيد دي تورنهام لا يمكن أن يرقى إليه الشك !...

– لديّ الدليل على عكس ذلك يا خطيبتي العزيزة .

– ولكنه كان غائباً عن فرنسا منذ سنوات وسنوات !...

– أجل ، إلا أنه كان يوقّع على بيان الحسابات في كل مرّة يعود فيها ... صحيح أنه لم يكن يقرأ ذلك البيان ... ولكنه كان يوقعه .

– يا لك من نذل وضيع !... وهو الذي عيّنك وكيله العام !...

– وذلك ما ساعدني على جمع الأدلّة ...

www.mlazna.com ^RAYAHEENA^

— الأدلة على سرقاتك !...
— أجل ، إلا أنه هو الذي كان يوقّع !
— يا للفظاعة !... يا للفظاعة !...
— كوني امرأتي فأبرّىء أباك وإلا فسأدفع به إلى الموت دون شفقة !
— أتقتل عمك ؟!
— إنها قرابة لا تكفي ، فأنا لن أنقذ إلا والد امرأتي !...
فتلاشت قوى جان وقد استندت إلى مقعد خشية السقوط ، ووقف ديتيول أمامها معقود الذراعين فقالت له بصوت أشبه بالزئير :
— أتدري أنك نذل ؟!
— وبعد ذلك ؟...
— أتدري أنك أكثر فظاعة من الجلاد ؟!
— وبعد ذلك ؟... وبعد ذلك ؟...
— أتدري أنني أكرهك كرهاً لا حد له وأنني لو كنت أملك القوّة لخنقتك كالكلب المسعور ؟!
— وبعد ذلك ؟... وبعد ذلك ؟... وبعد ذلك ؟...
فخرّت على ركبتيها وقالت :
— الرحمة !... إرحمني !... إرحمه !... إرحم أبي !...
لو تدري كم تعذّب !... لو تدري نبل عواطفه وكرم أخلاقه !.. أواه يا سيدي ، إنك لن تكون ظالماً أليس كذلك ؟... ربما شئت أن تجرّبني .... كن رؤوفاً ... كن رحيماً ... فأحبّك

كأخ ... وأبارك في كل ساعة من ساعات حياتي !...
فقاطعها هنري ديتيول وقال بزمجرة كأنها زمجرة الضبع :
— أصحيح أنني نلت هذا الشرف ، شرف رؤيتك عند قدميّ ؟.. إن ذلك مما يسعدني وسأنصرف حاملاً بركاتك !... شكراً يا ابنة عمي شكراً !... أجل ، إنني قبيح كريه مخيف وربما كانت بشاعة روحي تفوق بشاعة شكلي !... ومع ذلك ، أجرؤ أنا الصعلوك المزيل المريض الزائغ الكتف الدميم الوجه على تغذية عقلي الضعيف بأحلام كبار الرجال . وقد قرّرت أن يكون لي في جمالك الرائع ما يبدّد تعاسة جسدي المشوّه !...
وتوقّف هنيهة عن الكلام ، ثم تنفّس بجهد واستأنف قائلاً :
— أصغي اليّ جيّداً يا أنطوانيت ولا تلتمسي شفقتي إذ ليس ثمّة من يشفق عليّ حتى أنت !... فإنني أريد الارتقاء درجة درجة — حتى ولو كانت تلك الدرجات جثثاً وأشلاء — لبلوغ أوج السعادة والثروة !... أريد ، أنا الطرح ، أن تهتزّ المملكة بأسرها بمجرّد نظرة من نظراتي !... أريد أن يكون منزلي قبلة الأعياد والحفلات وهيكل الذوق ومنارة وضّاءة تجذب إليها العصافير الطائشة التي أحتاج إليها ، أما تلك المنارة فستكون أنت يا أنطوانيت ... ستكون أنت ... أو يخلو من الشفقة قلبي ... هذه هي كلمتي الأخيرة .
— الرحمة يا هنري !... هنري ، أخي ، صديقي !...
وأخذت تزحف على ركبتيها باكية مشعّثة الشعر شبه مجنونة ، فقال لها في برودة جليدية :

ـ يجب أن نضع حداً لهذا الجدال الذي طال أمره، فإن وافقت على أن تكوني امرأتي اعتصمت بالصمت، وإلا فسأكون بعد ساعة أمام المجلس المنوط به أمر تفتيش المستودعات، ولا يحين المساء حتى يكون السيد دي تورنهام في سجن الباستيل... في انتظار ما هو أدهى...

ـ الرحمة! الرحمة! العفو!...

فما كان من هنري ديتيول إلا أن ألقى قبّعته على رأسه بعنف ومشى إلى الباب. بيد أنه وقف في منتصف القاعة وقال وهو متجهّم الوجه متقلّص الملامح:

ـ بماذا تجيبين؟... أترضين بما أريده منك؟...

فرفعت المنكودة يديها إلى السماء بيأس شديد وقالت:

ـ نعم!...

ـ أترضين بأن تصبحي السيدة ديتيول؟

ـ نعم!...

ـ أتكونين مستعدّة غداً؟

ـ نعم!...

وكانت تتلفظ بكلمة «نعم» بصوت يزداد ضعفاً كلما كرّرتها وكانت الكلمة الأخيرة أشبه بنفس محتضر يتلاشى، فحيّاها لو نورمان ديتيول تحيّة انحنى بها طويلاً واجتاز الباب وهبط الدرج بخطوات ثابتة هادئة.

ونهضت جان عندما أصبحت وحدها وغمغمت قائلة:

ـ الهواء!... إنني بحاجة إلى الهواء!... فأنا أكاد أختنق!..

وسارت متهادية إلى إحدى النوافذ ففتحتها وهي لا تدري ما تفعل. فتحتها واتّكأت على حديد الشرفة فأنعشها الهواء، وتنفّست مراراً ويداها متشبّثتان بالحديد وكانت تغمغم بكلمات متقطّعة مثل قولها:

ـ أين أنا؟... ماذا جرى؟... آه من هذه الفاجعة الرهيبة!.. لقد هلكت... إنني هالكة!...

وفي تلك اللحظة ارتفعت ضجّة في طرف الشارع من جهة اللوفر وبدا لجان مشهد عجيب رائع، فقد لاحت لها مركبة تحيط بها كوكبتان من الفرسان في ثيابهم البرّاقة وقد سارت بهم جيادهم سيراً حثيثاً ولمعت في أيديهم السيوف الماضية.

وتقدّمت المركبة كأنما تسير في موكب المجد وهتاف الشعب يتعالى عن جانبيها ووقفت فجأة، كما وقف الموكب بكامله، تحت إحدى الشرفات.

فحاولت جان أن ترتدّ إلى الوراء إلا أنها لم تقوَ على ذلك... فقد تخاذلت ركبتاها تحتها... فاضطرت إلى البقاء في الشرفة مستندة إليها، وكانت من الشحوب وانحطاط القوى بحيث بدت كأنها ميتة تحاول الخروج من القبر.

وترجّل من المركبة رجلان... أحدهما رئيس الشرطة السيد بيربيه والآخر... لويس الخامس عشر ملك فرنسا. وسار الملك بخطى متثاقلة، ولكنها لا تخلو من الظرف، إلى مدخل قصر أرجانسون يتبعه بيربيه حاسراً منحني الظهر.

وفي اللحظة التي أوشك فيها أن يتوارى في مدخل القصر ارتفع،

www.mlazna.com
RAYAHEEN

تحت شرفة جان ، صوت يقول بنبرة لا تخلو من التهكّم :

— ليحيَ الملك المحبوب !...

وعرفت جان ذلك الصوت ، فقد كان صوت هنري ديتيول الذي كان يلوّح بقبّعته عالياً ويهتف للملك فيردّد هتافه الجمهور المحتشد في ذلك المكان . فالتفت لويس الخامس عشر وحيّا بيده التابع الأمين الذي يثير مثل تلك الحماسة العامّة التي كانت قد بدأت تخمد في النفوس .

وحانت من الملك التفاتة إلى شرفة منزل جان فاضطرب واحمرّ وجهه قليلاً بينما توردّت وجنتا الفتاة وسرت القشعريرة في جسدها . والتقى النظران مقدار ثانية من الزمن وكأنهما يتعانقان ...

وردّد هنري ديتيول هتافه قائلاً :

— ليحيَ الملك !... ليحيَ الملك المحبوب !...

وكأن الملك شاء أن يردّ لشعبه تحيّة بتحيّة فرفع قبّعته ونظر إلى الشرفة وابتسم بلطف ... فأخذ الشعب يهتف للتحيّة الملكيّة في حين لم يكن جلالته قد وجّه تلك التحيّة لسوى الفتاة الواقفة على الشرفة .

ودخل الملك قصر أرجانسون ووهت قوى جان فتراجعت إلى القاعة وهي تترنّح ذات اليمين وذات اليسار ، وسقطت بين ذراعي السيدة بواسون التي لم تفتها دقائق ذلك المشهد . واستعادت جان قواها بما فُطرت عليه من قوّة الإرادة وعادت فاقتربت من الشرفة مدفوعة إليها بالأمل النابض في قلبها . وفيما هي تنظر إلى بوّابة قصر أرجانسون المفتوحة على مصراعيها ، إذا بها ترتعش من قمّة رأسها

حتى أخمص قدميها ، فقد بدا لها وجه شاحب نحيف كان يحدّق إليها كما حدّق إليها الملك ...

فارتدّت إلى الوراء مذعورة وهي تغمغم قائلة :

— هذا رجل فسحة الغاب في الإرميتاج ! ... ربّاه ! لماذا ينظر اليّ هكذا ؟!... إنه يقترب ... إنه يأتي إليّ ... فماذا يريد مني ؟... ولماذا يعترض طريقي في هذا اليوم المشؤوم ؟...

عريضة داميان

*

دخل فرنسوا داميان قصر أرجانسون في الساعة نفسها التي دخل فيها هنري لو نورمان ديتيول منزل السيدة بواسون . وكان قصر المركيز دارجانسون ، من حيث الحركة ، أشبه بمقرّ الحكومة الرسميّ ، فإن شؤون الدولة كانت تُعالَج فيه كما كان كثيرون من أصحاب المصالح وملتمسي الوظائف يؤمّونه يومياً فيقفون أمام بوّابته الرسمية التي يحميها جنديّ سويسري عملاق .

وامتلأ فناء القصر بالكتبة يروحون ويجيئون وينتقلون من جناح إلى جناح وهم يتأبّطون ملفّات الأوراق ، وقد اغتبط فرنسوا داميان بذينك الرواح والمجيء كأنه شام فيهما ما يساعده على التخفّي ، بيد أنه ما كاد يجتاز البوّابة حتى صاح به السويسريّ قائلاً :

— إلى أين يا صاح ؟

وقبل أن يسمع جوابه زاد فقال :

— إن تكن تحمل كتاباً فسلّمه إلى البوّاب .

فأومأ فرنسوا داميان بالإيجاب وسار إلى باب زجاجيّ كبير في ناحية اليسار أشار له السويسريّ إليه . فرأى في غرفة هناك بسيطة الرياش رجلاً جالساً إلى منضدة وهو يكتب في سجلّ . وسأله الرجل قائلاً دون أن يرفع رأسه :

— ماذا تريد ؟

فأجاب داميان قائلاً بصوته النحاسيّ الغريب النبرات :

— أريد يا سيدي أن أخاطب حضرة الوزير ...

— أعطني رسالة المقابلة .

— رسالة المقابلة ؟!

فرفع البوّاب رأسه وقال :

— أجل ، ألا تحمل تلك الرسالة ؟... وهل تعتقد إذن أنك ستدخل إلى حضرة المركيز دارجانسون كما تدخل إلى حانة ؟

فقال داميان بلطف متناهٍ :

— عفواً يا سيدي ... لم أكن أدري ...

— إذن فاكتب رسالة المقابلة الآن ، وستدعى بعد شهرين أو ثلاثة ... هذا إذا حصل رئيس المقابلات على معلومات حسنة عنك ...

فارتسم في ملامح داميان تأثّر شديد وتجعّد جبينه وتنهّد طويلاً ، ثم تراجع خطوة فغمغم قائلاً :

— يا لك من شيطان مسكين ، لا ريب في أنك مقبل من

أطراف المقاطعة التي تعيش فيها ، أليس كذلك ؟

— إنني قادم من بيتون يا سيدي .

— وما هو اسمك ؟

فأجاب داميان قائلاً دون أيّ تردّد :

— جان بيكار .

— وقد جئت تطلب عملاً ، أليس كذلك ؟... إنني أعرف هذا وكم رأيت من أمثالك من الذين جذبهم الأمل إلى باريس ... ثم انتهى أمرهم إلى السجن ... ولكن يلوح لي أنني أبصرت في مكان ما وجهك الشاحب الكئيب ... وإنني أنصحك مخلصاً بأن تعود إلى قريتك .

فهزّ داميان رأسه سلباً وقال بصوت خافت :

— شكراً يا سيدي ، أراك تعطف عليّ ... شكراً ، فإنني ما حظيت بأيّ عطف إلا في النادر النادر ... أما أن أعود إلى قريتي فذلك مستحيل ... إن لي حاجة في باريس يجب أن أقضيها .

— وأيّة حاجة هي ؟

فقال داميان في لهجة غريبة هذه المرّة :

— أريد ان ارفع عريضة إلى صاحب الجلالة .

— إن يكن الأمر كما تقول فقد تبدّل الموقف ، هل تحمل العريضة معك ؟

فشقّ داميان معطفه قليلاً وأظهر زاوية غلاف كبير وقال ويده متشنّجة قرب الغلاف :

— ها هي العريضة !

ولمست يده شيئاً طويلاً مدبباً كان يخفيه في صدره فأردف يقول ببرودة :

— جئت ألتمس من حضرة الوزير أن يهتمّ بعريضتي !

فهزّ البوّاب كتفيه مشفقاً :

— أهون عليك أن تخاطب الملك من أن تخاطب الوزير ، فالملك يتسلّم في كل يوم عرائض من رعاياه ، وليس عليك لأجل ذلك إلا أن تقف أمام البوابة الكبيرة وعندما يترجّل الملك إركع أمامه وناوله عريضتك ، فإنك ستكون واثقاً عندئذٍ من أنه تناولها منك يداً بيد ... أما أن يقرأها فذلك شيء آخر .

فصاح داميان قائلاً بصوت أصمّ :

— أتقول إن الملك سيأتي ؟

— أنا متأكد من ذلك .

فغمغم داميان قائلاً :

— إذن ، فقد خدعوني .

— ماذا تقول ؟

— أقول إن من حسن حظّي أن يكون المثول بين يدي الملك أكثر سهولة من المثول أمام وزرائه .

فقال البوّاب :

— إذهب ، إذهب أيها الشيطان المسكين واعمل بما أشرت به عليك ثم اطلعني على ما اتفق لك .

فقال داميان بهدوء تامّ :

— شكراً .

إلا أن عينيه قدحتا شرراً ، فخرج مطمئناً وذهب فاستند بظهره إلى زاوية البوابة الكبيرة ، وهناك ، أغمض عينيه وجعل يحلم حلماً هائلاً بدا في شحوب شفتيه وارتعاشها ، وكانت بوادر عاصفةٍ هائلة ترتسم في جبينه وقد اختلجت عضلات وجهه لهول أفكاره وتجعدت كما يتجعد سطح المياه في بحيرة سحيقة القرار عندما تعصف بها الرياح الهوجاء .

وفجأة طرق أذنيه وقع حوافر جياد في طرف الشارع وسمع ضجة وصياحاً وأصواتاً تهتف قائلة :

— الملك !... الملك !... ليحيَ الملك !

فانتفض فرنسوا داميان كأنما لمس سلكاً كهربائياً ووضع يده اليمنى في صدره وقال في نفسه بحقد رهيب :

« لقد أتت الساعة !... دقت الساعة التي سأتكلم فيها باسمك أيها الشعب !... أيها الألم !... أيتها العدالة ! وأنتِ يا فرنسا، تعالي واقرإي عريضتي التي سأكتبها بأحرف حمراء... بدم ملكك الشقيّ !...»

ووقفت المركبة الملكية أمام القصر فتقدّم فرنسوا داميان خطوة ... وإذا الملك يطل ... فجثا داميان على ركبة واحدة وبحثت يده بسرعة في صدره ... أمسكت بالشيء الطويل المدبّب الذي كانت تداعبه في اللحظة السابقة ... تشبثت بقبض الخنجر الرهيب!... ولم يكن على الملك إلا أن يخطو خطوتين أيضاً ليصبح على مقربة من داميان الجاثم على إحدى ركبتيه متحضراً للضربة القاضية !...

وصاح هنري ديتيول قائلاً :

— ليحيَ الملك !... ملكنا المحبوب !

فاستدار الملك صوب الشارع ... التفت إلى ذلك الذي هتف، في تلك اللحظة الرهيبة، باسمه ذلك الهتاف الحماسيّ . ولبث داميان ينتظر وهو يصوّب بصره إلى لويس الخامس عشر الواقف في مكانه لا يتقدّم ... لبث ينتظر بارداً كالقدر ، متصلباً كأنه تمثال من الرخام ، وكان يراقب حركات الملك في صفاء ذهن أشبه بصفاء ذهن المحتضر فرآه يرفع رأسه ببطء وينظر إلى شيء ما فرفع رأسه هو أيضاً ... وهو أيضاً أبصر ما أبصره الملك !...

ولم يدم ذلك أكثر من ثانيتين ... وعندما تابع لويس الخامس عشر طريقه كان داميان ممتقع الوجه محدودب الظهر ، يغمغم قائلاً في نفسه :

« إنها تحبّه !... يا للقدر الغاشم ! هي تحبّه !... أيجوز لي أن أفتك بالذي تحبّه ؟... أيجوز لي أن أثير الدموع في عينيها ؟... في تينك العينين اللتين تمتزج فيهما زرقة السماء بالحب !... أواه !.. إنني لا أستطيع !... لا أستطيع !...

ومرّ الملك ... ولبث داميان مطرقاً برأسه منحني الظهر يكاد يكون خاشعاً ... وإذا يد تُلقى على كتفه فنهض وهو يرسل شهقة خرساء . وعرف البوّاب ، فقال له هذا :

— وعزيمتك ، ماذا فعلت بها ؟... ألم تجرؤ على أن تقدّمها للملك ؟... يا للشيطان ! كان يجب أن تجرؤ !

فألقى داميان نظرة غريبة على مخاطبه وقال له بهدوء :

— ربما جرؤت في المرّة القادمة .

— أجل ، إلا أنك لن تجد فرصة سانحة كهذه الفرصة .

وعاد البواب إلى غرفته وهو يهزّ كتفيه ، فسار داميان في الشارع وعيناه تنظران إلى الشرفة التي نظر إليها لويس الخامس عشر، وكانت خالية في تلك اللحظة ، فقال في نفسه :

« إنها تحبّه !... تحب الملك !... وأنا ، أنا ، أتراني أحبها ؟... يا لي من مجنون ... مجنون !...

وفجأة بدت رؤيا الحب مرة أخرى ووقعت عينا جان على عيني داميان ... كانت الرؤيا أشبه بوميض البرق ثم حجبها الظلام من جديد ، فغمغم داميان قائلاً وقد هزه الألم :

— يجب أن أعلم الحقيقة ... يجب أن أدخل هذا المنزل ، ولكن بأيّة ذريعة أدخله ؟... أجل ، أجل ، عليّ أن أشكر لها سخاءها فقد جادت عليّ بقطعة ذهبية ، بتلك القطعة الذهبية التي لا أزال أحملها فوق قلبي كأنها أيقونة أتحفتني بها الملائكة ... هيّا ، ولأدخل !...

وبينما يهمّ بالدخول سمع صوتاً يقول له :

أتريد يا سيدي أن تصعد إلى مركبتي ؟ فإن لديّ حديثاً أودّ أن أفضي به إليك .

فنظر داميان بدهشة إلى الرجل الكريه الشكل الظاهر الغنى الذي يخاطبه بلهجة النبلاء ولم يحر جواباً ، فتابع الرجل كلامه قائلاً :

— أنا قريب الفتاة التي تقيم في هذا المنزل، فاصعد إلى مركبتي،

إصعد أرجوك ...

فأطاع داميان آلياً ، ولم يكن مخاطبه سوى هنري ديتيول ، وقد جلس إلى قربه وتحركت المركبة وسار بها الجوادان خبباً في الشارع العام.

نوح بواسون

*

أيّ اتفاق غريب جمع بين ذينك المخلوقين المختلفين في طبائعهما وعاداتها ومقامها ؟ بل أي قدر غامض جمع بين فرنسوا داميان وهنري لو نورمان ديتيول اللذين كان كل منهما يجهل الآخر دون أي شك ؟ أيكون هنري ديتيول قد أبصر داميان عندما كان هذا جانياً أمام الملك فاستطاع بقوّة فراسته أن يستشفّ ما كان يجول في خاطره ؟ وإن يكن قد استطاع ذلك ، فأيّ خاطر هائل دفعه إلى دعوة الرجل الرثّ الثياب الكالح الوجه الجافي المظهر للصعود إلى مركبته ومرافقته ؟

إننا لن نجيب عن هذه الأسئلة بل نترك للأحداث التي ستتعاقب أن تجيب عنها . إذن ، فلندع مركبة وكيل مستودعات الجيش تبتعد ولنعد لحظةً إلى جان لنراقب أعمالها وتفكيرها .

عندما رأت جان من شرفة منزلها فرنسوا داميان قادماً إليها ارتدّت إلى الوراء برعب غريزيّ ونظرت إلى ما حولها كي تدعو

السيدة بواسون إليها، إلا أن هذه كانت قد اختفت بعد أن شاهدت كل ما كانت تريد أن تشاهده .

وانقضت عشر دقائق ، ثم نصف ساعة ، ثم ساعة وداميان لا يبدو . فاطمأنّت الفتاة وصرفت أفكارها إلى الحادث الفظيع الذي جرى في قاعة منزلها .

لقد أصبحت الآن فريسة هنري ديتيول دون أيّ شك ... ففكّرت هنيهة بأن تروي ما وقع لها للسيد دي تورنهام ، لأبيها ، عندما يأتي إليها . ولكن إذا أطلعته على الخبر ألا تكون قد حكمت عليه بالهلاك ؟... إن أباها سيمنعها دون أيّ شكّ عن الامتثال لمشيئة هنري ، وعندما يمنعها عن ذلك فماذا يكون ؟... ألا يفضح هنري أمر أبيها على الفور ؟... فغمغمت تقول في لوعة شديدة :

— ربّاه !... ما العمل ؟... ما العمل ؟... لقد قضي عليّ بالهلاك ، وليس هناك من يساعدني على النجاة !...

والغريب أن ذلك الرعب الهائل المتفاقم في نفس جان دقيقة فدقيقة لم يسيطر عليها لكونها ستصبح امرأة هنري أو لكونها ستدعى منذ الغد السيدة ديتيول ، كلا ، بل إن ما يثير رعبها وما ترتعد له فرائصها هو شعورها أو اعتقادها بأن ذلك الزواج ليس إلا بداية شيء ما ...

ما هو ذلك الشيء ؟... إنها لم تكن تدري ما هو ، إلا أنها تفترض أنه لا بدّ من أن يكون هائلاً خفياً أشبه بكيدة جهنّمية تحاك في الظلام وترمي إلى تحطيم أحد الناس ...

إلى تحطيم من ؟... إلى تحطيمها هي جان ؟... كلا ، كلا !

إلى تحطيم السيد دي تورنهام ؟... كلا أيضاً !...

إلى تحطيم من إذن ؟... ومن هو ذلك الذي سيطلع عليه هنري ديتيول من الظلام وينتصب أمامه فجأة كأنه مسخ جهنّمي ويحطمه دون شفقة أو وازع من ضمير ؟...

وضربت بيدها على جبينها وغمغمت تقول في قلق لا يوصف :

– أواه !... لقد ذهب الاضطراب بصفاء ذهني دون أيّ شكّ !... فإنني في ليل حالك رهيب يكتنفني فيه الرعب من كل جانب ... إنني أرتجف ... أخاف ... ولا أجد حولي من أستطيع الركون إليه !... لا أجد من يرشدني ويحميني ويدافع عني !...

وفي تلك اللحظة جيء إليها برسالة فتحتها بيد تنهشها الحمّى . وكانت من السيد دي تورنهام ، من أبيها ، وقد هنّأها فيها بزواجها المنتظر مع إبداء بعض الدهشة ، وأبلغها أنه سيزورها في المساء إذ أنه سيضطر في أصيل ذلك النهار إلى الطواف في المخازن لشراء بعض الحاجات ، وأثنى في النهاية ثناء مستفيضاً على هنري ديتيول .

فسقطت الرسالة من يد جان وقالت وهي تنتحب :

– أبتاه !... يا أبي الطيّب المسكين ، أتهنّئني ؟... يا لسخرية الأقدار !...

وغرقت في مقعدها ودفنت وجهها بين يديها وتاهت في عباب التفكير ، فأوحت إليها نفسها النزّاعة إلى النضال وأفكارها الجريئة بما يساعدها على الثورة ... على مقاومة ما يُراد بها ، فرفعت رأسها

وقد سطع بارق من الأمل في عينيها وغمغمت تقول بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

– أجل لماذا لا أجابه القوّة بالقوّة ؟... لماذا يهدّدني ذلك الرجل بالموت ولا أهدّده أنا بما يهدّدني به ؟... بل لماذا لا أضع في طريقه رجلاً مخلصاً وفيّاً يصدمه ويشهر سيفه في وجهه قائلاً: «هنري ديتيول ، إن ما تحاول أن تقوم به فظيع سافل !... هنري ديتيول ، يجب أن تتلف أمامي أدلتّك وشاياتك السافلة جميعها وإلا فإن السيف سيفصل بيننا !... سنتقاتل قتالاً لا رحمة فيه ولا هوادة إلى أن يسقط أحدنا قتيلاً !... »

وعصرت رأسها بيديها كأنما تريد أن تستخرج منه الفكرة الصائبة التي ستنقذها ، ولم تلبث أن صاحت قائلة بفرح طاغ :

– لقد نجوت !... فإن ذلك الشاب سينقذني !... أجل ، الفارس داساس ... إنني قرأت في عينيه نظرات الإخلاص ... أجل ، أجل ، إنه هو منقذي ... ولكن عليّ أن أتذكّر عنوانه الذي أعطاه للكونت دي باري أمامي ... سأتذكّر ذلك العنوان حتى ولو اضطررت إلى أن أعرك دماغي بيديّ الاثنتين كما أعرك جبيني !... آه ! لقد تذكّرت !... ونجوت !... فإنه يقيم في فندق الدلافين الثلاثة في شارع سانت اونوريه !...

ووثبت نحو منضدة صغيرة فتناولت ريشة وورقة وكتبت على الفور :

« أنا لا أعرفك وأنت أيضاً لا تعرفني . ولكنك ظهرت أمامي أمس في فسحة الإرميتاج مثالاً كاملاً لأولئك الأبطال القدماء الذين

كانوا يجوبون أقطار الأرض لنصرة الضعفاء والمظلومين ومحاربة الأشرار . وإن ثقتي بك كبيرة لا حدّ لها .. ترى ، أتكون عند حسن ظنّي بك ؟... وهل أكون حقاً قد قرأت في وجهك وتصرفاتك أنك تهتمّ بأمري ؟.. إن كان ذلك فتعال إليّ إذن.. أسرع فوراً إلى شارع الأولاد الصالحين !... تعال ، تعال في أيّة ساعة من ساعات الليل أو النهار ... تعال فور استلامك هذه الرسالة ... ولكن ، أتوسّل إليك ، تعال قبل الغد ولا تتأخّر ثانية واحدة ، فغداً يفوت الأوان !... وإن كنت قد أوحيت إليك ببعض الانعطاف ، إن كان قلبك يحوي بعض الشفقة على فتاة مسكينة مهدّدة بأفظع أنواع التعاسة ، إن كنت تريد أن تدفع عني الفاجعة التي توشك أن تنقضّ على رأسي ، فتعال إليّ فوراً ... إنني أنتظرك على أحرّ من الجمر ... وأنت وحدك الذي تستطيع إنقاذي !...»

ووقّعت الرسالة : « فتاة فسحة الإرميتاج ذات الثوب الورديّ »، وزادت فأوضحت : « شارع الأولاد الصالحين ، قبالة قصر أرجانسون . الآنسة جان بواسون ، تعال سريعاً ، تعال !...»

ولم تُعد قراءة ما كتبت بل طوت الورقة ووضعتها في غلاف أنيق معطّر كتبت عليه العنوان وختمته بالشمع وقالت ساهمة :

— ترى، من الذي سيحمل هذه الرسالة إلى الفارس داساس؟.. أأكلف بذلك أحد الخدم ؟.. كلا ! أأكلف وصيفتي لويز ... لا بأس ... ولكن لا ، فإن لويز ضعيفة الإرادة وقد تعلم السيدة

بواسون منها كل شيء وأنا لا أثق مطلقاً بالسيدة بواسون فإنها تمثّل في كل ما يجري دوراً أجهله ... إذن ، فمن الذي سأكلّفه يا ربي ؟...

ودقّت الساعة الخامسة في تلك اللحظة ، وإذا يد تقرع الباب قرعاً خفيفاً وإذا ذلك الباب يُفتح ويدخل منه الطارق قبل أن يسمع الأمر بالدخول . وارتفع صوت خشن أبحّ يقول :

— لا تضطربي يا بنيّة ، هذا أنا ، أنا الأب بواسون حبيب ابنته الصغيرة !...

فغمغمت جان قائلة في سرّها وهي ترتعش :

« هذا السكّير !... أجل ، ولماذا لا ؟... فليس لي إلا أن أنفقه بقليل من المال لينزل عند مشيئتي !... هذا هو رسولي المرتجى ... فإنه سيحمل رسالتي الآن وغداً ينسى كل شيء!.. »

وكان الرجل الذي دخل القاعة كهلاً يناهز الخمسين من العمر مستدير الجسم كبير البطن قصير الساقين أحمر الوجه مرتعش الأجفان غليظ الشفتين يتنشّق السعوط بصورة متواصلة. وقد خلعت الطبيعة وسامة حقيقية على قسمات وجهه إلا أن الشهوات الدنيئة أذبلت تلك القسمات فظهرت فيها آثار الرذيلة . وكان يرتدي ثياباً ثمينة إلا أن الأناقة كانت بعيدة عنه بعد الأرض عن السماء فإن سرواله المخمليّ كان مرقّشاً ببقع الخمر وكانت سترته ، وهي من الأطلس ، لا تخلو من بعض الثقوب ، أما حذاؤه المزدان بتنزيلات من الذهب فقد كان مكسوّاً بطبقة كثيفة من الوحل ... وأخيراً كانت قبّعته الثمينة ذات الريشة منحرفة على رأسه في وضع غير

لائق .

وتهاوى الرجل إلى أوّل مقعد وقع في طريقه وقال وهو ينفخ بشدّة :

— أفّ لهذا الحرّ الشديد !...

فقالت جان وهي تجلس إلى قربه بدلال :

— وأفّ للعطش الشديد أيضاً !... أليس كذلك ؟

فقال وهو يضحك ضحكة مجلجلة :

— تذكّري دائماً يا ابنتي ما يقوله الأب بواسون ... نوح بواسون ... إنه يقول إن العطش موجود دائماً ، في الشتاء والصيف والخريف والربيع. إن العطش يا بنيّتي هو صديق الرجل الحميم لأن الذي لا يشعر بالعطش لا يشرب ... وذلك هو الرجل التعس !..

فقالت وهي تغالب اشمئزازها :

— أما أنت فإنك في عطش أبديّ ، أليس كذلك ؟

— أبديّ ... أجل يا ابنتي ... تلك هي الكلمة !... وأنت اليوم مثال اللطف والرقّة !... ولا أريد بما سأقوله أن أظهر عتبي عليك، ولكن كلما دخل أبوك المسكين غرفتك ، وهو لا يدخلها سوى مرّة واحدة في كل خمسة عشر أو عشرين يوماً يتراءى له أنك لا تكادين تخاطبينه !...

وتناول من جيبه منديلاً كبيراً مملوءاً بالسعوط فمسح عينيه بأطرافه وقال :

— إن أباك مسكين ... مسكين !...

وترقرق الدمع في عينيه — أهي دموع الأسى أم دموع أثارها

السعوط ؟ — وأردف قائلاً :

— أترين ؟... إنني أبكي !... ماذا كنت أقول ؟... أجل، إنني في عطش أبديّ ... ولا أدري كيف يتّفق لي دائماً أن أشعر بازدياد العطش كلما زدت شرباً !... ولكن ... أنا اليوم في عطش رهيب ولا مال لديّ !...

— أصحيح ؟

— هذه هي الحقيقة الخالصة. وقد زعم صديقي كرابيون أنني سكران فحاول أن يسندني ليوصلني إلى هنا !... أأكون سكراناً، أنا ؟!... إن تلك التهمة تبكيني كما ترين ...

وكان من النادر حقاً أن يتّفق لنوح بواسون أن تسطو على لبّه الخمرة مثلها في ذلك اليوم ...

وكانت جان تفرك كفّيها في يأس . ترى أيقوى نوح بواسون، وهو على ما هو عليه من السكر ، على أن يحمل رسالتها إلى الفارس داساس ؟... كانت تسائل نفسها عن ذلك بقلق متفاقم . ولكن ، من جهة أخرى ، أليس في ذلك السكر المالك زمام نوح بواسون ما يضمن لها عدم خيانته إياها ؟

فقالت وقد صمّمت فجأة على تنفيذ فكرتها :

— أصغِ إليّ !... إنك في حاجة إلى المال وسأعطيك أنا مالاً .

وعرضت على أنظاره صرّة تحتوي على عشر قطع ذهبية ، فمدّ يديه في ذهول شديد ولمعت عيناه وغمغم قائلاً :

— أواه !... أواه !...

– إن هذه القطع لك على أن تؤدي لي خدمة بسيطة .

– سأؤدّي لك عشر خدمات ... مائة خدمة ... ألف ألف خدمة !...

فقالت بغبطة وارتياح :

– خذ هذه الرسالة ... حسناً ، إقرأ عنوانها ... شارع سانت اونوريه ... أتعرف ذلك الشارع ؟... حسناً ، إحتفظ بها في جيبك السرّي ... حسناً . إطبق عليها سترتك ... حسناً. والآن أقسم لي على أمرين .

فبسط يده في سرعة وقال :

– إنني أقسم لك عليها !...

فقالت في صبر اليائس :

– رويدك ، فإن أوّل ما يجب أن تقسم لي عليه هو أنك ستبرح هذا المنزل دون أن تخاطب أيّ إنسان ، أتسمع ؟... لا تخاطب أحداً !...

– أقسم لك على ذلك !...

– والأمر الآخر هو أن تسير من هنا إلى شارع سانت اونوريه دون أن تتوقّف ... فإذا رأيت حانة في طريقك فحول وجهك عنها ...

– أقسم لك على ذلك أيضاً !... إليّ بالصرّة !...

فناولته إياها ، فرازها لحظة بيده ورفعها إلى شفتيه ثم أخفاها في أحد جيوبه . وعندئذٍ ضمّت الفتاة يديها وقالت في ضراعة تأثّر لها السكران :

– إنني أتوسّل إليك أن توصل هذه الرسالة إلى صاحبها في أقصى السرعة ...

فأجاب قائلاً :

– ها أنا ذاهب ، ولتخنقني أبالسة الجحيم فيما إذا تفوّهت بكلمة لأيّ شخص هنا حتى ولو كان امرأتي الطيّبة .. . وليُحكم عليّ بالعطش الأبديّ فيما إذا وقفت في أيّة حانة كانت قبل أن أوصل هذه الرسالة إلى صاحبها !...

وابتعد بتلك العظمة الخاصّة بالسكارى الذين يجهدون أنفسهم في أن لا يترنّحوا ذات اليمين وذات اليسار . وكانت جان واثقة من أمانته فقالت في نفسها :

« بعد ساعة من الزمن ستصل رسالتي إلى الفارس داساس ... لقد نجوت !... »

وبعد نصف ساعة ، عندما دخل السيد دي تورنهام القاعة التي اتخذتها جان مشغلاً ، هرعت الفتاة إلى لقائه فترامت بين ذراعيه وقالت في غبطة وارتياح :

– أبي ، أبي الطيّب !...

فجذبها السيد دي تورنهام إلى صدره وقال :

– إذن ، فإنها صحيحة تلك الحكاية التي رواها لي ابن أخي من أن كلاً منكما يحب الآخر ؟... أتتزوّجين منه ؟... أسعيدة أنت بهذا الزواج ؟...

فأغمضت عينيها وهي تختلج وقالت بصوت ثابت النبرات جعل من تلك التضحية الهائلة التي ستقوم بها أمراً لا بدّ منه :

— نعم ، نعم يا أبتاه !...

الفارس داساس

*

كان الليل قد أخذ في الهبوط فألقى غسق لطيف ، بعد ذلك النهار المشرق الوضّاء ، كآبته على باريس القديمة فبدت وكأنها مالت إلى الرقاد .

وفي تلك الساعة المتأرجحة بين النهار والليل ، وقد أخذ الظلام يطارد في الشوارع الضيّقة آخر إشراقات السماء ولم تكن مصابيح الليل القليلة المتباعدة قد أضيئت بعد ، في تلك الدقيقة المتناهية في العذوبة التي ساد فيها الهدوء والاطمئنان اجتاز خيّال شاب باب رول على متن جواده السابح في العرق المنهوك القوى .

وكان يتجلّى في ذلك الخيّال النضر الوجه الرقيق الشباب الرائع في انتصابه على متن جواده ، كان يتجلّى تفكير عميق في ملامحه وابتسامة قلقة على شفتيه وسحر وخشوع في عينيه الصريحتين المشرقتين . ولم يكن سوى الفارس داساس بطل حادث فسحة الغاب في الإرميتاج .

وكان اجتيازه باب المدينة في مساء ذلك اليوم الجميل نفسه الذي رأى فيه ، في فسحة الغاب المشرقة وتحت الأشجار المذهّبة بأشعّة الشمس ، تلك الفتاة الرائعة المعبودة . وقد أحدثت تلك الرؤيا

في نفسه انقلاباً عظيماً بما جعلته يصطدم به من حدثين فجائيّين خفق لهما قلبه النبيل الذي لا يبوح في مستهلّ الحياة : حب ومبارزة !

ولكن ، أتراه كان يفكّر في المبارزة ؟... كلا ، فقد كاد ينسى وجه الكونت دي باري وسحنته القاسية ونظراته الباردة الجامدة . ولم تستقرّ أفكاره إلا عند تلك الغريبة المجهولة التي لم يكن يعرف عنها سوى أنها تقيم في شارع الأولاد الصالحين إزاء قصر المركيز دار جانسون .

وإنها لجميلة تلك الغريبة المجهولة ، إنها ذات حسن فريد وبشرة بيضاء ورديّة وهي أشبه بآلهة الغاب بشعرها الحريريّ المتماوج وعينيها اللتين تتجلّى فيهما الفطنة والجرأة والرغبة المدهشة في الاستطلاع وتضطجع فيهما أحلام الحب الحائرة البعيدة الغور ...

ومنذ اللحظة التي أبصر الفارس فيها تلك المخلوقة الرائعة التي نُقشت صورتها إلى الأبد في قلبه أحسّ بعاطفة غريبة تجتاح كيانه كله وتملك عليه نفسه وتفكيره .

وعندما بلغ شارع سانت اونوريه انعطف إلى اليمين ودخل فناء فندق حسن الرواء ، وسرعان ما هرع نحوه خادمان أمسك أحدهما بعنان الجواد بينما أخذ الآخر يرفع عن متنه كيس الأمتعة (حقيبة السفر اليوم) .

وكان أبناء الأقاليم يميلون إلى النزول في فندق الدلافين الثلاثة في باريس ، فإن بعده عن الأحياء الكثيرة الضوضاء ووقوعه ، مع ذلك ، على مقربة من أسواق الأخذ والعطاء كانا يحبّبانه إليهم . فضلاً عن أن المأكل فيه لم يكن يخلو من اللذّة ، وكانت أسعاره في

غاية الاعتدال فإن صاحبه السيد كلود لا يقسو على زبائنه وذلك مما يدلّ ، في أصحاب الفنادق ، على المروءة ورفعة الأخلاق ، فضلاً عن أن السيدة كلودين ، زوجة صاحب الفندق، امرأة لطيفة مرحة في السادسة والعشرين من العمر ، بيضاء ممتلئة الجسم عبلة الساعدين رائعة العينين، وقد أطلق عليها نزلاء الفندق لقب «كلودين الحسناء» وهو أمر لا يستهان به .

ويقع فندق الدلافين الثلاثة قبالة دير للرهبان ، وفي ذلك ما فيه من الحسنات ، حتى إذا وقع فيه أيّ حادث فإن المصاب سيكون على ثقة تامّة من أنه يستطيع أن يحظى ، في ساعته الأخيرة، برجل دين يعترف إليه بخطاياه . وقد قال السيد كلود صاحب الفندق إن هذه الميزة مما يزيد في قدر فندقه لأن من يشاء أن يموت فيه يعرف تماماً أنه سينتقل من الحياة إلى الآخرة على ما تقضي به أحكام الدين.

وعندما ترجّل الفارس داساس في فناء فندق الدلافين الثلاثة ، ظهر السيد كلود على رأس درجات المدخل الأربع التي بُويت لتقادم عهدها . وما أن أعلن الفارس الشاب عن رغبته في غرفة يأوي إليها وفي عشاء يلتهمه ، حتى حيّاه صاحب الفندق تلك التحيّة التي كان يرحّب بها بالذين لم تبسم لهم الثروة من نزلائه . وكان قد رأى الفارس الشاب لا يتبعه أيّ خادم ورأى كيس أمتعته صغيراً ضامراً فأدرك نوع الزبون الذي أمامه ، فصفّق بيديه وصاح قائلاً :

ـ أعدّوا الغرفة ذات الرقم ٢٥ لحضرة السيد ، فإنه سيكون فيها كالأمير !...

ودفع الفضول السيدة كلودين فأطلّت هي أيضاً على رأس الدرج

إلى جانب زوجها وتفرّست هي أيضاً في الزبون الجديد وفكّرت هي أيضاً بالغرفة التي تليق به، فقالت تعارض زوجها في لهجة الأمر :

ـ كلا، كلا!... إن الغرفة ذات الرقم ٢٥ مشغولة، والأفضل أن يقيم حضرة السيد في الغرفة ذات الرقم ١٤ .

فأخفى السيد كلود رأسه خاضعاً لمشيئة امرأته وعاد إلى مطبخه، في حين بدرت من الفارس داساس إشارة عدم اكتراث تدل على أنه لا يبالي سواء نزل في الغرفة ذات الرقم ٢٥ أو في الغرفة ذات الرقم ١٤ .

غير أنه لو عرف أن الغرفة ذات الرقم ٢٥ مظلمة سوداء واطئة السقف تقع في الطابق الأخير تحت السطح المنحرف تماماً وأن الغرفة رقم ١٤ جميلة مشرقة واسعة مريحة تقع في الطابق الأوّل وتطلّ على الشارع وعلى الحدائق الغنّاء في دير اليعقوبيّين، لو عرف ذلك لأقبل على صاحبة الفندق الحسناء الشديدة الاهتمام بأمره يشكر لها حسن التفاتها إليه .

وفي القاعة العامة، وقد جلس فيها إلى مائدة عارمة يعلوها غطاء نظيف لمّاع ، لم يلاحظ أيضاً أن الحسناء كلودين كانت تقوم بخدمته بنفسها ، وهو شرف لا يناله سوى فئة قليلة من تجّار الجوخ والمخمل، ولم يكلّف نفسه أيضاً أن ينظر إلى يديها الجميلتين البيضاوين ولا إلى ذراعيها المكشوفتين لغاية المرفق ولا إلى عينيها المخمليّتين الناعستين الرائعتين بل تعشى بشهيّة ابن العشرين ـ وابن العشرين لا يفقد شهيّته حتى أمام الحب ـ ثم أوى إلى الغرفة ذات الرقم ١٤ وهي الغرفة التي أطنبت له السيدة كلودين ، أثناء العشاء ، في مدحها بحق . ولا

ريب بأن صاحبة الفندق الحسناء قد خفق قلبها للفارس الجميل عندما بدا لها .

وكانت الساعة قد بلغت التاسعة ، وكان الفارس تعباً منهوك القوى، فإن المرحلة التي اجتازها في النهار كانت طويلة شاقة. ومع ذلك فإنه لم يفكّر في الرقاد بل عمد إلى كيس أمتعته فأبدل ثيابه وهو يرتعش ارتعاش من فرغ صبره وأصلح عقدة شعره وطيّات معطفه ومسح سيفه من الغبار. ولم يبذل كل تلك الهمّة إلا للاسراع إلى شارع الأولاد الصالحين. إلا أنه لم يكن يقصد من وراء إسراعه ذاك أن يذهب ليراها هي بل ليطوف حول منزل صامت ويحدّق في الظلام إلى نافذة ربما تكون مغلقة ، ومع ذلك فمن يدري ؟ ربما يلمح خيالاً ينعكس على ستائر تلك النافذة !

وعندما انتهى من تلك الاستعدادات وأوشك أن يطفىء المشعلين اللذين كانا يضطرمان على المدفأة وقد تزايد خفقان قلبه ، في تلك اللحظة بالذات سمع طرقاً على الباب فأسرع يفتحه . ولم يلبث أن تراجع خطوة إلى الوراء وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً ، فقد لاح له في ظلمة الرواق شبح الكونت دي باري منتصباً في كبرياء ، فسرت القشعريرة في جسد الفارس داساس وهوى من السماء التي رفعته إليها أحلام الحب، إلا أنه سرعان ما استعاد هدوءه فلم يفكّر في سوى القيام بواجبه على ما تقضي به عادات ذلك العصر وآدابه فرفع قبّعته وانحنى أمام دي باري بلطف وقال :

— مرحباً بك يا سيدي الكونت !...

فدخل دي باري وقبّعته في يده وقال :

— يؤسفني جداً أن أزعجك في مثل هذه الساعة يا سيدي الفارس !...

— وأنا يخجلني أن أستقبلك في مثل هذه الغرفة الحقيرة !...

وحيّا كل منهما الآخر ، ثم استأنف الفارس كلامه فقال :

— أيروقك أن نشرب معاً في صحّة الملك ؟

— إنه لشرف كبير لي !...

وجلس الكونت دي باري في المقعد الذي عيّنه له الفارس داساس ، ونادى هذا أحد الخدم وطلب منه أن يأتيه بزجاجة من خمر إسبانيا .

وبعد لحظات كان كل منهما جالساً إزاء الآخر لا يفصل بينهما سوى طاولة عليها قدحان وزجاجة من الخمر . فملأ الفارس داساس الكأسين ، ثم قرع كل منهما قدحه بقدح الآخر قرعاً خفيفاً فيه شيء من الوقار وقالا معاً :

— في صحّة جلالة الملك !...

وكانت تلك العبارة من مصطلحات ذلك العصر يستعملها كل خصمين كي لا يضطرّا إلى الشرب في صحّتهما ، وقال دي باري عندئذ :

— إن زيارتي الأولى هي لك كما ترى ، فإن الملك دخل باريس في الساعة الثامنة وعليه أن يجتمع غداً بالسيد دار جانسون. أما أنا فإنني لم أهتم حتى بالتعريج على منزلي لشوقي المفرط إلى امتداحك..

فقال الفارس ببساطة تامّة :

— إنه مديح أقبله منك وأردّه إليك بدوري ..

www.mlazna.com
RAYAHEEN

فانحنى دي باري. وتوالى الحديث بضع دقائق وقد تناولا فيه، برحابة صدر وخفّة روح، المواضيع كلّها ما عدا الموضوع الذي يشغلهما. وأخيراً نهض دي باري يحاول الانصراف، وعندئذٍ فقط تحدّث في ما أقبل لأجله فقال:

— أيها الفارس، أريد أن أقوم غداً بنزهة لطيفة وقد أعجبني حديثك وأدبك، ولشدّ ما يروقني أن تكون رفيقي في تلك النزهة ...

— هذا مما يلذّ لي يا حضرة الكونت، وإذا قُضي عليّ، لنيل ذلك الشرف، أن أقطع مسافة ثمانية أيام، وهي المسافة التي اجتزتها لبلوغ باريس، فإنني لن اتأخّر عن اجتيازها مرّة أخرى.

— حسناً، حسناً، إلا أنني لن أحوجك إلى أن تذهب بعيداً فإن النزهة التي سأقوم بها غداً صباحاً لن تجاوز مرج الملكة، فهل يروقك أن توافيني إلى ذلك المرج قرب جسر الحجارة؟

— دون شك، فإنني سأكون هناك في الساعة الثامنة صباحاً.

— جميل جداً أيها الفارس، إنك رفيق ظريف ...

وانحنى كل من الخصمين للمرة الأخيرة أحدهما أمام الآخر، وابتعد الكونت دي باري بينما أغلق الفارس داساس باب غرفته وجلس في مقعده وأخذ يفكّر قائلاً في نفسه:

«يا له من وجه شؤم!... يبدو لي أن يد التعاسة قد انقضّت عليّ وأن ذلك الحلم الجميل الذي كنت أمني به النفس قد تلاشى واضمحلّ وأن لقاء ذلك الرجل سيكون ذا أثر هائل في حياتي!... ولكن ما لي وللمخاوف، أيجوز لمثلي أن يخاف؟...»

وكأنما أيقن من أن الطواف في شارع الأولاد الصالحين في تلك الساعة أصبح عديم الفائدة، فنزع ثيابه بحركة آليّة وأوى إلى فراشه حيث تقلّب طويلاً. وكان في تعب شديد فانتهى به الأمر إلى أن ينام نوماً عميقاً.

وفي اليوم التالي في الساعة السابعة صباحاً، كان على تمام الاستعداد لبراح غرفته وقد زال من نفسه كل أثر للاضطراب، وسار في خطوات رشيقة واسعة فبلغ مرج الملكة وانحدر من هناك إلى ضفاف النهر لجهة جسر الحجارة، ولشدّ ما كان ارتياحه عندما لاحظ أنه كان أوّل من حضر إلى الموعد.

وبعد دقائق، وكانت تدق الساعة الثامنة في إحدى القباب البعيدة، أقبل الكونت دي باري يرافقه شاهدان، فهرع داساس إلى لقائهم وبعد أن تبادلوا التحيات قال الفارس:

— أيها السادة، لما كنت قد وصلت أمس فقط إلى باريس ولما كنت راغباً في أن لا أحمل سيدي الكونت على الانتظار، فقد ارتكبت هفوة المجيء إلى الموعد وحدي دون شاهدين.

فقال أحد شاهدي الكونت في هدوء تامّ:

— إن اسمك أيها الفارس داساس، وهو ذو شرف معروف في مقاطعة أوفيرن التي أقمتُ فيها بعض الوقت، يكفي ليكون شاهداً لك.

فنظر الفارس إلى مخاطبه بدهشة لا تخلو من الشكر، وعندئذٍ رأى الكونت دي باري أن يعرّف الرجال الثلاثة بعضهم ببعض فقال وهو يشير إلى أحدهما:

— حضرة الكونت دي سان جرمين .

وكان الكونت دي سان جرمين يلقي على الفارس داساس نظرة غريبة ذات بريق نفّاذ .

ثم استدار دي باري نحو ذلك الذي تحدّث عن أسرة داساس وعن مقاطعة أوفيرن وقال :

— حضرة السيد هنري لو نورمان ديتيول .

وزاد فقال بابتسامة مغتصبة :

— لما كنت غنياً بالشهود فأرى أن أتقاسم شاهديّ وإياك أيها الفارس . إن الكونت دي سان جرمين سيكون شاهدي والسيد هنري لو نورمان ديتيول سيكون شاهدك ، وإنني واثق من أن ذلك سيسرّه جداً .

فرضي الجميع بذلك الحل ونزع الخصمان معطفيهما ووقفا وقفة الحذر ، وفي اللحظة التالية ارتفع صليل السيفين . وليست غايتنا هنا أن نصف الطعنات المفردة والمزدوجة والثلاثية والرباعية التي تبودلت بل نكتفي بالقول بأن الكونت دي باري كان واحداً من ألمع رجال السيف في البلاط كله ، وقد هاجم خصمه بدقة وخبرة لا تشوبهما شائبة . واستمرّ القتال عشر دقائق مقسّمة على جولات ثلاث . ولم يكن ذلك الذي دعاه دي باري الكونت دي سان جرمين يرفع عينيه النفّاذتين عن الفارس داساس فكان يزنه ويقيسه في اهتمام بالغ .

وفي الجولة الرابعة انقضّ داساس فوراً على خصمه وسدّد إليه، دون أيّ احتكاك ، طعنة مباشرة صاعقة فترك الكونت دي باري

سيفه وشحب وجهه شحوباً شديداً ، فقد أصابته الطعنة في كتفه فاخترقتها من جانب إلى جانب ، ولبث هنيهة واقفاً وإذا به يسقط كتلة واحدة بين ذراعي الكونت دي سان جرمين . إلا أنه فتح عينيه على الأثر بينما كان الفارس داساس يقترب منه فقرأ هذا في تينك العينين حقداً هائلاً رهيباً جعله يجمد في مكانه مكتفياً بأن ينحني أمام المغلوب . وفي تلك اللحظة غاب دي باري عن الصواب .

وصفر الكونت دي سان جرمين في صفّارة من الذهب الخالص فانحدرت مركبة ، كانت تنتظر هناك ، إلى ضفاف النهر فألقي دي باري فيها . وأخذ داساس يرتدي ما نزع من ثيابه قبل قيامه بالمبارزة ، وما كاد يسير إلى تلك الجهرة فيحييها وينصرف عنها حتى اقترب منه الكونت دي سان جرمين وأمسك بيده بحركة تتجلّى فيها السلطة . فارتعش الفارس لتلك الملامسة وحاول أن ينتزع يده فلم يستطع ، لقد كانت كأنما أُصيبت بالشلل عندما قبض دي سان جرمين عليها . فغمغم داساس قائلاً بشيء من الغضب والاضطراب :

— أيها السيد !...

فترك الكونت دي سان جرمين يد الفارس بعد أن تفحّصها مليّاً وقال :

— إنني معجب بك أيها الفتى ، فأنت تملك الذكاء والشجاعة وجمال الجسد والروح والشباب ، والحماسة التي هي قصيدة العقل الرائعة ... أجل ، إن لديك كل هذه الكنوز فاحرص عليها حرصاً شديداً واسهر على نفسك واحذر الحقد ... وخاصّة إحذر

الحب !..

فاستولى على الفارس اضطراب غريب وقال بصوت خافت حار :

– من أنت يا سيدي ؟... فإنني أجهلك ومع ذلك فأنت تثير في نفسي مشاعر تدهشني ... ماذا تريد أن تقول لي ؟... أتوسّل إليك أن توضح ... فقد قلت أكثر مما يجب أو أنك لم تقل كفاية !

فنظر الكونت إلى الشاب في شفقة متناهية وقال :

– تجنّب النساء يا ولدي ... وخاصة الملكات .

ورغم أن دي سان جرمين لا يكاد يبلغ الثلاثين – أو ذلك ما كان يبدو عليه على الأقل – فإن كلمة « ولدي » التي خاطب بها داساس لم تكن تبدو في غير محلها ، فقال الفارس في ذهول شديد :

– الملكات ؟!... ولكن ما تقوله لي غريب يا سيدي ...

– الملكات ؟!... وهل قلتُ الملكات ؟... حسناً ، تجنّب إذن النساء اللواتي قد يرتقين إلى مصافّ الملكات . وداعاً أيها الشاب ... واقبل هذه النصيحة التي أعطيك إياها وهي أن تعود إلى مقاطعتك ... ليس غداً حتى ولا هذا المساء بل منذ هذه الدقيقة .. منذ هذه الثانية . أهرب أيها الشاب ، أهرب ! فإن هواء باريس سم قاتل بالنسبة إليك . أهرب توّاً !...

وزاد الكونت دي سان جرمين فقال في رصانة كلّية :

– غداً يفوت الأوان . أتسمع ؟...

فاستولى على الفارس قلق خفي يمازجه الرعب والفضول وكاد

يلقي سؤالاً جديداً ، إلا أن الكونت دي سان جرمين كان قد اتخذ مكانه في المركبة قرب الجريح الغائب عن الصواب. وابتعدت المركبة في بطء ، وكلما اتسعت المسافة بينها وبين الفارس كان يشعر بتناقص ذلك الاضطراب الغريب الذي أوقر كاهله .

وكاد ينسى مبارزة الكونت دي باري والنصر الذي أحرزه منذ لحظة ، فإن أفكاره كلها انحصرت في ذلك الرجل العجيب الذي نصحه بإلحاح شديد بأن يغادر باريس .

أيترك باريس؟!... دون أن يراها هي ؟... ودون أن يسكر بصورتها اللطيفة وبصوتها الأكثر لطفاً ؟... كلا ، كلا ، أبداً !..

وفي تلك اللحظة لمست يد ذراعه فارتعش ارتعاشاً عنيفاً كمن يُسلخ فجأة من أحلامه واستدار كتلة واحدة فرأى نفسه أمام ذلك الذي كان شاهده في المبارزة والذي قُدّم له باسم السيد لو نورمان ديتيول ، فصاح قائلاً :

– آه يا سيدي ، إنني مدين لك بألف شكر ... ولكن كيف أنك ...

– كيف أنني لا أرافق دي باري الجريح ؟... إنني لم أفعل ذلك لسببين يا سيدي العزيز . أولهما ، وهو الأكثر وجاهة ، هو أنني بقبولي أن أكون شاهدك أصبح من واجبي أن أبقى إلى جانبك حتى بعد المبارزة ، وثانيهما ، هو أن قرب الكونت دي باري الآن رجلاً يفيده أكثر مما يفيده أصدقاؤه كلهم مجتمعين .

فقال داساس بسرعة :

– أيكون الكونت دي سان جرمين طبيباً إذن ؟

www.mlazna.com

— إنه طبيب وساحر وكل ما يحلو لك أن يكون ...

— أتعرفه ؟

— كما يعرفه جميع الباريسيين لا أكثر ولا أقل ...

— عفواً عن فضولي الذي قد يكون تطفلاً ، فإن ذلك الرجل قد أحدث في نفسي من التأثير ...

فقال ديتيول مقاطعاً :

— ما جعلك تتوق إلى معرفة حقيقته ؟!... هنا العقدة المعقّدة يا سيدي واللغز الغامض الذي يقف العقل أمامه عاجزاً كليلاً. فإن جميع الناس يعرفون الكونت دي سان جرمين ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يكتشف سرّه ، فبعضهم يقول إنه غنيّ كمهراجا من مهراجات الهند وآخرون يقولون إنه لا يملك درهماً . وربما يكون إيطاليّاً أو رومانياً أو يونانياً أو مالطياً ... هذا إذا لم يكن عربياً أو مصرياً ... هذا إذا لم يكن أحد أبناء مقاطعة بونتواز ... ولكن مما لا شكّ فيه أنه يعيش في سعة ورخاء وقد أُعجب الملك نفسه بما يملك من الملابس والمركبات الجميلة والجياد المطهّمة ... فضلاً عن الجواهر النادرة التي يرشقها هنا وهناك في ثيابه ومجموعة الماس الفريدة التي يتحلّى بها أحياناً والتي يسيل لها لعاب أيّة محظيّة من محظيّات سلاطين الشرق . ولنعد إلى ما كنّا بصدده من شأن الجريح ، فكن واثقاً من أن الكونت دي سان جرمين سيشفيه سريعاً ، وسريعاً جداً .

فقال داساس :

— إنني أرجو ذلك من صميم قلبي .

وكان الرجلان قد غذّا في السير منذ هنيهة ، وعندما بلغا مرج الملكة أشار ديتيول إلى مركبة كانت واقفة هناك وقال :

— إن عربتي تحت مطلق تصرّفك يا سيدي ... كلا ، لا تشكرني ... إلى أين تريد أن أذهب بك ؟

ودفع الفارس إلى المركبة بودّة أدهشته ، فأعطى داساس عنوانه وعندئذٍ صاح ديتيول قائلاً للسائق :

— أسرع بنا إلى فندق الدلافين الثلاثة في شارع سانت اونوريه.

وكان هنري لو نورمان ديتيول قد تفحّص داساس مليّاً خلال الدقائق العشر التي استمرّت فيها المبارزة، فأعجب برشاقته ومرونته ومهارته ورباطة جأشه وسرعة حركاته في اتّقاء الطعنات وخفّته الهائلة في الانقضاض على خصمه ، كما زاد في إعجابه ما بدا له في الفارس من لامبالاة مرحة إلى جانب جرأة نادرة وقبضة ليّنة فولاذية .

وثارت الرغبات والمطامع في ذهن لو نورمان ديتيول ، ثارت بالسرعة والإرادة والشدّة والنظام التي يتحلّى بها أولئك الرجال الذين يسعون إلى بلوغ أهدافهم مهما كلفهم الأمر ومهما تشعّبت السبل إلى تلك الأهداف المشبوهة المظلمة البعيدة. والسيد لو نورمان ديتيول كان له هدف يسعى إليه ؛ هدف قد يكون هائلاً رهيباً .

وعندما أصاب داساس خصمه بتلك الطعنة الصاعقة ، استقرّ ديتيول على رأي حازم فقال في نفسه :

« إنني ضعيف واهي القوى لا أحسن استعمال السيف ولا أتمتّع بأيّة جرأة وشجاعة، فلماذا لا يكون إلى جانبي رجل يملك ما أفتقر

إليه أنا فتكون لي قوّته ومهارته وشجاعته ؟... كل شيء يُشترى بالمال حتى الشجاعة ، وأنا الذي لا أملك سوى أفكاري أستطيع بما لديّ من المال أن أشتري الشجاعة والقوّة اللتين أحتاج إليهما في تحقيق مشاريعي ... إذن ، فيجب أن ألحق هذا الشاب بخدمتي مهما كلّف الأمر !

وخلال الطريق من جسر الحجارة إلى شارع سانت اونوريه أخذ لو نورمان دبتيول يحاول بكل ما لديه من القوة أن يستميل الفارس إليه. وقد يكون نجح في ذلك بعض النجاح فإن نفس الشاب كانت أشبه بقيثارة حسّاسة في مهبّ الريح تتلاعب بأوتارها كل نسمة هواء، فالإخلاص ينطبع على صفحاتها وكذلك كل ما يبدو لها إخلاصاً . فكان في حاجة إلى شخص يبادله الصداقة والودّ وقد أثارت هيئة رفيقه الضعيف من الشفقة في نفسه أضعاف ما أثاره فيها بيان دبتيول المتمتق . وفي اللحظة التي أراد داساس أن يترجّل فيها من العربة ، أمسك دبتيول ذراعه بلطف وقال له :

— بيناً يا سيدي العزيز ، إنني أشعر نحوك بانعطاف ومودّة كأنني أعرفك منذ الصغر . فدعني إذن أنظر إليك نظرتي إلى صديق .

— إنه شرف كبير لي يا سيدي .

فقال دبتيول بلطف متناهٍ :

— إذن، فسأنظر إليك نظرتي إلى صديق مخلص وفيّ وأطلعك على بشرة سارّة ... إنها تسرّني أنا على الأقلّ... سأتزوّج !... فألقى الفارس نظرة إشفاق على قامة دبتيول المشوّهة وقال

بصدق وإخلاص :

— أهنّئك من صميم قلبي .

فقال دبتيول مفاخراً :

— سأتزوّج أجمل النساء في باريس وأخفهن روحاً وأوسعهن ثقافة . والذي يلفت النظر في هذا الزواج هو أن خطيبتي تحبّني بمقدار ما أعبدها !

— إنه زواج حبّ إذن ؟

— أجل ، هذه هي الكلمة .

فقال الفارس في عطف كلّي :

— أتمنّى لكما السعادة .

فقال دبتيول وهو يضحك ضحكة خبيثة استاء منها داساس :

— أعتقد أنني سأكون في أوج السعادة لا سيّما وأن الزواج سيتمّ غداً عند الظهر تماماً. ولما كنّا صديقين حميمين إذ أننا صديقان حميمان — فأقول إنني لك بكليّتي ... ولو كنتُ ماهراً في المبارزة لقلت لك : « هذا هو سيفي ، فتصرّف به كما يحلو لك !... » بيد أنني لسوء الطالع لست سوى رجل واسع الغنى ، ولذلك فإنني أقول لك : « تصرّف بمالي أيها الصديق العزيز كما يحلو لك فإنه ملكك !... »

وكان يقول ذلك وهو يتفرّس في داساس بإمعان بالغ فلم يزد الفارس على أن انحنى أمامه ببرودة . وأردف دبتيول قائلاً :

— أما وقد أصبحنا صديقين فإنه مما يسرّني جداً أن تشهد حفلة زواجي وموعدها غداً عند الظهر تماماً ، كما قلت لك ، في كنيسة

سان جرمين لو كسيروا ...

– سأفعل ذلك بكلّ سرور، فمن الشرف لي أن أوقّع اسمي في سجلّ تلك الرعيّة .

– إذن، فصافح يدي أيها الفارس. إنني أعتمد عليك كما أعتمد على أعزّ أصدقائي فقد بهرتني بشجاعتك وقوّتك واعجبت أيّما إعجاب برقّة شمائلك ورفعة أخلاقك. وسأعتبرها مصيبة فادحة إذا خطر لك يوماً أن تكون عدوّي !

فقال داساس ضاحكاً :

– كلا ، كلا ، أرجو أن نظل صديقين .

وترجّل من العربة وحيّا ديتيول تحيّة أخيرة ودخل الفندق ، وكانت المركبة قد وقفت أمامه . وعندما خلا بنفسه في غرفته أخذ يفكّر ويقول :

– ها أنا أمام عدوّ رهيب ، فإن الكونت دي باري رجل حقود والنظرات التي رمانى بها عندما كنت على وشك أن أصافحه أثارت الرعشة في قلبي . ولكن التوازن موجود في الحياة لحسن الحظ ، فبينما أرى عدوّاً يحقد عليّ حقداً قاتلاً إذا بي أكسب صديقاً مخلصاً ، فإن السيد ديتيول رجل وديع لطيف . وإذا صدق ظنّي وجاز لي أن أحكم على الظواهر لحكمت بأن له في البلاط مكانة مرموقة ، وهو أمر لا يُستهان به بالنسبة إلى ضابط صغير فقير مثلي ، أما نبوءة ذلك الرجل العجيب الكونت دي سان جرمين فإنني لن أحفل بها، ومهما يكن فإنني لن أغادر باريس ... باريس التي تقيم فيها هي ... باريس التي تستنشق هي هواءها ... أوَ ليس

من السعادة لي أن أستنشق الهواء نفسه الذي تستنشقه هي ؟...

وكان الفارس داساس قد أتى إلى باريس وهو يحمل رسالتي توصية : إحداهما للدوق دي نيفرنيه والأخرى للماريشال ميربوا . وكان هذان الرجلان يقيمان في فرساي حيث ينتقل البلاط في ذلك الفصل من السنة .

ورغم رغبة داساس الملحّة في أن يطوف حول منزل فاتنته في شارع الأولاد الصالحين ، فقد رأى أوّلاً أن يقوم بالمساعي التي يقضي عليه بها مستقبله كضابط في الجيش . فأسرع يسرج جواده ويسير به خبباً في طريق فرساي وهو يقول :

– سأعود في الساعة الخامسة ، وعندئذٍ ...

أما لو نورمان ديتيول فإنه توجّه فوراً في مركبته إلى قصر السيد دي تورنهام في رصيف الأوغسطينيين حيث لبث مقدار ساعتين، ثم توجّه من هناك رأساً إلى منزل السيدة بواسون في شارع الأولاد الصالحين حيث جرى ذلك المشهد الرهيب الذي وصفناه ، بينه وبين جان .

وكان ديتيول ، لفرط يقينه من أنه سيرغم الفتاة على أن ترضى به زوجاً ، قد راح يدعو أصدقاءه إلى حفلة الزواج التي حدّد موعدها في اليوم التالي .

بواسون وكرابيون

*

عاد الفارس داساس إلى فندق الدلافين الثلاثة في الساعة التي

www.mlazma.com

توقّعها تقريباً ، أي في الساعة السادسة مساءً ، وكانت جان في تلك الساعة نفسها تسلّم نوح بواسون تلك الرسالة التي كتبتها إلى الفارس الشاب بما رأيناه من الحرارة .

وكان داساس قد نجح بعض النجاح في مساعيه في فرساي ، فإنه لم يستطع رؤية الدوق دي نيفرنيه إلا أن الماريشال دي ميربوا استقبله بنفسه ، وبعد أن استمع إلى مطالبه بعطف بالغ قطع له تقريباً على نفسه عهداً بأن يبلغه ما أتى ينشده في باريس . وقد جاء داساس ينشد مركزاً في الحرس الملكي الذي يضمّ فئة مختارة من زهرة النبلاء في فرنسا ، حريصة جداً على حقوقها ونعمتها لا يتسنى لكلّ إنسان أن يندمج فيها .

فكان لوعد الماريشال دي ميربوا في نفس داساس تأثير كبير سُرّ له الفارس سروراً عظيماً . والآن ، وقد خلا باله من كل همّ ، فقد عمد إلى إصلاح هندامه إذ لم يبقَ ما يحول دون طوافه في ذلك الشارع السعيد الذي تقيم فيه تلك التي تسيطر على أفكاره في كل لحظة من لحظات وجوده .

وعندما انتهى من العناية بنفسه وأصبح في منتهى الجمال والأناقة والرشاقة ، هبط الدرج أيضاً أربعاً أربعاً ووثب إلى الطريق العامّ . إلا أنه اصطدم على عتبة الباب برجل ضخم الجثّة قصير القامة مضطرب الخطوات ، وما كاد هذا يصاب بالصدمة حتى سقط أرضاً وهو يطلق صيحة مكتومة ، فحيّاه الفارس واعتذر له بأدب وتابع طريقه يكاد ينهبه نهباً .

فأخذ الرجل يتأمله في ذهول ويستنزل اللعنات على مثل أولئك

الشبّان الطائشين المتهورين الذين يصدمون الشيوخ ويتابعون طريقهم ، ثم نهض متثاقلاً وهمس ببضع كلمات في أذن السيدة كلودين صاحبة الفندق التي أسرعت تشاهد ما يجري على عتبة فندقها . فما أن سمعت السيدة كلودين كلام الرجل حتى اندفعت إلى الشارع تنادي الفارس داساس ، إلا أن هذا كان قد اجتاز مسافة لا بأس بها فلم يسمع النداء ، أو أنه لم يشأ أن يسمع لاعتقاده أن ما كان يسعى إليه أفضل من أن يضيع وقته في الإصغاء إلى ما ستقصّه عليه صاحبة الفندق .

وسار رأساً إلى شارع الأولاد الصالحين ، فقد كان يحسّ حاجة ملحّة إلى ارتياد ذلك الشارع . فوطّد عزمه على أن يجوبه كلّه ليعرف مقرّ حسناته المجهولة ، ثم يعود بعد ذلك إلى فندق الدلافين الثلاثة فيتناول عشاءه بهدوء وينسحب بعده إلى غرفته حيث يتفرّغ لأحلامه الرائعة ومناجاة طيف الحبيبة الحسناء .

وعندما أوشك أن يبلغ الشارع المبارك استولى عليه تأثير غريب ، تأثير مخالطه التردّد والألم والخجل والميول المتناقضة ، فكان من جرّاء ذلك أن حوّل وجهة سيره فبدلاً من أن يدخل شارع الأولاد الصالحين إذا به يلج شارع سان نيقولا على مقربة من اللوفر القديم . وتابع طريقه من هناك فبلغ الجسر الجديد وانعطف إلى اليسار فبلغ شارع سان دينيس . وهام طويلاً على وجهه وإذا به عند الساعة الثامنة في شارع مونمارتر ، فدخل حانة في زاوية شارع فوسيه مونمارتر تعشّى فيها . وقد أدّى به ذلك السير المضطرب إلى حيث كان يريد أن يصل كأن جاذباً قوياً يشدّ به إلى قرب تلك التي هيم بها . فكانت الحانة التي دخلها على بعد مائتي خطوة من ساحة

الانتصارات التي كانت تؤدّي من جهة أخرى إلى شارع الأولاد الصالحين .

وانتهى من العشاء عند الساعة التاسعة ، فجرع زجاجة من خمر بورغونيا وغادر الحانة في اللحظة التي كانت تقفل فيها أبوابها ، وبعد دقائق كان يقف في وسط شارع الأولاد الصالحين أمام مدخل قصر أرجانسون ، وقد أدار ظهره للقصر الشاهق الفخم ورفع أبصاره إلى المنزل الصغير الذي ينتصب قبالته في الجهة الأخرى من الشارع والذي بدت شرفاته كلها غارقة في الظلام . وبعد أن تأمّل ذلك المنزل هنيهة ، قال في نفسه :

« إنها تقيم هناك !... »

وتاهت نظراته في ذلك المنزل المظلم الذي لا يتسرّب أيّ ضوء من نوافذه ، واستولى عليه تأثّر شديد كان يسمع معه دقّات قلبه ، وفجأة رفع يده إلى شفتيه وأرسل على أطراف أصابعه قبلة أمامه .. في الفراغ ...

وعندئذ خُيّل له أن واجهة ذلك المنزل تبكي في الظلام ... وسيطرت الأحلام والرؤى تتقاذفه في محيط من الأوهام لا قرار له ، فانتفض وهزّ رأسه بعنف كأنما ليطرد من نفسه تلك الوساوس إلا أنها ازدادت في نفسه رسوخاً !...

ماذا؟... هل من مصيبة تهدّد ذلك المنزل؟... وأصاخ بسمعه ، وكان ، وهو ينصت ، على شبه يقين من أنه يسمع شيئاً أشبه بالزفرة البعيدة المخنوقة بل أشبه بأنغام حزينة ... بالغة الحزن ... ترسلها أصابع إحدى المحتضرات على قيثارة خفيّة .

فأخذ يلهث ، وإذا به يقول فجأة بصوت أشبه بالأنين :

ـ كلا ، كلا ، ليس وهماً ما تولّد في دماغي ، فإنني أسمع بكاء في هذا المنزل !... إن فيه من يتألّم ... وقد تكون هي التي تتألّم ... فكيف أدري ؟... أأطرق بابها في هذه الساعة المتأخّرة ؟... هذا جنون ! ... وبأيّة ذريعة أطرق بابها ؟ ... أجل ، بأيّة ذريعة ؟ ... أقسم بالسماء أنني سأعلم ما يجري في هذا المنزل !... سأعلم فوراً حتى ولو كان عملي في غير موضعه وباعثاً على السخريّة بي !...

وكاد يندفع نحو المنزل ... وإذا نوافذ أربع من الطابق الأوّل ينبعث منها النور فجأة ، فلبث مسمّراً في مكانه ...

وفي اللحظة نفسها سمع نمغمة وراءه فاستدار منتفضاً كأن وحشاً نهشه بأنيابه ... فأبصر هناك ، في فجوة بوّابة قصر أرجانسون ، ثلاثة أشباح ... ثلاثة رجال كانوا ينظرون مثله إلى المنزل الصغير المقابل .

فماذا يفعل هؤلاء الرجال؟... ومن هم؟... وماذا يريدون؟.. لا شكّ في أنهم أتوا إلى هناك لأجلها !... وعصفت في صدره غيرة جنونية تصاعد الدم معها إلى رأسه ، فاشتعل رأسه وخفق صدغاه وتشنّجت يده بمقبض حسامه ومشى إلى أولئك الرجال الذين يجهلهم وصاح بهم قائلاً في صوت يتهدّج غضباً :

ـ هُولا ! ماذا تفعلون هناك ؟... أجيبوا وإلا فقسماً بروحي أنني ...

فقاطعه صوت آمر يقول في لهجة مطاطة طافحة بالاحتقار :

– وماذا تفعل هناك أنت بنفسك !...

وكان ضوء الشرفات الأربع قد غمر أولئك المجهولين الثلاثة ، فلاحظ داساس بنظرة كوميض البرق أن كلاً منهم كان يتقلّد سيفاً وأن معاطفهم كانت تخفي وجوههم كلّها فلا يظهر منها سوى العيون .

وتابع الصوت المطّاط نفسه يقول في عظمة أثارت الفارس :

– سر في طريقك أيها المتطفّل !...

فتململ داساس وزأر قائلاً :

– أقسم بالسماء أن سيوفنا ستبيّن لنا الحقّ من الباطل وسترينا من هو الذي يجب أن يسير في طريقه !...

وضرب بيده على مقبض السيف يحاول امتشاقه ، وفي تلك اللحظة بالذات بدرت من الرجل الذي تكلّم بلهجة الأمر حركة أزاحت معطفه قليلاً فأضاء وجهه قبس من النور ... فصُعق داساس في مكانه : أيحلم ؟... أيكون ما يراه صحيحاً ؟...

وأخذ يتراجع في بطء وهو منحني الظهر يغمغم قائلاً وهو يلهث :

– الملك !... الملك !... تحت نوافذها !... آه !...

وفي تلك اللحظة رفع أحد الرجال الثلاثة يده يشير بها ، وإذا برجل يبدو من زاوية قريبة ويتقدم نحو الفارس في خفّة وحذر .

وكان داساس لا يزال ماضياً في تراجعه وقد تضاربت في رأسه الأفكار والهواجس، وفجأة شعر بصدمة عنيفة في رأسه كأن ضربة هائلة انقضّت عليه من الوراء ، فسقط على ظهره وغاب فوراً عن

الصواب .

وقال الرجل الذي تكلّم باحتقار :

– بيربيه ، إذهب وانظر من هو ذلك الرجل المجنون !

فاقترب الذي نودي باسم بيربيه من الفارس ، وصوّب إلى وجهه أنوار مصباح تناوله من تحت معطفه وأخذ يتفحّصه مليّاً كأنما ليطبع ملامحه في ذاكرته ، ثم هزّ رأسه وعاد نحو رفيقيه فهمس لهما ببضع كلمات قال في ختامها :

– لا شكّ في أنه من أبناء المقاطعات ، فماذا نفعل به ؟

فتردّد ذلك الذي انزاح معطفه أمام داساس هنيهة كأنه يبحث عن أمر يعطيه ، وإذا به يقول وهو يهزّ كتفيه في لامبالاة :

– دعوه حيث هو ، فسيعتقد عندما يستيقظ أنه كان يحلم . ولننصرف الآن أيها السادة فإن هذا الحادث قطع عليّ اللذة التي كنت أرجوها من وراء هذه النزهة الليلية في شوارع باريس ... ثم إن جرحك الخفيّ يؤلمك يا كونت !...

فأجاب الرجل الذي لبث صامتاً إلى تلك اللحظة ، فقال :

– إن الرجل الشريف لا يتألّم ويجهل أنه جريح عندما يقوم بواجبه !...

واقترب من الفارس بدوره ونظر إليه قليلاً ، ولم يلبث أن خنق صيحة دهشة بل صيحة فرح وحشيّ مهدّد كادت تفلت من بين شفتيه ، وأسرع فلحق برفيقيه اللذين كانا يبتعدان في طريق اللوفر. وقال يخاطب بيربيه ساخراً :

– من واجبي يا حضرة رئيس الشرطة أن أصلح خطأك !...

www.mlazma.com

وكان رجال الشرطة يخرجون من الظلمات ، كلما تقدّم الرجال الثلاثة في السير كأنهم حشرات كريهة تخرج من جحورها.
وقال بيربيه جواباً على كلام رفيقه :

– ماذا تعني يا حضرة الكونت ؟

– أعني أنني أعرف ذلك الرجل الذي دعاه صاحب الجلالة بالرجل المجنون ... وقد يكون كلّ شيء إلا أنه ليس مجنوناً !...

فقال ذلك الذي خاطب داساس باحتقار :

– اوضح يا دي باري !

فدار بين الرجال الثلاثة حديث طويل استمرّ حتى أبواب اللوفر.
فماذا قال دي باري؟... وأيّة كلمات همس بها في آذان رفيقه!..
من يعلم ؟... ولكن رئيس الشرطة قال عند نهاية ذلك الحديث :

– إنني في انتظار أوامر مولاي !...

فاكتفى لويس الخامس عشر بأن يتلفّظ بهذه الكلمات الثلاث:

– إلى سجن الباستيل !...

ودخل اللوفر يتبعه الكونت دي باري وهو يخفي ما ساوره من الفرح عندما سمع كلام الملك .

وأخرج بيربيه صفّارة من جيبه ونفخ فيها فأسرع نحوه فوراً عشرة رجال كانوا مستترين في أمكنة مختلفة من الشارع ، فأعطاهم بعض الأوامر المقتضبة وزوّدهم بالمعلومات اللازمة فانطلقوا على الأثر في اتجاه شارع الأولاد الصالحين .

واتفق أنه عندما برح الملك مخبأه أمام قصر أرجانسون ولحق به رفيقاه ، ظهر من طرف الشارع من جهة ساحة الانتصارات شبحان

غريبان. وكانا متساندين بالأيدي والأكتاف، يقفان كلما خطرت لهما فكرة يتبادلانها ، وقد بدا جلياً أنهما كانا يترنحان من السكر كلما عادا إلى استئناف السير . وقال أحدهما :

– كن على يقين يا كرابيون من أنه لا فائدة من أن نذهب بعيداً ...

فأجاب الآخر قائلاً :

– إنني في غاية الفضول لأعلم لماذا يا نوح ؟...

– إصغ إليّ ... ألا نكون من فئة الحيوانات إذا ثابرنا على إجهاد نفسينا في المشي ؟...

– لماذا يا بواسون ... لماذا ؟... أريد منك أن توضح لي الأمر !...

– لأن المنازل هي التي تمشي ... وتأتي إلينا !...

– أقسم بسميراميس وبيروس وزنوبيا نفسها أنك سكران..
أنت سكران يا نوح كأن فلكك الشهير رسا على « أرارات » من زجاجات الخمر !...

فقال نوح بواسون وهو يكاد يبكي :

– إنك تهينني يا كرابيون !...

فقال كرابيون ساخراً :

– قل لي يا نوح ... يا صديقي ... ألم يكن طوفانك التاريخيّ من الخمر ؟ ... يا للشيطان ! ... ولكن ما هذا ؟ ...
ما هذا الجسد ؟...

وكان الرفيقان قد وقفا أمام قصر أرجانسون وهما يتبادلان هذا

الحديث فعثرت رجل كرابيون بالفارس داساس المطروح على الأرض غائباً عن الصواب ، فانحنى كرابيون عليه وقد عاد إليه بعض رشده على أثر ذلك الاكتشاف غير المتوقّع ، وقال بواسون وهو يعطس :

— إنه زميل لنا دون شكّ ... فدعه في رقاده !

فصاح كرابيون يزجره قائلاً :

— أصمت أيها السكران ... إن هذا التعس جريح ... وربما كان ميتاً !...

فردّد نوح بواسون قول رفيقه وقد تبدّد بخار الخمر هنيهة من رأسه :

— أيكون ميتاً ؟...

وزاد فقال بعطف :

— يا للفتى المسكين !... إنه شابّ ، وجميل ... ولشدّ ما أتألم للتي تهواه !...

فقال كرابيون في غبطة وارتياح :

— كلا ، كلا ، إنه ليس ميتاً ... إن قلبه يخفق ... إيه يا سيدي !... إستيقظ ... رأفة بنا !...

فأرسل الفارس داساس أنّة ضئيلة إلا أنه لم يخرج من إغمائه ، فقال كرابيون في حيرة بالغة :

— ما العمل ؟... فأنا لا أرضى مطلقاً بأن أحمل لقب الشاعر ، ما دمت لا أستطيع أن أمدّ يد المساعدة إلى هذا الفتى التعس !..

وكان كرابيون شاعراً حقاً ، فهو مؤلّف رواية إليكتر ورواية

آبريه وتياست وتلك الرواية التمثيلية الجميلة راداميست وزنوبيا التي حكم عليها ظلم الأجيال المقبلة بالنسيان ... مسكين كرابيون!..

فقال نوح بواسون :

— أنحمله إلى منزلي ؟...

— من هنا لغاية شارع هوشيت ؟!... قد يموت عشر مرّات في الطريق !...

— إذن ، إلى منزلك !...

— إن مفترق بوسي أكثر بعداً !...

— ما العمل إذن ؟... ما العمل ؟...

فانتصب الشاعر واقفاً وقال :

— يا لها من فكرة !... لقد وجدتها !...

وأشار إلى منزل السيدة بواسون وقال في لهجة تمثيلية :

— أطلب من امرأتك أن تنزله ضيفاً عليها !...

فضرب بواسون بيده على جبهته وصاح قائلاً :

— ما كنت لأجد ذلك وحدي ولو لبثت أقدح زناد مخيّلتي إلى آخر الزمن !... إلا أن تأليفك الروايات التمثيلية يوحي إليك دائماً بما أجهله أنا ... ها إنني أدخل منزل امرأتي !...

وأجهد نفسه في حفظ توازنه وتقدّم يطرق باب منزل السيدة بواسون . وبعد قليل أسرع خادم يفتح ذلك الباب وعندما عرف في الطارق زوج ربّة المنزل لم يمانع مطلقاً في إجابته إلى ما يطلب بعد أن أوضح له القضيّة .

وتكاتف الرجال الثلاثة على الفارس داساس فحملوه إلى الداخل

وأغلقوا الباب وراءهم . وبعد أقلّ من دقيقة كانت أشباح صامتة تتسلّل إلى شارع الأولاد الصالحين وتقف كتلة واحدة أمام قصر أرجانسون .

وصاح ذلك الذي يبدو عليه أنه رئيس تلك الشرذمة الرهيبة ، فقال وهو يلعن :

— لقد طار !... لقد اختفى !...

فقال عملاق عريض المنكبين ضخم الجثّة :

— إنه أمر مدهش وأيم الحق !... ومع ذلك فإن الضربة التي أصابت رأسه هي نفسها الضربة التي نلجأ إليها في المواقف الحرجة البالغة الخطورة !... وهيهات أن يستفيق منها الذي تصيبه إلا بعد ساعات طويلة ... هذا إذا استفاق !...

— قد تكون أخطأت في تسديدها أيها الأحمق ... ولكن ، لنتابع سيرنا فقد نلحق به !...

وتسلّلت شرذمة الشرطة إلى ساحة الانتصارات ثم اضمحلّت في الظلمات كأنها طيور الليل .

وفي منزل السيدة بواسون أُلقي الفارس داساس على مقعد طويل واسع أشبه بالسرير في قاعة صغيرة من الطابق الأرضيّ . وأضاء الخادم المشاعل فشعرت السيدة بواسون بحركات الرجال الثلاثة فبدت عند باب القاعة في ثياب النوم ، وأطلعها كرابيون على ما جرى بيضع كلمات فألقت نظرة على الفارس الغائب عن الصواب الذي كان النور يغمر وجهه في تلك اللحظة . وكان نوح بواسون يتأمّل ذلك الوجه وهو يفكر قائلاً في نفسه :

« أين رأيته ؟... أين رأيت هذا الوجه يا ترى ؟... أنا متأكد من أنني أبصرت هذا الشاب في مكان ما ومنذ وقت قريب !... أجزم بأنني رأيته كما أجزم بأن خمر آنجو أكثر جودة من خمر شامبانيا ... ولكن ، أين رأيته ؟... ومتى ... وفي أيّة ظروف ؟...

وارتعشت السيدة بواسون فجأة ، فقد خُيّل لها هي أيضاً أنها تعرف الفارس . ولما كانت أفكارها أكثر جلاء ووضوحاً من أفكار زوجها المحترم فقد تبلّجت أمامها الحقيقة فوراً ، فقالت في سرّها :

« لقد عرفته ... إنه خيّال فسحة الغاب ... ذلك الذي تخاصم مع الصيّاد والذي كاد أن يلتهم جان بعينيه !... إنه يطوف حول هذا المنزل ، وقد أُغمي عليه أمام الباب !... يجب أن أطّلع على حقيقة أمره ... إنه فتى جميل الطلعة فخور ذو أنفة ، ولكنه خالي الجيب ... فاحذري يا ابنتي ولا تكوني حمقاء !...»

وقبضت على ذراع زوجها وجذبته إلى زاوية في القاعة الصغيرة وقالت له :

— حسناً يا سيدي ، يمكنك أن تتصرف فأنا أتولّى أمر هذا الشاب !...

فقال نوح يخاطب رفيقه :

— هيّا بنا يا كرابيون !...

فقالت السيدة بواسون آمرة :

— إنتظر لحظة !... أعتقد أنك لم تنس ما يجب عليك غداً!

— كلا يا سيدتي !

— كن هنا في تمام الساعة العاشرة فالأمر خطير !... ولكن إحذر السكر ... فإنك إن كنت سكراناً تفقدنا الشرف كلّنا !...

فاحتجّ قائلاً :

— سيدتي !...

— أما إذا صنت نفسك عن السكر ، إذا كنت كما يقتضي الظرف أن تكون ، فسوف تجد في الثوب الفخم الذي سترتديه ألف ليرة ذهبية ... ألف ليرة ... أتسمع ؟... هيّا واجتهد في أن تكسب ذلك المبلغ !...

فصاح وهو يفرك عينيه قائلاً :

— ألف ليرة ؟!... يا لله ! إن ذلك يكفي لإرواء كرابيون شهرين متواليين !...

— ولإروائك أنت ؟...

فاحتجّ قائلاً :

— سيدتي !...

— إذهب ، إذهب الآن ولا تنسَ ما أوصيتك به !...

— ألف ليرة !... تعال يا كرابيون ... تعال أيها الصديق المخلص ... تعال أخبرك ...

وتأبّط كل من الرجلين ذراع الآخر وغادرا المنزل ملتصقين متساندين كأنما السكر الذي فارقهما لحظةً عاد إليهما ، فما كاد التأثّر يزول من نفسيهما حتى عادت نشوة الخمر تستولي على لبّهما .

وراحا يجتازان طريقهما في منعطفات وتعاريج وهما يتباحثان في قضايا غريبة مختلفة إلى أن بلغا نهر السين الذي كان عليهما أن يجتازاه للوصول إلى منزليهما .

وفي ذلك الوقت كانت السيدة بواسون تنظر في حالة الفارس داساس وقد بدا لها أن لا أثر فيه للجراح ، فقد كان الشاب مصاباً فوق صدغه الأيمن بضربة لا تترك وراءها أثراً ظاهراً إلا أن ذلك لا يمنع من أن تكون هائلة رهيبة ، فقالت في هدوء وبرودة :

— لا أعتقد أنه سيموت !...

ثم ضحكت ضحكة خبيثة وأردفت تقول :

— ومع ذلك ، وإذا مات بضربة دم في الدماغ فمن أين لي أن أدري ؟... إن ذلك لا يُرى !...

واكتفت بأن توفّر للفارس راحته على المقعد وأن لا تحرمه مشعلاً بنيره وانصرفت إلى غرفتها . وعاد السكوت يخيّم على المنزل .

وكان الفارس داساس قد أُغمي عليه فوراً عندما أصابته الضربة وسقط في الشارع ، ثم تجلّى في دماغه بعض النور أشبه بما يتراءى للعين من بصيص في الظلام الحالك فشعر بأن هناك من يمسك به ويحمله إلى مكان ما يمدّده فيه . وانقضى زمن لم يدرك الفارس مداه ، وإذا ببعض الأفكار تلوح في ذهنه ثم تختفي ثم تعود ، وشعر بثقل في رأسه دونه ثقل الرصاص وسمع طنيناً قوياً مزعجاً في أذنيه أشبه بهدير الشلاّل .

وأخيراً التحمت أفكاره بعض الشيء فاستطاع أن يفكّر

www.mlazna.com

بصورة واضحة تقريباً ، وكان ما فكّر فيه رهيباً هائلاً فقد تمثل له الموت وأيقن من أن دمه يتصاعد إلى رأسه بعنف ويتجمّد ، وكان في حاجة إلى بعض الماء يبلّ به جبينه الملتهب وصدغيه ... كان الماء ينقذه من الموت ، فصاح قائلاً :

— ماء !... آتوني بقليل من الماء !...

وقد خُيّل له أنه تلفّظ بتلك الكلمات في صيحة عالية داوية والحقيقة أن شفتيه لم تتحرّكا . ففكّر في نفسه قائلاً بيأس ومرارة :

« رباه !... أأموت ؟... أأموت وقطرة من الماء تنقذني ؟.. أليس من أحد حولي ؟... ألم يسمع أحد صياحي ؟... أواه ، لو كنت أستطيع أن أمدّ يدي إلى حنجرتي !...

وتمطّى في جهد بالغ إلا أنه لم يتحرّك قيد شعرة من مكانه.. كانت ساقاه ثقيلتين ثقل الرصاص وذراعاه كأنهما في قيد متين محكم ... لم يستطع أن يفعل شيئاً حتى ولا حركة بسيطة واحدة .

غير أن ذلك المجهود أدّى به إلى نتيجة ، فقد انشقّت أجفانه عفوياً وعندئذٍ بدا له في إطار الباب المفتوح شبح أبيض رقيق هفهاف ...

وكان ذلك الشبح يتقدّم نحوه فتقلّصت أعضاؤه كلها في تشنّج عنيف وخُيّل له أن زئيراً شديداً ينبعث من حنجرته الضيّقة كأن يدين فولاذيتين تضغطان عليها ... زئير فرح عظيم هائل طاغٍ... لقد عرف ذلك الشبح الأبيض الذي يقترب منه ... إنه هي ... هي ... فتاة فسحة الإرميتاج ذات الثوب الوردي !...

الكونت دي باري

*

عاد الكونت دي سان جرمين بذلك الرجل الذي جرحه الفارس داساس في الصباح بطعنة سيف في كتفه، إلى منزله. وكان الكونت دي باري يقيم في جزيرة سان لويس في نهاية رصيف آنجو في قصر قديم تطلّ نوافذه على جزيرة لوفيه الصغيرة الكثيرة الرمال المقفرة التي تمتدّ في نهر السين على شكل لسان يرتاده في النهار بعض الصيّادين وتأوي إليه في الليل جماعات المتسوّلين والمتشرّدين واللصوص والقتلة .

وفي الماضي ، في منتصف عهد لويس الرابع عشر ، عاش الكونت دي باري والد الكونت الحاليّ في سعة وأبّهة في ذلك القصر الكبير ، ذلك القصر الذي شاهدت كل قاعاته الكبرى حفلات شيّقة وأعياداً بهجة تجري فيها .

إلا أن تلك القاعات تبدو الآن صامتة باردة ، فإن كل ما كان فيها من رياش ثمين ولوحات رائعة لكبار الرسّامين وستائر ذات قيمة ، كل ذلك خلت منه الآن فقد بيع بعضه وذهبت الأيّام بما تبقّى .

وكان القصر نفسه مرهوناً . وعندما كان الكونت الإبن يطأه، كان وقع خطواته يتجاوب بشكل رهيب في قاعاته الكئيبة الخالية كأنما يوقظ أصداء مفجعة تشير إلى أن ذلك القصر مدفن جيل قد

اضمحلّ، فيتألّم الكونت لذلك ويقطّب حاجبيه الأسودين الكثيفين وينتفخ صدره بزفرة مرّة طويلة ...

ويتذكر أيام طفولته التي انقضت في رخاء العيش والأبّهة والحفلات والأعياد، ويتذكر الأساتذة الذين تولّوا تثقيفه وكبار النبلاء المتوافدين على قصر أبيه زرافات ووحداناً والسيدات الحسان اللواتي كنّ يمازحنه ويداعبنه .

ثم مات والده ...

وكان الكونت دي باري آنئذ في الثامنة عشرة من العمر ، ولم يكن في صغره يحب أباه كثيراً ، فقد بدا منه أنه ذو طبع جاف يفكّر في أشياء لا يودّ أن يفضي بها إلى أحد من الناس ، وكان أحياناً ، في ساعات غضبه ، يشتم أساتذته ويضرب خدمه. وعندما أصبح شاباً يملك ثروة طائلة عرف الناس ما يجول في ذلك الرأس وأيّة إرادة تكمن وراء ذلك الجبين القاسي المقطّب وأيّة أفكار تسوده .

فإن الكونت دي باري لم يذرف دمعة واحدة على أبيه ، وما كاد النعش يطبق على الوالد الميت حتى عمد الإبن إلى بيان يحدّد فيه ثروته ، وكانت ثروة طائلة ضخمة لا يقلّ دخلها السنويّ عن مائتي ألف ليرة ، وهو مبلغ هائل ، إلا أن الكونت لم يكن راضياً عن مثل ذلك المبلغ بل كان ينتظر المزيد .

وعندئذٍ ظهرت أطماعه وشهواته وبدت عيوبه التي كانت تسترها الأناقة والفخفخة فإذا انغماسه فيها دون وازع أو رادع يكشفها ويفضحه . وظهر لجميع الناس أن الكونت دي باري من عشّاق

الخمر والنساء المتهالكين على الملذات. وأراد أن يعرف الملذات كلها. وعندما عرفها طاب له أن يبتكر ملذات أخرى فأدهش باريس وأثار الشكوك في البلاط وراح ينثر المال بالقبضات ويقضي على ثروة أبيه بالنضوب والجفاف ويقيم في قصره الفخم – مرتع النبل والعفّة فيما مضى – حفلات الفجور والعهر والفسق والزنى ، فكان يحمل إلى غرفة والدته النساء الفاجرات والمومسات وكل امرأة تبيع جسدها وقعت عينه عليها . وبعد أن يذيق أولئك النسوة حياة الترف والبهرجة ويبهر عيونهن ببريق الذهب والجواهر يطرحهن من جديد في الجحيم الذي كان قد انتشلهن منه .

وكان عذره الوحيد في ذلك أنه لم يعرف والدته ، فإنها ماتت بعد ثلاثة أشهر من مولده .

ولما كان محروماً عطف الوالدة فقد سادت الأنانية البطّاشة قلبه فنفوت فيه كل عاطفة نبيلة وسطع في عينيه بريق قاس أشبه بلمعان الفولاذ فتجلّت فيهما برودة مخيفة .

وكان يجهل معنى الخير والشر ، كان يعرض عن الخير إلا أنه مع ذلك لا يمكن القول بأنه رجل شرّير ، فإن الشرّ نفسه لا بدّ من أن يظهر فيه بصيص من العاطفة. ولم يكن الكونت دي باري ذا عاطفة على الإطلاق ... كان ، بكلمة مختصرة ، جسداً دون روح .

وانصرفت بضع سنوات وإذا ثروة أسرة دي باري الهائلة تذوب وتضمحلّ ...

وذات صباح رأى الكونت دي باري نفسه وجهاً لوجه أمام

الفقر والخراب ...

فقد باع أملاكه وأراضيه في مقاطعة نورمانديا قطعة قطعة ، وباع مزارعه وقصوره الثلاثة مع غاباتها وبحيراتها ، وباع أثاث قصره ... لقد باع كل شيء ما عدا اسمه .

وبدا له الموقف الرهيب على حقيقته : فإما تعاسة وفقر وإما انتحار ...

أينتحر ؟... كلا ، فإنه لا يريد أن يموت لا لكونه جباناً بل طمعاً أيضاً في ملذات الحياة ... كان لا يطيق أن ينسلخ عن تلك الملذات وقد استطابها .

أيرضى بالتعاسة والفقر ؟ ... كلا أيضاً ، فإن التعاسة والفقر يحرمانه تلك الملذات ...

فنادى إليه خادمه الوحيد الذي بقي لديه وقال له :

— إذهب وجئني بالسيد جاك ، أتعرفه ؟... إنه ذلك المقيم في شارع فوان ...

وبعد ساعة من الزمن كان صاحب ذلك الإسم — أو على الأقلّ لم يكن يعرف له الكونت اسماً آخر — يدخل باسماً ويخرج إلى القاعة الصغيرة التي جلس فيها الكونت دي باري .

ولم يكن أحد يعلم شيئاً عن حقيقة ذلك الرجل ، وكل ما يعرفه الناس عنه أنه يعيش ، دون أيّ سر يكتنف حياته ، في منزل صغير في شارع فوان على مقربة من الساحة الملكية عيشة أقرب إلى الفقر منها إلى الغنى .

فقال الكونت دي باري :

www.mlazna.com
KRAYAHEEN

— أيها السيد جاك ، إنك جئت إليّ ثلاث مرّات : منذ سنة ومنذ نصف سنة ومنذ ثلاثة أشهر ، وفي كل من تلك المرّات أعدت على مسمعي قولك : « عندما يحل بك الخراب التامّ إلجأ إليّ فأنقذك ! » وها هو الخراب قد حلّ بي ، وقد استدعيتك كما ترى !...

— وهل حلّ بك الخراب التامّ ... كل ما يُسمّى خراباً تامّاً يا كونت ؟

فقال دي باري وهو يصرف بأسنانه :

— كل الخراب أيها السيد جاك ، فلم يبقَ لديّ شيء !...

— أصحيح ما تقول ؟... وهل وصلت الحال إلى الحدّ الذي تعيّنه يا سيدي الكونت ؟

— أجل ، فإنك إن بحثت في جميع الأدراج لن تستطيع أن تجمع أكثر من مائة ليرة وهو جزء من عشرة مما يتوجّب عليّ لآخر خادم عندي !...

— ما دامت القضية كذلك ، فلنتحدّث إذن يا سيدي الكونت !...

— لنتحدّث أيها السيد جاك !...

وعندئذ « تحدّث » السيد جاك . وكان الكونت ، وهو يسمعه ، يحمرّ ثم يصفرّ وأحياناً يهز برأسه سلباً في عنف وقوّة . غير أن السيد جاك كان يعود إلى الهجوم بعناد لطيف وإصرار هادىء .

وكان النهار قد أوشك على الانصرام عندما أخرج من جيبه ورقة ألقاها على الطاولة أمام دي باري وقال بصوت ظهرت عليه

القسوة والبرودة فجأة :

— وقّع هنا !... أتريد ؟...

فألقى الكونت دي باري إلى ما حوله نظرات تائهة يائسة ، فقد شعر في تلك اللحظة دون شكّ بذينك التردّد والتمرّد اللذين كان يحسّهما الملعونون في خرافات العصور القديمة وهم يوقّعون المواثيق الشيطانية . إلا أنه وقّع الورقة مع ذلك فطواها السيد جاك بدقّة بالغة وأعادها إلى جيبه ، ثم انحنى أمام الكونت في وقار وابتعد دون ضجّة وسط الظلمات المتكاثفة .

ومنذ تلك اللحظة لم يعد الكونت دي باري يعرف ما هي الحاجة إلى المال ، فكان لديه منه دائماً ما يكفيه للظهور في البلاط بما يقتضي مقامه ، إلا أن تلك الحالة لم تكن لترضيه ، كانت تثقل على نفسه ، ومع ذلك فقد روّض نفسه على احتمالها إلى أن تسنح له الفرصة التي ينتظرها ... ولكن أيّة فرصة هي ؟... وحده الكونت يستطيع أن يحدّدها ... والسيد جاك !

وكانت أخلاق الكونت تزداد حدّة يوماً بعد يوم، وكان يتّفق له أحياناً ، أثناء ليالي السكر والعربدة ، أن يرتعش فجأة ويعلو وجهه الشحوب دون أيّ سبب ظاهر .

ولبث يقيم في قصره في رصيف آنجو ولم يبقَ لديه من الخدم سوى وصيف وسائق مركبة يعتني بالجوادين اللذين كانا يسرحان ويمرحان على هواهما في إسطبل القصر الفسيح الذي كان يضمّ في أيّام الرخاء ما لا يقلّ عن عشرين جواداً .

واحتفظ بأثاث ثلاث أو أربع غرف في الجناح الأيسر جعل

منها مسكنه ، وأهمل سائر غرف القصر وقاعاته فأصبحت مرتعاً للعنكبوت والغبار .

وقاد الكونت دي سان جرمين دي باري الجريح إلى تلك الغرف المؤثّثة ، ولم يشأ أن يستدعي أيّ جرّاح بل عمد بنفسه إلى الجرح فغسله بمهارة بالغة وضمّده بعد أن كساه بطبقة كثيفة من بلسم مجهول . فقال دي باري في حنق واستياء :

— يا للشيطان ! ها أنني سأضطر إلى ملازمة الفراش ثمانية أيّام متوالية في وقت أجود فيه بثمانية أعوام من عمري كي أكون حرّاً طليقاً !...

فابتسم دي سان جرمين وقال :

— ستغادر الفراش خلال بضع ساعات .

— هل أنت واثق مما تقول ؟

— أنا لا أكذب مطلقاً يا عزيزي الكونت !... ثم ، أتريد أن أكون صريحاً معك ؟... إنني أرجو كما ترجو أنت أن تغادر فراشك وتستطيع أن تروح وتجيء... لا تتعجّب ... إنها فكرة عنّت لي ... وإنك ستستطيع منذ هذا المساء أن تقف على قدميك وتسير دون أيّ انزعاج ، وبعد يومين ستقوى على امتطاء الجواد ، وبعد ستّة أيام ستصبح ذراعك المجروحة في قوّة ذراعك السليمة .

فقال دي باري بدهشة بالغة :

— هذا رائع !... وقد بدأت أشعر منذ الآن بمفعول بلسمك .. إنك جرّاح عجيب حقاً !...

فهزّ الكونت دي سان جرمين كتفيه وقال :

— لا فضل لي مطلقاً في هذا البلسم، فإنني لست الذي اكتشفه !.. لقد تعلّمته من نوسترادامس وهو طبيب حاذق بارع ... وقد ركبّه نزولاً على رجاء كاترين دي مدسيس وتوسّلاتها ، فإن كاترين المسكينة تلك كانت تخشى دائماً أن تصاب بطعنة خنجر رغم أنها كانت سيدة كل من لعب بالخنجر .

فتردّد دي باري لحظة ، ثم قال :

— قل لي يا سيدي الكونت ... قل لي ، أنت الذي تعرف أشياء كثيرة وخاصّة ما يتعلّق منها بنوسترادامس ... قل لي.. إذا كان ذلك الساحر ... قد وجد حقاً ...

— وجد ماذا ؟...

— حجر الفلاسفة !...

— كلا ، إنه لم يجده بكل تأكيد ... ما دام قد مات .

فبدرت من دي باري حركة تدل على التعجّب ، فاستأنف دي سان جرمين كلامه قائلاً :

— إنه لو وجد حجر الفلاسفة لوجد أيضاً أكسير الخلود . كل شيء في كل شيء يا عزيزي الكونت ، أما المطلق فهو واحد وإلا لما كان المطلق . إذن ، فإن الذي يملك القوّة على خلق الذهب يملك القوة على خلق الناس وليست القوّتان سوى واحدة .

فتعالى لهاث دي باري كأنما حملته تلك الأسرار على أجنحتها إلى جوّ من الأحلام الأسطورية ، وقال :

— ولكن أنت يا سيدي الكونت ، أنت الذي تعمّقت في هذه الأمور العجيبة ... قل لي ماذا ترى أنت ؟... ماذا يلوح

لك ؟... هل من الممكن أن يجد الإنسان حجر الفلاسفة ؟...

فقال دي سان جرمين في غير اهتمام :

— ولماذا لا ؟ لقد قلت لك كل شيء في كل شيء . إن سر الوجود يكمن في مطاوي الطبيعة المتناهية الغموض. إلا أن الطبيعة إذا بالغت في الاحتفاظ بأسرارها ألا يمكن للذكاء الإنساني أن يكون من القوّة أيضاً بحيث يكتشف تلك الأسرار ؟ ألا يستطيع عالِم الطبيعة أن يحصر في بوتقته أثر حرارة الشمس في أحشاء الأرض ما دام لديه كل ما يلزم من قوّة الحساب والتخيّل ؟

فلمعت عينا الجريح لمعاناً غريباً وقال :

— آه لو كنّا نستطيع أن نملك ذلك السر ! فنصبح أغنياء ! أغنياء إلى الأبد !...

— أجل ، أليس كذلك ؟ إذ أن الغنى اللامتناهي هو اللذة اللامتناهية ، إنه الحق في إذلال المستحيل دون أي مجهود . فالذي يملك حجر الفلاسفة سيتّسع أمامه المجال لكل لذة ومسرّة ويصبح كل ما في الكون ملك يديه، لن يكون له إلاّ أن يشتهي ويشاء! فالقوة والشرف والمجد والحب ، ستصبح كلها في متناول يده ، سيكون في وسعه أن يحقق عفواً أبهج الحفلات والأعياد ويستطيع عندما يشاء أن يذلّل عقبات كل حب مستحيل ... وليكن في علمك يا كونت أن التعطّش إلى اللذة لن ينطفىء في ذلك الرجل ما دام خالداً وما دام التفريط الذي يقتل سواه لا يؤثّر فيه هو!.. فله الأطايب وأجمل النساء في الكون ، وإذا وُجدت امرأة هي أبهى نساء الأرض فإنها ستكون له دون سواه !...

وكان دي باري يلهث ويتلوّى تحت تلك الكلمات النارية التي تتساقط على دماغه كأنها ذوب الحمم ، واستأنف سان جرمين كلامه فقال :

— ثم ، أي بعد بضع مئات من السنين ، يفكر في مسرات أخرى وقد يغريه المجد فيكون رافائيل أو ميكالنج، وربما يشوقه أن يكون ملكاً فيدفعه الطموح ، والفضول خاصة، إلى ما هو أسمى .. إلى أن يتمتّع أخيراً بالهناء التامّ المطلق . فإن رجل اللذة يتألم في لذّته والفنّان النابغة يتعذّب في ابتكار موضوعه وصاحب المنصب الرفيع يخضع للوزير والوزير يخضع للملك والملك يخضع لتلك الكتلة الهائلة المغمورة التي تدعى الشعب والشعب يخضع لرؤساء وأسياد كثيرين بل يخضع للقمة العيش إذ أنه مضطر إلى العمل ليعيش ، بينما ذلك الذي يملك حجر الفلاسفة ، ذلك الذي يكتشف السرّ الأعظم، يتحرّر من سيطرة العالم أجمع، من سيطرة الشعب والوزير والملك والموت ... سيكون سيد نفسه ويشعر في كل ثانية من حرّيته المطلقة بلذة لا حد لها ، وعند ذلك ، يطلّ من القمة العليا التي يتربّع فيها فيشاهد البشريّة تتحرّك ويصغي إلى الموسيقى الجهنّمية التي تتخللها صيحات الفرح وزمجرة اليأس ، ويلقي نظرة إشفاق على أولئك الرجال المساكين التعساء الذين يقتتلون في سبيل بضعة ملايين ولا يتردّدون لبلوغ ذلك الهدف المتواضع حتى عن بيع أسمائهم !...

فصاح دي باري صيحة رعب هائلة واعتدل في سريره وهو مضطرب تائه النظرات وقال بصوت متهدّج أشبه بالحشرجة:

— ماذا تريد أن تقول؟... من هم أولئك الرجال الذين تشفق عليهم ؟... تكلم !... تكلم !... أتعرف أحداً منهم ؟...

— أنا ؟ ... كلا ! ولماذا تريد أن أعرف مثل أولئك التعساء ؟...

— كنت تقول ...

— كنت أتكلم عن لذات الرجل الذي يملك حجر الفلاسفة لأنك أنت الذي تكلمت عنه أولاً ، فلا تعلق إذن أي اهتمام آخر على ما استطعت أن أقوله في هذا الموضوع ...

— ولكن ... ألعلّك لا تكون ... أنت ... ذلك الرجل ؟

— إن تفكيرك غريب يا كونت ، وأظنّ أن لجرحك بعض الأثر في ذلك ؟ ماذا ؟! ألا يمكن للانسان أن يعبّر عن أحلامه بصوت مرتفع ؟ هيّا واهدأ ... وإلا فإنك لن تستطيع الخروج هذا المساء ...

فتزايد اضطراب دي باري وصاح قائلاً :

— من قال لك إنني سأخرج هذا المساء ؟

فقال سان جرمين وهو يقهقه ضاحكاً :

— أنت نفسك ! وداعاً يا كونت ، سأراك غداً . لا تقلق من أجل جرحك فأنا أتعهّد بشفائه .

وكانت اللهجة التي قال بها هذه الكلمات الأخيرة من الودّ وعدم الكلفة بحيث بدّدت جزءاً كبيراً من شكوك دي باري ، وعندما أصبح وحده نام ، أو تظاهر بالنوم ، لغاية الساعة السادسة مساءً.

www.mlazna.com
RAYAHEEN

وعندئذ استدعى خادمه وقال له :

— ألبسني ثيابي .

فصاح الخادم قائلاً :

— وجرحك يا سيدي الكونت ؟

— ألبسني ثيابي مع ذلك .

وغمغم قائلاً في سرّه :

« إنني أفضّل أن أفقد ذراعي اليمنى على أن لا أكون رفيق الملك هذا المساء ... لأعرف ما هو ذلك الشيء الذي يجذبه هكذا؟.. أترانى سأخفق وقد أوشكت أن أبلغ المرفأ الأمين؟.. »

وعندما ارتدى ثيابه خطا بضع خطوات كأنما ليمتحن قواه فاستنتج أنه يستطيع السير بسهولة رغم ما يشعر به من خدر في أعضائه ، فتقلّصت شفتاه بابتسامة رضى فيها بعض السخرية وقال يخاطب الملك في سرّه :

« لو أصيب أي رجل سواي بما أصبت به يا صاحب الجلالة لاضطرّ إلى ملازمة الفراش ... أما أنا فلا يستطيع أيّ جرح أن يلزمني الفراش إذا كان الواجب يدعوني إلى خدمة جلالتك ... وأرجو يا مليكي المحبوب أن تأخذ إخلاصي هذا بعين الاعتبار!.. »

وأوشك أن يغادر المنزل ، وكان الخادم يلقي له المعطف على كتفيه عندما قُرع الباب . فسار الخادم إليه وفتحه فدخل هنري لو نورمان ديتيول . وما أن رأى القادم الكونت واقفاً على قدميه حتى صاح صيحة فرح — صادقة أو كاذبة — وقال :

— تهانئي أيها العزيز !... كيف ! أتقف على قدميك ؟...

وترتدي ثيابك ؟ كنت أخشى أن يكون الجرح ...

فقاطعه دي باري وقال وقد قطّب حاجبيه قليلاً :

— إنه وخزة إبرة !

— إذن ، فسيكون في وسعك أن تحضر حفلة زفافي غداً ، أليس كذلك ؟.. إنك وعدتني بذلك أيها العزيز ... وأنا أريد أن يشهد البلاط بأجمعه سعادتي ... وما هو البلاط دون الكونت دي باري ؟...

— في الحقيقة ، لا أدري ما إذا كنت أستطيع ...

— هيّا ، هيّا ! إنك تستطيع أيها الصديق العزيز !... ويجب أن تحضر تلك الحفلة الفريدة الرائعة النادرة... يجب أن ترى ديتيول الصغير الهزيل يقود إلى المذبح أجمل امرأة في باريس ...

— أتكون حقاً على ذلك المقدار من الجمال ؟...

— سوف ترى بنفسك، إنها تحفة رائعة ... ستأتي ، أليس كذلك ؟

فقال دي باري :

— لا أظنّ أنني من القوّة بحيث أستطيع تلبية دعوتك .

— ولكنني أراك على ما يرام ، وعلى وشك الخروج .

— إنني أبذل مجهوداً فوق طاقتي هذا المساء ، فإن صاحب الجلالة ينتظرني .

فقال ديتيول بصوت أصمّ :

— آه ، أينتظرك الملك ؟

— أجل أيها الصديق العزيز !

ونظر كل من الصديقين إلى الآخر نظرة ثابتة ، ولو فُحِص لأيّ إنسان أن يرى تلك النظرة المتبادلة ويدرك معناها لتراجع مذعوراً كأنه أمام هاوية فُتحت فجأة تحت قدميه ... وكم للحقد من مهاوٍ !...

وقال ديتيول كأن شيئاً لم يكن :

— وبالمناسبة ، لا بدّ لي من أن أصارحك بأنني دعوت إلى تلك الحفلة رجلاً لم أكن لأدعوه فيما لو عرفت أنك تستطيع مغادرة منزلك . أما وأنت تتردّد في قبول دعوتي ...

فارتعش دي باري وقال مستوضحاً :

— من هو ذلك الرجل الذي تتحدّث عنه ؟

— إنني أتكلم عن خصمك في هذا الصباح ، فهو شاب لطيف ظريف وأيم الحقّ ... إلا أن واجب اللياقة وحده هو الذي حملني على دعوته إذ أنني كنت شاهده في المبارزة كما تعلم .

— إذن ، فسيأتي الفارس داساس غداً إلى كنيسة سان جرمين لوكسيروا ؟...

— أجل ، إلا إذا كان ذلك يسوؤك أيها العزيز !

— يسوؤني ؟ ... ولماذا ؟ ... كلا ، كلا ، إن ذلك لا يزعجني مطلقاً . وبرهاناً على ما أقول ، أعدك وعد شرف بأنني سأحضر غداً حفلة زفافك وأوقّع إمضائي إلى جانب إمضاء الفارس داساس الذي أحترمه كل الاحترام ... وسأبذل غداً لأجلك المجهود نفسه الذي أبذله الليلة في سبيل صاحب الجلالة !...

والتقت نظراتهما مرّة أخرى وقد تجلّى فيها الشك القاتم .

وصاح ديتيول صيحة غبطة وشكر الكونت دي باري وهزّ يده ، ثم استأذن بالانصراف وهو يقول :

— غداً عند الظهر تماماً سوف ترى أيّ جمال رائع تتمتّع به السيدة ديتيول ... فإن الملك نفسه ، وأنت تعرف ذوقه السليم ...

فقاطعه الكونت قائلاً في لهجة جوفاء :

— الملك !

— أجل ، فإن الملك نفسه سيعجب بها إذا رآها . ولكنه لن يراها .

فقال دي باري بسرعة :

— لماذا ؟

— يا للشيطان ! أنت تعلم جيداً أيها الصديق أن الكردينال فاوري الطيّب القلب الذي تولّى تثقيف الملك أخطأ قليلاً عندما تصوّر أن الأجيال المقبلة ستتعت تلميذه بلقب لويس الطاهر ، وأنا لا أريد أن أدفع من جيبي الخاصّ ثمن لقبه الجديد: لويس المحبوب. الذي أطلقه عليه السيد فاديه شاعر الهال ...

وحيّا ديتيول تحيّة أخيرة وانصرف مسرعاً ، وعندما أصبح دي باري وحده غمغم قائلاً :

— أيّ سمّ أراد أن ينفثه ذلك الصلّ ؟!...

ومرّ بيده السليمة على جبينه المندّى بالعرق واستأنف قائلاً :

— إن كلام الكونت دي سان جرمين لا يزال يراود ذهني ، فهو يذكّرني بسرّ رغباتي اللامحدودة . إن كل ما قاله الكونت

أريده لنفسي ... والويل للذي يقف عقبة في طريقي ! الويل لك أيها الفارس داساس ولك ياهنري ديتيول إذا تحققت تلك الرغبات ! فإنني سأحطم وأدمّر كل ما يقع في طريقي ولن يهمّني أن يُقال إنني مررت كالشهاب المكتسح ، إن كل ما يهمّني هو أن أبلغ غايتي !...

حلم جان

*

بينما كان الكونت دي باري يسير إلى اللوفر كانت جان تجلس في قاعتها وهي ترقب بفارغ صبر ما سوف يجدّ من أمر الرسالة التي كلّفت نوح بواسون بأن يحملها إلى الفارس داساس . وكان الليل قد أقبل فاشتدّ اليأس بالفتاة وأخذ يتفاقم كلما أشتدّ الظلام .

ولم يعد نوح بواسون ولا ظهر الفارس داساس المنقذ المنتظر .

وكانت جان ، وهي لا تزال في فجر حياتها ، تحت رحمة عاصفة هائلة من تلك العواصف التي تكتسح النفس البشرية بأشدّ مما تكتسح به الأعاصير الغابات . كانت تحب !... ومن تحب ؟ إنها تحب ملك فرنسا . وقد طغى ذلك الحب عليها فغمر روحها وقلبها بفكرة وحيدة وعاطفة مسيطرة. ولم تكن جان من أولئك الفتيات اللواتي يكتفين بالأحلام يتلذّذن بها بل من أولئك اللواتي يشوقهنّ تحقيق الأماني والآمال ، فكانت في يقظة دائمة أمام كل

ما يثير الشعور والإحساس وكانت تحس في قرارة نفسها بمثل اندفاع جارف نحو كل سامٍ رفيع مثاليّ . وكان قلبها زاخراً بالعاطفة توّاقاً إلى معرفة أرق الإحساسات وأصفاها وأسماها . وقد جالست أخفّ الرجال روحاً وأصفاهم شعوراً وأبهاهم طلعة وأوفرهم نبلاً وثروة دون أن يثير ذلك فيها أي تأثير . فإن الغنى والجمال والنبل لم تكن لتؤثّر فيها ما دامت تفتقر إلى الكمال المطلق . ولم تلمس في أي من أولئك الرجال الذين كانوا يحومون حولها ذلك الكمال المطلق . ولشدّ ما أزعجها ذلك وأثار في نفسها الحفيظة على نفسها فكانت تقول في سخط ونقمة :

— ماذا ؟! أتراني متكبرة متعجرفة معجبة بنفسي وخصالي سواء كانت حقيقية أو زيفاً ؟... وماذا أقول في هذا القلب الذي يطمح إلى الكمال ويظلّ صامتاً مع ذلك ؟... ألعلّ قلبي نضب وجفّ قبل أن يزهر أم أن الشمس التي ستنيره وتحركه ليست من هذا العالم ؟...

كانت تلك الفتاة العجيبة تفكر هكذا ذات مساء عندما هرعت إليها السيدة بواسون — وكانت جان تظنّها أمّها — فتأمّلتها هنيهة وقالت لها :

— تعالي يا ابنتي ... لنذهب للصلاة نحن أيضاً !

فقالت جان بدهشة بالغة :

— للصلاة ؟!...

— أجل ، يجب أن نصلّي نحن كما تصلّي باريس كلّها... كما تصلّي المملكة من الشمال إلى الجنوب ...

www.mlazna.com

– نصلّي ؟... لماذا ؟... لأجل من ؟...

– لأجل الملك !...

ولم تكن جان مؤمنة أو غير مؤمنة ، فإنها لم تفكر مطلقاً في شؤون ما وراء الطبيعة . أما الملك فإنه لم يكن ذا شأن لديها ، إنها لم تكن تعرف سوى إله واحد وملك واحد هما نزوانها . ومع ذلك فإنها تبعت السيدة بواسون إلى أقرب كنيسة .

وكان المشهد الذي بدت فيه باريس في تلك الليلة أشبه بالحلم أو الأعجوبة ، فقد بدت الشوارع سوداء تغلي غلياناً بالجماهير . وكان منظر تلك الجماهير فتّاناً رائعاً عديم المثال ... كانت تلك الجماهير تتدافع في الشوارع في بطء وصمت كأنها تنساب انسياباً ، كأنها أنهار تجري لتصبّ في تلك المحيطات الهائلة من البشر المتجمعة حول كل كنيسة . وارتفعت غمغمة مبهمة ، وكانت الأصوات ضئيلة هامسة كأن باريس غرقة محتضر في حشرجة النزع الأخير .

فأيّة كارثة حلّت بذلك الشعب ؟ أيّة ضربة رهيبة رمت به في لجّة من الألم والدموع والصلاة ؟ ماذا؟ ألعلّ الموت داهم كل تلك العائلات ؟ هل فتك بها الطاعون أو الهواء الأصفر ؟ هل من مذبحة رهيبة ؟ ماذا أخيراً ؟

إن الملك مريض !...

ومن يستطيع أن يحدد الآمال التي كان يعقدها الشعب على لويس الخامس عشر في ذلك الحين ؟... فقد كان المفروض أن تلك الآمال لامتناهية الحدّ ، لقد كانت كذلك البؤس المخيّم الذي لا يعرف حدّاً ما دام الألم الذي انفجر بمثل تلك القوّة كان حقيقياً

بالغاً مؤثراً .

وقد تألمت جان عندما رأت الشعب يتألّم وبكت عندما رأت كل تلك الدموع الحارة وغمر روحها الحداد عندما رأت الحداد يغمر باريس .

وخلال الأيام التي استمرت فيها الصلوات أخذ حماس الفتاة للملك المريض يتفاقم رويداً رويداً حتى أصبحت وكأنها تحمل آلام المدينة كلها في نفسها ، فقد استأثر ذلك الملك الذي لم تكن قد أبصرت له وجهاً إلى تلك اللحظة بعقلها وقلبها وتفكيرها ، وعندما ذاع أخيراً أن لويس الخامس عشر اجتاز مرحلة الخطر ونجا من الموت امتقع وجهها وعلاه شحوب شديد وأُغمي عليها بين ذراعي السيدة بواسون التي طافت على شفتيها عندئذٍ ابتسامة غريبة .

ومنذ ذلك اليوم تقرّر مصير جان ، فإن ذلك الملك الذي بكاه شعب كامل بالدموع الحارّة ، ذلك الملك الذي ما كاد يدخل في طور النقاهة حتى انتزع من صدور الباريسيين جميعهم صيحات الفرح والغبطة ، ذلك الملك الذي لقبّه حينذاك أحد المنشدين الشعبيين بالملك المحبوب وأخذ الشعب برمّته يهتف بذلك اللقب وهو يرقص في الشوارع ، ذلك الملك ، ألم يكن البطل الجدير بالحب ؟ أليس أمير الأحلام المنتظر الذي يرجوه قلبها ، ذلك القلب الذي لم يخفق بعد لأيّ رجل مهما بلغ من الجمال والغنى والنبل ؟...

وقد بهرها ذلك الحلم ... بهرها واستهواها أن تحب ملك فرنسا !... وأن تجعل ملك فرنسا يحبها بدوره !... وعندما دخل لويس الخامس عشر باريس بين الجماهير المتراصّة التي كانت

هتافاتها باسمه تشق عنان الفضاء ، وعندما لاح لجان في مركبته المذهّبة شاحب الوجه باسماً يسير بين قرع الأجراس وقصف المدافع ولمعان السيوف ، عندما رأته في تلك العظمة لبثت مسمّرة في مكانها مشرقة الوجه مغتبطة الفؤاد مضمومة اليدين في خشوع وتأثر. فقد سحرها المشهد الرائع واستأثر بلبّها .

وهكذا ولد الحب في قلبها . وكان في مستهل الأمر حباً روحياً منزهاً عن المادة ، كان حباً لفكرة أكثر منه لإنسان من لحم ودم ، كان حباً لكل ما هنالك من مجد مفروض ومروءة مرجوّة وعظمة منتظرة في ذلك المخلوق البعيد المتفوّق على جميع الكائنات البشرية الغامض الذي يكاد يكون أشبه بالأسطورة، ذلك الذي يدعونه الملك !

فإن جان لم تحب لويس في بادىء الأمر بل أحبت الملك ... ذلك الذي يمثّل الألوهة على الأرض والذي يكاد يكون إلهاً ما دام ذلك الشعب العظيم يرى فيه معبوده !

ذلك كان حلم جان !...

يقظة محزنة

*

كان الظلام كثيفاً في القاعة الفخمة الحافلة بروائع الفن كأنها المتحف ، وكانت جان لا تزال غارقة في مقعدها الوثير تستعيد في

ذهنها ذلك الحلم الرائع ، ولم تلبث أن غمغمت قائلة :

— أواه ، يا لي من تعسة !... أأحلم بمثل هذا لقلبي فاقع بين ذراعي لو نورمان ديتيول ... أصبح مُلكاً لذلك المسخ الشرير.. أقرن حياتي بذلك الرجل الكريه خَلقاً وخُلقاً ؟ !... لا شك في أنني هالكة ، ولن يأتي أحد لإنقاذي ! والفارس داساس !... الرجل الوحيد الذي وضعت فيه ثقتي !... إنه استلم رسالتي فلم يأتِ إليّ ... ولن يأتي !... إنني هالكة !...

وارتفع صدرها في شهقة مؤثرة ، وفجأة أحسّت بأنها في ظلام دامس رهيب فأضاءت المشاعل وهي ترتعش كأنما ترجو من وراء ذلك أن تتقشع الظلمات الكثيفة من حولها ومن نفسها في وقت واحد.

وكانت حزينة حتى الموت ...

فجلست إلى الأرغن تثير أنغامه ، وبحثت عن أغنية تعزفها فإذا بها تتذكر عفواً تلك الأغنية التي كانت تنشدها في فسحة الغاب عندما بدا الملك أمامها .

إلا أن الأغنية المرحة خرجت من تحت أصابعها كأنها أنّات الحزن وتصاعدت من آلة الطرب كأنها شكوى نفس غمرها اليأس . وعندما انتهت من العزف رفعت يديها إلى عينيها تمسح دموعاً حارّة محرقة كانت تسيل ببطء على وجنتيها الشاحبتين .

وفي تلك اللحظة ارتعشت ارتعاشاً عنيفاً وأنزلت يديها عن عينيها وأخذت تصيخ بسمعها وقلبها يخفق... فقد فُتح باب المنزل الكبير وسمعت وقع خطوات في الطابق الأرضي كأن هناك أناساً يروحون ويجيئون . فغمغمت تقول :

– ربّاه !... ألعلّه هو ؟... هو الذي دعوته إلى نجدتي ؟.. الفارس داساس ؟...

واشتدّ بها الاضطراب إلى حدّ أنها لبثت مسمّرة في مكانها . وطرقت سمعها أصوات مبهمة عرفت من بينها صوت نوح بواسون.. ثم صوت امرأته السيدة بواسون ... ثم ُفتح الباب وأُغلق من جديد .

فانتعش الأمل في نفسها عندئذٍ ، فاندفعت إلى باب القاعة وخرجت إلى قرص الدرج وانحنت من هناك تحاول أن تبصر في الظلام ... وفجأة رأت السيدة بواسون تبرح القاعة الصغيرة في الطابق الأرضي وتصعد الدرج وهي تحمل مشعلاً بيدها .

فماذا يجري ؟... ولماذا ألقت السيدة بواسون تلك النظرة الغريبة على القاعة الصغيرة قبل أن تصعد الدرج ؟...

ولم يكن من جان إلا أن عادت سريعاً إلى قاعتها فأطفأت المشاعل كلها واختبأت خلف ستار من الحرير الصيني الثمين . وفتحت السيدة بواسون باب القاعة وقالت :

– جان ، يا ابنتي ، هل أنت هنا ؟...

وانتظرت هنيهة في إطار الباب ثم انصرفت وهي تغمغم قائلة: لا شك في أنها أوت إلى غرفتها ، ومن الأفضل أن لا أزعجها في رقادها فلا فائدة من أن تعرف أي ضيف نأويه في هذه الليلة ، وهو ضيف قد نجده ميتاً غداً صباحاً ... ولكن الذنب ليس ذنبي في موته !...

ولبثت جان بضع دقائق لا تبرح مخبأها ، وعندما عاد السكون

يخيّم على المنزل من جديد وتلاشت كل حركة فيه ، انزلقت إلى خارج قاعتها وانحدرت إلى الطابق الأرضي ووقفت أمام باب القاعة الصغيرة .

وشعرت باضطراب لم تكن تستطيع أن تكبته في نفسها . لماذا ؟... إنها لم تكن تدري .

وحزمت أمرها أخيراً وفتحت باب القاعة فأبصرت شاباً ممدّداً على المقعد لم تتمالك عندما رأته أن ارتعشت طويلاً وغمغمت تقول:

– الفارس داساس !...

وهزّها الفرح لأول وهلة : لا شك في أنه استلم رسالتها ، وها هو قد أسرع إلى نجدتها . ولكن ماذا ؟!... إنه لا يتحرك ، إنه كالميت لا يتنفس ... وهذا اللون البنفسجي الذي يكسو وجهه ؟... ولكنه يموت !... وقد يكون مات !... ربّاه !..

واندفعت نحوه ملهوفة ملتاعة ... كلا ، إنه يعيش وقد ارتفع من صدره أنين متقطّع لم يلبث أن انطفأ على شفتيه المتورّمتين ، وانتفخ صدغاه وخفقا، وانبعث من عينيه الزجاجيّتين الجامدتين شعاع من الحب تصاعد نحوها ... فاضطربت وارتعشت ، وأمسكت بيد الشاب وانحنت عليه تناديه قائلة :

– أيها الفارس ، أتسمعني ؟... أيها الفارس داساس !... ولكنه لا يتحرك ... إنه يموت !... فلماذا تُرك هكذا وحده دون معين أو نصير؟.. لماذا تركته السيدة بواسون؟.. يا للفظاعة !.. ألعلها تريد أن تفيض منه الروح ؟!...

وانتصبت قامتها في عزيمة ثابتة وزاد الرعب عينيها اتساعاً حيال

www.mlazna.com
RAYAHEEN

الفكرة الرهيبة التي عنّت لها ، ولبثت هنيهة مصعوقة في مكانها، ثم بدرت منها حركة عنيفة كأنما تتحدّى الأقدار وتشهر عليها الحرب ...

وفي بضع ثوانٍ نزعت عن عنق الفارس المنديل الحريري — ربطة العنق في ذلك العصر — الذي يشدّه وأزاحت ثوبه عن صدره ، فانتفخ ذلك الصدر بزفرة طويلة وسقطت دمعتان من العينين الجامدتين اللتين كان ينبعث منهما في الوقت نفسه شعاع من الحب كأنه خارج من أعماق ضريح ...

وكانت جان تحمل دائماً زجاجة من الأملاح المنعشة فأدنتها من أنف الشاب هنيهة ، ثم وضعتها إلى جانبه على المنضدة وتركتها مفتوحة ، وأسرعت إلى الماء فجاءت منه بإناء كبير وجلست ترطّب جبين الفارس وصدغيه وصدره ، ولبثت نحواً من نصف ساعة منحنية عليه تنازع الموت فيه .

وظهرت بمظهر الباسلة المتفانية الشديدة العناد ، وكان اهتمامها بالشاب يتزايد دقيقة فدقيقة وقد أبدت له من العناية ما يحسدها عليه أمهر الأطباء وأقدرهم .

ولم يتبادر إلى ذهنها مطلقاً أن في مظهر ذلك الصدر العاري الماثل أمامها ما يسيء إلى عفّتها وهي الفتاة العذراء ، وذلك لأنها لم تكن أمام الشاب في تلك اللحظة مجرّد امرأة أو فتاة في مُقتبل العمر بل ملاكاً منقذاً يحاول أن ينتزع مخلوقاً تعساً من براثن الموت ...

ونسيت في تلك الدقائق الحرجة آلامها ...

وشعر الفارس داساس ببعض الراحة وزال عنه الكرب شيئاً

فشيئاً ، فاختفى اللون البنفسجيّ من وجهه وحلّ محلّه شحوب طبيعيّ ... لقد نجا من خطر الاختناق .

وانقضت ساعة وعيناه ما برحتا على جمودهما الزجاجيّ المخيف ، وفي ذلك دليل قاطع على خمود الإدراك خموداً تاماً . غير أن الحياة ما لبثت أن عادت تدريجياً إلى تلك النظرات وكانت أوّل بارقة تجلّت فيها هي بارقة الحب ومعرفة الجميل . فابتسمت جان وقالت :

— ها أنك قد نجوت ، أتسمعني ؟... أتدرك ما أقول ؟..

فاتجهت عينا الفارس ببطء ولطف إلى يد الفتاة ...

وأدركت جان قصده فألصقت أناملها الرقيقة بشفتيه الملتهبتين اللتين استطاعتا ، بجهد ساهم فيه الحب ، أن تطبعا على اليد التي تلامسها قبلة حارة طويلة .

واستولى على داساس ذهول أشبه بالسحر ، ومع ذلك فقد استطاع أن يدرك أي إرهاق ينتاب جسده ودماغه ، وأحس بأنه سيستغرق في النوم دون أن يقوى على التلفّظ بكلمة شكر ودون أن يتسنّى له أن يعلن عن العواطف التي تجيش في قلبه .

وتذكرت جان مصابها ، تذكرت أنها ستفاد في اليوم التالي ، أي بعد بضع ساعات ، إلى الكنيسة للاحتفال بزفافها إلى ذلك المسخ الشرير الذي تكرهه والذي يثير في نفسها الاشمئزاز والنفور والرعب ، بينما منقذها — الرجل الذي يقوى وحده على إنقاذها — مطروح هنا أمام عينيها عاجزاً كليلاً يكاد يكون جسداً دون روح .

ورأت أن توقظه من خبله مهما كلف الأمر فغمغمت قائلة :

– أيها الفارس ، إسمع ... رأفة بي !...

فظهر على داساس أنه سمعها ، وكأن النامها الشفقة أعاد إليه بعض صوابه ففتح عينيه لحظة ولم يلبث أن عاد يستغرق في النوم..

إنها لحظة حرجة كان مفروضاً أن يُقرّر فيها مصير تلك التي ستدعى المركيزة دي بومبادور ... فلو استطاع الفارس داساس أن يصغي إلى كلامها، لو استطاع أن ينهض على قدميه ، لسار دون أي شك في تلك الليلة نفسها إلى لو نورمان ديتيول يدعوه إلى مبارزة إن لم يقتله خلالها ، فمن الراهن أنه كان أرغمه على التراجع عن ذلك الزواج. ومن يدري ما الذي كان يقع عندئذٍ ، من يدري ؟.. فربما كانت جان تتأثر بذلك الحب النقيّ الثائر النابض في صدر الفارس داساس فتبادله إياه وتقترن به وتشاطره الحياة .. ولو تم ذلك لتبدّلت أشياء كثيرة في عهد لويس الخامس عشر !... وربما لم يكن هناك مركيزة دي بومبادور !...

إذن ، فإن المأساة التي كانت تجري فصولها في تلك القاعة الصغيرة ، لم تكن مأساة شاب يحب فتاة لا تهواه بل صفحة من تاريخ فرنسا وربما صفحة من تاريخ الإنسانية ...

وعصر الألم عنق جان فانحنت وامسكت بيدي الفارس داساس وهي تلهث وتقول :

– إنك استلمت رسالتي ، أليس كذلك ؟... وأسرعت إليّ ؟... آه ، شكراً ... شكراً ... ولكن أتسمع ما أقول ؟... قم بإشارة تدلّني على أنك تسمع ... رحمة بي وشفقة

على بؤسي !...

فبذل الفارس جهداً عنيفاً تقلّص معه وجهه الجميل ...

وانشقت شفتاه في بطء ...

ثم عاد إلى جموده وخبله ...

فقالت جان بصوت أشبه بالأنين :

– أواه !... إذن فأنت لا تسمعني أيها الفارس !... ألا تذكر ما ورد في رسالتي ؟... إنني هالكة إذا لم تنقذني ... وسأقصّ عليك مصابي ... إن أهلي يريدون أن يزوّجوني ... وأنا أكره ذلك الذي يريدون أن يزفّوني إليه !... إن ذلك الزواج يقتلني ... واحسرتاه ! إنه لا يسمعني !... أيها الفارس، إذا لم أتزوّج ذلك الرجل ، يُطرح والدي في سجن الباستيل وربما يقاد إلى المقصلة !... أتسمع ؟... أبي !... وأنا لا أريد أن أتزوّج ذلك الذي يفرض نفسه عليّ رغماً عني ... فهو يخيفني وإذا تزوّجته أموت ... ولكن يجب أن أتزوّجه ... وعليّ أن أختار بين موتي أنا وموت أبي !... أتتركني تحت رحمة الموت وأنا التي ألقيت بين يديك أمري ؟... لقد كنت أنتظرك كما أنتظر ربّاً ينقذني مما أنا فيه !... أيها الفارس أيها الفارس !...

ووهنت قوى جان فانمي عليها وهوى رأسها على صدر داساس...

وإنها لصورة رائعة تلك الصورة لو تأتّى لأحد رجال الفنّ الملهمين أن يرسمها : فتاه جميلة تلقي برأسها على صدر فتى جميل ... فتى ينام وعلى صدره رأس فتاة غارقة في النوم هي أيضاً ...

فقد كانا يبدوان كأنهما عروسان دخلا تلك القاعة الصغيرة

واستسلما للرقاد على أثر قبلة طويلة محرقة عجزا بعدها عن الوصول إلى مخدعها !...

يا للصغيرين المنكودين !...

وعندما استعادت جان صوابها ألقت نظرة على الساعة الجميلة المنتصبة فوق المدفأة الرخامية فإذا هي تشير إلى الرابعة صباحاً. فعجبت لوجودها على تلك السجّادة على مقربة من المقعد ولامست يداها جبينها ...

ولم تلبث أن تذكرت حالها فعصف الألم في نفسها وقالت مرتاعة :

— الساعة الرابعة !... لقد أقبل يوم المصائب والأهوال !.. وداعاً أيها الحب السامي الذي علّلت به النفس ، فإنني لن أكون سوى السيدة ديتيول !... يا للفظاعة !...

ونهضت فوقعت عيناها على الفارس داساس الجامد جمود التماثيل، وخطر لها هنيهة أن تعيد الحياة إلى ذلك التمثال ، غير أن عينيها وقعتا مرة أخرى على الساعة فهمست تقول :

— لقد فات الوقت !... فات الأوان ، ودنت الساعة الرهيبة !... مسكين هو الفارس داساس ، فإنه لبّى ندائي ، إلا أن القدر الغاشم حال بينه وبين سعادتي !... لقد انتهى كل شيء وقُضي عليّ !... وداعاً أيها الفارس داساس !...

وانحنت عليه ولامست جبينه بأطراف شفتيها ، فاهتزّ الفارس في سباته اهتزازاً عنيفاً وارتعشت شفتاه كأنما تحاولان أن تعبرا عن تلك الأفكار التي تولّدت في مخيّلته وانكمش جبينه ولمعت

دمعتان كبيرتان بين أهدابه ثم سالتا ببطء على خدّيه الشاحبين ، فكررت جان قولها :

— فات الأوان !... فات الأوان !...

وأخذت تتراجع رويداً رويداً وعيناها معلّقتان بالفارس إلى أن بلغت الباب ، وهناك اختفت ... تلاشت ... اضمحلّت... كأنها ظل حلم جميل من أحلام الحب !...

سان جرمين لوكسيروا

*

عندما خرج الفارس داساس من خبله الطويل كانت الساعة تدق التاسعة ... ومع أنه شعر بثقل في رأسه وغموض في أفكاره ، فإنه لم يدهش مطلقاً عندما رأى نفسه ممدّداً على ذلك المقعد .

وكان يتذكر بشيء من الوضوح ما اتفق له ، فتذكر أن شبح امراة ظهر أمامه وانحنى عليه . وإذا كان قد نسي تماماً ما أفضى به ذلك الشبح إليه ، فإنه كان يستطيع مع ذلك أن يؤكد لنفسه أن تلك المرأة ، بل تلك الفتاة ، هي نفسها تلك التي كان قد أقبل يبحث عنها في شارع الأولاد الصالحين !...

ورفع رأسه ، فهوى رأسه بثقل على الوسادة .

واستطاع بعد لأي أن يجلس في مقعده وينظر إلى ما حوله .

وأخذ إحساسه بالأشياء يعود إليه فاستطاع أن ينهض على قدميه،

www.mlazma.com ^RAYAHEENA

وعندئذٍ ابتسم وقال :

— إذن فقد نُقلتُ إلى منزلها !... وأنا الآن عندها !...

ولو خُيّر بين الجلوس على عرش فرنسا وبين الإقامة في ذلك المنزل لأختار الثانية ، وتابع يقول :

— مباركة هي تلك اليد الثقيلة التي انقضّت على رأسي بتلك الضربة القاسية !... يا لها من ضربة !... فأنا لا أزال حتى الآن ضائع الرشد من تأثيرها !... ولكن من الذي ضربني ؟... إنه لص دون شك !... إنني أشكرك أيها الصديق اللص ، فالفضل بوجودي في هذا المنزل يعود إليك وحدك ، ولولاك لعجزت عن ولوج بابه !...

ومدّ يديه يتحسّس جيوبه ، فارتعش ارتعاشاً عنيفاً عندما أيقن من أن كيسه وساعته لا يزالان فيها . إذن ، فإن ذلك الذي انقضّ عليه بتلك الضربة لم يكن لصاً !

وأخذت ذكرياته تتّضح فامتقع لونه بالإصفرار : الملك ! وتذكر أنه عندما شعر بتلك الضربة تهوي على رأسه وتلقي به صريعاً في وسط الشارع ، كان قد أبصر لويس الخامس عشر أمام مدخل قصر جانسون ينظر إلى تلك النوافذ نفسها التي جاء هو لينظر إليها ، فقال في اضطراب شديد :

— إن أحد رجال الملك هو الذي أهوى على رأسي بتلك الضربة !.. فماذا كان يفعل الملك هناك ؟!...

غير أنه سرعان ما هزّ رأسه سلباً . فإن يكن قد رأى الملك في الليلة الفائتة تحت نوافذ جان ، فلا شك في أنه كان يبرح قصر

وزيره ، وليس في الأمر ما يدعو إلى الدهشة . فماذا يريد أن يتصوّر ؟...

وأخذ يضحك بتلك السذاجة الرائعة التي يتحلّى بها الإنسان في سنّ العشرين ، وشعر بأن رأسه لا يزال ثقيلاً فكفّ عن التحليل والافتراض وخاطب نفسه قائلاً :

— لماذا يروق لي أن أعقّد الأمور ؟... إنني في منزلها ... وهي التي اعتنت بي... أنا على يقين من أنها هي نفسها ، وقد انحنت عليّ تخاطبني بلطف وهي ترثي لحالي ... ويُخيّل لي أنني لا أزال أشعر بملامسة يدها العذبة ... فقد لامست بيدها الرقيقة جبيني الملتهب ... ثم أعطتني تلك اليد لأقبّلها !... يا للملائكة السماء!... ألعلّها تحبني ؟...

واضطرب لتلك الفكرة فاستند إلى المدفأة لئلاّ يقع . وأبصر نفسه في مرآة هناك فإذا هو شاحب الوجه لشدة سعادته ...

ودقّت الساعة العاشرة فعاد يجلس في المقعد ويقول وهو يبتسم :

— يا للقاعة الجميلة ، فإن كل ما فيها عذب لطيف !... إنها تقطن منزلاً رائعاً ينسجم مع جمالها الفتّان !... ألعلّها غنيّة؟...

ومرّت سحابة قاتمة أمام عينيه ، فقد كان فقيراً ، هو !... ولكن أليس لديه سيفه الماضي ؟ أليست رحى الحرب دائرة على الحدود ؟... ألا يساوي المجد المال ؟...

وكان الوقت يمضي والفارس داساس شاخص بعينيه إلى الباب. إلا أن ذلك الباب لم يُفتح وقد خيّم على المنزل كلّه سكون

رهيب كأنه مهجور . وآلمه ذلك السكون المشبوه ، فماذا يجري ؟...

وأراد أن يعرف الحقيقة مهما كلّف الأمر فهبّ واقفاً وإذا هو لا يشكو سوى بعض الألم في الصدغين وشعر بأنه أصبح من القوّة بحيث يستطيع أن يخوض أيّة معركة .

وسار إلى الباب وفتحه ، فإذا الباب يطلّ على بهو فخم يبتدىء منه الدرج الذي يؤدّي إلى الطابق الأعلى. وأدهشه أن يبصر البوّابة الكبيرة مفتوحة على مصراعيها ، وشاهد المارّة يروحون ويجيئون في الشارع ، ووقعت عيناه على الزهور المنثورة في أرض البهو والرواق وعلى السجّادة الثمينة التي كانت مفروشة أمام تلك البوّابة كأن هناك حفلة أو عيداً ، فأحسّ بالغصّة تعصر قلبه وسار في الرواق وأخذ ينادي سكان المنزل . فهرع نحوه خادم يرتدي ثياباً أنيقة كان واقفاً على عتبة البوّابة ، وحيّاه بكل احترام وقال له :

— أراك تبرح غرفتك يا سيدي الضابط ، فلك تهانئي إذ أن السيدة ...

فقاطعه داساس بقوله :

— السيدة ؟!...

— أجل ، السيدة بواسون !...

— والدة ...

— والدة الآنسة جان ، هي نفسها !...

فقال داساس في نفسه :

« جان ، أتدعى جان ؟... »

وقال للخادم :

— قل لي يا صاح ... إن تينك السيدتين قد برحتا المنزل دون شك وكنت أودّ أن أبصرهما لأعرب لهما عن شكري وامتناني !..

فقال الخادم وهو يهزّ برأسه :

— إن الجميع في الكنيسة ... الجميع !...

فارتعش الفارس وغمغم قائلاً :

— في الكنيسة ؟...

— أجل ، فإن الجميع هناك ، من سيدي إلى سيدتي حتى الخدم ، من السيدة دي هوسيه حتى آخر وصيفة !... وقد بقيت هنا وحدي ؟...

فقال الفارس داساس وهو يمسح العرق البارد الذي يسيل من جبينه :

— في أيّة كنيسة ؟...

— في كنيسة الرعيّة !... كنيسة سان جرمين لوكسيروا !..

فبدت من الفارس إشارة يشكر بها الخادم ، ثم انطلق مسرعاً ورأسه يدوي وكان يجتاز الشارع وهو يكاد يركض ركضاً ، فقال الخادم :

— إلى الشيطان أيها المجنون !... فقد كنت أودّ أن أطلعه على خبر زفاف الآنسة جان دون شك !...

وكان الفارس داساس يسائل نفسه قائلاً :

« ما الباعث على وجودها في الكنيسة ؟... »

وأحسّ بمصاب هائل يوشك أن ينقضّ عليه ، إلا أنه لم يفسح

لليأس سبيلاً إلى قلبه ، فكان يقول :

— لماذا ذهبت إلى الكنيسة يا ترى ؟... فاليوم ليس يوم أحد ولا يوم عيد !... هل مات أحد أقاربها ؟... كلا ، فإن الزهور تملأ منزلها والخادم الذي يحرس البوّابة مشرق الأسارير غبطة وفرحاً !... ألعلّها ذهبت لأجل حفلة زواج ؟...

وجمد الفارس داساس في مكانه واشتدّ شحوبه، وقد سمعه الذين مرّوا بالقرب منه في تلك اللحظة يقول :

— أجل ، إن هنالك زواجاً دون أي شك . وهي مدعوّة إلى حضور زفاف إحدى صديقاتها لا أكثر ... وليس ما يدلّ على أنها هي التي ستتزوّج !...

وعاد إلى ركضه . وعندما أصبح على مقربة من الكنيسة أخذت الأجراس تدق دقات الفرح والسرور وفُتحت بوّابة الكنيسة الكبيرة فتجاوبت أصداء آلات الموسيقى في الشارع .

ووقف داساس مصعوقاً أمام البوّابة . فقد لاح له في ظلمة الكنيسة جمهور كريم يرتدي أجمل الثياب وأغلاها ، وعلى أنغام الموسيقى المتصاعدة شقّ ذلك الجمهور الكريم موكب سار في طليعته خادم عملاق ضخم الجثّة يتبعه عروسان كان جميع الذين حوتهم الكنيسة يحيّونهما .

أبصر الفارس كل ذلك وهو يبتسم ابتسامة قلقة ، فقد كان يبحث عن جان بين تلك الجموع ... وقد بحث عنها في كل ناحية وترامت أبصاره حتى إلى المذبح ... وفجأة خرج الخادم الذي يسير في طليعة الموكب من باب الكنيسة ، ثم تنحّى جانباً وظهر وراءه

العروسان فارتعش الفارس داساس ارتعاشاً عنيفاً عندما أبصرهما واستند إلى شجرة وزفر زفرة حرّى وقد اكفهرّ وجهه وتاهت عيناه . وكان يراقب العروس الحسناء التي تسير على مهل في ثياب العرس الأنيقة نحو المركبات التي كانت تملأ الساحة ، وقد مدّت يدها إلى عريسها وهي مرتجفة الأوصال شاحبة الوجه .

وقال داساس بصوت كأنه الحشرجة :

— جان !... جان !... إنها هي !... هي العروس !... إنني لا أحلم ، فالحقيقة هنا أمام عينيّ وهي حقيقة هائلة !... فماذا سيحلّ بي ؟ ... أنا أحبّها ... أحبّها !... فيا لي من مجنون تعس !

ولبث هنيهة مسمّراً في مكانه ، ثم نقل بصره بمجهود عنيف منها إلى زوجها فلم يتمالك أن صاح قائلاً :

— لو نورمان ديتيول !

ورأى ذلك الزوج قبيحاً كريهاً بابتسامته الشيطانية وعينيه الشرّيرتين وجبينه الصلب العنيد وقامته المشوّهة ، رآه وقحاً في انتصاره وفي ثيابه الرائعة الفاخرة المكسوّة بالجواهر والحجارة الكريمة — ثروة في ثوب ! — فبدا له فظيعاً مرعباً إزاء عروسه الحسناء إلى حدّ شعر داساس معه بالغضب والثورة يتّقدان في صدره !

ماذا ؟! أيكون ذلك الرجل عريس جان ؟... ذلك القزم المشوّه الذي أشفق عليه الفارس داساس ؟ ... ماذا ؟ ! أتكون جان قد اتّحدت بذلك المسخ ؟... لا شك في أن ثروة ديتيول

www.mlazmaa.com
^RAYAHEEN^

الطائلة هي التي استهوت الفتاة فرضيت بأن تتزوّج صاحبها ! إذن، فإنها فتاة دون قلب أو روح ما دامت تبيع نفسها كالسلعة ! وهو، هو الفارس الفقير الذي لا يملك سوى سيفه وأحلامه الشاعرية، الذي تجرّأ وعقد عليها الآمال ، فإذا بها تحطّم آماله وتدفعه إلى اليأس ! فقد تخيّل له أنه أحب ملاكاً فإذا التي أحبّها لا تتحلى بشيء ملائكيّ !... يا لانهيار الأحلام والآمال !... وخطر له أن يجهر بأفكاره أمام كل تلك الجموع ويعيّر جان بما كان منها ...

وخطا ثلاث خطوات إلى الأمام جعلته وجهاً لوجه أمام العروسين .

إلا أنه شعر بشيء يضغط على عنقه وانفتحت أجفانه كأنما الدموع توشك أن تطفر منها . ولكن لا ، فإن تلك الدموع لم تطفر بل لبثت عيناه جافتين حائرتين. وبحث عن عيني جان بعينيه، وبحث في ذهنه عن الكلمات التي يريد أن يعبّر لها بها عن يأسه وثورته ... غير أن جان لم تكن تنظر إليه ، لقد كانت تنظر بعيداً ، وراءه !...

فاستدار كتلة واحدة ، ورأى !...

رأى على شرفة اللوفر الكبيرة ، بين عمودين ، بضعة عشر نبيلاً من رجال البلاط ... وأمام أولئك النبلاء كان شخص ينحني ، وقد علا وجهه الشحوب ، وينظر إلى جان . ولم يكن ذلك الشخص سوى لويس الخامس عشر ملك فرنسا . فغمغم داساس قائلاً وقد هاله ما رأى :

— الملك !... الملك الذي كان يطوف في الليلة الفائتة تحت

نوافذها !...

وابتعد بسرعة البرق وعيناه لا تزالان معلّقتين بجان .

وأبصرت العروس الملك بدورها فلبثت عيناها مسمّرتين في شرفة اللوفر .

ورفعت باقة الأزهار البيضاء التي كانت تحملها بيدها ، رفعتها ببطء إلى شفتيها . وربما نسيت الفتاة المسكينة في تلك اللحظة المراسيم التي قرنت مصيرها بمصير رجل آخر ، وقد تكون نسيت أيضاً مئات العيون التي تصبّ نظراتها عليها .

وعادت فجأة إلى واقعها المؤلم فالتفتت بسرعة إلى ما حولها ، ومن الراهن أنها تذكرت . وعندئذٍ رفعت عيناها إلى الشرفة في نظرة وداع يائس ، ثم تخاذلت قواها فانقلبت إلى الوراء مغشياً عليها .

وكان الفارس داساس لا يزال ينظر إليها ، فغمغم قائلاً :

— ويلاه !... إنها تحب الملك !...

ولبث هنيهة كالمأخوذ أمام الحقيقة الهائلة التي اجتاحت دماغه وقضت على حبه الصادق الصافي .

ولم تكد جان تسقط إلى الوراء حتى تلقّاها رجل بين ذراعيه ، وكان الألم ظاهراً جلياً في ملامح ذلك الرجل وربما الغضب أيضاً . وقد سار بها إلى المركبة في اللحظة التي كان لو نورمان ديتيول يصعد فيها إليها .

ولم يكن ذلك الرجل الذي حمل جان بين ذراعيه، ذلك الرجل النبيل الملامح الذي انحنى على العروس والقلق في عينيه ، سوى أرمان

دي تورنهام والدها . وكان يقول باضطراب :

— أتراني أخطأت ؟!... أتراني قضيت على ابنتي بالتعاسة؟...

وغمغم قائلاً كما قال الفارس داساس :

— ويلاه !... ويلاه !...

وكان الزوج وحده هو الذي يبتسم ابتسامته الشرّيرة المعهودة .

وتوارت مركبة العروسين عن العيان وتفرّقت جموع المدعوّين والجماهير التي كانت تملأ ساحة الكنيسة ، وأُغلق باب الكنيسة وأقفر المكان . ومع ذلك فقد لبث الفارس داساس جامداً في مكانه ويداه معقودتان على صدره .

وتنهّد تنهّدة مؤثرة وألقى نظرة قاتمة نحو شرفة اللوفر وكان الملك قد توارى وتبعه النبلاء ، فقال وهو يكاد يبكي :

— لقد انتهى كل شيء !... فوداعاً أيتها الآمال ... وداعاً أيها الحب !...

وخطا بضع خطوات وهو يكاد يعثر في خطوه، وصرف بأسنانه وهو يكرّر قوله دون أن يعلم :

— إنها تحب الملك !... لقد انتهى كل شيء بالنسبة إليّ !...

ولم يكن قد ابصر نبيلين تظاهرا بأنهما يسيران في موكب العرس في حين أنهما لم يبتعدا كثيراً عن الكنيسة ، ولم يبصرهما قابعين في زاوية زقاق الكهنة وهما يرصدان حركاته في دقّة وانتباه .

وكان أحد ذينك النبيلين هو بيربه رئيس الشرطة أما الآخر فلم يكن سوى الكونت دي باري عدوّ الفارس اللدود. وبإشارة من رئيس الشرطة أحاط خمسة رجال بالفارس داساس ، فرفع أحدهم

قبّعته ونشر ورقة كان يحملها وقال :

— عفواً يا سيدي الضابط ، هل أنت الفارس داساس نافخ البوق في كتيبة أوفيرن ؟

فأجاب داساس قائلاً بصوت كئيب :

— أجل ، أنا هو !...

فأعاد الرجل قبّعته إلى رأسه على أثر ذلك الجواب وقال :

— باسم الملك ، أقبض عليك !...

ليلة العرس

*

على بعد خطوة من قصر السيد دي تورنهام في رصيف الأوغسطينيين ، يقوم قصر شاهق فسيح جميل شيّده في عهد الملك لويس الرابع عشر المركيز دي نيل أمير أورانج. وفي ذلك القصر، في عام ١٧١٧ ولدت تلك الحسناء الفتّانة ذات الغنج والدلال التي دُعيت المركيزة دي لاتوريل دوقة دي شاتورو وسيطرت ردحاً من الزمن على قلب لويس الخامس عشر ، ثم طُردت من البلاط بطريقة مخزية .

وقد خطر لها ، على أثر طردها من البلاط ، أن تبرح فرنسا إلى بلد آخر تتنعّم فيه بالثروة الهائلة التي جاد بها عليها خليلها ، فباعت قصرها إلى رجل غامض يدعى السيد جاك وقد نقدها الثمن

الذي طلبته دون أيّة مساومة .

وفي اليوم التالي لذلك اليوم الذي وُقّع فيه عقد البيع ، دخل هنري لو نورمان ديتيول ذلك القصر يتبعه ثلاثة مهندسين وفرّاش . وكان ديتيول يخاطبهم بلهجة السيد وهم يبدون له كل طاعة وخضوع .

وفي ذلك اليوم نفسه أقبلت جماعة من العمّال تشتغل في ذلك القصر ليلاً نهاراً . وما كاد البنّاؤون يتمّون عملهم حتى خلفهم الرسّامون ثم الفرّاشون . وبعد شهر ونصف تحوّل القصر من حال إلى حال وأصبح يضاهي أعظم قصور باريس في الأثاث والزخرفة . وقد كلفت تلك الإصلاحات الدقيقة الرائعة مليوناً من الليرات دفعه لو نورمان ديتيول بكل طيبة خاطر ، وعندما انتهى العمل في القصر عمد ديتيول إلى التماثيل والرسوم النادرة والأثاث الفاخر الثمين يملأ بها قاعات القصر حتى غدا وكأنه تحفة رائعة . وعندما تمّ له كل ذلك أخذ يتأهّب لحفلة الزواج وهو على أتمّ ما يكون من الغبطة والاطمئنان .

وقد توجّه موكب العرس إلى ذلك القصر الذي أصبح يعرف بقصر ديتيول بعد أن كان معروفاً بقصر شاتورو . وعندما بلغ الموكب القصر كانت جان لا تزال في إغمائها فاضطر والدها السيد دي تورنهام إلى أن يحملها أيضاً ويدخل بها إحدى الغرف ، وعندئذٍ تقدم منه ديتيول وقال له :

— كلا ، ليس إلى هناك يا عمّي !...

وفتح له باباً يؤدّي إلى قاعة تشبه القاعة التي تشتغل فيها جان بالتصوير شبهاً تاماً ، وزاد فقال :

— إنني أعهد بأمرها إليك يا عمّاه ، وأنا واثق من أن حالتها لا تدعو إلى القلق . إذن فإن اضطراري إلى استقبال مدعوّي يحملني على أن أغادرها هنيهة !...

ولو كان السيد دي تورنهام متمتّعاً في تلك اللحظة بصفاء الذهن الكافي لعجب لموقف ديتيول من عروسه ، فقد كان يتحدّث عنها دون أيّ اكتراث كأنما يتحدّث عن قطعة من الأثاث .

ودخل ديتيول باسماً إلى القاعة الكبيرة الخاصة بالاستقبالات والحفلات ، وعندما سأله المدعوّون عن جان التفت نحو جوقة العازفين وأمرهم بالضرب على آلاتهم ، وكان يقول في نفسه :

« لنتكلم الآن إذا أرادت ، فإن الاثنين أصبحا تحت رحمتي .. الأب والابنة !...

وكان السيد دي تورنهام قد مدّد جان في مقعد طويل وهو يعجب ليس للاغماء الذي أصابها بل للباعث على ذلك الإغماء ، ولم يكن يجهل قوّة إرادة ابنته رغم مظاهرها اللطيفة السريعة العطب ، فغمغم قائلاً في نفسه :

« من المستحيل أن يكون الزواج بمجدّ ذاته قد أثّر فيها بما جعلها تصاب بالإغماء ، ولا شكّ في أن نفسها تنطوي على سرّ . وسوف أسعى إلى اكتشاف ذلك السر ، وعندئذٍ ويل لمن ...

وفي تلك اللحظة فتحت جان عينيها فرأت نفسها في قاعة عملها ، فارتمت بين ذراعي أبيها المنحني عليها وصاحت قائلة :

— شكراً ، شكراً يا أبي العزيز على هذه الفكرة الصائبة التي عنّت لك .

www.mlazna.com

— أيّة فكرة يا ابنتي ؟...

— فكرة مجيئك بي إلى هذه القاعة ... ولكن يُخيّل لي أنني أسمع أنغام الموسيقى ... وألحان الرقص ... أواه !... أرجوك أن تطلب منهم أن يكفّوا ... رباه !... لماذا أقبلوا إلى هذا المكان وليس إلى منزل ديتيول ؟...

فضمّ الأب ابنته إلى صدره وقال :

— لنتفاهم يا ابنتي ، أتريدين ؟... يجب أن تفضي إليّ بكل ما لديك فمن الضروري أن أعرف الحقيقة كلها . ويجب أن تعلمي في بادىء الأمر أنك في منزل ديتيول وليس في منزلك ...

فهبّت واقفة كأنما لمست سلكاً كهربائياً وأدارت أنظارها في ما حولها وغمغمت قائلة :

— ولكن هذه هي القاعة التي أشتغل فيها بالتصوير ، هذه هي قاعتي نفسها ، فإنني لا أحلم !...

وأسرعت إلى النافذة ، ولم تلبث أن تنهّدت عن خيبة وألم . فإن النافذة كانت تطل على نهر السين وليس على شارع الأولاد الصالحين ، فقال السيد دي تورنهام :

— لقد أراد هنري الطيّب القلب السليم الطويّة أن يثير إعجابك يا ابنتي فأعدّ لك هذه المفاجأة . إن هذه القاعة لا تختلف مطلقاً عن قاعتك ، إلا أنها في منزل ديتيول .

وزاد فقال وهو يبتسم ببرارة :

— يبدو لي أنك كنت تعتقدين غير هذه الآمال ، فتعالي ، تعالي واجلسي على ركبتيّ كما كنت تجلسين وأنت صغيرة ...

عندما كنت أعود من رحلاتي الطويلة لأراك ... لقد كنت في تلك الأيام تطوّقين عنقي بذراعيك وتلقين برأسك الأشقر الصغير على كتفي وترفعين إلى وجهي عينيك الضاحكتين وتبتسمين كأنك تعلمين أيّ ألم ينهش قلبي وتحاولين أن تزيلي ذلك الألم عني . وقد كنت تشيعين البهجة في نفسي الكئيبة فأشعر بيأسي يتلاشى ويذوب كالثلج وأحس بالحياة تعود إلى قلبي الذي مات منذ زمن طويل !..

فجلست جان على ركبتي أبيها وطوّقت عنقه بذراعيها وألقت رأسها على كتفه ، إلا أنها لم ترفع عينيها إلى وجهه ولم تبتسم له بل كانت تبكي بهدوء وسكون . وصمت السيد دي تورنهام لحظة ، ثم خاطبها قائلاً :

— جان ، إبنتي ، حبيبتي ، لماذا تبكين ؟

— أصمت يا أبي ... أصمت أرجوك !...

— أريد أن أعلم سبب بكائك ، فإن اليمين التي أقسمتها على ضريح ساكنة الإرميتاج والتي جدّدتها أمامك لن أحنث بها ما حييت . وقد وقفت حياتي على سعادتك وسوف تكونين سعيدة ، فأجيبي يا ابنتي ، أجيبي بكلمة لا أو نعم ... قولي ، ألم تكوني راضية عن هذا الزواج ؟...

فتمالكت جان نفسها بجهود عجيب واستطاعت أن تكتم الرعشة العنيفة التي استولت عليها عندما ألقى أبوها ذلك السؤال ، إلا أنها لبثت تبكي بهدوء وسكون . فقال لها أبوها :

— ربما تكونين قد أخطأت في الاختيار فاعتقدت في البدء أنك تحبين هنري ورضيت بأن تصبحي زوجته ، ثم بدا لك في اللحظة

الأخيرة أن قلبك لا يميل إليه إلا كما يميل قلب القريب إلى قريبه ، فإن يكن هذا ما يؤلمك فاطمئني ، إنني سأخاطب هنري في ذلك وأستطيع أن أفسخ الزواج .

فارتعشت جان هذه المرّة ارتعاشاً ظاهراً واستولى عليها ذعر هائل ، إن أباها لا يدري أنه إذا حاول أن يحطّم قيد الزواج يدفع هنري ديتيول إلى أن يشي به وتكون المقصلة نصيبه .

وعضّت شفتيها لئلا تصيح ، بينما تابع السيد دي تورنهام قائلاً:

— إن هنري طيب القلب صافي السريرة وقد أدّى لي خدمات جلّى وهو يتولّى أعمالي، وأراه جديراً بشكري وعطفي . ولكن يجب الإقرار بأنه ليس جميلاً ... وقد أدهشني حبك إياه ... غير أنني بعد الذي سمعته منك ومنه اضطررت إلى النزول عند رغبتكما ورأيت أنك ، في اقترانك به ، لا تخرجين من أسرتنا وتظلين إلى قربي . وهذه أنانية مني ، فقد كان يجب عليّ أن أفتح عينيّ جيداً وأدقّق في الأمر ... كلا ، لا تبكي يا ابنتي ... ها أنا سائر إلى هنري لأخاطبه ...

فانتصبت قامة جان وتمثّلت والدها أمام المقصلة ، فمسحت دموعها وقالت بصوت لا تردّد فيه ، بصوت ثابت النبرات يشير إلى نبل تضحيتها بحياتها في سبيل أبيها ، قالت :

— إنك مخطىء يا أبي ، فإن زفافي إلى هنري لا يثير أيّ ندم أو مرارة في نفسي ...

فقال دي تورنهام مدهوشاً :

— أنا مخطىء ؟!...

فتابعت قائلة :

— ولو فُسخ الزواج وتُرك لي حق الاختيار مجدّداً لاخترت هنري دون سواه .

— أتحبّينه ... حقاً ؟!...

فأجابت قائلة :

— أجل ، إنني أحبّه !

— أتكونين سعيدة ؟

— أجل ، إنني سعيدة يا أبي !

فأخذ السيد دي تورنهام في التفكير ، ثم أمسك بيد جان فإذا هي باردة كالثلج ، إلا أن الفتاة الجريئة لم تكن ترتعش ، كانت تبتسم بلطف واطمئنان . فقال الأب :

— والدموع التي سكبتها ؟... والإغماء الذي أصابك ؟...

— كان ذلك في ساعة ضعف وتأثّر ...

— جان !...

— إن تلك الترانيم في الكنيسة وتلك الأنوار والعطور والبخور والأنغام أهاجت أعصابي ...

— جان ، إبنتي ، أنت تكذبين ... أنت تكذبين على أبيك !...

— أقسم لك أنني أقول الحقيقة !

— أتقسمين ؟...

فأشرقت هالة الاستشهاد حول جبينها ووجهها وقالت :

— أجل ، أقسم على رأسك أنني لست كاذبة !...

فراح يقول في نفسه :

« أيكون الأمر أعظم مما تصوّرته ؟... إنني أشعر بكيدة رهيبة تحاك في الظلام للقضاء على سعادة إبنتي ... أيّة مكيدة هي؟... سوف أعرفها ولو اضطررت إلى بذل ثروتي وحياتي !..»

وبعد بضع دقائق ظهرت تلك التي كانت تدعى في الصباح جان بواسون والتي تدعى الآن السيدة ديتيول في القاعة الكبيرة ، بين جمع غفير يمثّل رجال المال والفن والأدب في باريس .

وكانت باسمة طلقة المحيّا ... وما أن بدت حتى تعالى الهتاف باسمها ، فمرّت وهي متّكئة على ذراع أبيها بين كل تلك الجموع المحتشدة لرؤيتها ، وكانت تردّ بطلاقة وسرعة خاطر وذوق بالغ على كل الذين كانوا يهنئونها ، وعرفت كيف تنتقي الكلمات عندما خاطبت رجال الفنّ والأدب وأطنبت في مدحهم ، فامتلأت صدور أولئك الرجال إعجاباً بأنفسهم ولاحت ابتسامات الفخر والاطمئنان على شفاههم .

وبدت جان في تلك الحفلة كسيدة بيت نادرة المثال ، مما حدا بالشاعر كرابيون ، الذي لا يعدم الآراء الصائبة عندما يكون صاحياً ، إلى أن يقول بإعجاب بالغ :

لقد أصبحت الآلهات الآن عشراً لا تسعاً ، وقيّض لعصرنا هذا أن يختار الإلهة العاشرة أي إلهة الأعياد والحفلات ... التي هي أمامكم ... السيدة ديتيول ... وقد أطلقتُ عليها لقباً جميلاً .

فصاح الجميع قائلين :

— وما هو ؟

فقال مفاخراً :

— نجمة النجوم ...

فشخبت وجوه نساء رجال المال اللواتي دُعين إلى تلك الحفلة ونقمن على كرابيون نقمة عارمة وعزمن على محاربته منذ العرض الأول لروايته كاتيلينا .

فيا لنكد الشعراء وحظّهم العاثر !...

وأقبل الليل ، وعند الساعة الحادية عشرة انصرف المدعوّون فلجأت جان إلى قاعة في الطابق الأوّل وقرعت الجرس تدعو إحدى الوصيفات لتقودها إلى غرفتها ، وعندما أصبحت في تلك الغرفة صرفت الوصيفة وأقفلت الباب والنوافذ ودفعت المزاليج وتثبتت من منافذ الغرفة حذراً من أن يكون هناك منافذ سرّية . وعندما أيقنت من أنها وحيدة مع نفسها تحطمت فجأة كل تلك القوى العجيبة التي تظاهرت بها... تحطمت كأنها لولب ساعة سريع العطب وعلا وجهها شحوب أشبه بشحوب الموتى وخرّت على ركبتيها وهي تغمغم بكلمات لا معنى لها ، فقد استولى عليها اليأس ، ذلك اليأس الذي يكتسح القلوب ويغشّي على الأدمغة ويضعضع الأفكار .

والغريب أن صورة زوجها لم تلح لها في غمرة ذلك اليأس ، كلا ، فإن الصورة التي لاحت لها في تلك اللحظة الرهيبة كانت صورة نبيل جميل الطلعة شامخ الأنف جلس في مركبة تحثّ جيادها السير بين لمعان السيوف وهتافات الشعب . لقد لاحت لها صورة الملك !

فإن ذلك الحب الذي احتل قلبها في البدء كحب روحيّ أصبح الآن في أوج هياجه وثورته . إنها تحب الآن بنفسها كلها وجسدها

كله ، وقد تاقت إلى التلذّذ بقبلة الحب وبلغ شوقها إلى تلك القبلة حداً حملها على أن تفتح ذراعيها لتلك الصورة التي كانت تتراقص أمام عينيها . وبحركة بطيئة مستمرّة نهضت واقفة وجعلت تسير في شبه انخطاف كأن الملك بلحمه ودمه أمامها .

وفجأة انطلقت من شفتيها صيحة هائلة ... صيحة ذعر جنونيّ. فقد أبصرت رجلاً يقف وراء ستار غرفتها ، ولم يكن ذلك الرجل الملك بل لو نورمان زوجها . فكيف وُجد في ذلك المكان ؟ ومن أين دخل ؟

وتراجعت لغاية السرير واستندت إليه. وفي اللحظة نفسها خطا هنري بضع خطوات إلى الأمام ، فاستعادت سيطرتها على نفسها وقالت بصوت خافت لاهث :

— ماذا تفعل هنا ؟...

فانتصبت قامة هنري ديتيول وضحك ضحكة باردة رهيبة وقال ساخراً :

— إنه لسؤال عجيب حقاً يا سيدتي ، أتسآلينني ماذا أفعل هنا ؟!... ولكنني أتيت لمشاهدة امرأتي !...

— وكيف دخلت غرفتي ؟...

— بطريقة بسيطة جداً ، فإن البنّائين الذين شيّدوا القصر عرفوا بمهارتهم وحذقهم كيف ينشئون فيه المنافذ السرية !

فلم يكن من جان إلا أن سارت إلى الباب دون أن تتكلم ، ففتحته على مصراعيه وعادت إلى هنري، الذي كان ينظر إليها تقوم بتلك الحركة دون أن تبدر منه إشارة أو تفارق تلك الابتسامة

الرهيبة شفتيه ، فأشارت بسبّابتها نحو الباب وقالت بصوت غريب في هدوئه :

— إن من صالحك يا سيدي أن لا تحرجني أكثر مما أحرجتني. فقد كفاني أنني حملت اسمك لأجل إنقاذ أبي ، وأنذرك بأنك ستجني على نفسك فيما إذا أردت أن تنال مني زيادة على ما نلته . فاخرج الآن يا سيدي، إن بينك وبيني هاوية سحيقة لا يمكن لأحد أن يسدّها ...

فانحنى هنري ديتيول حتى كاد يلامس الأرض، ثم انتصب بكل هدوء وقال بصوت كأنه فحيح الأفعى :

— هذه هي المرّة الثانية التي تطردينني فيها ، فاحذري في المرّة الثالثة . إنني سأطيعك في تلك المرّة أيضاً ، وعندئذٍ ... ولكن لا ، فأنا أريد أن أكون متساهلاً . إسمعي ، إن بيننا سوء تفاهم فانت تكرهينني وأنا أحبّك !

فارتعشت جان لتلك الكلمة ولم تشأ أن تسمع المزيد ، فقد كانت تفضّل أيّة مصيبة تنقضّ على رأسها على رؤية ذلك المسخ الماثل أمامها . فقال ديتيول بهدوء رهيب :

— إحذري لنفسك يا سيدتي ولشخص آخر ، يلوح لي أن إشارة أخرى ستبدر منك وهي إشارة قد تكلفك غالياً . ألا تدركين ما أعني ؟... سأوضح لك ، إنني سأطيع تلك الإشارة أيضاً . ولكن أتدرين ماذا تكون العاقبة ؟... إن رجلاً سيدخل غرفتي بعد هنيهة حاملاً إليّ ورقة لأوقّعها وهي الورقة التي تحتوي الأدلة الراهنة على تهمة التلاعب بأموال الدولة أي التهمة التي ستؤسو

www.mlazma.com

على عاتق أبيك !...

وكانت جان تصغي إليه وقد اتسعت عيناها لشدّة رعبها، فتابع ديتيول قائلاً بذلك الهدوء الوحشي نفسه :

— فإذا كنتُ هنا إلى قربك ، فإن ذلك الذي يحمل الورقة لن يجدني في جناحي ، ولذلك يتعذّر علي أن أوقّع تلك الورقة وينجو أبوك. أما إذا كرّرت عليّ الأمر بالانصراف فإنني سأطيع يا سيدتي إلا أن ذلك سيكلفنا غالياً كلنا : أنا الذي أحب عمي.. وأنتِ ... وهو خاصة إذا كان يحرص على رأسه !

فتخاذلت قوى جان وترنّحت وكادت تسقط ، ووقف للسخ الرهيب أمامها معقود الذراعين . وفجأة ألقى بقناع التهكّم جانباً وقال بصوت قاسٍ جليديّ النبرات :

— تكلمي يا سيدتي ، أيروقك أن أنصرف ؟...

فسقطت ذراع جان التي كانت تشير بها إلى الباب وطأطأت الفتاة رأسها وقد شعرت بأن قواها تحطمت وأنها غُلبت على أمرها، وسالت دموعها على خدّيها دون أن تفكر في إخفاء تلك الدموع .

فابتسم ديتيول ابتسامة الظفر وقال بصوت خفيض :

— هل أبقى ؟

فلبثت جان جامدة في مكانها كأنها تمثال اليأس وظهر عليها أنها لم تسمع كلمات زوجها فقال ديتيول بإصرار :

— إذن ، سأبقى .

وحاول أن يجعل لصوته نبرة من نبرات الحب والهوى وأن يبدو بمظهر العاشق المخلص فأردف قائلاً :

— إنني أحبك يا جان ، أحبك حباً صادقاً ، ويجب أن تعلمي ذلك ... أحكمي عليّ بما تشائين ، أنظري إليّ كرجل سافل دنيء مجرم، فأنا سافل دنيء مجرم في الحب، أتسمعين؟... وسأرتكب جرائم أخرى لأجل امتلاكك ، سأرتكب جرائم أخرى غير تهديدي إياك وإثارة دموعك لأنني إذا فقدتك أموت . ولا تصدقي شيئاً مما قلته لك قبل زواجنا ... فأنا . والحق يقال ، أحبك حباً ملك عليّ نفسي، فإذا انتزعك أحد مني ... إذا أحببت سواي...

فارتعشت جان ارتعاشاً شديداً بينما أردف ديتيول قائلاً :

— إذا أحبك ذلك الذي تحبينه فإنني سأقتله بيدي ...

فسرت قشعريرة طويلة في مفاصل جان ، واستأنف زوجها قائلاً :

— ومهما بلغ من علو المكانة وسعة النفوذ فإنني سأناله وانتقم منه انتقاماً هائلاً لا يخطر لك في بال . وذلك كله لأنني أحبك ، وليس في الحب مستحيل ... أتصدقينني ؟... أتعتقدين بهذا الحب الجنوني الذي ينهشني أنا الرجل الكريه القزم القبيح المشوّه ؟...

أجل ، لقد صدّقته ، صدّقته وقد وقف منها ذلك الموقف الذي انقلب فيه رجل من قاسٍ لا يرحم إلى رجل تكاد الشفقة والرقة تظهران في كلامه وتصرفاته . فقد أجاد المجرم تمثيل دوره ، كان يذوب وجداً وهياماً في صوته وحركاته . إلا أن جان لو ملكت الجرأة ونظرت إليه مباشرة لرأت في عينيه أشياء تثير الرعب ، فإن نظرات ذلك العاشق الذي يكاد يجنّ لشدة غرامه ، كانت باردة قاتمة زجاجية ليس فيها أيّة بارقة من بوارق الحب والوجد .

ولم تتحرك جان ، فإنها كانت بعيدة بأفكارها عما تسمع ، ولم يرسخ من كلمات ديتيول في ذهنها إلا كلمة «أحبك» وذلك لكثرة ما ردّدها على مسمعها وليس لأي اعتبار آخر .

واقترب منها على مهل دون أن يجرؤ على أن يلمسها بأصابعه ، والتصق بها . وفجأة ، بحركة ثائرة من حركات الغرام ، تناول منديله من جيبه وأخذ يفركه بين يديه ، ثم رفع تينك اليدين بالمنديل إلى أنف جان متوسلاً مستعطفاً ، وأبعد وجهه عنها وهو يتأملها ويقول :

ـ أحبك ، أحبك حباً يستحيل على أي رجل أن يحب مثله ، فإنك تملأين قلبي وكل ذرّة من كياني ، ولأجلك وحدك أحلم بالقوة والثروة ورفعة المقام. جان ، جان !... أنظري إليّ !... أصغي إليّ !... فأنا أحبك ، أحبك !...

فأحست بشيء من الخور يغزو أعصابها تدريجياً وشعرت بقوة قاهرة ترغمها على النوم ، فحاولت أن تتحرك ولكن دون جدوى. فإن أجفانها ثقلت رويداً رويداً ولم تلبث أن أطبقت عينيها ، فقال ديتيول :

ـ أحبك ، أحبك ... أنت بين ذراعيّ ... جان ، أنت لي ... أنت لي لوحدي !...

فسمعت تلك الكلمات كأنها في حلم ، وشعرت بديتيول وهو يطوقها بذراعيه ويرفعها ، ثم استغرقت في سبات عميق . وكان هنري قد ألقاها على السرير فأطبق بالمنديل على أنفها نحواً من دقائق ثلاث وهو لا يزال يقول :

ـ أحبك يا جان ، أحبك ، أنت لي !...

وكان يقول ذلك كأنما يريد أن تنفذ كلماته إلى دماغها ، وهي غارقة في النوم ، وتستقرّ فيه إلى الأبد . وأردف قائلاً :

ـ أحبك يا جان ، أجل ... صدقيني ، وفي سبيل حبك ارتكبت ما جعلني أصبح مجرماً في نظرك . إلا أنني سأكفّر عما جنيت فأنا أحبك وسوف ينتهي بك الأمر إلى أن تبادليني ذلك الحب أيتها الحسناء الملائكية !...

وعندما أيقن من أنها غابت تماماً عن الصواب ، عندما هزّها وناداها بصوت مرتفع وتأكّد من أنها لن تستفيق قبل بضع ساعات، طوى منديله وأخفاه في جيبه وهزّ كتفيه وقال :

ـ لقد كلفني إذلالها جهداً عنيفاً وأيم الحق ، إلا أنني أصبحت أخيراً السيد المطلق المطاع !...

فرنسوا داميان

*

سار هنري ديتيول إلى ستار رفعه دون أن يلقي نظرة على المرأة المطروحة على سريرها أو يكترث بها ، وضغط لولباً ففُتح باب سرّي ضيّق، فأبقى ديتيول ذلك الباب مفتوحاً وسار في رواق إلى أن بلغ غرفة صغيرة يضيئها نور خفيف . وكان في تلك الغرفة رجل يقف جامداً كأنه التمثال ويرتدي ثوباً قاتم اللون لا زينة فيه

ولا شعار ، ثوباً أشبه بثياب أولئك الخدم الذين يثق بهم أسيادهم ويفضون إليهم بما عندهم من أسرار .

ولم يكن ذلك الرجل سوى فرنسوا داميان ، الرجل الذي كان الغبار يكسو ثوبه البالي عندما رأيناه يجتاز فسحة الإرميتاج، الرجل صاحب العريضة الذي كاد يفتك بلويس الخامس عشر أمام قصر أرجانسون ، الرجل الذي دعاه هنري ديتيول إلى الجلوس في مركبته .

وكان قد تبدّل تبدّلاً كبيراً ، تبدّل في ثوبه ووجهه ، فقد قصّ شعره الطويل وحلق لحيته الكثّة مما ساهم في تجسيم المرارة والألم في ملامحه . قد يكون منظره أصبح أقلّ وحشيّة إلا أنه أصبح أكثر قسوة وأشدّ وقعاً في النفس .

فقال له ديتيول :

– قل لي أيها العزيز ، هل تبدو لك الخدمة شاقة ؟...

– إنك لم تطلب مني حتى الآن أن أقوم بأي عمل . وقد حدّدت لي مائتي ليرة في الشهر مع غذائي ومسكني وملبسي لألتحق بك بصفة خادم ...

– بل بصفة أمين سر !

– بصفة خادم يا سيدي ! فإنني لست من الثقافة بحيث أستطيع أن أكون أميناً لسرك . وقد رضيت بالعمل كخادم لكسب قوتي . ثم من أنا ؟... لا شيء ... بل أقلّ من لا شيء !... ومصيرنا نحن أبناء الشعب أليس ...

ووقف صوته في حلقه وكان قد بدأ يزمجر ، كانت عيناه قد

بدأتا تقدحان شرراً . إلا أنه عندما استأنف حديثه ، قال بهدوء عجيب :

– عفواً يا سيدي ، فإن كل ما أريد أن أقوله لك هو أن ما حدّدته لي من مرتّب مبلغ جسيم ...

– هذا ما أعرفه أيها العزيز، فإن ما تتقاضاه يعادل ما يتقاضاه نائب رئيس القلم في ديوان وزارة !

– إذن ، فهو مبلغ جسيم كما قلت لك يا سيدي ، فضلاً عن أنك حتى الآن لم تطلعني على ما يجب عليّ أن أقوم به من الأعمال ...

فقال ديتيول :

– لا أريد منك أن تفعل شيئاً !

فألقى داميان على سيده نظرة عميقة ، وقال :

– هذا كثير ! فإنك إذا كنت تعطيني مبلغ مائتي ليرة في الشهر كي لا أعمل شيئاً، فسوف أجد نفسي قبل مضيّ وقت طويل مديناً لك بمال كثير وعندئذ ..

فقاطعه ديتيول بقوله :

– وعندئذ لن يتبدّل شيء . فأنا بحاجة إلى رجل مخلص يظل إلى قربي لا أكثر ولا أقل . وقد اشتريت ذلك الإخلاص بالمال . إذن ، فعليك أن تكون مخلصاً لي . هذه هي الخدمة التي أطلبها منك ، وهي ما لا أستطيع أن أطلبه من أحد سواء كان من خدمي أو من أصدقائي . فإذا اصطدمتُ يوماً ما بخصوم أشداء .. إذا اصطدمتُ بالملك ...

www.mlazna.com
ARAYAHEENA

فشحب وجه داميان وزمجر قائلاً :

— الملك ؟...

— أجل ، إذا اصطدمت بالملك ... فإنني سأطلب منك أن تساعدني . فهل توافق عندئذٍ على ما سأطلبه منك ؟

فصرف داميان بأسنانه حتى كاد يطحنها وأجاب قائلاً :

— أجل !

— ليس هذا كل ما سأحتاج إليك فيه ، وربما تكون هناك أشياء أخرى سأستعين بك فيها ... ولا أكتمك أيها العزيز أنني تزوجت اليوم ...

فتبدّل لون داميان من الشحوب إلى الاكفهرار . فتفرّس ديتيول في وجهه لحظةً وقال :

— غير أنني لا أثق بامرأتي ، فقد ظهر لي منها أنها لا تحبني ..

— إذن ؟...

— فإذا اتفق لي أن أتغيّب عن منزلي كما سأفعل الآن ...

فارتعش داميان ارتعاش سرور يخالطه الغضب وصاح قائلاً :

— تتغيّب عن منزلك ... في ليلة عرسك ؟!

— أجل ، فهناك أمور أكثر خطورة بالنسبة إليّ ، وأريد أن لا تبقى امرأتي وحدها خلال تلك الساعات التي سأضطر فيها إلى التغيّب عن المنزل ...

فقال داميان وهو يلهث :

— سيدي ! سيدي !

— ماذا أصابك ؟...

— أطلب مني أن أضحي بحياتي في سبيلك فأفعل ذلك بطيبة خاطر ... ولكن ، أرجوك ، لا تطلب مني أن أكون جاسوساً على ... على ... سيدتي ...

— ومن الذي يطلب منك ذلك ؟ فأنا أقول لك فقط إنني لا أريد أن تبقى امرأتي وحدها ، وأنا لا أثق بالوصيفة ولا بالخدم ولا بأي كان من الناس . وقد أفهمتك أنني بحاجة إلى إخلاص تام ، ألعلّك لم تفهمني ؟...

فتصبّب العرق من جبين داميان وقال :

— كلا !

فقال هنري ديتيول :

— تعال !

وسار به في الرواق لغاية الباب السري الذي يؤدي إلى غرفة جان . وكان ذلك الباب لا يزال مفتوحاً وقد بدا من خلاله جزء صغير من الغرفة . فما أن رأى داميان تلك الغرفة حتى أخذته رعشة عنيفة جعل يهتزّ معها من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وأطرق برأسه لا يرفعه فقال ديتيول بصوت خفيض :

— أنظر ، إن زوجتي تنام هنا وأنا سأبرح منزلي . إذن ، فالقضية التي أنتدبك لها قضية حياة أو موت . سأعود في الساعة السادسة صباحاً . أما أنت الذي لست صديقي أو خادمي ... بل الإخلاص فقط ، فيجب عليك أن تتركز هنا إلى ذلك الوقت ...

فقال داميان بصوت كأنه الحشرجة :

— هنا !...

— أجل ، في هذا الرواق ، ولكن اطمئن فإنك لن تكون هنا للتجسّس ، كلا ... بل إذا دخل أحد ...

فجمع داميان قبضتيه كمن أدرك أي واجب ألقي على عاتقه وصاح قائلاً :

— آه ! آه !

— إذا دخل أحد أقتله كالكلب ، أتسمع ؟

— أجل ، أجل !...

— عليك أن تقتله ولو كان أعظم الناس مكانة وقدراً !...

— أجل ، أجل !...

— حتى ولو كان الملك !...

فلم يجب داميان بشيء هذه المرّة ، إلا أن عينيه التمعتا بحقد هائل ارتعدت له فرائص هنري ديتيول بينما كانت تطفو في الوقت نفسه ابتسامة ارتياح على شفتيه الرقيقتين ، وأردف قائلاً :

— إنني أترك لك الباب مفتوحاً كي تستطيع الإشراف على الغرفة ... إلى اللقاء !

وابتعد مسرعاً وهو يتلفّظ بتلك الكلمات . وجمد داميان في مكانه كالمصعوق . غير أن هنري ديتيول لم يغادر منزله كما ادّعى بل دخل قاعة الطعام وأقفل وراءه الباب ، ثم نزع لوحة عن الجدار وأخذ يرصد من ثقب هناك كل حركة يقوم بها داميان ، ويقول في نفسه :

« أريد أن يعصف في قلب هذا الرجل غرام هائل رهيب !... أريد أن أستعبده بواسطة ذلك الغرام الجنوني !... أريد أن أجعل

منه منافساً للملك فرنسا لا يتوقّعه لويس ... وأي منافس هو ؟... خادمي !... وعندئذٍ ... عندئذٍ ... يجب أن تتحقّق أحلامي ، يجب أن ينفجر الانتقام والحقد اللذان تسرّبا قطرة قطرة إلى نفسي حتى طفحت بها ، يجب أن ينفجر كالصاعقة التي تنقضّ فجأة دون سابق إنذار !... صبراً !... صبراً ... »

ولبث داميان جامداً في مكانه لا يتحرك قيد شعرة ، وكان يرتعش ارتعاشاً عنيفاً متواصلاً ، ويمر بين الفينة والفينة ، بيديه الباردتين كالثلج على جبهته الملتهبة وهو يغمغم قائلاً :

— ماذا تراه يريد ذلك الرجل ؟ لماذا وضعني هنا ؟ ما هو قصده ؟... إنه لا يكاد يعرفني وليس بينه وبيني أيّ كلام ، ومع ذلك فقد عهد إليّ بمهمّة خطيرة تدلّ على ثقة عمياء ... بل على ثقة هائلة لا متناهية ... فماذا يريد ؟... أتراه يريد أن يبلوني ؟... كلا ، مستحيل !... أيريد أن أشرف على هذه الغرفة في ليلة عرسه ؟... هذا ما يدهشني وأيم الحق !... فإن حكاية تلك المصالح التي تضطره إلى براح منزله ليلة عرسه بالذات حكاية سخيفة !... فماذا يريد إذن ؟... لقد أمسك بيدي وقادني ... إلى أين ؟... إلى هنا !... إلى قربها !...

وغشي على أفكاره ... وأطال النظر إلى زاوية الغرفة التي كان يراها من مركزه ... وعبقت الروائح العطرية في أنفه تسكر منه الحواس . ولبث على تلك الحال نحواً من ساعة جامداً في مكانه ، وفجأة خطا خطوة نحو الباب . إلا أنه سرعان ما تراجع مذعوراً وهو يغمغم قائلاً :

— ماذا أفعل هنا ؟... بماذا أفكر ؟... أيّة رغبة دنيئة تضجّ في صدري ؟... لن أدخل ... كلا ... لن أدخل !...

وبعد دقائق عاد إلى مكانه في الرواق وانحنى وأصغى ، فلم يسمع سوى دقّات قلبه العنيفة المتسارعة ، فقال بعجب شديد :

— لا حركة ولا حفيف ولا صوت تنفّس، أيمكن هذا ؟!...

وخُيّل له أن جان ليست في غرفتها ، إلا أنه سرعان ما دفع ذلك الخاطر ... وفجأة ، إذا بصيحة تتصاعد من صدره فتلاشى على شفتيه ، فقد عنّت له فكرة أخرى ، فكرة هائلة رهيبة ، فقال :

— إنه قتلها دون شك وطلب مني أن أقف هنا لترسو عليّ التهمة !... وسوف يفاجئني من يقبض عليّ في مكان الجريمة !... سيدخلون ... سيقبضون عليّ !...

وبلغ منه الخوف حداً جعله ينتفض بعنف وغضب ويجيل في ما حوله نظرات تائهة رهيبة . إلا أن ذلك الخوف زايله فوراً فأقلع عن التفكير في الدفاع عن نفسه وجعل يفكر فيما هي ، وقد تمثلها ممدّدة على سريرها ميتة ، فزمجر قائلاً في لهجة رهيبة :

— إن يكن قد قتلها فالويل له !...

ووثب وثبة جعلته في وسط الغرفة ، ورأى جان مطروحة على سريرها في ثياب العرس كما تخيّلها .

وكان هنري ديتيول يراقبه من خلال الثقب في الجدار ، وعندما رآه يدخل مخدع العروس غمغم يقول في ارتياح :

— أخيراً !...

واقترب داميان من السرير وهو يشهق بالبكاء وانحنى على جان وهو يقول في حزن ولوعة :

— إنها ميتة !... إنها ميتة !...

بيد أنه لم يكد يلقي نظرة واحدة عليها حتى تبيّن له أنه على خطأ.

وكانت جان جامدة في سريرها وذراعاها متدليّتان على طول جسمها ، وقد استند رأسها إلى وسادة ثمينة رائعة التطريز والوشي، إلا أن وجهها كان هادئاً مورّداً وكان صدرها يعلو ويهبط في انتظام وكان نفس خفيف ينبعث من شفتيها المشقوقتين ، فغمغم داميان قائلاً بدهشة لا توصف :

— إنها نائمة ... نائمة !...

وأدرك على الفور أن ذلك السبات ، وإن يكن هادئاً ، ليس طبيعياً فأردف يقول :

— إنه هو الذي خدّرها ، فلماذا ؟...

وزال عنه قلقه بعد أن تأكد من أنها لا تزال في قيد الحياة ، ولم يتمالك أن قال خاشعاً :

— ما أجملها !...

وتراجع وهو يرتعش ، إلا أن أنظاره ما برحت معلّقة بالمرأة النائمة ، تراجع ثم عاد فاقترب منها ، واصطدم بمقعد فانتفض انتفاضة هائلة ، لقد كان بلهث ، كانت تلفح وجهه نسمات حارة ، ومع ذلك فقد كان يشعر ببرد جليديّ يتغلغل في جسده . فإن تلك المرأة الفتيّة الحسناء ، تلك المرأة المطروحة على السرير ، المخدّرة دون أي شك ، تلك المرأة الساحرة الفاتنة الماثلة أمامه

www.mlazna.com ARAYAHEEN

الخاضعة لرغباته ... كانت تثير في نفسه مشاعر وتمنّيات متضاربة.

إنه يجود بحياته في سبيل لحظة مماثلة ، فقد كانت جان هنا ... أمام عينيه ... لا تقوى على الدفاع عن نفسها ! وخفق قلب داميان حتى كاد ينفجر في صدره ... أيطوّقها بذراعيه ؟... أيضمها إليه ... ولو دقيقة ... لحظة ... وبعد ذلك يموت ؟...

وبسط ذراعيه وتقدم نحوها . وفي تلك اللحظة بالذات جالت فكرة رهيبة في دماغه فقال :

— إن هنري ديتيول لم يقدني إلى هذه الغرفة إلا لأنه هو — ويا للفظاعة !... هو الزوج يريد ذلك !... إنه يريد أن أغتصبها !.. لقد أدركت الآن ماذا يريد !... إن هناك مكيدة سافلة رهيبة تحاك في الظلام للايقاع بهذا الملاك ... وكدت أكون أنا الآلة الحقيرة التي يراد بها تدنيس هذه النائمة أمام عينيّ ... هذه الحسناء الرائعة المستسلمة المطمئنة !...

وجثا داميان ببطء قرب السرير ووضع رأسه بين يديه وأخذ يبكي في سكون ويغمغم قائلاً :

— نامي، نامي بسلام أيتها المرأة المسكينة فإنني ، وإن كنت ذلك الرجل الملعون، لن ألوّث طهارة جبينك بأنفاسي القذرة !...

وكانت يد جان تتدلّى إلى خارج السرير فأراد أن يقبّل أصابعها العاجية الرقيقة إلا أنه تمالك نفسه أيضاً ، واكتفى بأن يطبع شفتيه بخشوع على ذيل ثوبها ، ذلك الذيل الطويل المبسوط على السجّادة . طبع قبلته على ذيل الثوب وفي اللحظة نفسها سالت من عينيه عليه دمعتان كبيرتان محرقتان .

ولم يلبث أن نهض واقفاً وتراجع دون ضجة ، فغادر الغرفة وأغلق الباب وعاد إلى مكانه الأول حيث وقف جامداً كالتمثال وتاه في عباب التفكير .

استيقظت جان في الساعة الخامسة صباحاً ، فرأت نفسها ممدّدة في سريرها وهي لا تزال ترتدي ثيابها . وخُيّل لها لحظة أنه أُغمي عليها في الليلة الفائتة وأن هنري ديتيول ندم على ما بدر منه حيالها فتركها وشأنها . وكانت متعبة منهوكة القوى ، كان رأسها ثقيلاً يدوي ، فنزعت ثيابها واستلقت في السرير .

أما هنري ديتيول فإنه ما كاد يبصر داميان يدخل مخدع العروس حتى أعاد اللوحة إلى مكانها من جدار قاعة الطعام وابتسم ابتسامة رهيبة وعاد إلى غرفته حيث قضى بقيّة الليل في كتابة بعض الرسائل .

وعند الساعة السابعة صباحاً عاد إلى الرواق فأبصر داميان واقفاً في مكانه كالمصعوق ، فنظر إليه ديتيول طويلاً وسأله قائلاً :

— ألم يأتِ أحد ؟

فأجاب داميان قائلاً :

— كلا يا سيدي ، لم يأتِ أحد !...

— ألا تصدقني الخبر ؟... هل دفعك الفضول إلى ...

— إلى ماذا يا سيدي ؟

فأشار ديتيول إلى غرفة زوجته وقال ساخراً :

— إلى دخول هذه الغرفة !...

فأجاب داميان قائلاً دون تردّد :

— كلا يا سيدي !...

فقال ديتيول في نفسه :

« إنه يكذب ، إنه يكذب ... فقد رأيته بأم عيني يدخل الغرفة ... ولكن لا بأس ، ليكذب . فماذا يهمني من كذبه ما دام كل شيء يجري طبق المرام ؟... »

ودخل الغرفة ، وكانت جان في سريرها مستيقظة فابتسم ابتسامة خفيّة وقال :

— أيتها العزيزة جان ، لقد حملني حبي لك على أن أتمادى قليلاً في الليلة الفائتة ، وربما أكون قد استفدت من حقي كزوج فعفوك عني . ومن الآن فصاعداً يمكنك أن تطمئني إلى أنني لن أدخل أبداً هذه الغرفة إلا إذا راق لك أن تستدعيني إليك . أما ما يتعلق بحبي فإنني أرضى بأن أتعذب فيه إكراماً لك !

وعندما أصبحت جان وحدها غمغمت تقول برعب :

— استفاد من حقه كزوج ؟!... ولكن ماذا يعني ذلك المسخ بقوله ؟!...

سجن الباستيل

*

مرّت ثمانية أيام على ما سردناه من الأحداث ، وإذا باريس تبدو متهلّلة فرحة . وكان ذلك اليوم يوم أحد فامتلأت الشوارع

بالمتنزهين والمتنزهات وكلهم يرفلون بثياب العيد ، وازدحم المارة في شارع سانت انطوان أكثر منهم في أي مكان آخر ، وكان شارع سانت انطوان هو الطريق الواسع الذي يؤدي إلى الساحة الملكية التي كانت ، في ذلك العصر ، ملتقى الفتيان والفتيات وجميع الذين تستهويهم الأناقة والحسن والجمال ...

ولم يكن من حديث بين تلك الجماهير الرافلة بأبهى الحلل ، بين أولئك المتنزهين والمتنزهات الذين كانوا يحيّون بعضهم بعضاً في ظرف ومرح ، سوى حديث الحفلة الرائعة التي سيقيمها رجال الدولة في قصر المدينة تكريماً لصاحب الجلالة .

وكان من دواعي سرور أولئك الناس بصورة خاصة هو أن يدنو أحدهم من الآخر ليقول له :

— لقد انتهى الأمر ، فأنا من جملة المدعوين إلى تلك الحفلة وقد أصبحت البطاقة في جيبي .

بينما كان يُسمع هنا وهناك حوارات طريفة تتعلّق كلها بالحفلة ، من مثل قول بعضهم :

— كيف يا سيدتي المركيزة ، ألست من المدعوّين ؟

— يقال عن زينة تلك الحفلة كل عجيب مدهش !

— ويقال أيضاً إن الملك سيظهر في موكب راقص هو « موكب فسحة الإرميتاج » ، وسوف يتألف ذلك الموكب من صيادين وصيادات وحسان أشبه بالآلهات ...

— ويقال أيضاً إن ذلك الموكب سيطلق عليه إما اسم « حورية فسحة الغاب » وإما اسم « الأبّل الذي تمتّع بالعفو » ...

وبينما كانت الجموع الأرستقراطية في الساحة الملكية تتبادل تلك الأحاديث كان أفراد الشعب في شارع سانت انطوان يتحدثون عن ارتفاع أسعار الخبز وزيادة الضرائب .

وارتفعت الأصوات فجأة صاخبة مزمجرة، فقد أطلّت مركبة من طرف الشارع وهي تسير في سرعة جنونية متّجهة نحو سجن الباستيل دون أن يبالي سائقها بصياح المارة كأنه يريد أن يدوس كل من يقف في طريق مركبته الجامحة ، فكانت الجموع تتدافع لتفسح طريقاً للمركبة وكانت همسات التذمر والاحتجاج تطفو على الشفاه، إلا أن أحداً لم يجرؤ على الصياح بها بصوت مرتفع .

ومرت المركبة كأنها الصاعقة المنقضّة واستطاع بعضهم أن يعرف ذلك الذي تقلّه ، فارتفعت أصوات تقول :

– إنه ذلك الرجل الشرير نديم الملك !...

– إنه الكونت دي باري !...

وصاح أحد الفتيان المتحمسين قائلاً :

– إيه أيها الكونت الذي لا يساوي درهماً !...

وبينما كان الغضب يتفاقم والسخط يشتد ، إذا بهما يتلاشيان ويذوبان في قهقهة المرح التي أطلقها بعضهم عندما سمع اثنين يتحدثان فيقول أحدهما :

– وإلى أين ينطلق الكونت بهذه السرعة ؟

– إلى سجن الباستيل !...

– إذن ، فليبقَ فيه !...

غير أن تلك الكلمات الساخرة لم تبدر من الجموع إلا عندما

ابتعدت المركبة .

وكانت المركبة تقل الكونت دي باري كما قيل ، وكان يقصد سجن الباستيل حقاً . وقد جلس عابساً شامخاً بأنفه شأنه في مواقفه كلها، وجلس أمامه رجل يرتدي ثياباً لا بأس بها إلا أنه كان يحاول التستر بحيث لا يراه أحد ، فكان يجلس مطرقاً برأسه وقد ضمّ يديه ورجليه وتكوّم على نفسه كأنما لا يريد أن يحتل من المركبة إلا أقل مكان ممكن بينما كان دي باري ، على العكس تماماً ، يتظاهر بالعظمة ويبدو في ثيابه الأنيقة وغطرسته كأنه يصيح بكل من تقع عليه عيناه : « هذا أنا ، والويل لمن يعترض طريقي !.. »

ووقفت المركبة أمام باب سانت انطوان فترجّل راكباها واجتازا جسراً متحركاً ودخلا القلعة الشاهقة السوداء التي كانت تهدّد باريس بتلك القحة التي هدّد بها الكونت دي باري المتنزهين في الشوارع .

وكان ضابط الحرس يعرف الصلة التي تربط الكونت دي باري بالملك فأسرع نحوه وقبّعته في يده ، فقال الكونت :

– أريد من يقودني إلى حاكم السجن .

فأجاب الضابط قائلاً بأدب ورصانة :

– سأقودك إليه بنفسي .

فسار دي باري وراء الضابط يتبعه رفيقه الوديع .

ورغم أن الكونت دي باري دخل القلعة دون أن يبالي بكل ما حوله ، فإن رفيقه لم يستطع أن يخفي اضطرابه عندما وطىء فناءً ضيقاً رطباً لا نور فيه ولا هواء ، وعندما سمع الباب الضخم

www.mlazna.com
RAYAHEEN

يغلق وراءه بصرير رهيب .

ولو تأتّى لدي باري أن ينفذ إلى مخيّلة رفيقه لسمعه يقول في نفسه :

« يا للشيطان ! ولكن هذه القلعة قبر ... قبر كئيب ... ولو كان هناك من يعلم ... أو لو تلفظ دي باري بآية كلمة ... يا لله ! إنني أرتعش لمجرد التفكير في أنني سأسجن في هذه القلعة إلى الأبد ... إلا إذا كان هناك حبل متين يطوّقون به عنقي ... »

وتوقّف عن متابعة تفكيره. وكان منظر الباستيل من الداخل رهيباً ، فإن الموت كان يرفرف في جوّه ، وقد ارتفعت جدرانه الكئيبة السوداء المكسوّة بالطحلب إلى علو شاهق وبدت فيها ، هنا وهناك ، كوى ضيقة مُشبّكة بالقضبان الحديدية الغليظة كأنها الفاصل الأخير بين عالم الأحياء وعالم البائسين الذين يئنّون وراءها .

واجتاز الضابط باباً صغيراً وصعد درجاً مستديراً بُويت منه الدرجات كأنما بفعل الدموع ، ووقف في الطابق الأول فألقى بكلمة السر في أذن أحد الحراس وقرع باباً فتكلم لحظةً مع الخادم الذي فتحه ، ثم دخل وهو يشير إلى الكونت ورفيقه بالانتظار .

وبعد لحظات دخل الكونت دي باري ورفيقه الوديع المظاهر غرفة فسيحة خشنة الأثاث تزينها ستائر قديمة تنبعث منها رائحة العفونة وتنتشر فيها خزائن ذات أرقام متسلسلة . إنها غرفة رئيس الحراس دون شك .

ودخل حاكم الباستيل بعد بضع ثوانٍ ، وهو شيخ زجاجي النظرات ، فحيّا الكونت دي باري بشيء من عدم الاكتراث

وألقى على رفيقه نظرة يرتجف لها كل من تقع عليه ، ثم سأل الكونت قائلاً :

— أيّة أنباء جديدة تحملها إليّ أيها الكونت العزيز ؟... فإنني في هذا الجحر لا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ولا أعرف شيئاً . أما أنت فإنك سعيد جداً بتلك الحياة التي تحياها في البلاط . ألا تزال الآنسة دي شاتورو تحتل قلب ملكنا المحبوب ؟

فارتعش الكونت دي باري، ونظر الرجل الصامت إلى الحاكم يتأمّله ويغمغم قائلاً في سره :

« إن لم يكن هذا الرجل أحمق ، فهو دون شك رجل رهيب، وعليّ أن أراقبه مراقبة دقيقة !... »

وقال الكونت دي باري :

— لقد ماتت الآنسة دي شاتورو ، ولا أعتقد أنك تجهل نبأ موتها مهما كنت بعيداً عن البلاط .

فقال الحاكم ببرودة كليّة :

— أقسم لك بشرفي أنني أجهل ذلك !.. إذن ، فقد ماتت تلك المسكينة دي شاتورو !... لتتقبّل السماء نفسها !... فإن فريدريك الكبير لن يدعوها بعد الآن كوتيون الثالثة .

فعضّ الرجل الصامت شفتيه ، واكفهرّ وجه دي باري وغمغم قائلاً :

— عن أيّ فريدريك تتحدّث ؟

— ولكن ... عن فريدريك الوحيد العظيم الظافر ... عن صديق السيد دي فولتير ... عن ملك بروسيا !... ولكن

لندع ذلك ولنر الآن الباعث على هذه الزيارة التي تشرّفني بها والتي تفعم قلبي بذلك السرور الذي لا يتأتّى لي أن أحسّ بمثله في هذا المكان الكئيب إلا في النادر النادر ...

فقال الكونت وهو يناوله نفسه :

— إن الأمر بسيط ، وهو هذا ...

وتناول من جيبه ورقة مختومة بالخاتم الملكي وضعها أمام الحاكم ، فطالعها هذا ولم يلبث أن ألقى نظرة دهشة على رفيق دي باري وقال له :

— إنني أنحني أمام أمر الملك ، وأنا تحت تصرفك يا سيدي..

فقال دي باري وهو يشير إلى رفيقه :

— السيد جاك .

فانحنى الرجل الذي دُعي بهذا الاسم أمام الحاكم ، ثم تكلم بصوت بارد النبرات ، فقال :

— أشكرك جزيل الشكر يا سيدي الحاكم ، فإن أمر ذلك السجين الشاب يهمني جداً ... وقد تفضل حضرة الكونت — وهو صديقي — فساعدني في ...

فقال الحاكم :

— يكفي ، يكفي ! فإن ما ستقوله لا شأن له عندي ، وما دمت تحمل أمراً موقعاً بتوقيع أرجانسون ومصدقاً عليه بإمضاء بيريه فإن ما تبقّى لا يعنيني مطلقاً ... وإن كنت مع ذلك قد تلقّيت أوامر مشدّدة بحبس ذلك الشاب في أعمق الزنزانات ... سأعطي الأمر بأن يقودوك إليه ...

وقرع على لوح نحاسيّ فأقبل أحد الخدم ، فقال الحاكم :

— جئني بحامل المفاتيح رقم ٩ .

وبعد دقائق دخل حامل المفاتيح المعيّن القاعة فقال له الحاكم:

— إذهب بحضرة السيد إلى الزنزانة ذات الرقم ... أيّ رقم ؟...

وعمد إلى الملفّات الموضوعة في الخزائن يبحث فيها وإذا به يقول :

— ذات الرقم ٢١٤ .

ولم يكن حاكم الباستيل يريد أن يعرف أسماء سجنائه أو حراسه بسوى الأرقام ، وقد درج على تلك العادة منذ مدة طويلة جداً حتى أنه كان يدعو نفسه دائماً « الرقم ١ ».

فانحنى حامل المفاتيح أمام رئيسه وأشار للسيد جاك بأن يتبعه وغادر القاعة . وعندئذٍ قال دي باري وهو ينهض واقفاً :

— إن السيد جاك رجل محترم ، فشكراً لك يا سيدي الحاكم على تلطّفك ...

— لا شيء يستحق الشكر ما دمت تحمل أمراً مستوفياً كل الشروط !... ألا تنتظر السيد جاك ؟

— كلا ، فإنني في عجلة لاستنشاق الهواء النقي ...

فقال الحاكم وهو يتنهّد :

— إنك على صواب !

وتبادل الرجلان تحيّة مقتضبة وانصرف دي باري . وعندما أصبح خارج السجن الرهيب أقترب من سائق مركبته وأمره بأن

ينتظر حيث هو ، ثم سار نحو الساحة الملكية ودخل شارع فوان الصغير . وعندما أيقن من أن أحداً لا يراقبه ولج منزلاً صغيراً واطئاً حقير المظهر ، وكان ذلك المنزل هو منزل السيد جاك .

وفي تلك اللحظة كان السيد جاك يسير وراء حامل المفاتيح رقم ٩ في سجن الباستيل ، فهبط الرجلان الدرج واجتازا ذلك الفناء الضيق المظلم نفسه الذي أثّر منظره في السيد جاك ذلك التأثير الذي وصفناه ، ثم دخلا رواقاً رطباً وصعدا درجاً وتنقّلا في طوابق عدة كان حامل المفاتيح يعطي في كل منها كلمة السر إلى الخفراء ، ثم دخلا رواقاً طويلاً ووقفا أخيراً أمام باب متين أخذ حامل المفاتيح يعالج مزاليجه وأقفاله. وعندئذٍ لمس السيد جاك ذراع رفيقه بلطف وقال :

ـ عفواً يا صديقي ، أريد أن أقول لك كلمة .

ـ عشر كلمات إذا أردت !

ـ أتعرف اسم السجين الموجود في هذه الزنزانة ؟

ـ ذو الرقم ٢١٤ ؟...

ـ أجل ، ذو الرقم ٢١٤ !...

ـ ألا تعرف اسمه أنت ؟

ـ إنني أخذت على عاتقي أن أؤدي له خدمة صغيرة ... وقد قيل لي اسمه ... إلا أنني نسيته ...

ـ إذن ، فإنه يدعى الفارس داساس !

***

عندما ألقي القبض على الفارس داساس أمام كنيسة سان جرمين

لوكسيروا كانت أول فكرة تبادرت إلى ذهنه هي أن يمتشق حسامه ويدافع عن نفسه . إلا أن اليأس سرعان ما استولى عليه فقال بمرارة :

ـ وما الفائدة من الحرية الآن؟.. بل ما الفائدة من الحياة؟.. وما دامت تزوّجت من آخر وما دامت لا تحبني ؟... إذن ، فلأختفِ من عالم الأحياء !

ودخل ، دون أيّة مقاومة ، المركبة الثقيلة التي دُفع إليها والتي سارت به على الأثر . وبعد ساعة من إلقاء القبض عليه كان يدخل سجن الباستيل ويسير وراء الجنود والحراس دون أن يعلم أي شيء عن المكان الذي يقودونه إليه ، ولم يلبث أن حُبس في زنزانة فوق الأرض وأقفلت عليه الأبواب ودُفعت المزاليج من الخارج وساد حوله السكون والظلام .

ولم تكن الزنزانة ذات الرقم ٢١٤ تفضل سواها من الزنزانات التي تحت الأرض إلا بأنها أقل ظلاماً فقط ، ولم يكن أثاثها يتعدى سريراً خشبياً ضيقاً مثبتاً في الجدار ومقعداً من خشب السنديان ذا قوائم ثلاث ولوحاً صغيراً من الخشب عليه بعض الخبز الجاف وإبريق مملوء ماءً . وكانت الجدران صمّاء كثيفة تبلغ سماكتها الثمانية أقدام وكان في أعلى الزنزانة ـ قرب السقف ـ كوّة صغيرة مشبّكة بصفين من القضبان الحديدية الغليظة ، يدخل منها النور والهواء بكمية ضئيلة لا تكاد تكفي للرؤية أو التنفس .

فلم يعر الفارس داساس ، في اليوم الأول ، تلك التفاصيل أي اهتمام . لم يلاحظ السقف الذي ترشّح منه الرطوبة ولم يرَ طبقة

www.mlazna.com

العفونة التي تكسو الجدران ، ولم يأكل أو يشرب بل انطرح على السرير الضيق وجعل يفكر في جان !...

وكان الفارس من تلك الفئة الكريمة التي تهب نفسها مرة واحدة في الحياة فلا تستعيدها أبداً، فاستنتج أنه، مهما تقلبّت به الأحوال، سيلبث طيلة حياته يحب فتاة فسحة الغاب ذات الثوب الوردي وأن غرامه النقي الصادق قد تأصل في نفسه واستعصى بحيث لم يعد الشفاء ممكناً .

ومضى عليه يومان وهو يفكر على ذلك النحو ، وفجأة عنّت له فكرة فأخذ يسائل نفسه بقوله :

— لماذا حُبست في الباستيل ؟... لماذا ألقي القبض عليّ ؟ ماذا فعلت ؟...

وسأل الحارس الذي يأتيه بالطعام عن تلك الأمور فأجابه الحارس بأنه محظور عليه أن يتكلم مع السجناء، فطلب مقابلة حاكم السجن فقيل له إن الحاكم لديه أعمال أخرى سوى التحدث مع نزلاء السجن الذي يشرف عليه . فاستولى عليه غضب شديد وتملكه اليأس ، وأدرك خطورة موقفه فاشتدّ به الوجد واستبدّ به الشوق لرؤية جان فصاح قائلاً :

— إنني لا أطلب أن تحبني ولكنني أريد أن أراها ، أيُقضى عليّ بأن لا أراها ؟... كلا ، كلا ، هذا فظيع !... يجب أن أراها ولو مرة واحدة... لأقول لها إنني أموت في حبها !... أجل، أجل ، يجب أن أراها مهما كلف الأمر !...

وأخذ يبحث عن وسيلة للفرار ، إلا أنه سرعان ما تأكد من

ان الهرب لن يتم له قبل بضع سنوات ... هذا إذا استطاع أن يهرب ، فصاح قائلاً :

— ربّاه !... أأعيش ذلك الزمن كله دون أن أراها ؟...

واستولى عليه اليأس ففكر في الانتحار واستلقى على سريره يبحث عن طريقة مضمونة تنقذه من الحياة والعذاب . وفجأة فُتح باب زنزانته ودخل منه رجل لا يعرفه ، فتقدّم منه وجلس على المقعد الخشبي دون كلفة ، ثم رفع سبّابته إلى شفتيه يطلب إليه الصمت وقال في صوت خفيض :

— إنني أحمل إليك أنباء عن جان !...

السيد جاك

*

عندما أبصرت جان لويس الخامس عشر وهي تغادر كنيسة سان جرمين لوكسيروا وأُغمي عليها بين ذراعي والدها السيد دي تورنهام ، وعندما استند الفارس داساس إلى شجرة وراح ينظر يائساً إلى ذلك المشهد المزدوج، كان على مقربة منه رجل يراقب ما يجري بيقظة تامة .

وأبصر ذلك الرجل الملك فارتعش ارتعاشاً عنيفاً، وشاهد جان تلقي عليه نظرات الحب والوجد فعصف في نفسه غضب شديد . وعندئذٍ وقعت عيناه على الفارس داساس فأدرك من مظاهره أيّة

نفس نبيلة هي نفسه وأيّة جرأة نادرة تتقد في ذلك الوجه الجميل ، ولم تخفَ عليه نظرات الحب والألم والغيرة التي كانت تنطلق من عينيه المشرقتين الوالهتين ، فابتسم ابتسامة صفراء وقال في نفسه :

« يجب أن أضمّ هذا الشاب إلى صفّي مهما كلف الأمر ودون أن أضيع لحظةً واحدة !... هيّا ، هيّا ، فإن الحظ يخدمني اليوم !... »

وتقدم من الفارس وقبّعته في يده ، إلا أن رجال الشرطة كانوا قد طوقوا داساس في تلك اللحظة ، فتراجع الرجل بسرعة إلى الوراء واستتر وراء جذع شجرة وأخذ ينظر إلى الرجال وهم يضعون ضحيتهم في المركبة ويقودونه إلى سجن الباستيل .

والتفت إلى الوراء صدفة وهو حائر مضطرب فرأى الكونت دي باري يتحدث مع بيريه رئيس الشرطة بصوت خفيض ، ولاحظ أن الكونت ينظر في غبطة وارتياح إلى المركبة التي تحمل الفارس داساس إلى السجن ، فلبث قابعاً في مكانه يرقب انصراف رئيس الشرطة ، وعندما ابتعد بيريه مع رجاله اقترب من دي باري دون أن ينظر إليه وقال له آمراً :

تعال إلى منزلي هذا المساء !...

وتابع طريقه دون أن يكلف نفسه عناء التوقف فتوجه إلى شارع سانت انطوان ومنه إلى شارع فوان حيث دخل ذلك المنزل الواطىء الحقير المظهر الذي رأينا الكونت دي باري يدخله عندما غادر سجن الباستيل .

وكان ذلك المنزل هو منزل السيد جاك . أما الرجل الذي

دخله فلم يكن سوى السيد جاك نفسه .

وعندما دخل السيد جاك منزله انزوى في قاعة عمله وأقفل الباب بالمفتاح وأرخى ستائر النوافذ ، وعندما وثق من أن أحداً لن يبصره ضغط لولباً في الجدار فانفتحت أمامه خزانة متوسطة الحجم تكدست فيها ملفات وأوراق كثيرة ، وكانت جميعها مصفوفة باعتناء تام ، بينها سندات مالية على كبار رجال المال في باريس ، وصندوق حديدي مملوء بالقطع الذهبية .

فتناول السيد جاك رزمة من الأوراق خطّ عليها بعض الكلمات بالقلم الرصاص وأعادها إلى مكانها ، ثم جلس إلى منضدة صغيرة وأخذ يكتب رسالة طويلة بحروف غريبة لم تكن بالحروف الفرنسية ولا بحروف أيّة لغة من اللغات المعروفة . وعندما انتهى من كتابة الرسالة وضع الأوراق الثاني التي كان قد عبّأها في غلاف دوّن عليه العنوان بتلك الحروف الغريبة نفسها ، وكان يدوّن ذلك العنوان وهو يغمغم قائلاً :

— يجب أن يتسلمها ... يداً بيد ... جلالة فريدريك الثاني .. ملك بروسيا ... وإذا أخذوا بوجهة نظري هناك سيجري كل شيء على ما يرام !

وأخيراً وضع الكل في غلاف كبير سميك ختمه بالشمع وكتب عليه — بالفرنسية هذه المرة — ما يلي :

« إلى السيد ويلفريد يونغمان ، تاجر بقالة المستعمرات في ويلهلمستراس . برلين — مملكة بروسيا . طلبية بهار وقلفل عاجلة جداً . »

وعندئذٍ أقفل الخزانة السرّية وفتح باب القاعة وأزاح الستائر وأطفأ المشعل الذي كان قد أضاءه ، وخرج من القاعة ودخل قاعة للطعام متواضعة جداً وهناك طرق على لوح نحاسي فهرع رجل على النداء، فسلّمه السيد جاك الرسالة وقال له :

— أريد ساعياً لهذه فوراً ، أتسمع أيها البارون ؟

فانحنى الرجل انحناء عميقاً وأجاب قائلاً :

— أجل يا مولاي !...

وجلس السيد جاك ، بعد خروج الخادم الذي ناداه بلقب بارون ، في مقعد حقير وأطبق عينيه وبدا عليه أنه استسلم لرقاد عذب هنيء .

وكانت الساعة الثامنة تقريباً عندما أُدخل إليه الكونت دي بارى ، فابتدره السيد جاك فوراً بقوله :

— حسناً يا عزيزي الكونت ، ماذا عن ذلك الزواج ؟

— لقد تمّ كما رأيت، وأنا قادم إليك من قصر ديتيول، وأظن أن لنا فيه خصماً عنيداً .

— والصغيرة ؟...

— جان بواسون ؟... إنها على خير ما يرام .

فقال السيد جاك ببطء :

— أجل، إنها شجاعة وفي ذلك ما يشكل خطراً على مشاريعنا، ليتنا عرفناها منذ البدء !... ولكن كلا، فإنها تحب الملك كثيراً.. وهي لذلك لن تتفذ ما أريده منها ... لن تفيدني في قضيّتي ...

فقال الكونت بشيء من السخرية :

— أظنك تريد أن تقول قضيتنا !

فألقى السيد جاك عليه نظرة احتقار ، إلا أنه ابتسم فوراً وقال :

— أجل ، هذا ما أردت أن أقوله يا كونت ... والآن ، ما رأيك في الحالة الحاضرة ؟

فقال دي باري وهو يرتعش غضباً :

— أعتقد أن ديتيول رهيب في دسائسه ومؤامراته ، وأنه إذا اعترض طريقي فإنني سأقتله !...

فقال السيد جاك ببرودة :

— أقتله إن كان ذلك يروق لك . وبانتظار ذلك يجب أن نمنع بكل قوانا الصغيرة بواسون ... عفواً، السيدة ديتيول من الوصول إلى الملك ، أتفهم ؟... يجب أن نمنعها بكل قوانا !...

فزمجر دي باري قائلاً :

— وما هي الوسيلة ؟... فإن الملك متيّم بها ، وقد أبصرها في فسحة الإرميتاج حيث أخذها ديتيول والسيدة بواسون فملكت عليه لبّه !... وراح يطوف تحت نوافذها كالتلميذ العاشق . وقد شاهدها تغادر الكنيسة وكان قد وقف في شرفة اللوفر لأجل ذلك.. وجميع رجال البلاط يقولون إن قلب الملك يتفتّح لحب عظيم ... وعندما أبصرها الملك ، كان بودّي أن ترى نظرة الظفر التي وجهها إليّ ديتيول !...

— أجل ، ذلك صحيح !... ولكن هي !... إنها لا تشتبه في الحقيقة بعد ، ويجب أن نمنعها من أن تخاطب الملك مهما كلف

الأمر !...

فأعاد دي باري قوله :

– وما هي الوسيلة ؟

فقال السيد جاك ببطء مدروس :

– الوسيلة هي أن نغرس في قلب السيدة ديتيول حباً آخر !.. غراماً آخر !... تصوّر فارساً شاباً جميلاً شجاعاً كريماً ذكياً ، وفوق ذلك يحب حباً من ذلك النوع الذي لا تستطيع النساء أن يقاومنه !... فنأخذ ذلك الشاب ونقوده إلى السيدة ديتيول ونقول له : « استول على قلبها !... »

فقال دي باري :

– حسناً ، وإذا كانت الصعوبة محصورة في أن نجد ذلك الشاب ، فإنني أعرف بين أصدقائي عشرين نبيلاً على الأقل جديرين بأن يلعبوا ذلك الدور .

– إنك لم تدرك معنى كلامي ! فليست القصية قضية دور يُلعب بل يجب أن نجد نبيلاً يتحلّى بالصفات التي ذكرتها لك ويحب السيدة ديتيول حباً صادقاً حقيقياً فبذلك وحده يستطيع أن يستولي على قلبها ...

فقال دي باري :

– سأبحث .

– دع البحث ، فإن الشاب موجود .

فقال دي باري بقلق خفيّ :

– من هو ؟...

فقال السيد جاك فجأة :

– ما اسم ذلك الشاب الذي قبضتم عليه هذا الصباح ؟

فانتفض دي باري وزمجر قائلاً :

– ذلك الشاب ؟!... كلا ... مطلقاً !...

فقال السيد جاك بلطف :

– أقلع عن السخافات يا عزيزي الكونت ...

فصرف دي باري بأسنانه وصاح قائلاً :

– ولكنه عدوّي !...

– لقد طلبت منك اسمه .

فارتعش دي باري تحت نظرة السيد جاك الآمرة وقال لاهثاً :

– الفارس داساس !

ففكر السيد جاك لحظة ، ثم غمغم قائلاً :

– الفارس داساس ؟... أجل ، يبدو لي أنني أعرفه ... إنه من أسرة طيبة في الأقاليم ينحصر تاريخها في هذه الكلمات الثلاث : شجاعة ، أنفة ، فقر ... إذن ، فهو الذي سننتدبه لخدمة قضيتنا !

– ولكنني قلت لك إنني أكرهه بكل قواي !

– لماذا ؟

– إنه جرحني !

– هذا برهان على أنه مقاتل شديد البأس ما دمت أنت أفضل من امتشق حساماً في باريس ... ولكن بعده على ما يبدو .

– وقد أهانني !...

www.mlazna.com
RAYAHEEN^

– سوف تنسى ذلك .

فقال الكونت وهو يرغي ويزبد :

– إنني سأخنق ذلك الرجل بيدي ...

– كلا ! بل ستصافحه وتبتسم له وتكون صديقه ...

– أبداً !...

– أريد ذلك !...

فانتصب دي باري وشمخ بأنفه وكاد ينفجر إلا أن نظرة واحدة من نظرات السيد جاك أعادت إليه سكينته فارتعش وشحب وجهه وأخنى رأسه مغلوباً على أمره. ومع ذلك فقد حاول محاولة أخيرة، فقال وهو يلهث :

– ولكنه في سجن الباستيل !

– أنت الذي سعيت في توقيفه ، أليس كذلك ؟... إذن ، فيجب عليك أنت أن تسعى في إطلاق حريته ! عليك أن تتدبر الأمر كما تشاء ، فإنني أريد ذلك . وأعطيك ثمانية أيام لا أكثر يجب أن تأتيني خلالها بشيئين : أولهما ، إذن رسمي أدخل بموجبه إلى زنزانة الفارس وحدي وأتحدث إليه دون رقيب ، وثانيهما ، أمر بإخلاء سبيله فوراً ...

– إن ذلك مستحيل !

فقال السيد جاك في لهجة رهيبة :

– مستحيل ؟ أتقول لي أنا إن ذلك مستحيل ؟

– أقسم لك على ذلك !

– على ماذا تقسم لي ؟ على شرفك كرجل نبيل ؟...

فعصفت الثورة في صدر الكونت دي باري فصاح قائلاً :

– أيها السيد ... أيها السيد !

فابتسم السيد جاك ابتسامة تهديد وقال :

– ماذا ؟! ألعلّك ورثت مالاً ؟

كلا ، بكل أسف !

– إذن ، ألعلّك لم تعد بحاجة إلى المال ؟

– إنني لم أكن يوماً بحاجة إليه مثلي اليوم .

– ربما نسيت العقد الذي ارتبطنا به ، أليس كذلك ؟

– إنني لم أنس شيئاً .

– إذن ، فأنا لا أفهمك . أوضح لي ذلك السر ، أتريد ؟

– إن الأمر بسيط ، فقد جرؤ الفارس داساس على أن يهين ملكه !

– جريمة إهانة الملك . ألم يفعل شيئاً سوى ذلك ؟

– ولكنك تريد موتي على ما يبدو !

– بل أريد لك الحياة ، أريد لك حياة سعيدة مترفة ولذلك يجب أن تطيعني أيضاً . هل اتفقنا يا عزيزي الكونت ؟

فقال دي باري بسخط وغضب :

– أجل .

– حسناً ، يبدو أنك بحاجة إلى المال يا عزيزي الكونت ، أليس كذلك ؟... آه منكم معشر الشبان الباريسيين فإن جيوبكم مثقوبة أبداً !... هيّا، هيّا، إليك الآن بما يلطّف من حقدك على ذلك الشاب ... إنها حوالة صغيرة بمبلغ ثلاثين ألف ليرة على أن

تنال أكثر من ذلك في القريب العاجل... أي مبلغ خمس وعشرين ألف ليرة على إذن المقابلة ومثله على إخلاء سبيل عدوّك المتوحش.. الذي يبدو لي فتىً ظريفاً جذاباً .. إلى اللقاء يا عزيزي الكونت.. إنني أنتظرك بعد ثمانية أيام ...

وكان السيد جاك يتكلم هكذا وهو يدفع الكونت دي باري برفق نحو الباب . وعندما أصبح الكونت في الشارع ضمّ قبضتيه وصرف بأسنانه واكفهر لونه غضباً وغمغم قائلاً :

– لقد وقعت في شبكة لاخلاص لي منها ! فلم يعد من حقي أن أحب أو أكره !... ولست سوى آلة صغيرة بين يدي ذلك الرجل !... ولكن صبراً ... كما يقول هو نفسه في بعض الأحيان !...

إلا أن السكينة عادت تدريجياً إلى نفسه ، فإن السيد جاك وعده بمبلغ جسيم ، وعده بثمانين ألف ليرة فور إخلاء سبيل الفارس داساس وقد قبض من أصلها الآن ثلاثين ألف ليرة وهي تشكل مبلغاً لا يستهان به في الوقت الحاضر .

إذن فالقضية رابحة والكونت دي باري في شوق إلى الحصول على الخمسين ألف ليرة في أقرب وقت ممكن . وبعد كل حساب، ماذا يهمه من الفارس داساس إذا أُخلي سبيله ؟ إنه يستطيع دائماً أن يحتال عليه ويقتله ... بل يستطيع أن يفعل أفضل من ذلك ، يستطيع أن يعهد بقتله إلى بعض القتلة المأجورين الذين لا يتورعون عن قتل أيّ كان في سبيل بعض الدريهمات .

واستطاع أن يقنع بيربه بيراءة الفارس داساس لا سيما وأنه

هو – الكونت دي باري – الذي كان قد وشى به . وكان من النادر حقاً أن يحاول الكونت دي باري تبرئة شخص أو مساعدة أيّ إنسان . ولذلك فقد صدّقه رئيس الشرطة فوراً وأجابه إلى طلبه .

وفي اليوم المحدّد، كان يحمل إلى السيد جاك الورقتين المطلوبتين ويأخذه في عربته إلى الباستيل .

المجرّب

*

– إنني أحمل إليك أنباء عن جان !

تلك كانت الكلمات الأولى التي خاطب بها الزائر الفارس داساس وقد فعلت في نفس السجين فعلاً عجيباً ، وهو الذي أراد أن يموت في اللحظة السابقة وقد استلقى على سريره الضيّق يفكر في وسيلة للانتحار بعد يأسه من الحب ، فهبّ واقفاً كأنما لمس سلكاً كهربائياً ولمعت عيناه رجاءً ولمسك بيديه المرتعشتين يدي الزائر الغريب وأراد أن يسأله ، أن يتلفّظ بكلمة ، فلم يستطع .

فقال السيد جاك وهو ينظر إليه نظرة ارتياح خفيّ :

– تمالك نفسك يا بنيّ فإن الأنباء التي أحملها إليك ليست من الأهمية بمقدار ما تتصور ...

فقال الفارس بحرارة :

– مهما يكن من شأن هذه الأنباء فإنني أباركك يا سيدي وأبارك هذه اللحظة التي أعادت بعض الأمل إلى قلبي المسكين. فتكلم، تكلم، أرجوك أن تطلعني على ما لديك ...

فصمت السيد جاك بينما كان الفارس يتأمله في اضطراب متزايد. ولم يلبث الزائر الغريب أن قال فجأة:

– إذن، فأنت تحبها حباً شديداً، أليس كذلك؟

فقال الفارس بتلك السذاجة المحبّبة التي يتمتّع بها المحبّون الصادقون الذين يطيب لهم أن يعلنوا حبّهم على الكون بأجمعه:

– إنني أعبدها يا سيدي، وأجود بحياتي في سبيل رؤيتها ولو لبضع دقائق ...

فتنهّد السيد جاك واستأنف قائلاً:

– أتريد أن تراها؟

– أقول لك إنني أريد رؤيتها لحظةً واحدة ولن يهمني بعد ذلك أن أموت ...

– كلا، لا يجب أن تموت، فأنت لا تزال في عنفوان الشباب وأمامك سنوات طويلة للتمتّع بالحياة وربما بالثروة والقوة. فإذا كانت الثروة والقوة لا تشوقانك فإن الحب الذي ينتظرك سينير حياتك ويوفّر لك السعادة والمسرة. وقد جئتك بالوسيلة التي تضمن لك ليس رؤية جان لحظةً واحدة فحسب بل رؤيتها يومياً وبثّها لواعج شوقك وحبك، وربما ضمنت لك أيضاً أن تبادلك الحب! إذن، فأنك لن تموت عند قدميها بل ستسكر بقبلاتها ...

– إنك تكاد تذهب بعقلي يا سيدي، وربما كنت تضحك من

يأسي وشقائي!...

فقال السيد جاك بنوع من الصراحة:

أيها الشاب، إنني لست من الذين يتلاعبون بقلوب الرجال...

– ومع ذلك فأنت تعلم جيداً أنني سجين، والمفروض أن تعلم أيضاً أنه لا سبيل إلى الخروج من الباستيل عندما يطرحك الملك فيه!

فلم يجب السيد جاك بل بحث في جيبه لحظةً، ثم أخرج ورقة ناوله إياها، فقرأها الفارس وانتفض انتفاضة هائلة، فقد كانت أمراً بإخلاء سبيله فوراً.

وزمجر تلك الزمجرة التي تندّ عن كل رجل يستولي عليه فرح طاغٍ فجائيّ ومدّ يديه نحو ذلك المنقذ المجهول الذي فتح أمامه أبواب السجن وجاءه بالحرية والحياة ووفّر له أن يتمتع بالحب.

غير أنه اصفرّ فجأة واستولى عليه الذهول... فقد خُيّل له أن وجه منقذه اتخذ شكلاً غريباً... خُيّل له أنه تدحرج مجدّداً إلى هاوية من اليأس أشد عمقاً وأن باب سجنه أُقفل عليه إلى الأبد.

وفعلاً، فقد استعاد السيد جاك الورقة منه وطواها وأعادها إلى جيبه ببرودة وقال:

– والآن يا صديقي العزيز، إجلس لنتحدّث!...

فتفرس داساس في ذلك الرجل الذي يخاطبه بسخرية يخالطها التهديد وإن كان يخفيها بمهارة تحت ستار من التهذيب البارد الرصين، فبدا له أنه أمام رجل في الخمسين من العمر متوسط القامة شديد التواضع بارد النظرات وإن كانت عيناه ترسلان أحياناً شرراً متواصلاً،

www.mlazna.com
ARAYAHEENA

يداه رقيقتان جميلتان مترفتان كأنهما يدا أسقف . وعندما يكون وحيداً لا ترصده العيون ولا يسيطر هو على حركاته وسكناته ، يتخذ هيئة كلها جلال ووقار فتبدو عليه الكبرياء والعظمة وينظر إلى ما حوله باحتقار كأنه من طينة أسمى من طينة البشر . والمفروض أن ذلك الرجل يستطيع دون أيّ شك أن يدكّ العروش ويهزأ بعظمة الملوك ويشعل نيران الحروب الدموية ويوطّد السلام في العالم بأسره بإشارة واحدة من يده .

وكل ذلك لم يدركه الفارس داساس ، غير أنه أحسّ به إحساساً غامضاً ، وأدرك على الأقل أنه في حضرة رجل رهيب محفوف بالأسرار يملك قوة ونفوذاً قل نظيرهما . ولما كان الفارس شجاعاً أنوفاً ثائراً فإنه أبى الاعتراف بتأثير السيد جاك عليه وأحس بنوع من الغبطة التي تستولي على الرجل الشجاع عندما يرى نفسه وجهاً لوجه أمام المعركة ، فصاح قائلاً :

— من أنت يا سيدي ؟

فقال الزائر ببطء وهدوء :

— إنني أدعى السيد جاك ، من الطبقة الوسطى ، وأمتّ بصلة قرابة بعيدة إلى أسرة بواسون... بعيدة إلى حدّ ربما كانوا يجهلونها معه . ومهما يكن ، فقد أبصرت قريبتي جان بواسون فأدهشني ما تتمتع به من الجمال والظرف . وأعتقد أنها ليست سعيدة ولذلك فقد آليت على نفسي أن أبحث عن وسيلة تضمن لها السعادة . أتكفيك هذه الإيضاحات ؟

فقال داساس ببرودة تامة :

— كلا ، فليس في ما قلته لي شيء من الإيضاح . فأنا أريد أن أعلم كيف استطعت ، أنت الرجل المتوسط الحال ، أن تحصل من الملك على ما لا يقوى عليه أحد الوزراء إلا بصعوبة ، أي على الأمر بإخلاء سبيلي فوراً .

— لقد بدأنا نتفاهم يا بنيّ ، فأنت تتمتع بذكاء نادر والذكاء يمهد السبيل إلى الاتفاق المثمر . إذن فأنت لا تعتقد أنني رجل متوسط الحال ، أليس كذلك ؟

فأجاب داساس قائلاً بصراحة :

— كلا يا سيدي !

— وأنت على صواب في اعتقادك . وأرى أنني مضطرّ إلى أن أتكلم معك بصراحة وجلاء .

— وهو خير ما تفعله يا سيدي .

— وهو أقرب سبيل للتفاهم أيها الشاب. هل سمعت بالكردينال فلوري ؟

— أستاذ الملك ؟ أجل ، بكل تأكيد !

— إذن فأنا خلفه ، أو بمعنى أصح أنا أسير على نهجه .

— إذن، فأنا متشرف بالتحدث إلى رجل من رجال الكنيسة؟

فأجاب السيد جاك قائلاً :

— أجل يا سيدي ، إنك تتحدث إلى أحد رجال الكنيسة !

وظهر الصدق جلياً في لهجة السيد جاك هذه المرة ، واكتست ملامحه عظمة ووقاراً حملا الفارس داساس على أن ينحني أمامه طويلاً .

وعاد السيد جاك إلى تواضعه المعهود واستأنف كلامه فقال :

— إنني لم أرتفع إلى ذلك المقام السامي الذي كان يحتله الكردينال فلوري فأنا لست أهلاً له . ولكن من المؤكد أن حرارة الإيمان التي كانت تتقد في صدر سلفي العظيم تتقد في صدري أنا الحقير . فأنا أسير وفق الخطة التي رسمها لي وقد آليت على نفسي أن أبقى أبداً وراء الستار وأن لا أتدخل في شؤون المملكة . ومع ذلك فقد توصلت إلى أن أؤثر على الملك في حياته الخاصة تأثيراً كبيراً . ويُخيل لي أنني أستطيع أن أسير بجلالته في طريق قويم فأؤدّي بذلك خدمة قيّمة لوطني فرنسا . وأنت تعلم جيداً أن بعض الخدمات القيّمة يمكن إداؤه خارج ميادين الحروب ودوائر الوزارات . ولا أخفي عليك أن خدمتي الحقيرة لن يسجلها التاريخ إلا أنني بإنقاذي لويس الخامس عشر من سلطان الحب أنقذ فرنسا من ويلات وأهوال كثيرة وربما من كوارث رهيبة . ألا ترى ذلك أنت أيضاً يا سيدي ؟

فقال الفارس داساس باحترام لم يحاول إخفاءه :

— إنك مصيب يا سيدي ، فإن السياسة التي تسير عليها سياسة حكيمة بعيدة المرمى . فإن الملك الطائش الفاسق يجر على مملكته ويلات ومصائب هائلة . وها إن الملك لويس الخامس عشر يرهق الشعب بالضرائب ويشعل نيران الحروب في سبيل المال لينفقه على خليلاته اللواتي ...

وتوقف فجأة عن الكلام ، ولبث لحظة مكفهر الوجه مرتعشاً ، ثم غمغم قائلاً :

— وهي ... هي التي يحبها !... أجل ، إن الملك يحبها !. يا للتعسة !...

فأمسك السيد جاك بيده وقال بصوت أصمّ :

— إنك تفوّهت بكلمات رهيبة أيها الشاب ! فأنت تتكلم عن جان أنطوانيت بواسون ، أليس كذلك ؟ عن تلك التي تحبها !.. إذن ، أجل !... إن الملك يحبها وهذا ما قادني إلى هنا !... فاصغِ إليّ !...

فمرّ داساس بيديه المرتعشتين على جبينه ، فإنه كاد ينسى أن الملك يحب جان !... فما الذي سيطّلع عليه ؟ وقال السيد جاك بهدوء كلّي :

— أجل ، إن الملك متيّم بتلك الفتاة الحسناء ...

فصاح داساس قائلاً :

— ولكنها تزوّجت الآن ، وزوجها ...

— إنها لا تحب زوجها ، ولن تحبّه أبداً . فهل تستطيع ، وهي ملاك الحسن والرقة ، أن تحب ذلك المسخ القظيع هنري لو نورمان دبتيول ؟...

فقال الفارس بحرارة :

— أجل ، أجل ، إنك على حق ... إنها لا تستطيع أن تحب ذلك الرجل ... إلا أنها تحب الملك !...

فقال السيد جاك :

— إنها لم تحبه حتى الآن !

وكان الذهول قد بلغ بداساس حداً قصياً ، ولم يعد يستطيع

أن يشك في إخلاص الرجل الذي يكلمه . فقد كان من سعة الإطلاع بحيث قضى على شكوك الفارس بما سرده على مسمعه من التفاصيل الدقيقة التي تنطبق على حالته . وبدا عذابه جلياً في ملامحه فكان في قبضة ذلك الرجل ، الذي يسير به من اليأس إلى الأمل بمهارة فائقة ، كالريشة في مهب الريح .

وكان السيد جاك يتأمله بدقة عجيبة وقد أدرك بقوة فراسته ما يعتمل في داخله ، فاستأنف قائلاً :

— أجل ، إن السيدة ديتيول لا تحب الملك بعد ، إلا أنها لن تلبث أن تحبه ...

فزأر داساس قائلاً :

— آه !...

— أهو أمر مستبعد ؟ كلا ، فإنني أعرفها وقد درستها جيداً . إنها ذات قلب ذهبي تجهل كل شيء عن الحياة . إنها تكره زوجها ، والملك لا يزال شاباً جميلاً فضلاً عن أناقته الشهيرة وعظمة شأنه بطبيعة المركز الذي يشغله . فكيف تريد أن لا تسقط تلك الصبية الحسناء عاجلاً في التجربة ؟...

— أجل ، أجل ، ربّاه ! كم أتألم !...

— لا يجب أن يتم ذلك ! لأجل راحة فرنسا وخاصة لأجل تلك الملكة المسكينة التي تعذبت كثيراً والتي أخلصُ لها أنا كل الإخلاص . يجب أن لا يرتكب الملك هذه الهفوة الجديدة ! يجب أن لا تحل محل الدوقة دي شاتورو — التي طالما أبكت الملكة والتي كادت تؤدي بالمملكة إلى مصير مؤلم — خليلة جديدة قد تكون

أكثر منها ضرراً بما لها من الشباب والجمال !...

فأطلق داساس شهقة قابلها السيد جاك بارتياح أخفاه بمهارة تحت ستار من الشفقة والعطف ، فقال الفارس :

— أتعلك ترثي لحالي يا سيدي ؟

— من صميم قلبي . ومن هو ذلك الذي لا يرثي لحالك وأنت الشاب الجميل المخلص في حبك ؟

فقال داساس فجأة :

— ولكن ، من أعطاك هذه الفكرة ...

فقاطعه السيد جاك قائلاً :

— فكرة المجيء إليك ؟... ولكنها جان التي أعطتني إياها ، جان نفسها !

فصاح الفارس صيحة فرح ثاقبة وقال متعجباً :

— هي ؟!...

— أنت تدرك دون شك أنني صرفت عنايتي الأولى إلى مراقبتها لأعرف ما تقوله وما تفكر به . وقد ثبت لي أنها لم تتكلم ، منذ بضعة أيام وخاصة في ليلة زواجها ، إلا عن فارس يدعى داساس وكانت تعرب عن رغبتها في رؤيته والاجتماع به .

فغمغم داساس قائلاً وهو يرتعش :

— أتكلمت عني ؟... أتذكرتني ؟...

— فاستعلمت وعرفت أن ذلك الفارس داساس محبوس في الباستيل بسبب هفوة مجهولة . فسألت الملك عنك دون أن أثير شكوكه فقال لي إنه لا يفكر مطلقاً بأن يدعك في السجن وإنه

www.mlazna.com RAYAHEENA

أراد فقط أن يلقي عليك أسئلة. وعندئذٍ اتصلت بأصدقائي وخاصة بالكونت دي باري ، الذي جرحته على ما يبدو والذي لا يحقد عليك مع ذلك ، فاستطعت أن أجيئك بأمر إخلاء السبيل ، وهاأنذا !...

فقال داساس بلهجة آلية :

— ها أنت ذا ؟! ولكن ... ماذا تريد مني ؟...

— ماذا ؟! ألعلك لم تفهم ؟

— أعذرني يا سيدي ... فإنني ضائع الصواب ... وأتوسل إليك أن تتكلم بجلاء .

— إن الأمر في غاية البساطة فأنا أعتقد أن جان سوف تحب الملك . غير أنها لن تحبه إلا إذا يئست من ذلك الذي تهواه ، فإذا اجتمعت بذلك الرجل ولمست منه أنه يقابل حبها إياه بمثله ، فإنها سترفض عندئذٍ أن تضحي بذلك الحب في سبيل أي رجل سواه حتى ولو كان الملك . فهل تريد أن تقف عليك قلبها ؟... هل تريد أن تكون ذلك السد المنيع بينها وبين لويس الخامس عشر ؟...

فارتعش داساس وصاح قائلاً :

— وهل اعتمدت عليّ لتمثيل ذلك الدور ؟!...

فقال السيد جاك بلطف :

— أنا أقر بأن القضية خطرة . إلا أنك إذا كنت تريد أن تبلغ مأربك وأن تملك إلى الأبد تلك التي تهواها وتدفع عنها اليأس وتنقذها من العار ، فيجب عليك أن تناضل ضد قوى الملك . وقد قلت لي إنك ستضحي بحياتك في سبيل نظرة واحدة منها ، فكيف

تتردد الآن ؟... أظن أن الله يتخلى عني ... فقد وضعت ثقتي في شجاعتك ومروءتك فإذا بك تخيب تلك الثقة ... فسوف تبكي الملكة المسكينة أيضاً ولن يجد لويس الخامس عشر أمامه ذلك الفارس الشجاع الذي سيصدمه ويوقفه عند حده ... وسوف تجلل جان بالعار ويُدنّس شرفها ... وداعاً يا سيدي !

— قف ، أستحلفك بالسماء أن تقف ...

واندفع داساس يقف بين الباب والسيد جاك ، وكان قد أصغى إلى كلمات ذلك الرجل الأخيرة برعب لا يوصف وتمثل جان بين ذراعي لويس الخامس عشر ... وكل شيء يهون لديه سوى تحقق تلك النبوءة الرهيبة . فقال لاهثاً محطماً مغلوباً على أمره :

— ماذا يجب عليّ أن أفعل ؟

فأجاب السيد جاك قائلاً :

— لا شيء سوى إنقاذ جان ، فإن ذلك الإنقاذ يجنّب الملكة ألماً جديداً ويشفي الملك من غرام خطر ويبعد عن المملكة ويلات ومصائب جديدة !...

فانحنى داساس أمامه وقال باحترام عميق :

— إنك حقاً من رجال الله الاتقياء الصالحين ! فعفواً عني ... لقد شككت ... ظننت أن هناك بعض المساومات ...

فقال السيد جاك بصوت حزين :

— وقد ثار ضميرك !... أجل ، يا ولدي ، لقد فهمتك . ولكن ليس من مساومة في الأمر بل مهمة شريفة ناصعة ...

— سوف أقوم بتلك المهمة حتى ولو كان الموت نصيبي فيها !..

— إذن، فانتظرني يا ولدي. سأتم بعض المعاملات الضرورية، وبعد نصف ساعة ستكون حراً طليقاً.

فغمغم داساس قائلاً في غبطة بالغة:

— سأكون حراً !... حراً !... سأتمتع بالحرية !...

فقال السيد جاك:

وبالحب أيضاً.

وغادر الزنزانة تاركاً داساس فريسة أفكاره وعواطفه المتضاربة المتناقضة.

***

توجه السيد جاك فوراً إلى جناح حاكم الباستيل يرافقه دائماً حامل المفاتيح رقم ٩ ... وكان ذلك الحاكم يحمل اسم لويس مركيز دي ماشول. وكان من دهاة رجال السياسة وأرباب الحنكة الدبلوماسية، وقد تولّى مناصب سياسية خطيرة إلا أن الملك عزله من منصبه الأخير في ساعة غضب وعيّنه حاكماً للباستيل نزولاً على رغبة السيدة دي شاتورو خليلة لويس الخامس عشر السابقة.

وتفسير ذلك أن المركيز دي ماشول عاد يوماً من برلين، وكان سفيراً فيها، وقال في حلقة من أصدقائه في باريس إن فريدريك الكبير ملك بروسيا يطلق على السيدة دي شاتورو لقب كوتيون الثالثة، فبلغ النبأ مسامع خليلة الملك فشكت أمرها إلى لويس الخامس عشر، فقال لها هذا:

— وماذا تريدين أن أفعل به؟

— أرسله إلى الباستيل يا مولاي !...

— يا للشيطان !... أتريدين أيتها العزيزة أن أطرح نبلاء المملكة في الباستيل لأمور تافهة كهذه؟...

فقالت الدوقة وقد هالها أن ترى نفوذها يتقلص:

— ولكن يا مولاي، من الذي يتكلم عن حبس السيد دي ماشول؟ عيّنه حاكماً للباستيل فيصبح سجيناً فيه، وفي الوقت نفسه لن يكون له ما يقوله!

فقهقه الملك ضاحكاً كأنما النكتة راقت له ووقّع فوراً أمر تعيين دي ماشول حاكماً على الباستيل. وساء المركيز أن يتولّى ذلك المنصب إلا أنه، وهو السياسي اللبق المحنك، رضي بمنصبه الجديد مع الشكر واستقر في الباستيل حيث أخذ يقضي «مدة سجنه» — على حد قوله — في نظم مقطوعات من الشعر الشعبيّ يطعن فيها بالسيدة دي شاتورو.

وزال نفوذ السيدة دي شاتورو وأعرض الملك عنها وغادرت فرنسا، وظل المركيز دي ماشول حاكماً للباستيل، فبدأ يتساءل بقلق ما إذا كان قد قُدّر له أن يقضي حياته كلها بين تلك الجدران القاتمة.

وعندما عاد السيد جاك يمثل في حضرته، استقبله في برودة جليدية وقال له:

— حسناً يا سيد ... جاك على ما أعتقد؟

— أجل يا سيدي الحاكم ... السيد جاك!

— هل اجتمعت بالسجين؟ هل أنت راضٍ؟ الوداع إذن، يمكنك أن تنصرف.

فقال السيد جاك بتواضع :

ــ عفواً يا سيدي الحاكم ، فالقضية ...

ــ ماذا تريد أيضاً ؟ أنبّهك إلى أنني مشغول جداً .

ــ إذن ، فتفضل وسلمني الفارس داساس لآخذه معي .

فانتفض الحاكم انتفاضة شديدة، ليس من تأثير الدهشة فحسب بل عند سماعه السيد جاك يخاطبه بلهجة الأمر ، وقال بسخرية لاذعة :

ــ ماذا ؟... هل أصبحت مجنوناً ؟... أؤكد لك أنه لا يوجد لديّ أمكنة للمجانين الذين ...

فقاطعه السيد جاك قائلاً في لهجة الأمر أيضاً :

ــ إقرأ !

وعرض عليه ورقة قرأها الحاكم الذي لم يلبث أن قال :

ــ إنه أمر بإخلاء السبيل تام الشروط . يا للشيطان ، إنك قويّ النفوذ أيها السيد ... جاك ... فإن هذا الأمر لا يستطيع أي إنسان كان أن ينتزعه من صاحب الجلالة . فلك تهانئي ، ومن يعلم ما إذا لم أكن أنا نفسي أستطيع يوماً أن أحصل على حريتي بفضلك ؟... إذن ، فلن أدعك تخرج من هنا قبل أن أنال منك وعداً قاطعاً بأنك ستتولى حمايتي !

فانحنى السيد جاك ولم يجب . أما الحاكم فإنه كان يتكلم هكذا لمجرد الكلام فقط ، وكان يتفحّص الزائر الغريب في اهتمام بالغ . وفجأة صاح قائلاً بصوت مضطرب النبرات :

ــ ها أنا قد وصلت !

فقال السيد جاك بسخرية :

ــ إلى أين ؟

ــ كنت أتساءل عن المكان الذي رأيتك فيه، وقد تذكرت!

فقال السيد جاك وهو يخفي ارتعاشة شديدة :

ــ آه ! آه !

ــ أجل ، أجل ، هو ذاك ! فقد رأيتك في برلين ... يوم كنت سفيراً لدى فريدريك العظيم ملك بروسيا !

فلم يأت السيد جاك بحركة بل أدار إلى الخارج بهدوء وبصورة خفيّة ، حجر خاتم هائل الحجم كان يضعه في سبّابة يده اليمنى . وتابع الحاكم كلامه ، فقال :

ــ أتعلم أنك تبدلت كثيراً ؟ فأنا أراك رجلاً بسيطاً متواضعاً بينما كنت هناك ذا مقام رفيع جداً يحترمك أصحاب النفوذ وينحنون أمامك طويلاً ... أتكون أنت نفسك أيها السيد جاك ذلك الذي رأيته في برلين ؟...

فقال السيد جاك في لهجة لا يُسبر غورها :

ــ هذا محتمل ، فإنني قمت برحلات طويلة . على أن القضية التي نتباحث فيها الآن ليست قضيتي بل قضية ذلك السجين المسكين. وقد قلت أنت نفسك إن الأمر الذي أحمله بإخلاء سبيله مستوفٍ جميع الشروط القانونية .

ــ أجل ، إنه مستوفٍ تلك الشروط القانونية ... بل هو بالغ الحد في قانونيته !...

ــ إذن ، فهل أستطيع أن أصطحب معي الفارس داساس ؟

– إنني أريد ذلك من صميم قلبي ، ولكن الأمر خطير !...
وفي بعض الأحيان تحصل أشياء غريبة !... إفترض لحظة – وكل شيء يجوز ! – أن توقيع الملك وتصديق بيريه مزوّران ...
فقال السيد جاك دون أن يبدو عليه أنه شعر بالإهانة :
– ولكن الخاتمين موجودان !
– أجل ، أجل ، إن الخاتمين موجودان وأنا لا أجهل ذلك ! ولكن الذي يزوّر توقيع الملك يستطيع أيضاً أن يتسلل إلى المكاتب ، وهو أمر سهل للغاية ، فيأخذ الخاتم ويطبعه ... وينتهي الأمر على ما يرام !...
فقال السيد جاك في هدوء تام :
– أجل ، كل ذلك يجوز فعلاً ، إذن ، فماذا قررت أن تفعل ؟
– قررت أن أفعل شيئين يا عزيزي السيد جاك !
وقد قال ذلك وهو يضغط على زر متصل بلوح نحاسيّ خارج القاعة ، فسُمع على الأثر وقع أقدام جنود عديدين يهرعون إلى البهو . وأخذ الحاكم يتفرس في السيد جاك ليرى تأثير المفاجأة في نفسه ، إلا أن الرجل الغامض لبث هادئاً جامداً لا يُسبر غوره ، ثم قال كأن شيئاً لم يكن :
– لنرَ ذينك الشيئين يا سيدي الحاكم !
– أريد أولاً أن أتثبّت من صحة الأمر الذي تحمله !
– وكم يستغرق ذلك من الوقت ؟
– ثلاثة أيام .

– إنها مدة طويلة يا سيدي الحاكم ، فأنا أريد السجين فوراً .
فاستولت الدهشة على المركيز دي ماشول ، فقد كان يعتقد أنه حطم الرجل تحطيماً بتهمة التزوير الهائلة التي ألصقها به . إلا أنه سرعان ما قال في نفسه :
« إنه يتظاهر بالجرأة دون شك ، فلأجهز عليه !... »
وقال بصوت مرتفع :
– أما الشيء الآخر ...
– أجل ، أجل ، لنرَ الشيء الآخر ...
– أما الشيء الآخر فهو أن أطرحك أنت الرجل المحترم الشريف في أعمق زنزانة في الباستيل إلى أن ...
فقال السيد جاك بهدوء رهيب :
– إلى متى ؟
– إلى أن أعلم كيف وصلت ورقة بمثل هذه الأهمّية ، متعلقة بسجين سياسي ، إلى يد جاسوس من جواسيس بروسيا !
وفي الوقت نفسه اتجه الحاكم نحو الباب ليُدخل الجنود الذين استدعاهم ، إلا أن السيد جاك اندفع كأنه الصاعقة فوقف بينه وبين ذلك الباب وقال بصوت خافت حارّ تنطق نبراته بالعظمة والقوة :
– إركع ! إركع واطلب العفو !...
وبسط يده اليمنى بحركة كلها جلال وسمو فلمع في سبّابتها حجر خاتم هائل الحجم .
فألقى المركيز على الرموز المنقوشة على ذلك الحجر نظرات رعب لا توصف ، ثم رفع نظره تدريجياً لغاية وجه الرجل المجلّل

بالنورانية... وعندئذٍ عرته رعشة عنيفة متواصلة فخرّ على ركبتيه وهو يغمغم قائلاً :

– القائد العام !... الرئيس الأعلى للآباء اليسوعيين !...

وأردف المركيز دي ماشول يقول وهو يعفّر جبينه في أرض القاعة :

– أبتِ !... مولاي !... عفوك ... غفرانك !...

فقال الأب :

– أصمت ، وانهض !

فأطاع الحاكم في سرعة كبيرة ، وعندئذٍ قال قائد اليسوعيين العام :

– أنظر يا ولدي إلى أين أوصلني عنادك ... فقد أرغمتني على كشف حقيقتي أمامك ...

– آه يا مولاي، من يستطيع أن يفترض ... أن يتوقّع...

– إعلم يا ولدي أن أقل زلة لسان تبدر منك تؤدي إلى أمور غير محمودة العواقب ، فإن ملك فرنسا يكره جمعيتنا المقدسة كما لا تجهل ، فإذا عرف أنني في فرنسا ... في باريس ... فإنه قد يطرحني في أحد السجون المظلمة ... في سجن ربما لن تكون أنت حاكمه يا ولدي العزيز !

– يا للظن الأثيم الذي ساورني ، فإنني لن أغتفرَ لنفسي ...

وكان يتأمل زائره العظيم برعب يمازجه الاحترام والخشوع ، فقاطعه الأب قائلاً :

– أجل ، ولكنني أغفر لك أنا ... وقد ظهر لي من حزمك

وطاعتك ورجاحة عقلك أنك تملك صفات كنت أجهلها فيك وهي مما سأستعين به عند الحاجة ... فقل لي يا ولدي في أيّة درجة أنت من جمعيتنا العلمانية ؟...

– في الدرجة السابعة يا مولاي . فقد تفضّل عطفك السامي ورقّاني منذ ثلاث سنوات من الدرجة الثامنة إلى الدرجة السابعة.

– حسناً ، وأنا أرفعك منذ اليوم إلى الدرجة الخامسة فتجتاز الدرجة السادسة عفوياً . وستسلم مهام رتبتك الجديدة ، بجميع ما تمنحك إياه من الحقوق وتلزمك به من الواجبات ، من السيد دي برني ...

– ماذا ؟!... ذلك الشاعر الصغير !...

– إنه في الدرجة الثالثة يا ولدي !...

فانحنى المركيز دي ماشول باحترام ، فقال الأب :

– إنه رجل رصين واسع الاطلاع سوف يدهشك يوماً ما ، وهو رئيسك في جميع الأحوال وسأبلغه أوامري بشأن ترقيتك إلى رتبتك الجديدة .

– كيف أشكرك يا مولاي !...

– بخدمة جمعيتنا المقدسة وبالمحافظة على اليمين التي أقسمتها عند انضمامك إليها وبالطاعة العمياء وكأنك جثة دون إرادة !

– إنني على استعداد لأن أحيا وأموت في سبيل مجد جمعيتنا !

– حسناً يا ولدي ، فأنا أعرفك جيداً ...

– لقد أخجلتني بكرمك وعطفك السامي يا مولاي ...

– لندع هذا الحديث ، وستبلغ أوامرنا بشأن بعض المهمات

التي سنتولى تحقيقها في باريس . أما الآن فلديّ ما آمرك به وهو في منتهى الخطورة .

— إنني على استعداد يا مولاي .

— إذن ، فإليك بالأمر : إنسَ فوراً شخصية الرجل الذي أمامك ... عليك أن تنساه تماماً فلا يعلم أحد أنك تخاطب الرئيس الأعلى للآباء اليسوعيين ...

ولم يكد القائد العام يعطي ذلك الأمر حتى استعاد حاكم الباستيل فوراً هيئته الضجرة المتعبة وعاد يتخذ ذلك الموقف الساخر المترفع الذي كان يقفه من السيد جاك .

وأدار السيد جاك حجر خاتمه إلى باطن يده فاختفى الرئيس الأعلى للآباء اليسوعيين وحلّ محله ذلك السيد جاك الوديع المتواضع .

وفتح المركيز دي ماشول باب القاعة فإذا البهو مكتظ بالجنود وعلى رأسهم أحد الضبّاط ، فناول حاكم السجن أمر إخلاء السبيل إلى أحد كتّابه وقال له :

— سجّل لديك هذا الأمر ، فإنه يقضي بإطلاق سراح الفارس داساس ...

وقال للضابط :

— تفضّل وجئني بذي الرقم ٢١٤ فإن الملك قد عفا عنه !

وبعد عشر دقائق كان الفارس داساس يدخل قاعة الحاكم ، وعندما انتهت المعاملات التي يقتضيها الظرف الراهن ، خرج من الباستيل في رفقة السيد جاك . وعندما اجتاز الجسر المتحرك تنهّد تنهّدة ارتياح عميقة وغمغم قائلاً :

— لله ، ما أجمل باريس ، وما أجمل الحياة !...

والتفت إلى السيد جاك الذي كان يتأمله وهو يبتسم ، وقال :

— لا أدري يا سيدي بأيّة كلمات أشكر لك عطفك ومروءتك .

فأجاب السيد جاك قائلاً :

— كن سعيداً ، فذلك يكفيني !

وابتعد تاركاً داساس لسعادته وحريته . وعندما عاد الفارس إلى نفسه وأراد أن يلحق بذلك الرجل الغامض ، كان السيد جاك قد اختفى في منعطف أحد الأزقّة التي تجاور الباستيل وتشكّل حول القلعة الرهيبة ما يشبه الشبكة المرصوصة الحلقات ...

المومس

*

دخل السيد جاك منزله في شارع فوان فوجد الكونت دي باري ينتظره وهو يتجرّع بعض الشراب ، فبادره بقوله :

— لقد انتهى كل شيء أيها الكونت ، واستعاد عدوك الرهيب حريته . ولكن حذار من أن تمدّ إليه يداً بشرّ ، حذار من الحماقات ، أليس كذلك ؟... إن الفارس داساس أصبح ، من الآن فصاعداً ، صديقك ... وصديقي أنا أيضاً !

فقال الكونت وهو يصرف بأسنانه :

www.mlazna.com RAYAHEENA

— ربما أصبح صديقك أنت ، أما أن يصبح صديقي أنا...

فألقى السيد جاك نظرة قاسية على دي باري وقال :

— إن الشراب لا يفيدك يا عزيزي الكونت ، فهو يوحي إليك بأفكار التمرّد ... ها هما الحوالتان الماليتان اللتان وعدتك بها . خمسون ألف ليرة لتصبح صديقاً لذلك النافخ في البوق في كتيبة أوفيرن ... ألا ترى أنني أجزلت العطاء ؟

فأخذ الكونت دي باري الورقتين وأخفاهما في جيبه وانحنى وهو يزمجر قائلاً :

— حسناً ، إنني أصبحت صديق الفارس .

— إذن ، فيجب أن تأتيه ببطاقة دعوة إلى حفلة الرقص التي سيقيمها رجال الحكومة في قصر المدينة تكريماً لصاحب الجلالة .

— ولكن ، لن يدعى إلى تلك الحفلة سوى كبار النبلاء وأهل البلاط !

فقال السيد جاك ببرودة :

— إن هذا لا يعنيني مطلقاً ، فجئني ، منذ الغد ، ببطاقة الدعوة ... آه ، لقد كدت أنسى !... جئني أيضاً ببطاقة أخرى لإحدى الآنسات ... بل لإحدى السيدات ... التي سأقدّمها إليك .

— أهي جميلة ؟

— إلى حدّ أنها تفتن النساك

— ونبيلة ؟

— إنها تدعى جوليت باكو .

فهزّ دي باري برأسه سلباً ، فقال السيد جاك :

— يجب أن لا تكون بطاقة الدعوة باسم جولييت باكو بل باسم آخر أكثر تألقاً ... ما قولك في إسم الكونتيس دي باري؟

فقال الكونت بصوت مخنوق :

— ولكنني لست متزوّجاً !...

— لابأس من أن تقول إنك تزوجت سراً وإن أسباباً خاصة حملتك على أن تكتم أمر ذلك الزواج ، فضلاً عما سيكون لقولك ذاك من وقع غريب بلفت الأنظار إلى السيدة ... ومن يدري ؟ فربما تنازل الملك وتأمّلها معجباً بجمالها .

فشحب وجه الكونت دي باري حتى حاكى وجوه الموتى ، وثار ثائره لكرامة الأسرة فقال وهو يصرف بأسنانه :

— حذار يا سيدي!... حذار من أن تنادى في إرهاقي بطالبك الغريبة !... حذار من أن تدفعني إلى الثورة !...

— وعندئذٍ ؟...

— عندئذٍ ، سأصرّح بكل شيء ... عليّ وعلى أعدائي ...

— أتصرّح بما بيننا ؟... لا بأس ، صرّح به فيعلم الفرنسيون جميعاً أنك بعت نفسك من جاسوس يعمل في خدمة ملك بروسيا !.. أما أنا فإنني اتخذت احتياطاتي ... وداعاً أيها الكونت ، فإنك ، منذ اليوم ، لم تعد شيئاً بالنسبة إليّ !

فارتعش الكونت دي باري ارتعاشاً شديداً ، وخرّ على ركبتيه وصاح قائلاً :

— الرحمة !... سأطيع .

فقال السيد جاك وهو يزّ كتفيه :

— يا لك من ولد !... فإلى الغد إذن ، أليس كذلك ؟

فقال الكونت وهو ينهض واقفاً :

— أجل !

— ستأتيني بالبطاقتين .

— أجل ، سآتيك بها !

— إحداهما للفارس داساس .

— أجل !... أجل !...

— والأخرى للكونتيس دي باري .

فأومأ دي باري برأسه إيجاباً وخرج والحقد في قلبه . فانتظر السيد جاك بضع دقائق إلى أن ابتعد دي باري ، وعندئذٍ أقفل الأبواب وأرخى الستائر وفتح الخزانة السرّية فتناول منها بعض الأوراق وأخذ يدوّن عليها ملاحظاته بالقلم الرصاص ، ثم كتب نحواً من عشرين رسالة . وقد استمر في عمله حتى المساء . وعند الساعة الثامنة تناول عشاءً خفيفاً متواضعاً على عادته دائماً .

وكان الظلام قد هبط تماماً عندما انتهى السيد جاك من ذلك العشاء، الذي كان يحمله إليه خادم صامت كأنه شبح من الأشباح، فنهض عن المائدة وأنعم النظر في مفكّرة مليئة بالملاحظات وغادر منزله مسرعاً .

واجتاز أزقّة كثيرة وصل منها إلى شارع بار القديم ودخل منزلاً حقير المظاهر . وكان كل ما في ذلك المنزل وحوله مظلماً هادئاً ، كان كل شيء يدل على أن الكرى سيطر على جميع سكان

الشارع .

وسار السيد جاك في ممر لا يضيئه أي مصباح وصعد درجاً طويلاً فبلغ أعلى المنزل وهناك ، تردّد هنيهة ثم طرق الباب . وبعد بضع لحظات جاء من يفتح له وإذا هي فتاة رائعة الحسن فاترة اللحظ وضّاءة الجبين كانت تحمل بيدها مشعلاً ، وقد أخذت تتأمل ذلك الزائر الغريب الذي يطرق بابها في تلك الساعة من الليل في دهشة لا تخلو من الجرأة .

فرفع السيد جاك قبّعته وانحنى أمام الفتاة وقال بصوت لا تخلو نبراته من الاحترام :

— أتريدين يا حضرة الآنسة أن أتحدّث إليك قليلاً في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

فابتسمت الفتاة عندما سمعته يخاطبها بـ « حضرة الآنسة ... وساعة متأخرة » ، إلا أنها كتمت ابتسامتها فوراً وقالت :

— تفضل بالدخول يا سيدي ، فإنني لا أشعر مطلقاً بالانزعاج وخاصة عندما أكون وحدي كما هي الحال هذه الليلة .

فدخل السيد جاك وجلس في مقعد أشارت إليه المرأة الحسناء، ثم ألقى نظرة سريعة فاحصة على الغرفة وعلى المرأة .

وكانت الغرفة تحتوي سريراً لا بأس به ومقاعد وآلة للطرب ورسوماً معلقة على الجدران ، إلا أن كل ذلك كان قديماً بالياً يشير إلى البؤس والفاقة ولكن يداً ماهرة حاذقة عرفت كيف تستر هما وتخفيهما .

أما المرأة فإنها كانت فاتنة الملامح في ريعان الشباب وأوج الجمال

والجاذبية ، وقد لمعت في وجهها عينان سوداوان مخمليتان آسرتان واسترسل على كتفيها العاجيتين شعر أشقر حريري يتموّج تموّجاً طبيعياً كأنه شلال من الذهب ، وكانت ترتدي ثياباً أنيقة وتتكلم بصوت عذب تخلو نبراته من تلك القحة التي تظهر في حديث الفتيات البائسات ...

وبعد أن أدار السيد جاك عينيه في الغرفة وتأمل ساكنتها ، أشار إلى آلة الطرب وقال :

ـ أتمارسين الموسيقى ؟

ـ أجل ، وإنني أحسن الضرب على هذه الآلة بما لا تنبو عنه الأذن . أتريد أن تسمع شيئاً ؟

ونهضت تقترب من الآلة لترضي ذلك الزبون «الموسيقيّ الحسّ» الذي أرسله إليها القدر في تلك الليلة الليلاء ، فقال السيد جاك :

ـ شكراً ، شكراً ، إنه مجرّد فضول ... فاعذريني . ولكن قولي لي . لمن تلك اللوحات الخالية من التوقيع ؟

ـ إنها لي ، فأنا أمارس هواية الرسم أيضاً وأنت ترى أنني ناجحة بعض الشيء ، فانظر إلى ذلك الرسم الذي يشبه ...

فقاطعها السيد جاك قائلاً :

ـ إنني أرى كل شيء ، فاجلسي يا ابنتي ... إنه يعجبني منك أن تحسني الرسم والموسيقى ...

فقالت متعجبة :

ـ لماذا يعجبك مني ذلك ؟

فقال السيد جاك :

ـ ألست الآنسة جولييت باكو ؟...

ـ أجل يا سيدي ، إلا أنني أبدلت إسمي فقد كنت أجده قليل الرونق ... بعض الشيء .

ـ أنا أعرف ذلك ، فإن اسمك الآن هو الآنسة لانج ، أليس كذلك ؟

فقالت ضاحكة :

ـ أجل ، الملاك !... إلا أنني ملاك ساقط فلا تعتب عليّ .. يجب أن أعيش !..

فقال وهو يهزّ برأسه :

ـ أنا لا أجهل ما أنت فيه يا ابنتي ، فإنك تعيشين حياة بؤس وشقاء ، ويؤسفني جداً أن يكون ذلك هو نصيبك من الدنيا وأنت الفتاة الجميلة الذكية .

فقالت جولييت بشيء من القلق :

ـ ألعلك كاهن ؟

فأجاب السيد جاك قائلاً في هدوء وتؤدة :

ـ أنا لا أقول كلا ، فلك أن تري فيّ ما تريدين . إلا أن ذلك لا يهمني ، وكل ما يهمني هو أن أحدّثك عن نفسك ... أن...

وقطع عليه كلامه صراخ طفل يستيقظ من النوم وينادي بصوت تصاعد من الغرفة المجاورة . فنهضت جولييت باكو بسرعة وهي تقول :

ـ عفواً يا سيدي ... دقيقة واحدة ... فإن الطفلة تريد أن تشرب ... يا للمسكينة العزيزة !... أنا مسرعة إليكِ ، فلا

www.mlazna.com
RAYAHEEN^

تبكي يا صغيرتي اللطيفة !...

ودخلت الغرفة المجاورة وانحنت على سرير صغير ترقد فيه طفلة في الثامنة من العمر ، وهي طفلة جميلة كأنها ملاك طاهر بريء ، متموّجة الشعر مشرقة العينين .

ورغم أن كل ما في ذلك المنزل كان رثّاً بالياً فإن السرير الصغير الذي ترقد فيه الطفلة كان مدهشاً في أناقته وفي دقة التطريز والوشي اللذين يزينان وسادته وملاءته .

ومدت الطفلة يديها الصغيرتين عندما أبصرت جولييت وأخذت تبتسم في لطف. فجاءتها جولييت بالماء فشربت الطفلة وعانقت الفتاة، ثم ألقت رأسها على الوسادة المزخرفة واستسلمت للنوم والابتسامة على شفتيها. فطبعت جولييت قبلة على جبين الطفلة وتراجعت خطوتين وهي تتأملها بحنان بالغ ، وإذا بصوت يطرق أذنيها قائلاً :

- أهي ابنتك ؟

فارتعدت فرائصها واستدارت كتلة واحدة ، فأبصرت زائرها وراءها وقد شاهد كل ما جرى ، فأجابت قائلة بصوت خفيض :

- كلا ، إنها ليست ابنتي .

وعندما عادا إلى الغرفة الأولى ، أردفت قائلة :

- إنها شقيقتي الصغيرة ... آنيت ...

أجل ، فقد كانت تلك الطفلة الصغيرة تدعى آنيت باكو . إلا أنها عندما ترعرعت حملت اسم الآنسة لانج كشقيقتها ، وتدحرج رأسها على المقصلة في ٨ كانون الأول عام ١٧٩٣ .

فقال السيد جاك :

- إن شقيقتك طفلة جميلة ، وأرى أنك تحبينها من صميم قلبك، أليس كذلك ؟...

- هذا صحيح يا سيدي ... ويبدو لي أنك تريد أن تقول لي شيئاً ... فأنت لا تأتي إليّ لـ ... كالآخرين . وهذا ما يحملني على أن أثق بك فأقول لك إن هذه الصغيرة هي كل غبطتي في هذه الدنيا ، فإن أمي المسكينة ماتت منذ سنتين وقد نظرت ، وهي على فراش الموت ، إلى هذه الطفلة وإليّ كأنما تطلب مني أن أعتني بأختي... فلبثت أسهر عليها إلى هذه اللحظة كأنني أمها ... وعندما اضطر إلى تمثيل فصول الحب كي أعيش ، يُخيّل لي أحياناً أنني قد أحببت حقاً وأن هناك من أحبني وأن هذه الطفلة هي ابنتي من لحمي ودمي ... وعندما أجلس إليها أنحني على سريرها وأبكي مثلي الآن !...

وانحدرت دمعتان من عيني جولييت باكو أو الآنسة لانج ، فزجر السيد جاك قائلاً من بين أسنانه :

- أترانى أخطأت ؟... أترانى وقعت على فتاة ذات قلب حسّاس ؟...

- ماذا تقول يا سيدي ؟

- لا شيء ، إنني أفكر بالقدر الغاشم الذي يخرج بغتة من الرجال والنساء عن مصيرها !... فقد بدا لي من حديثك أنك خُلقت لتكوني ربّة منزل تعيشين في هناء ونعيم وتخلصين لزوجك كل الإخلاص وتعتنين بتربية أولادك فينشأون ...

فقطعت عليه حديثه ضحكة رنّانة أطلقتها جولييت ، وقد

انفرجت معها شفتاها القرمزيتان الرائعتان عن صفين من الأسنان اللامعة المنضّدة كأنها اللؤلؤ. فأعادت تلك القهقهة الفجائية الطمأنينة إلى نفس السيد جاك فأيقن أنه لم يخطىء. وقالت جولييت وهي لا تزال تضحك :

ـ أيدهشك ضحكي ؟... إنني أضحك ... عفوك عني !... ولكنني أضحك من غرابة أقوالك. ولا أخفي عليك أنه من الممكن أن أحب الأولاد فيما لو رُزقت أولاداً . أما الأمانة ... وأما الزوج ... فذلك مما لا أكترث له ... أراك تستدرجني إلى الإقرار هذا المساء ...

ـ تكلمي ، تكلمي يا ابنتي العزيزة ... وسيأتي دوري عندما تنتهين !

ـ ربما كنت لا تدري ما ينالنا نحن بنات اللذة في حياتنا الطائشة العابثة ، فاعلم إذن أن فئة منا ترى فيها البؤس والشقاء ، وهي الفئة الكبرى ، وفئة يسري في دمها حب اللذة والتهالك عليها والتشوق إلى كل ما هو براق لمّاع من ثياب وزينة وحلى ...

فقاطعها السيد جاك قائلاً باطمئنان :

ـ إذن ، فاسمحي لي أن أقدّم لك هديّة متواضعة !

وفي الوقت نفسه تناول من جيبه علبة صغيرة فتحها فشعّ فيها قرطان من الماس ... ماستان من أصفى الأنواع تكاد كل منهما تعادل بندقة صغيرة . فأمسكت جولييت بالعلبة وقالت وهي ترتعش :

ـ أواه يا سيدي ... أتريد أن تضحك من فتاة بائسة

مسكينة ؟!...

ـ مطلقاً ، فإن هاتين الجوهرتين لك يا ابنتي !

ـ لي ، لي !... ولكنهما تساويان لا أقلّ من ثلاثين ألف ليرة !...

ـ إن كل واحدة منهما تساوي أربعين ألفاً يا ابنتي ، أي أن الاثنتين تساويان ثمانين ألفاً ...

فشحب وجه جولييت ثم احمرّ ، وأسرعت إلى مرآة كبيرة في الجدار وحاولت أن تثبت القرطين في أذنيها . إلا أن يديها كانتا ترتعشان ارتعاشاً شديداً فلم تستطع ذلك ، فقال السيد جاك بهدوئه الغريب :

ـ أتسمحين ؟

وأثبت القرطين في أذنيها بخفة مدهشة ، فلبثت جولييت أمام المرآة تدير رأسها يميناً وشمالاً وتقول في ذهول شديد :

ـ ما أجملها !... ربّاه ، ما أجملها !...

فقال السيد جاك :

ـ تعالي يا ابنتي ... تعالي اجلسي ... فإن المجال فسيح أمامك لتعجبي بهاتين الحليتين بعد انصرافي...

ـ أواه ، دعني أشكرك على الأقل !

ـ بكل سرور يا ابنتي . إلا أن خير طريقة تشكرينني بها هي أن تمضي في إقرارك ...

فأقبلت تجلس مكانها وهي مضطربة مرتجفة ، ثم تحدثت في صدق عن ميولها ونزواتها فقالت :

- إن إقراري ليس طويلاً ، فأنا أعشق الرقص وأعبد الحلى والزينة والثياب الفاخرة . وقد حلمت طيلة حياتي حلماً لا أظنّه يتحقق ، وكلما فكرت في هذه الأشياء أرى نفسي في قاعة رقص فسيحة رائعة ...

فقاطعها السيد جاك بقوله :

- ترين أنك في ثياب الملكات أو على الأقل في ملابس نساء البلاط المرموقات ، وأنك في حفلة شائقة من حفلات الرقص ...

فصفّقت بيديها وصاحت قائلة :

- هو ما تقول !... هو ما تقول !...

- وتتصورين أيضاً أنك تدخلين مرقص اللوفر وأنك تترجلين من مركبة فخمة مبطّنة بالحرير والأطلس وتمسكين بيد نبيل شاب جميل رفيع الشأن وتنظرين إلى أبناء الشعب وهم يحدّقون إليك بإعجاب ويفسحون أمامك مجال المرور ...

- ربّاه ، ربّاه !... كأنك تقرأ ما في نفسي !...

فقال السيد جاك وهو يبتسم :

- ويُخيّل لك أنك تزدانين بأثمن الحلى كأنك دوقة ، أو كونتيس على الأقل ، وأن تاجاً مرصعاً بالجواهر يتلألأ على جبينك الوضّاح وقرطين من الماس يتدليان من أذنيك ونهراً من اللآلىء النادرة يتدفق من عنقك العاجيّ وخواتم الزمرّد والياقوت والسافير في أصابعك الرقيقة المصقولة ...

- إنك شاعر عظيم يا سيدي أو فيلسوف يسبر غور النفس البشرية ...

- وتلقين في قاعة الرقص كل إكرام واحترام وتكونين قبلة الأنظار ويتمنّى الجميع أن يراقصوك ... إلا أنك لن تمنحي ذلك الشرف لسوى أعرقهم نبلاً وأبهاهم طلعة ... وربما لن تمنحيه لسوى الأمراء ... أو للملك ...

فصاحت جولييت باكو صيحة رعب وقالت بصوت مرتجف :

- سيدي ، أوجز ، أوجز ، إنني أتوسّل إليك ... إنك تخيفني إذ تعلن أفكاري كأنك تقرأ في كتاب مفتوح ... حرام عليك أن ترفعني هكذا إلى السماء السابعة ثم تتركني أهوي من شاهق أحلامي ...

فقال السيد جاك ببساطة :

- إن كل ما حدثتك به سيكون حقيقة واقعة يا ابنتي ، وذلك عندما تريدين !

فغمغمت تقول :

- جنون !... أوهام !...

- أيكون هذان القرطان الماسيّان اللذان يلتمعان في أذنيك من وحي الجنون والأوهام ؟

فقالت بحزن :

- صحيح ... غير أن الجواهر ، مهما يكن من قيمتها ، يستطاع شراؤها إذا كان المرء غنياً ... أما ما لا يمكن شراؤه فهو اللقب النبيل ... الاحترام ... الزوج ... تاج الكونتيّة ... فإن ذلك وحده هو الذي يساعد على دخول تلك الأماكن التي تدخلها السيدات ذوات النبل والعظمة .

www.mlazna.com
ARAYAHEEN

فنهض السيد جاك وقال لها :

— تعالي .

فقالت متعجّبة :

— إلى أين ؟

— تعالي ... أعتقد أنك لا تخافين وأنت إلى قربي ، أليس كذلك ؟

وخرج السيد جاك من المسكن وتبعته المومس بعد أن أقفلت الباب ، فوقفا على قرص الدرج أمام باب مسكن خالٍ منذ ثلاثة أشهر ، يقع قبالة مسكن جولييت تماماً . فأخرج السيد جاك مفتاحاً من جيبه وفتح ذلك الباب بين دهشة الآنسة لانج وذهولها الشديدين .

ودخلا ، وأغلق السيد جاك الباب . وكان يضيء الغرفة التي ولجاها نور خفيف وكانت عارية تماماً من الأثاث ، فأشار السيد جاك إلى ستار يفصل بين هذه الغرفة وغرفة أخرى وقال في هدوء :

— أدخلي تلك الغرفة .

فأزاحت جولييت الستار ، ولم تلبث أن أطلقت صيحة خافتة ووقفت جامدة مدهوشة كأنها أمام مشهد أسطوريّ ، وأخيراً غمغمت تقول :

— إنني أحلم !... إنني أحلم !...

فدفعها السيد جاك برفق إلى الغرفة وهو يعيد عليها قوله :

— أدخلي !

وكانت الغرفة ، التي وقفت أمامها جولييت مدهوشة مذهولة ، فسيحة فاخرة الأثاث يضيئها إثنا عشر مشعلاً . فدخلت جولييت

على رؤوس قدميها بخشوع وتهيّب ، فزادها المشهد الذي لاح لها دهشة وذهولاً . فقد أبصرت على المقاعد ثياباً ثمينة بالغة الأناقة لا ترتديها سوى نساء البلاط ذوات المكانة الرفيعة والنبل العريق ... شاهدت كل ما تشتهيه المرأة من فخفخة وزينة وأناقة ، فنسيت السيد جاك واقتربت من تلك الثياب تلمسها وتطيل النظر إليها كأنما كانت تخشى أن تتبخّر بسحر جنية ربما تكون هي التي وضعتها هناك ... ولم تصدّق عينيها عندما التفتت نحو منضدة من خشب الأبنوس قريبة منها فأبصرت عليها عقود اللؤلؤ البرّاقة الصافية وإلى قربها تاج أنيق رائع يحمل شارة الكونتيّة وقد رصّعته يد ماهرة حاذقة بالماس والحجارة الكريمة . وكانت هناك أساور وخواتم تلألأت فيها حجارة الياقوت والزمرّد والسافير ... كان هناك كل ما يليق بملكة ، فلو أرادت ملكة فرنسا ماري ليكزينسكا أن تتجمّل وتتزيّن لإحدى تلك الحفلات الساهرة الكبرى لوجدت في تلك الغرفة كل ما تشتهيه نفسها ويقتضيه مقامها .

وعندما وقعت عينا جولييت باكو على تلك الثروة الهائلة جمدت في مكانها كأنما مستها عصاً سحرية ، ولم تجد كلمة أو إشارة تستطيع بهما أن تعبّر عن تأثرها فخرّت على ركبتيها وبكت .

فتأملها الرئيس الأعلى للآباء اليسوعيين بارتياح تبدو فيه العظمة ولمس كتفها قائلاً :

— تعالي الآن !...

فارتعشت ارتعاشاً عنيفاً . أما السيد جاك فإنه أطفأ المشاعل بسرعة فساد الظلام فجأة وحجب كل تلك الكنوز ، فغمغمت

المومس قائلة :

— لم يكن إلا حلماً !

فأمسكها السيد جاك بيدها وأنهضها وخرج بها إلى قرص الدرج، وأقفل باب المسكن السحري وعاد وإياها إلى مسكنها ، وعندئذٍ قال لها وهو يبتسم :

— إذن ؟

فارتعشت الفتاة وقالت :

— لماذا سرت إلى الجنّة يا سيدي ثم عدت فطرحتني في وهدة اليأس والشقاء ؟... إن ما فعلته فظيع ... فظيع !...

فأجاب السيد جاك قائلاً برصانة لا تخلو من التهديد :

— أظن أن ما رأيتِه الآن جعلك تدركين أنني رجل أقول وأفعل وأنني أستطيع أن أرفعك لغاية ذلك النعيم أو أتركك في جحيمك ، وأعتقد أنك ، وقد رأيتِ مني ما رأيتِ ، ستصغين إليّ بكل انتباه إذ أنني أحمل بين يديّ سعادتك وهناءك وثروتك..

فقالت بصوت مرتجف :

— تكلم يا سيدي !...

— إنك فقيرة بائسة محتقرة مرذولة ، تقيمين في منزل حقير مشبوه لا يتفق مع مواهبك وطموحك . ولك شقيقة صغيرة تحبينها كابنتك ، شقيقة قد يلحق بها من العار ما لحق بك ، أليس كذلك ؟

— وآسفاه ، هذا صحيح في ما يتعلق بي ... أما بشأن شقيقتي فإنني سأعرف كيف أصونها وأحميها !...

فتابع الرجل الغامض كلامه كأنه لم يسمع ، قال :

— أيروقك أن تصبحي غنيّة محترمة وأن تعيشي في رخاء ؟ أتريدين أن تقيمي في قصر دونه قصور الأمراء ؟... أتريدين أن تضمني لشقيقتك الصغيرة البريئة مستقبلاً سعيداً وأن تقضي أنتِ شخصياً أيامك في الغبطة والمرح والحفلات والأعياد ؟

فضمّت يديها إلى صدرها وأخذت ترتعش ، فاستأنف السيد جاك قائلاً :

— أنا أتولّى أمر شقيقتك ، فسأعتني بها وستترعرع في الضواحي على مقربة من باريس حيث الهواء الطلق والمناظر الطبيعية الخلاّبة. ويمكنك أن تزوريها وتشاهديها عندما يروق لك . وعندما تصبح في سن الدراسة ، سأهتم بأن أؤمن لها ثقافة عالية في أحد المعاهد الشهيرة... أتريدين ؟

وكان التأثّر قد سيطر على جولييت سيطرة تامة ، فلم تقوَ على الجواب بل اكتفت بأن تومىء برأسها إيماءة قبول ، فقال السيد جاك :

— حسناً ، أما أنت فإنك ستقيمين في قصر سأعيّنه لك ، وهو من أقدم قصور باريس وأجملها . إنه في جزيرة سان لويس رصيف آنجو ... كنت قد خصصت بك في بادىء الأمر قصر الدوقة دي شاتورو في رصيف الأوغسطينيّين ، إلا أنني اضطررت إلى أن أتخلّى عنه لصديقي السيد لو نورمان ديتيول ...

وتاهت عينا السيد جاك في المجهول القصيّ ولبث بضع لحظات مفكراً ساهماً. وكانت جولييت تتأمله باضطراب خفيّ لا يخلو من الرعب ... فأي رجل هو هذا الرجل الغامض الذي أعترض طريقها

فجأة ، وإلى أي مصير سيدفعها ، وأيّ دور عجيب يريد منها أن تلعبه ؟...

وأدركت تماماً أنه يعرفها منذ زمن طويل ، وأنه كان يرصد حركاتها عن كثب ، وأنه اختارها لتلعب دوراً في قضية خطيرة يسعى إلى إحراز النصر فيها .

ولكن أيّة قضيّة هي ؟ إنها لم تكن تعلم إلا أنها كانت موقنة تماماً من أنها قضيّة هائلة !...

وتكلم السيد جاك فقال :

– بعد يومين، ستبرحين هذا المكان وتقيمين في القصر المخصّص بك . فقد أعددته لك بكامل أثاثه الثمين الرائع ، وستجدين فيه مركبة فخمة وجوادين مطهّمين وثياباً وجواهر وحلى و كل ما تصبو إليه نفسك .. . أترضين ؟...

فقالت بالصوت المرتجف نفسه :

– أرضى !

فتابع السيد جاك قائلاً :

– وعندما تستقرّ بك القدم في القصر ستحيين الحياة الناعمة المترفة التي تحياها السيدات الكبيرات ، وستأتي إحدى ممثّلات المسرح الملكيّ فتلقي عليك دروساً في التصرّف وفق عادات البلاط وتقاليده ، وهي دروس ستتقنينها بسرعة بما لك من الذكاء والحسّ المرهف ، وسيحفل قصرك بكبار الشخصيات وتقيمين الحفلات الراقصة والأعياد . فعليك إذن أن تكوني شديدة اليقظة ، أن تكوني عيوناً على كل ما حولك وأن تتكلمي أقل ما يمكن .

وخلال بضعة أيام ستصلك ، كزوجك ، بطاقة دعوة إلى حفلة راقصة في قصر المدينة ...

فصاحت قائلة في دهشة شديدة :

– زوجي ؟!...

– أجل ، زوجك ، وهو شاب نبيل أنيق لطيف تزوجتِه منذ سنتين زواجاً سريّاً وقضت أسباب عائلية قاهرة بيعدك عنه ، وقد تغلّبت أخيراً على تلك الأسباب وتسنّى لك الاجتماع بذلك الزوج الذي تحبينه وتعبدنيه ...

فغمغت جوليت قائلة :

– فهمت .

– لا تقلقي مطلقاً من هذه الناحية ، فإنك ستجدين في صندوق على مدفأة غرفتك كل ما تحتاجين إليه من الوثائق التي تثبت زواجك . وعندما تصلك بطاقة الدعوة إلى تلك الحفلة الراقصة في قصر المدينة ، فستذهبين إليها في رفقة زوجك ...

فسألت قائلة :

– وماذا يجب عليّ أن أفعل في تلك الحفلة الراقصة؟

فألقى السيد جاك على المومس نظرة قلق وقال في نفسه :

« أراها شديدة الذكاء ... لا بأس ، فذلك أفضل !... »

وقال يخاطبها :

– ماذا يجب أن تفعلي ؟

– أجل ، إنني أسألك ماذا يجب عليّ أن أفعل في تلك الحفلة.

فقال القائد العام بصوت أصمّ :

www.mlazna.com
KRAYAHEENA

— أن تستهوي الرجال !

فقالت لاهثة :

— جميع الرجال ؟

— كلا ، بل الرجل الذي سيدلّك عليه ...

— من ؟

— زوجك !...

وساد بين الاثنين صمت رهيب . ولم تكن جولييت تبالي بما يطلبه السيد جاك منها ، فقد كان من السهل عليها أن تستهوي أيّ فتى نبيل يعينّه لها ما دامت تتقاضى بدل « أتعابها » ، إلا أنها أدركت أن ذلك الاستهواء الذي يُفرض عليها أن تقوم به ليس إلا بدء مهمّة رهيبة ستضطر إلى القيام بها .

أما السيد جاك فقد كان تائهاً في عباب التفكير إلى حدّ نسي معه وجود الفتاة . أتراه يتردّد ؟... أم ساءه أن يلجأ إلى تلك الوسائل الغريبة لتأييد سلطانه ومحاربة الملك ؟... من يدري !...

وقال أخيراً :

— إذن ، فقد اتفقنا .

فقالت جولييت :

— إفعل بي ما تريد ، فإنني لك روحاً وجسداً .

— أوصيك أخيراً بالكتمان التام ، فإن أيّة كلمة تتلفّظين بها في هذا الموضوع ستكون عاقبتها وبالاً عليك، فلا تجازفي بسعادتك . والآن، وقد اتفقنا على كل شيء، فلنفعل ما يفعله التجّار الأذكياء الذين لا يكتفون بالكلام . وقد أعطيتك أنا عربون هذه الصفقة

ثمانين ألف ليرة ممثّلة في القرطين الماسيّين ، والآن ، جاء دورك أنت ...

فقالت وهي ترتعش من قمة رأسها إلى أخمص قدميها :

— وماذا أستطيع أن أعطيك أنا ؟

— توقيعك ، فإن الكلام يطير أما الكتابة فتبقى ... وهذه ورقة مكتوبة فطالعيها بإمعان وذيّليها بإمضائك .

وما أن طالعت الورقة حتى شحب وجهها بما يحاكي وجوه الموتى، فإن كل ما رأته في تلك الليلة من المفاجآت لم يدهشها بمقدار ما أدهشتها تلك الورقة التي كانت ترتعش بين يديها .

وكانت الورقة تقول :

« أنا الكونتيس دي باري ، خليلة صاحب الجلالة الملك لويس الخامس عشر الرسمية، أصرّح وأعترف بأنني أُدعى جولييت باكو، وأنني حملت لقب الكونتيس النبيل على أثر سرقة وثائق تؤيّدني في ذلك ، وأنني ، مقابل وعد ببلغ خمسمائة ألف ليرة ومكافآت أخرى، أقدمت أنا المومس المنبوذة على استمالة الملك إليّ ، ذلك الملك الذي أحتقره لمجرّد الاحتقار دون أيّ حقد عليه . وأعترف بأنني كنت أعيش من الحب الأثيم والزنى قبل بلوغي هذا المقام ، فقد بعت ابتساماتي وجسدي للذي كان يدفع مبلغاً أكبر حتى ولو كان أكره الناس إليّ . أما الملك المسكين الذي يعتقد أنه امتلكني قبل الجميع فإنه يأتي بعد عدد من الذين امتلكوني يكفي ، على الأقل ، ثلاث فتيات من نوعي . »

فاحمرّ وجه جولييت باكو ثم اشتدّ شحوبه ولمع في عينيها شيء

أشبه بالدمع . فقال السيد جاك بخشونة :

– أتوقّعين ؟... إنك إذا وقّعت تتدفق الثروة عليك . واعلمي أنني لن أستعين مطلقاً بهذه الورقة ما دمت تحرصين على الطاعة والخضوع .

فغمغمت جولييت قائلة وهي تكاد تفقد صوابها :

– الكونتيس دي باري ؟... خليلة الملك ؟...

– أجل ، بحظيّة لويس الخامس عشر ، وهي نعمة دونها كل نعمة . فقد تملكين معها حق السيطرة على فرنسا وربما على أوروبا ، وستُقام لك الحفلات وينحني أمامك العظماء وتدوس قدماك كنوز الهند كلها !...

فقالت وهي تلهث :

– إنني أوقّع !

ونهضت إلى منضدة في غرفتها فأرّخت الورقة ووقّعتها . فقال السيد جاك :

– والآن ، أكتبي بخط يدك نسخة أخرى ووقّعيها أيضاً...

فامتثلت المومس ، وطوى السيد جاك الورقتين في عناية بالغة وأخفاهما في محفظة صغيرة ذات قفل كان يعلّقها في عنقه تحت الثياب ، ثم وضع قبّعته على رأسه وسار إلى الباب ، فقالت له جولييت :

– متى أراك يا سيدي ؟

– ربما ترينني هذه الليلة وربما لن تبصريني أبداً ...

– إن لم أراك أبداً فمن أين لي أن أعرف رغباتك ونواياك ؟

– لا تقلقي ، وسواء لبثت الفتاة الحقيرة التي رأيتها هذه الليلة أو أصبحت خليلة الملك ، فإن عينيّ ستظلان عليك دائماً وستطالك يدي أينما كنتِ ...

فانحنت جولييت وهي ترتعد وقالت :

– وبأيّ اسم أدعوك ؟

فقال الزائر الرهيب في هدوء وبرودة :

– إنني أُدعى السيد جاك .

وعندما انتصبت جولييت باكو كان السيد جاك قد اختفى ، فساءلت الفتاة نفسها قائلة :

– ترى ، أليس ما رأيته حلماً من الأحلام ؟

ونظرت إلى المرآة فإذا القرطان الماسيّان يلتمعان في أذنيها ، فأيقنت عندئذٍ من أنها كانت في يقظة وأن ما اتفق لها لم يكن حلماً على الإطلاق ...

قصر ديتيول

*

عندما اجتاز الفارس داساس باب الباستيل الخارجي واستنشق ملء رئتيه الهواء النقي وأيقن من أن منقذه توارى عن العيان وأنه تخلّص من ذلك الاضطراب الغريب الذي كان يحسّه في حضرة ذلك المنقذ الرهيب ، سار توّاً إلى شارع سانت أونوريه .

وكان يمشي بعزم وخيلاء وقد شمخ بأنفه ووضع يده على قبضة سيفه ، ذلك السيف الذي أعاده إليه حاكم السجن بعد أن أخلى سبيله ، فكان النظر إليه شزراً في تلك اللحظة وخيم العاقبة شديد الخطر .

وفعلاً ، فقد كان الفارس يشعر بأن قلبه يتواثب في صدره ، وقد ساءه ما حمله إليه السيد جاك من أنباء تلك المؤامرة المقصود منها إلقاء جان بين ذراعي الملك .

إذن ، فقد كان هو الضابط الصغير نافخ البوق مرغماً على مناوأة ذلك الخصم العظيم ... ملك فرنسا لويس الخامس عشر !... ومع ذلك ، فإنه لم يحفل ، وقد صمّم على أن يضحّي بحياته في سبيل إنقاذ المرأة التي يحبها .

وسوف تكون المعركة هائلة رهيبة ، وسوف يسعى داساس لإنقاذ جان مهما كلفه الأمر حتى ولو انتهى به سعيه إلى المقصلة .

وبلغ فندق الدلافين الثلاثة وهو على تلك الحال ، ودخل الفندق في اللحظة التي كان فيها السيد كلود يتأهّب لأخذ كيس أمتعته - أمتعة الفارس - إلى السوق كي يبيعه ويستعيض بثمنه عن بعض ماله في ذمّة صاحبه من بدل طعام ومأوى .

ودهش صاحب الفندق عندما لاح له الفارس بينما أشرق وجه امرأته السيدة كلودين التي صاحت قائلة بمرح :

أأنت هو حقاً من أرى يا سيدي الفارس ؟... لقد كان قلقنا عليك شديداً !...

فقال داساس :

- شكراً يا سيدتي ، فقد اضطررت إلى براح باريس لبضعة أيام ... وها أنا أعود والتعب والجوع يفتكان بي !

فأخذت صاحبة الفندق تنادي الخدم ، ثم قالت لداساس :

- إذا أراد سيدي الفارس أن نحمل طعامه إلى غرفته فإننا سنفعل ذلك بطيبة خاطر ...

- كلا ، كلا ، شكراً جزيلاً ، فإنني سأتغدّى في القاعة العامة .

وجلس إلى المائدة وهو يقول في نفسه :

« يا لمتناقضات الحياة ! فإنني كنت في أقصى درجات اليأس هذا الصباح وكنت أتمنّى الموت وأسعى إليه بكل قواي ، أما الآن فإنني أميل إلى الضحك والغناء وأتوق إلى معانقة صاحبة الفندق !... »

وجاءته السيدة كلودين بالطيور المحمّرة ، فقال لها بحماس :

- إنك لطيفة جداً أيتها السيدة كلودين ، وكذلك طيورك ..

فطربت للمديح وقالت :

- إنني سعيدة جداً !...

فقال الفارس متعجباً :

- ولماذا أيتها الحسناء ؟

- لرؤيتك ... أريد أن أقول لرؤية شهيّتك فإنها مما يشرّف فندقي .

- ذلك أنني أعود من بلد يصوم أهله صوماً طويلاً ، فقد أمضيت فيه ثمانية أيام كدت أموت خلالها جوعاً وعطشاً .

www.mlazna.com
ARAYAHEEN

- يا للشاب المسكين !

وكان قد جرع زجاجة من الخمر فأسرعت تأتيه بزجاجة أخرى وفي تلك اللحظة ارتفع صوت يقول :

- وأنا عطشان أيضاً !...

وقال صوت آخر :

- وأنا أيضاً !...

وتلا تلك الكلمات ضربتان شديدتان على طاولة مجاورة ، فقد دخل رجلان القاعة العامة وجلسا إلى تلك الطاولة . وصاح الأول بخادم الفندق قائلاً :

- هات زجاجة من خمر آنجو !

فقال الآخر :

- هات زجاجة من خمر شمبانيا !

- أنت تهينني أيها السيد كرابيون !...

- أنت تهينني أيها السيد بواسون !...

ولم يكن صاحبانا سوى الشاعر كرابيون وصديقه نوح بواسون، وهما السكّيران الشهيران اللذان لا يصحوان، فإن الخمرة في جوفيهما ودماغيهما ليلاً نهاراً .

وجلس الصديقان يعاقران الخمرة ويثرثران بينما كان الفارس داساس يفكّر في موقفه . فقد أنبأه السيد جاك بأن الملك يحب جان وأن جان لم تحب الملك بعد . إذن ، فعليه أن ينقذها من براثنه .

وأنبأه السيد جاك أيضاً بأنها لا تحب زوجها ، وما دامت لا

تحب زوجها - ولا الملك حتى الآن على حدّ قول السيد جاك - فلا شك إذن في أنها تحبّه هو الفارس داساس .

وهكذا خُيّل له أن الطريق تمهّد أمامه وأن من السهل عليه أن يمتلك قلب الفتاة ويستأثر بها .

وأخذ يفكر في الانقلاب الذي طرأ على حياته . فكّر في مجيئه إلى باريس يلتمس الانضمام إلى حرس لويس الخامس عشر ، وإذا به يبصر تلك الفتاة الحسناء في فسحة الإرميتاج فيهيم بها ، ولم يكد يحبّها حتى تبدّلت آراؤه في الحياة فاتخذ لنفسه وجهة سير جديدة .

وعندما صعد إلى غرفته ذات الرقم ١٤ لينام قليلاً، كان لا يزال يستعيد في ذهنه ذكرى لقائه بجان في فسحة الغاب ، وما كاد يدخل غرفته ويتأهّب للنوم حتى سمع بابه يُطرق فقال :

- أدخل .

ودخلت كلودين الحسناء تحمل رسالة بيدها . إلا أن تلك الرسالة لم تكن سوى حجّة تذرّعت بها صاحبة الفندق كي تتمكن من دخول غرفة الشاب وتتمتع برؤيته . قالت :

- إنها رسالة لك يا سيدي الفارس .

ولم يكن أحد يعرف عنوان داساس في باريس سوى الكونت دي باري وهنري ديتيول ، فصاح يقول متعجباً :

- لي ؟!...

- أجل ، وقد وصلت يوم براحك الفندق ، بل باللحظة التي كنت تغادره فيها . وقد لحقت بك في الشارع وناديتك لأسلمك

إياها إلا أنك لم تسمع ... كنت بعيداً ... كنت تركض ... لا شك في أنك كنت على موعد غرام ...

وسلمته الرسالة ففتحها . ولم يكد يلقي نظرة عليها حتى شحب وجهه فحاكى وجوه الموتى وأسرع إلى النافذة ليقرأها بمزيد من الانتباه . وعندما انتهى قال لصاحبة الفندق :

- وتقولين إنها جاءتني عند براحي الفندق ؟

- أجل يا سيدي ، فهل من مصيبة ؟...

- أتقولين إنك ركضت ورائي في الشارع ؟...

- أجل ، أجل ، وكنت أناديك إلا أنك لم تسمع !

فغمغم قائلاً :

- يا للأقدار الغاشمة !

ولبث في مكانه جامداً مصعوقاً . وكانت تلك الرسالة هي نفسها التي سلمتها جان ليلة زواجها إلى نوح براسون ليحملها إلى الفارس داساس والتي طلبت منه فيها أن يسرع إلى نجدتها وإنقاذها . وكان قد مضى عليها عشرة أيام ... فتضعضع الفارس وكاد يسقط في مقعده لشدة اضطرابه ، ووقفت كلودين جامدة تنظر إليه بإشفاق وتفكر في طريقة تستطيع أن تفيده بها . فقال داساس :

- أيتها السيدة كلودين ، من الذي جاءني بهذه الرسالة ؟

فأجابت صاحبة الفندق قائلة :

- من حسن حظك ، في هذا على الأقل ، أن الذي جاءك بها موجود هنا في هذه اللحظة ، فقد تذوّق خمرتنا اللذيذة في ذلك المساء وما انفكّ منذ ذلك الحين يرتاد فندقنا ليشرب مع أحد أصدقائه ..

فقال الفارس :

- يجب أن أراه ، فهل لك أيتها السيدة كلودين أن تطلبي منه أن يصعد إلى هنا ؟... إنني أريد أن أتحدّث إليه في خلوة ... وأنت من الذكاء واللطف بحيث لا أظنّك ...

فانطلقت صاحبة الفندق قبل أن يتم جمله وأسرعت تنادي نوح براسون ... إلا أن هذا لم يدخل وحده غرفة داساس بل كان يرافقه صديقه كرابيون الذي يأبى الانفصال عنه .

فأشار داساس إشارة فهمت صاحبة الفندق معناها فأطلّت على قرص الدرج وصاحت قائلة :

- إحملوا زجاجتين من خمر آنجو وزجاجتين من خمر شمبانيا إلى الغرفة رقم ١٤ .

فجاءت خادمة بالزجاجات الأربع فوضعتها على الطاولة مع الأقداح وغادرت الغرفة مع صاحبة الفندق . وعندما أصبح الرجال الثلاثة وحدهم ، قال داساس :

- أيها السيدان ، من منكما الذي حمل إليّ منذ عشرة أيام رسالة خاصة ؟

فقال نوح براسون :

- أنا ، وقد كان جزائي منك أن صدمتني فطرحتني أرضاً .

- أرجو أن تعذرني يا سيدي ، ولا أظنك تمانع في أن أدعوكما ، أنت ورفيقك ، إلى كأس من الخمر نوطّد بها صداقتنا ...

فقال الصديقان معاً :

- إننا نقبل بكل سرور !

فأردف داساس قائلًا :

– على أنني ، بعد أن نشرب نخب هذه الصداقة ، أرجو أن يسمح لنا السيد رفيقك بأن نتحدّث في خلوة نحن الاثنين ، فإن لديّ حديثاً خاصاً أريد أن أفضي به إليك ...

فقال نوح بعظمة :

– إن ما تطلبه مستحيل يا سيدي !

وقال كرابيون وهو يفرغ كأسه في جوفه :

– مستحيل تماماً !

فقال داساس في عجب شديد :

– لماذا أيها السيدان ؟!...

فقال نوح بفخر :

– لأننا نفكّر بدماغ واحد ونعيش بقلب واحد ونتمتّع بذوق واحد يا سيدي ...

فقال داساس بشيء من القلق :

– إذن ، فليكن ما تريدان يا سيديّ !

وقال في نفسه :

« يا لسوء الحظ !... فما عساي أن أعلم من هذين السكّيرين وقد فقدا كلّ صواب على ما يبدو ؟!... »

وأطال كرابيون النظر إلى الفارس داساس ولم يلبث أن صاح قائلًا :

– ولكن يُخيّل لي أيها الفارس الجميل أنك أنت نفسك ذلك الشاب الذي التقطناه في إحدى الليالي في شارع الأولاد الصالحين

قبالة المنزل الذي حملناه إليه .

– أأنتما اللذان التقطتماني وحملتماني ؟... هيّا ، هيّا ، وليعطني كلّ منكما يده أهزّها ، فأنتما ، من الآن فصاعداً ، صديقان حميمان للفارس داساس !

فانحنى الصديقان بشيء من العظمة ، بينما تابع الفارس كلامه فقال :

– ولكن أخبراني ، هل أبصرتما ذلك الرجل الذي غدر بي وسدّد إليّ من الوراء تلك الضربة الهائلة ؟

فقال كرابيون :

– إننا لم نبصر أحداً سواك ، وقد كنت شاحب اللون ... وكان الشارع مقفراً .

فقال داساس :

– في جميع الأحوال ، إنني أشكركما من صميم قلبي ، فقد أدّيتما لي خدمة لن أنساها وأرجو أن تعتمدا على صداقتي .

فهمس كرابيون في أذن بواسون قوله :

– إنه مثال اللطف والأدب !

فقال بواسون بالطريقة نفسها :

– وهو يقدّم لنا الشراب الفاخر !

وصمت داساس هنيهة ، ثم قال بصوت مرتجف النبرات :

– إن الخدمة التي أدّيتماها لي أيها السيدان تدعوني إلى أن أخاطبكما بصراحة ووضوح ، أي كما أتكلم مع أصدقائي ...

والتفت إلى نوح بواسون وقال له :

www.mlazna.com
RAYAHEEN

– إن ملابسك وثيابك يا سيدي تدلّني على أنك لست خادم الشخص الذي سلمك الرسالة ، فاسمح لي إذن أن أسألك : أتعرف ذلك الشخص ؟... أي أتعرفه إلى حدّ أنك تستطيع ...

فقاطعه نوح قائلاً :

– دون شك ، إنها ابنتي !

فصاح الفارس قائلاً في ذهول شديد :

– إبنتك ؟!...

فأجاب بواسون قائلاً بعظمة وفخر :

– أجل ، إبنتي ... فأنا نوح بواسون زوج السيدة لويز بواسون ووالد جان انطوانيت بواسون التي أصبحت الآن السيدة ديتيول ...

فكرّر داساس قوله :

– إبنتك ؟!...

– يا للشيطان !... لقد أدركت الباعث على دهشتك !... فأنت تتساءل كيف أكون أنا الرجل المتين العضلات الضخم الجثّة البادي القوة والد تلك الفتاة النحيلة الرقيقة البنية !... إنها حقاً فتاة ضعيفة الجسم رقيقة المزاج ، فبينما أجرع أنا كؤوس الخمر بعضها إثر بعض ، تراها ، هي ، لا تستطيع أن تشرب حتى كأساً واحدة ... فضلاً عن البكاء والدوار ونوبات الإغماء التي تنتابها لأقل شيء !...

فكان داساس يصغي إلى بواسون ويتأمله بذهول أشبه بالرعب وهو يقول في نفسه :

« أيكون هذا الرجل حقاً والد جان ؟... هذا مستحيل !.. فمن أين لهذا السكّير تلك الثروة الطائلة التي تساعده على الإقامة في ذلك المنزل الفخم الحافل بأجمل الأثاث وأثمن التحف ؟... وكيف يستطيع من كان مثله أن يوفّر لجان تلك الثقافة العالية التي تتمتع بها ؟!... إذن ، فإن هنالك سراً !... »

وأدرك داساس أن نوح بواسون وصديقه كرابيون لن يكشفا له ذلك السر ، فالتفت إلى بواسون وقال له :

– إسمح لي يا سيدي بأن أهنّئك بالسيدة ابنتك، فإنها، والحقّ يقال ، ملكة من ملكات الجمال والذكاء والثقافة ...

فقال بواسون :

– هذا مما يسرّني .

وقال كرابيون مفاخراً :

– إنني أنا الذي علّمتها نظم الشعر ، ولذلك ، فأنا أرى فيها قطعة مني !

فقال بواسون :

– وهي موسيقية أيضاً !

وقال كرابيون :

– ورسّامة وحفّارة !... إنها ترسم وتحفر وتعزف على الأرغن ... إنها فنّانة !

– إنها حورية !

– إنها إلهة !

فلبث داساس حائراً أمام ذينك الصديقين الغريبين اللذين يشربان

كثيراً ويتكلمان كثيراً . وكانا قد بدآ يستعدّان لحديث جديد عندما قال الفارس لبواسون :

— ما دمت والد السيدة ديتيول يا سيدي ، فيجب عليك أن تبذل كل ما في وسعك لضمان سعادتها ...

— إنها سعيدة جداً !

— ربما ، ولكن ألم تلاحظ أنها كانت في حالة غير مألوفة يوم سلّمتك هذه الرسالة ؟

— مطلقاً !

— ألم تلاحظ أنها كانت حزينة قلقة مضطربة ؟...

— هي ؟... كلا ، كلا مطلقاً ، فإنني لم أرها يوماً أكثر مرحاً منها في ذلك اليوم . وبرهاني على ذلك أنها نقدتني اثنتي عشرة ليرة كيلا أتأخّر في الطريق ، وقد ربحت ذلك المبلغ.. نخبك يا كرابيون ، ونخبك أنت يا سيدي الفارس داساس !

فقال الفارس في نفسه :

« لا حيلة لي في هذين السكّيرين !... »

وفجأة ، ضرب بيده على جبينه ولمع بارق في عينيه لفكرة عنّت له ، فأمسك بيد نوح بواسون وقال له :

— أتريد يا سيدي أن تؤدّي لابنتك خدمة جليلة ؟

— ولماذا لا ؟

وقال كرابيون :

— وأنا أيضاً !

فقال داساس :

— إذن ، فسيرا بي إليها.. يجب أن أتحدّث إليها دقيقة واحدة دون شهود . وأقسم لك أيها السيد بواسون أن حرصي على سعادتها هو وحده الذي يدفعني إلى الذهاب ...

فقال نوح بواسون :

— إنني أسير بك إليها الآن إذا أردت !

— أترضى بأن تقودني إليها ؟...

— فوراً !...

— إذن ، فأرجو أن تنتظراني في القاعة العامة ريثما أرتدي ثيابي !...

وعندما أصبح داساس وحده ، قال في نفسه :

« يا له من والد غريب الأطوار !... إن كل ما يحيط بتلك الفتاة العجيبة ليس سوى أسرار وألغاز !... »

ولحق بنوح بوسوان وصديقه كرابيون إلى القاعة العامة وبرح وإياهما الفندق إلى رصيف الأوغسطينيين حيث يقع قصر ديتيول .

وأدخلوا إلى قاعة صغيرة رائعة الأثاث ، فسأل بواسون عن امرأته فقيل له إنها ليست هناك . فسار توّاً إلى جناح جان ، وبعد بضع دقائق جاء أحد الخدم يستدعي الفارس داساس ويسير به في أروقة كثرت فيها التماثيل والآثار الرائعة الثمينة مما بهر عيني الفارس وجعله يدرك حقيقة المسافة التي تفصل بينه وبين تلك التي يحبها .

ونسي في تلك اللحظة الفتاة الحسناء التي رآها في فسحة الغاب ليفكّر في تلك السيدة العظيمة صاحبة هذا القصر الشاهق الفخم المتدفّقة فيه الثروة كأنها النهر الفيّاض .

واستولت عليه رعشة عنيفة كاد يسمع معها دقّات قلبه ، فإن الأبّهة الماثلة أمامه أظهرت له بعد الشقّة التي تفصل بين ضابط صغير فقير لم يعرف في حياته سوى غرف الفنادق وبين السيدة التي تتمتّع بهذه الثروة الأسطورية التي يراها .

وأيقن من أنه يغامر في ما سيقدم عليه . فماذا جاء يفعل هناك ؟ وماذا سيقول لسيدة ذلك القصر الذي يسحقه بفخفخته الوقحة ؟...

وفجأة ، أبصرها !...

فقد أدخله الخادم إلى قاعة صغيرة بسيطة الأثاث ، كانت جان تنتظره فيها . وعندما أبصرته أسرعت نحوه وهي تمدّ إليه ذراعيها ، فاضطرب وانحنى يقبّل يديها الصغيرتين وهو يرتجف . وخطر له أن يركع أمامها ، إلا أنها أفلتت منه بلطف وأشارت إلى مقعد دعته للجلوس فيه وعادت فجلست في مقعدها وخاطبته قائلة وهي تبتسم :

— إنني في انتظارك أيها الفارس .

— من المؤسف حقاً أن أكون جئت متأخراً يا سيدتي ... ولكن لي عذري ... فإنني لم أطالع رسالتك إلا منذ ساعة فقط ، وقد خرجت من الباستيل منذ ساعتين !

— من الباستيل ؟... إذن ، فأنت لم تستلم رسالتي في تلك الليلة التي ...

— في الليلة التي أنقذت فيها حياتي يا سيدتي ؟... إذ أنك كنت دون شك ، وأنا لا أزال أتذكّر رغم ما كنت فيه من الذهول والغيوبة أنك أقبلت عليّ تحاولين أن تنشليني من إغمائي !

فقالت بصدق :

— أجل ، لقد كنت أنا نفسي التي عالجتك ... ألم تكن قد استلمت رسالتي في ذلك الحين ؟

— كلا يا سيدي ، فقد كنت في تلك الليلة في شارع الأولاد الصالحين ... كنت أطوف تحت نوافذك ... وإذا بي أبصر فجأة جمهرة من الرجال يحدّقون في الظلام إلى تلك النوافذ ... فخشيت أن يكونوا لصوصاً ودنوت منهم ... بيد أنني أيقنت من أن لا لصوص هناك ... بل ملك فرنسا !...

فشحب وجه جان شحوباً شديداً ، ثم تبدّل الشحوب بالاحمرار ...

فتنهّد الفارس عن ألم ومرارة ، فإن وقع كلامه على جان كان أعظم مما توقّع . وقالت السيدة ديتيول بصوت خافت ضعيف :

— تابع كلامك يا سيدي ، أرجوك ...

فاستأنف الفارس كلامه قائلاً بصوت مرتجف :

— وماذا أقول لك ؟... أأقول إن الألم كاد يخنقني عندما علمت أن هناك من ينافسني فيك ؟...

— أيها الفارس !...

— دعني أسكب عند قدميك ما في قلبي من مرارة ويأس ... إنني أحبك يا سيدتي وأنت تعلمين أنني أحبك ... وقد أحببتك منذ وقع بصري عليك في فسحة الإرميتاج ... أنا أحبك حتى الجنون ... وسأحبك طول حياتي . فكيف أطيق إذن أن أجد أمامي من ينافسني فيك ؟... ويا له من منافس !... الملك !...

فخفق قلب جان ، أطربتها كلمات الفارس ... أصحيح أن

WWW.MAZNA.COM

الملك أقبل يطوف تحت نوافذها ؟... إذن ، فهو يحبها !...

وفي الوقت نفسه أقلقها حب داساس لها ... حب ذلك الفارس الجميل النبيل الشجاع الذي كانت نظراته الملتهبة تنفذ إلى صميمها . فغمغمت قائلة :

— تابع قصتك يا سيدي !... أتوسّل إليك أن تتابعها !...

— فصعقت عندما عرفت أن الرجل الذي أراه ليس سوى الملك ... وعندئذٍ شعرت بضربة هائلة تنقضّ على رأسي من الوراء فسقطت إلى الأرض وغبت عن الصواب ... ثم خُيّل لي أنك عاكفة عليّ تعالجينني من إغمائي ... وعندما عدت إلى رشدي قيل لي إنك في الكنيسة فأسرعت إليها ... وإذا بي أراك في حلّة الزفاف... وبينما كنت أنظر إليك تبرحين الكنيسة والحزن يعصر قلبي ، جاءني من يقبض عليّ !...

— لماذا ؟...

— ذلك ما أجهله ... ولكن ألا ترين أن هناك صلة وثيقة بين القبض عليّ وبين رؤيتي الملك ... في تلك الليلة ؟...

وكان ذلك ما تفكّر فيه جان ، ولم تلبث أن قالت في نفسها:

« أجل، أجل... فلو كان الفارس داساس ملك فرنسا لتخلّص من منافسه بتلك الوسيلة نفسها !... ولكن كيف أخلى لويس الخامس عشر سبيل ذلك المنافس بعد أن قبض عليه وطرحه في الباستيل ؟... »

وجلا الفارس داساس عفواً بعض نواحي هذا السر عندما استأنف كلامه قائلا :

— واتّفق أن كان هناك من يهمّه أمري على ما يبدو ، فاستطاع أن يأتيني بأمر إخلاء سبيلي ، ولم أكد أبرح الباستيل حتى استلمت رسالتك فأتيت مسرعاً أسألك عن الخدمة التي أستطيع أن أؤديها لك !...

فلزمت جان الصمت وراحت تتأمّل ، بتأثّر ، ذلك الوجه الوسيم الطافح بالصدق والنبل والإخلاص وهو يتفجّر شباباً وحباً.. والحب الصادق المخلص سريع العدوى ، فأحسّت جان بعاطفة تجتاح قلبها وتطلّ واضحة من عينيها . عاطفة كان فيها من الحب أكثر مما فيها من الشفقة ... كانت أسمى من الشفقة بل أسمى من أيّة عاطفة أخرى سوى عاطفة الحب ... والتمعت عينا داساس بالإخلاص اللامتناهي واليأس العميق ، فقالت له وهي تكتم ارتعاشها :

— أصغ إليّ أيها الفارس، فأنا أريد أن أخاطبك كما أخاطب أعزّ صديق لديّ.. بل كما أخاطب صديقي الوحيد في موقفي الحرج هذا.. فإنني أرى فيك أكثر من صديق ... أرى فيك أخاً لي ...

ولم يكن ذلك ما يريده داساس فتململ في مقعده وتقلّص وجهه الجميل باليأس القاتل ، فقالت جان بصراحة وصدق :

— إنني دعوتك إليّ عندما كنت على وشك الاقتران بالرجل الذي أمقته وأكرهه أكثر من أيّ شيء في الوجود ... ولا بدّ لي من أن أطلعك على حقيقة أمري ... فاعلم إذن أن السيد نوح بواسون الذي جاء بك إلى هنا ليس أبي ... فإن أبي هو السيد أرمان دي تورنهام .

– القيّم العامّ على مستودعات المؤونة ؟

– أجل ، وقد أشفق على ابن أخيه السيد ديتيول فجعل منه نائباً له ... فتلاعب السيد ديتيول بالأرقام في سجّلات المستودعات واختلس مبالغ طائلة . وكان أبي يوقّع على الكشوف التي يقدّمها له دون أن يدقّق فيها ، ثقة منه بابن أخيه ، إلى أن كان يوم جاء فيه ديتيول يهدّدني بأنه سيفضح أبي إن لم أقبل به زوجاً ...

– يا للفظاعة !... فكيف استطاع ذلك الرجل أن ينحطّ إلى هذا الدرك من الجبن والدناءة ؟

فقالت جان بصوت أصمّ :

– لقد انحطّ وتسفّل جداً ... فخيّل لي أنك تستطيع أن تصدمه والسيف في يدك وتلقي عليه أمثولة في الشرف وعزّة النفس ...

فغمغم قائلاً بحرارة :

– شكراً ، شكراً يا سيدتي !

فاستأنفت جان كلامها وقالت بمرارة وبأس :

– إلا أن القدر الغاشم نفّذ فيّ حكمه فأصبحت السيدة ديتيول .. وأصارحك بأنني بتّ أخاف الرجل الذي أصبح زوجي أكثر مما كنت أخافه قبل الزواج فقد ثبت لي أنه يريد بي شراً ... ولا أريد أن أفضي إلى أبي بشيء مما أخشاه لئلا أزيد آلامه ... ولا أكتمك أنه تعذّب كثيراً في حياته الماضية . والآن ، قل لي ، أتريد أن تكون حليفي ؟...

– أنت تعلمين جيداً يا سيدتي أنني لك ما حييت ، فتصرّفي بي

كما تشائين !...

– لقد قبلت عرضك الكريم ... وسوف أدعوك للدفاع عني في ساعة الخطر ... ستكون فارسي !...

فركع أمامها وخيّل إليه أن السماء تباركه وبدا له من تأثّر جان أنها تحبه ، فشعر بقوّة جبّارة تتفجّر فجأة في عروقه كأنها قوّة شمشون وهو يسير إلى قتال الفلسطينيّين ... ورأى في نفسه من الجرأة ما لن يتقاعس معه حتى عن مقاومة الملك نفسه ، فأمسك بيدي جان وأمعن في تقبيلهما بخشوع وحرارة . فقالت بلطف :

– إنهض أيها الفارس .

فأطاع وهو يقول :

– متى تريدين أن أبدأ الهجوم ؟

– سوف أطلعك على ذلك عندما تدقّ الساعة . والآن ، أريد منك ، إذا اجتمعت بالسيد ديتيول ، أن تظهر له البشاشة..

– وهل أستطيع ؟...

– يجب أن تستطيع ليتسنّى لك أن تدخل إلى هنا كصديق لربّ القصر ... ليتسنّى لك أن تكون إلى قربي في أيّة ساعة..

فصاح داساس قائلاً بحماس :

– أجل ، أجل !...

فابتسمت له ابتسامة ساحرة ، ومما لا شك فيه أن رسم الملك تضاءل في تلك الساعة في قلبها وحلّ محله الفارس داساس بحبه الصادق النبيل المخلص .

وقُرع الباب فجأة ودخل هنري ديتيول وهو يصيح قائلاً :

– إنني أبحث عنك في كلّ مكان يا صديقي العزيزة !...

وتظاهر بأنه أبصر داساس فجأة فاندفع نحوه يصافحه ويقول :

– إيه ! أنت هنا أيها الصديق الشجاع ؟...

فارتعشت يد داساس وهو يصافح ديتيول وأصبحت جان باردة كالثلج ، إلا أن هنري تجاهل كل ما لاح لعينيه فأخرج من جيبه محفظة صغيرة جميلة وقال لجان وهو يبتسم :

– إحزري ماذا أحمل إليك هنا !...

– وكيف أحزر ذلك يا سيدي ؟

– إذن ، فأنا أحمل إليك ... يا للعنة لشدّ ما كلّفني ذلك من المال... ولكن في سبيلك يا صديقتي العزيزة يرخص كل غالٍ.. فضلاً عن أنني أعلم أنك تموتين شوقاً لتشاهدي عن كثب مولانا لويس الخامس عشر ... المحبوب !...

فاحمرّ وجه جان احمراراً شديداً وغمغمت قائلة :

– الملك !

وشحب وجه داساس حتى حاكى وجوه الموتى وكرّر قائلاً هو أيضاً :

– الملك !

فقال ديتيول :

– أجل ، الملك !... إذن ، فإن هاتين البطاقتين اللتين لم أستطع أن أحصل عليهما إلا بعد أن بذلت الذهب الكثير ، هما دعوتان إلى الحفلة الراقصة التي سيقيمها رجال الحكومة في قصر المدينة تكريماً لصاحب الجلالة ... ألا تشكرينني يا سيدتي ؟...

وألقى بالبطاقتين على طاولة صغيرة فكادت جان تلتهمها بعينيها، ثم خاطب الفارس داساس قائلاً :

– تعال معي أيها الفارس ...

– إنني رهن أوامرك ...

وانحنى داساس طويلاً أمام جان التي ردّت له تحيّته . وعندما بلغ عتبة الباب استدار نحوها فرآها تمدّ يدها نحو البطاقتين .

وعندما أصبح الرجلان خارج القاعة ، قال ديتيول للفارس :

– أيروقك أيها العزيز أن تشهد تلك الحفلة ؟... فإذا كنت تريد فإنني أستطيع أن أحصل لك على بطاقة دعوة ... أجل ، أجل ، لا ترفض ... لقد اتفقنا وستصلك البطاقة إلى فندق الدلافين الثلاثة ...

فصرف داساس بأسنانه وقال :

– حسناً ، رضيت !...

وسارا معاً إلى رؤية جوادين كان ديتيول يريد شراءهما ويرغب في أن يقف على رأي الفارس فيهما على حدّ قوله

في قصر المدينة

*

كان المطر يتساقط رذاذاً على باريس ، ورغم ذلك النوع من الضباب الشديد البرودة الذي كان ينتشر في الشوارع فيخترق العظام

www.mlazna.com RAYAHEEN

ويبعث الرجفة في الأعضاء كانت الساحة الفسيحة المنبسطة أمام قصر المدينة تعجّ بجماهير غفيرة من أفراد الشعب .

وكانت هناك فرقة كاملة من الحرس الملكيّ تحافظ على النظام وتمنع الفضوليّين من الاقتراب من بوّابة القصر . ورغم الأمطار التي أطفأت كثيراً من المصابيح في الساحة والشوارع المجاورة فإن الأنوار الباهرة التي كانت تتسرّب من خلال زجاج واجهة القصر الملوّن كانت تبدّد الظلمة التي خلّفها انطفاء المصابيح وتخلع على أرض الساحة ألواناً رائعة تحاكي ألوان قوس قزح .

وحوالي الساعة التاسعة امتلأ القصر بالنبلاء والضبّاط والسيدات وكلهم بالملابس الرسمية الرائعة الثمينة ، وضاقت القاعات الفسيحة بالمدعوّين الذين بلغ عددهم أربعة آلاف ، في حين أن الذين رأوا أن لهم الحقّ في تلك الدعوة لم يكونوا يقلّون عن الستين ألفاً .

وسرت غمغمة طويلة في القاعة الكبرى ، فقد دخلت إليها جمهرتان سلكت إحداهما باباً وسلكت الأخرى باباً مقابلاً ، وفي كل من الجمهرتين برزت امرأة رائعة الحسن فتّاكة اللحظ . وكانت تانك المرأتان هما سبب الغمغمة الطويلة التي سرت بين صفوف المدعوّين .

وكانت الجمهرة الأولى تتألّف من الكونت دي باري والكونت دي سان جرمين ومن نبيل مجهول ومن امرأة هي آية من آيات الله على الأرض .

أما المرأة فقد كانت المومس ... جولييت باكو . وأما ذلك النبيل المجهول فلم يكن سوى السيد جاك رجل الألغاز .

وكان الكونت دي باري يمسك بيد جولييت وهو شديد

الشحوب ويسير بها من جمهرة إلى جمهرة وهو يغمغم ببضع كلمات لم تكن تتجاوز قوله لأصدقائه ومعارفه إن جولييت هي الكونتيس دي باري .

وقد أجادت جولييت تمثيل دورها فأثارت الحسد في صدور النساء وانتزعت الإعجاب والتأوّهات من صدور الرجال . وكان السيد جاك يسير إلى جانبها وهو يتأملها معجباً ، فإنها كانت المرأة التي يعوّل عليها في تحقيق خططه ومشاريعه الرهيبة .

وسار وراء أولئك الثلاثة الكونت دي سان جرمين وابتسامته الساخرة اللامبالية تطفو على شفتيه . وكان الكونت يلفت الأنظار حقاً ، غير أنه كان يتحمّل النظرات المنصبّة عليه بهدوء ورحابة صدر عجيبين .

ولم يكن يتحلّى بالماس كما هي عادته ولم يكن عليه من الحجارة الكريمة سوى زمرّدات ثلاث تمثّل كل منها ثروة هائلة .

وكان يثبت باثنتين منها جوربيه ويضع الثالثة في قبضة سيف الاستعراض الذي يتدلّى إلى جانبه ، فكانت تلك الحجارة الثلاثة ترسل ، وهو سائر ، بريقاً غريباً شيطانياً ، وكان يبدو عند كل حركة يقوم بها كأنما تلفّه موجة خضراء تعكس نوراً جهنمياً .

وكانت الجمهرة الأخرى التي دخلت من الباب المقابل تتألف من السيد دي تورنهام وقد أمسك بيد ابنته جان ومن السيد ديتيول وبعض رجال المال .

وكانت جان ترتدي ثوباً بسيطاً لا يكاد يختلف في شيء عن ذلك الثوب الذي رأيناها ترتديه في فسحة الغاب ، وكان زوجها هنري

ديتيول ينظر إليها معجباً ، ومثله والدها السيد دي تورنهام الذي كان ينحني عليها من حين إلى آخر ويغمغم قائلاً :

— أمسرورة أنتِ يا صغيرتي العزيزة ؟...

فكانت تجيبه بقولها :

— أجل ، أجل ... وكيف لا أكون مسرورة ؟...

وفي تلك اللحظة التقت نظراتها بنظرات جولييت .. الكونتيس دي باري ...

وانحنى السيد جاك على أذن جولييت وهمس قائلاً :

— أرأيت تلك الحسناء اللطيفة الأنيقة العذبة ؟...

— أجل !...

— إذن ، فاعلمي أنها منافستك !... فحاولي أن تهزميها !...

وكانت جولييت قد مرّت أمام جان ، إلا أن النظرة التي ألقتها على ابنة السيد دي تورنهام كانت طافحة بالتهديد والوعيد فشحب وجه جان وقالت تسأل أباها :

— من هي هذه المرأة ؟

— إنني لا أعرفها يا ابنتي ، فلماذا تسألينني عنها ؟

ولم تشأ جان أن تزعج والدها ، فأجابت قائلة :

— إنه مجرّد فضول .

وفي تلك اللحظة رأت رجلاً ينحني أمامها ويغمغم قائلاً :

— إسمحي لي يا سيدتي أن ألقي عند قدميك إحترامي وإعجابي ...

وانتصب الرجل الذي تكلم هكذا فعرفت فيه جان الكونت

دي سان جرمين ... وكانت قد بلغت أطراف القاعة ووقفت أمام مدخل غرفة مخصّصة للملك ليقضي فيها أوقات الراحة. وعندئذٍ تخلّى لها أحد الرجال عن مقعده فجلست وهي تجيب سان جرمين بقولها :

ـ شكراً جزيلاً يا سيدي، فإن لثنائك عليّ قيمة كبيرة عندي خاصّة وقد قيل لي إنه صادق ونادر .

فقال الكونت في لهجة رصينة لا تخلو من الكآبة :

ـ في الواقع يا سيدتي أنني لا أوجّه الثناء إلا للذين يستحقونه..

ورأى السيد دي تورنهام أن ابنته اندمجت في حديث ظهر أنها تستطيبه ، فأخذ يبحث عن بعض أصدقائه بين تلك الجماهير الفقيرة ولم يلبث أن غاب عن العيان .

فاستأنفت جان تقول لسان جرمين :

ـ ومن هم في عرفك أولئك الأشخاص الذين يستحقّون ثناءك؟

ـ إنهم قلّة يا سيدتي ، فإن الذي يتأمّل الناس عن كثب ينتهي به الأمر دائماً إلى أن يكتشف فيهم عيوباً خفيّة ... وربما أخلاقاً سافلة منحطّة . ومن سوء طالعي أنني فضوليّ وأنني أرى جيداً جداً ...

ـ أجل ، أجل ... يقال إنك ذو فراسة عجيبة ...

فقال الكونت وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ أيقال ذلك حقاً ؟ إذن ، فلندعهم يقولون ما يروق لهم . ولنعد الآن إلى السؤال الذي شرّفتني بتوجيهه إليّ ، فأضيف على ما قلته أن أحداً لا يستحقّ استحقاقاً تاماً ثناء الفيلسوف ...

فقالت جان وهي تضحك :

– شكراً !

– ومع ذلك ، فيوجد أشخاص لا يستطيع رجل بلاط مثلي أن يعفي نفسه من أن يوجّه إليهم تحيّة احترام في الظاهر وإن كانت في الواقع تحيّة شفقة حقيقيّة . .

– من هم أولئك الأشخاص ؟...

– الملك أولاً !... من المستحيل أن لا يحيي الإنسان الملك مهما يكن من نقائصه وعيوبه ...

فقالت جان وقد شحب وجهها :

– وبعد ذلك ؟

– الملكة !...

– وبعد ذلك ؟...

– بعد ذلك ... لا أحد !...

– هذا إذن يا سيدي الكونت، فأنت تعتقد أنك لست ملزماً بتأدية واجب الاحترام إلا للملك والملكة ؟

– أجل يا سيدتي ...

– ومع ذلك فإنك قدّمت لي ذلك الاحترام وأنا لست ملكة !...

فقال دي سان جرمين بهدوء جليديّ :

– إن لم تكوني ملكة فقد تصبحينها يوماً !...

فغمغمت جان قائلة :

– أيها السيد ! أيها السيد ! ماذا تريد أن تقول ؟

www.mlazna.com
RAYAHEEN

فقال دي سان جرمين بسرعة وصوت خفيض :

– لا شيء إلا ما يجب أن يكون يا سيدتي ! إن السيدة دي شاتورو قد بلغت ذلك المقام !... وسواها كثيرات !...

وأردف يقول وقد قست لهجته فجأة :

– إحذري لنفسك يا ابنتي ، فإن تلك الملكية ملكية شائنة كئيبة رهيبة لا تليق بك ولا بذكائك ولا بقلبك النبيل ... وقد قلت لك إنني أحيّي الملوك باحترام ظاهريّ وأيضاً بشفقة حقيقية . . إن الملكة المسكينة ماري تستحق تلك الشفقة ... فحذار من أن تستحقيها يوماً أنت أيضاً !...

فاهتزّت جان اهتزازاً عنيفاً واستولى عليها رعب هائل أمام ذلك الرجل الذي كان يقرأ في أعماق قلبها كأنه يقرأ في كتاب مفتوح، وصاحت قائلة :

– أصمت يا سيدي !... أصمت ، أتوسل إليك !...

فقال الكونت بهدوء شديد :

– ليكن ، لنقلع عن الكلام عن ملكيّتك ولنتحدث عن أفراح الحياة الأكثر واقعية وعمقاً وإنسانية... وهي تلك الأفراح التي خُلقتِ لها ... لنتكلم عن الحب يا سيدتي ... عن الحب الحقيقي الذي يستند إلى إخلاص النفس الطاهرة الكريمة والذي يليق بطبيعة مثالية كطبيعتك !... وأقول لك بصراحة : يجب أن تختاري بين السعادة والملكيّة... إن الملكية هي لويس الخامس عشر ...

فقالت ساهمة :

— والسعادة ؟

فقال الكونت :

— أنظري !

وأشار برأسه إلى الفارس داساس الذي كان يتقدم نحوها ، واختفى فجأة بين جموع المدعوّين . فنظرت جان إلى داساس الذي كان يبتسم لها بكل جوارحه وغمغمت تقول في نفسها :

« المنكيّة !... السعادة !... »

وكانت على وشك أن تمدّ يدها لتصافح الفارس ، وفي تلك اللحظة بالذات سرت غمغمة بين الجموع كأنها هدير الرعد ، ثم ارتفعت الصيحات ودوت الهتافات وسُمعت أصوات تقول :

— الملك !... الملك !... ليحيَ الملك !...

وأدركت جان في تلك اللحظة أن حبها للملك هو كل حياتها ، وأن السعادة والإخلاص والولاء والطهارة لا قيمة لها في نظرها .

وإذا بها تبصر الملك . وكان لويس الخامس عشر يشقّ الجموع بين الهتاف والتصفيق ، وكان يبتسم راضياً مغتبطاً . وما أن وقع بصر جان عليه حتى تراجعت إلى الوراء وحاولت أن تستند إلى الجدار ، فإن قواها أوشكت أن تخونها .

إلا أنها لم تجد ذلك الجدار ، وكانت أمام باب الغرفة المخصصة للملك ليستريح فيها فدخلت تلك الغرفة كي تتفادى ازدحام الجماهير وتملك بعض روعها . ورغم بعد الفارس داساس عنها فإن نظراته كانت لا تنفك مسدّدة إليها فتبعها إلى الغرفة ، وفي اللحظة نفسها كان لويس الخامس عشر قد بلغ باب الغرفة هو أيضاً ، وأشار إلى

الجموع بأن تمضي في اللهو والمرح .

وأبصرته جان في إطار الباب فاضطربت اضطراباً شديداً وسقط منديلها من يدها . وكان الفارس داساس قد بلغ الغرفة بدوره فانحنى ليلتقط ذلك المنديل إلا أن أحدهم سبقه إليه ولم يكن ذلك الشخص سوى لويس الخامس عشر ... الملك !...

فشحب وجه داساس وتراجع بسرعة عندما التقط الملك المنديل، وغمغمت جان تقول وقد ضاع منها الصواب :

— مولاي !...

فألقى الملك إلى ما حوله نظرة سريعة ، ثم طبع قبلة على المنديل وأخفاه في صدره وقال :

— سأحتفظ به ولو اضطررت إلى شرائه بقاطعة من مقاطعاتي، أتكونين من قسوة القلب بحيث تستعيدينه مني ؟...

فأطرقت جان برأسها ولم تجد كلمة ترد بها على الملك ، فقال لويس الخامس عشر :

— تكلمي ، أتريدينه ؟... أأعيده إليك ؟... أأحتفظ به ؟.. إن مصيري معلق في الكلمة التي تتلفظ بها شفتاك النديّتان !...

فشحب وجه جان حتى حاكى وجوه الموتى وأجابت قائلة بصوت لا يكاد يسمع :

— إحتفظ به ... يا مولاي !...

فارتفع أنين مكتوم على قيد خطوتين منهما، إلا أنهما لم يسمعاه. وكان الفارس داساس هو الذي يئنّ ، فقد قبع وراء الباب المفتوح ليرى ويسمع وقد رأى وسمع ، فاستولى عليه يأس غريب وتخاذلت

ركبتاه تحته وأراد أن يبرح الغرفة فلم تحمله ساقاه فتعلق بستار الباب وتحامل على نفسه وخرج إلا أن يده جذبت ذلك الستار فانسدل على باب الغرفة وحجب الملك وجان عن العيون .

وأخذ داساس يشق تلك الجموع ليغادر القصر ، وعندئذٍ شعر بيد تقبض على ذراعه وسمع قبقبة غريبة وصوتاً يقول له :

ـ شكراً أيها الفارس ، شكراً جزيلاً ... فإنك خدمتني خدمة جعلت منا صديقين حتى الموت !...

وكان هنري ديتيول هو الذي تكلم هكذا ، فنظر إليه داساس كأنه لا يفهم ... وربما لا يسمع ، وتابع سيره . ولم يكد يخطو عشر خطوات حتى قبضت على ذراعه يد أخرى... يد السيد جاك. وما أن رآه داساس وعرفه حتى صاح به قائلاً :

ـ ماذا تريد مني ؟... من أنت ؟... من أنت وقد أبيت عليّ أن أموت في الباستيل وعلّلتني بالآمال الكاذبة وادّعيت أمامي أنك من رجال الكنيسة رغم أنك ترتدي جميع الأزياء ما عدا زيّ رجال الكنيسة !... دعني ... دعني ... إنك تخيفني !..

فقال السيد جاك :

ـ هدىء من روعك وافلع عن الصياح ، فإن الجميع ينظرون إليك ... أنت مجنون ... أتعتقد أنك خسرت المعركة لكون اليأس يسيطر عليك؟... إنك لم تخسر سوى الجولة الأولى ويمكنك أن تستعيد كل ما خسرته ، يمكنك أن تستأثر بحب جان إذا أصغيت إليّ !...

ـ ماذا تقول ؟...

ـ أقول الحقيقة !... أين أستطيع أن أراك ؟...

ـ في فندق الدلافين الثلاثة ، شارع سانت اونوريه ...

ـ إنتظرني في غرفتك غداً ، سوف أحمل إليك أنباء ترضيك فكن مطمئناً !...

وضاع السيد جاك بين الجماهير على أثر ذلك الكلام. أما داساس فإنه لبث مسمّراً في مكانه هنيهة وقد عاوده الأمل، غير أنه سرعان ما هزّ رأسه سلباً وعاد يغوص في لجّة اليأس .

وسار إلى الباب والحمّى تنهشه ، وإذا به يضطرّ إلى الوقوف مرّة ثالثة وقد سمع هذه المرّة صوتاً رقيقاً يقول له في لهجة أبويّة :

ـ يا بنيّ المسكين ، إلى أين تسير في هذه السرعة ؟...

ولم يكن مخاطبه هذه المرّة سوى الكونت دي سان جرمين ، وقد قاده إلى غرفة منعزلة ، وهناك أعاد عليه سؤاله ، فقال :

ـ إلى أين كنت تسير ؟

ـ إلى غرفتي ، فإنني أشعر بالتعب ، وقد أخطأت في المجيء إلى هذا المكان !...

فقال الكونت باللهجة الرقيقة نفسها :

ـ أجل ، إنك أخطأت خطأ جسيماً ، ليس بمجيئك إلى هنا فحسب بل ببقائك في باريس . ترى ، ألم تسمعني أدعوك إلى مغادرة هذه المدينة وأقول لك إن هواءها يؤذيك ؟... ولكن ما لنا وللماضي فما وقع قد وقع ... وقد سرى في عروقك السم ...

ـ سرى في عروقي السم !... هواء باريس يؤذيني !... ما هذه الألغاز والأحاجي يا سيدي ؟...

- إنها أحاج وألغاز أخاطب بها الذين أحبهم وهم قلة ... والآن ، قل لي إلى أين كنت تسير ؟

ولكنني قلت لك !... إلى غرفتي !...

- داساس !...

- أيها الكونت !...

- إنك تكذب !...

- أيها السيد !...

فقال دي سان جرمين وقد قست نبرات صوته :

- إنك تكذب! أتريد أن أقول لك إلى أين كنت تذهب!.. حسناً ، إنك كنت تسير إلى جسر الشانج ...

فارتعش داساس ارتعاشاً شديداً ونظر إلى الكونت نظرة رعب وقال :

- إنك مخطىء يا سيدي !...

- أنا لا أخطىء يا ولدي ، فإنك لم تشأ أن تنتحر بالسيف بل قلت في نفسك : « سأدخل غرفتي وأطلق على رأسي عياراً نارياً !... »

فصاح داساس قائلاً وهو يرتعش :

- من أنت يا سيدي ؟... من أنت ؟!..

فاستأنف دي سان جرمين كلامه كأنه لم يسمع ، فقال :

- إلا أنك خشيت أن لا يقضي عليك الرصاص ... وربما راعك أن يتشوّه وجهك الجميل فآثرت الموت غرقاً . ولذلك ، فليس عليك إلا أن تسير إلى ذلك الجسر فتتخطّى الحاجز وتقفز

إلى الماء ... وينتهي الأمر !...

فأخذ الفارس يلهث وقد ضاقت أنفاسه ، إلا أنه سرعان ما تمالك نفسه فتفرّس في وجه محدّثه وقال :

- ولنفترض أنني عزمت على الانتحار لأتخلص من عذابي ، فهل تمنعني أنت عن ذلك ؟... فمن أنت ؟... وبأيّ حق تتدخل في أمري ؟... هل أنت صديقي ؟... هل أنت أخي ؟... ما الذي يخوّلك أن تحول بيني وبين الراحة الكبرى ؟...

فقال دي سان جرمين برصانة تامة :

- لا أحد يستطيع منع الأجل المحتوم . وأنا إذ أحاول أن أنقذك من الموت فذلك لأن ساعتك الأخيرة لم تدق بعد . أنت تسألني ما إذا كنت صديقك أو أخاك ، فاعلم إذن أنني لك أكثر من ذلك ... إعلم أنني رجل أشفق عليك لأنك جدير بالشفقة . أما ما يتعلق بالحق الذي يخولني أن أتدخل في شؤونك فمن يدري؟.. ربما كنت أفعل ذلك بالحق الذي منحني إياه خالق السماء والأرض ...

وعندما تفوّه الكونت دي سان جرمين بهذا الكلام تبدّلت ملامحه وكساها الجلال والوقار فبدا رائع الجمال كأنه تمثال حيّ لأحد أولئك العلماء الذين سبروا غور اللانهاية وأعماق النفس البشرية، وأردف قائلاً :

- لماذا تريد أن تموت أيها الفارس ؟... إنك لو كنت رجلاً عادياً لدعوتك إلى التعلق بأهداب الأمل والرجاء ، ولقلت لك إن الملك سوف يملّ ويسلو، فهو بالغ الأنانية لا يحب سوى نفسه، وإن

WWW.MLAZMA.COM

جان سوف تعود إليك يوماً ما . غير أنني ، وأنا أعرفك تماماً ، لن أقول لك أي شيء من ذلك بل أدعوك إلى الحرص على حياتك ، فالحياة لذيذة وليس من داء لا شفاء منه سوى الموت ... أما ما عداه من الأدواء فكلها قابلة للشفاء ، حتى هذا الحب العظيم الذي يملأ قلبك وكل ذرّة من كيانك ...

فهزّ داساس رأسه سلباً وقال بيأس شديد :

- إنك تتكلم هكذا يا سيدي الكونت لأنك لم تعشق في حياتك ... أو أنك ، على الأقلّ ، لم تحب كما أحب !...

فابتسم دي سان جرمين ابتسامة رقيقة وقال :

- وكيف تفهم الحب أنت ؟... إصغ إليّ أيها الفارس ، فإن الحب لدى معظم الناس - بل أكاد أقول جميعهم - ليس سوى أنانية .. فإذا أحب الرجل المرأة فهو يحبها لأنه يشتهيها ويرغب في امتلاكها والاستئثار بها دون أيّ إنسان حتى ولو كانت تباع وتشترى كأنها قطعة من الرخام أو من الأثاث. أما إذا كانت ذات شرف وفضيلة فإنه يبذل جهوده كلها في أن يحملها على الاستسلام إليه من تلقاء نفسها ، فإذا لم تستسلم إليه زال حبها من قلبه ... ومن هنا ترى أن الحب ليس سوى أنانية لا أكثر ولا أقل ...

- أهذا هو رأيك في الحب ؟...

- أجل ، فإنني إذا أحببت امرأة واستسلمت إليّ أقلق السماء والأرض في سبيل ضمان سعادتها ... فإذا نأت عني ... إذا مالت إلى سواي ...

وكان الفارس داساس يصغي إليه بجوارحه كلها فسأله قائلاً

باهتمام بالغ :

- وإذا مالت إلى سواك ، فماذا تفعل ؟...

- عندئذٍ لا أقف حاجزاً بينها وبين أمانيها بل أغتبط إذ أرى سعادتها مضمونة لدى الرجل الذي مال إليه قلبها .

فصاح داساس قائلاً :

- يا له من مبدأ مخيف !...

فقال الكونت وهو يبتسم برفق :

- إنه يبدو لك مخيفاً لأنك لم تذق بعد طعم الإخلاص والتضحية. أما أنا ، أنا الذي بلوت الحب في جميع أنواعه : من الحسد والغيرة اللذين يدفعان إلى القتل لغاية اليأس الذي يبعث على الانتحار ، فإنني أقول لك : هذا هو الحب الصحيح المثاليّ ...

فشعر داساس بأن آلامه بدأت تخمد عند سماعه كلمات الكونت الأخيرة ، فصمّم على أن يضحي بحبه في سبيل سعادة جان وتلاشت فكرة الانتحار من خاطره .

وتأبّط الكونت دي سان جرمين ذراعه وسار به إلى فندق الدلافين الثلاثة ، ولم يفترق عنه إلا بعد أن نال منه وعداً قاطعاً بأنه لن يقدم على الانتحار .

وعندما دخل الفارس الفندق ، قفل راجعاً وهو يقول في نفسه :

« إنني أنقذته من الموت ، ولكن هل أحسنت صنعاً ؟... هل أخطأت ؟... من يدري ؟... ما لي ولهذه الأفكار فلأرجع إلى قصر المدينة لأرى لمن سيكون النصر ! »

*

لبث لويس الخامس عشر وجان وحدهما في الغرفة بعد أن غادرها الفارس داساس وهو على ما وصفناه من اليأس. وذعرت الفتاة واستولى عليها اضطراب شديد عندما وجدت نفسها وحيدة مع الملك، فقالت بصوت مرتعش :

— أيسمح لي مولاي بأن أرفع هذا الستار ؟...

— ولماذا يا فتاتي الحسناء ؟... أتخشين أن يثور حولك الشكوك ؟... إطمئني وكوني على يقين من أن أحداً لن يرتاب بك أو يدهش لخلوتك بي ... وإن كان ثمة من يدهش فعلاً، فاعلمي أنك ستظلين نقيّة الصفحة مرفوعة الجبين رغم كل شيء، فإن المنديل الذي وهبتني إياه والذي وضعته فوق قلبي تماماً ليس أقرب إلى هذا القلب من حرصي على سمعتك وشرفك !...

وكان يتفوّه بهذه الكلمات وهو يمسك بيدها ويسير بها إلى مقعد طويل دعاها للجلوس فيه، فقالت وقد استولى عليها الاضطراب :

— مولاي !... أألجلس في حضرة الملك ؟... أينسى صاحب الجلالة ...

فقاطعها لويس الخامس عشر قائلاً وهو يجلس إلى قربها :

إنني لا أحفل معك بالواجبات والتقاليد، فليس هنا من صاحب جلالة ولا ملك ... إن الذي يجلس إلى قربك الآن نبيل عاشق

يريد أن يقول لك إنك فتنته وأنت إلى قربه كما فتنته وأنت بعيدة عنه !...

فقالت جان ببساطة تامة :

— أصحيح أنك سعيت إلى رؤيتي ؟...

— أجل، فإنني منذ تلك اللحظة التي رأيتك فيها في فسحة الغاب أشعر بأنني أصبحت كالتلميذ العاشق ... إنني أحلم وأتنهّد وأنظم الشعر ... لا ريب في أن ذلك يثير ضحكك !...

فقالت وهي ترتعش ارتعاشاً عنيفاً :

— مولاي ... أنت الملك !... أنت ...

فهزّ لويس الخامس عشر كتفيه وقال بلطف :

— لسنا الآن في صدد ملك أو عرش !...

وافتتنت جان بوجودها إلى قرب الملك، ولم تكن تعتقد أن حلمها سيتحقّق بتلك السرعة ... أصحيح أن ذلك الذي يجلس إلى قربها ويمسك بيدها هو ملك فرنسا ؟ ... أصحيح أن ذلك الذي يتحدّث إليها بلطف ويعترف لها بحبه هو لويس الخامس عشر ؟...

وانشقّت شفتاها الرائعتان عن ابتسامة فاتنة ... ابتسامة غبطة وسرور. ولم تكن تفكّر مطلقاً في أن تخفي سعادتها ولا الفرح الطاغي الذي كان يطفح به قلبها.

وكانت فتّانة ساحرة في مظهرها ... كانت صادقة في حبّها.

غير أن لويس الخامس عشر لم يكن ذلك العاشق الصادق الطاهر القلب، فقد نظر إلى جان على أنها دمية جميلة يتلهّى بها ثمانية أيام ثم يسلوها. ولم يخطر له مطلقاً أن تلك الحسناء الرقيقة الفتّانة ستكون

ذات سلطان عليه .

ولكن الحب الصادق المتفجّر من القلب ذو قوة جذابة تسحر وتسيطر ، وقد تأثّر لويس الخامس عشر رغم برودته ، بما رآه من السيدة ديتيول .

ولم تشعر جان بالتأثير الذي أحدثته في نفس الملك ، كانت أشبه بعصفور جميل محبوس عليه في قفص أُطلق فجأة إلى عالم الحرية والنور .

وانحنى لويس الخامس عشر عليها وهو يقول :

— منذ تلك اللحظة التي رأيت فيها عذوبتك وجمالك ، ومنذ سمعت صوتك الموسيقيّ الرنّان وأنا أفكر فيك وأسعى إلى رؤيتك . ورأيتك ... وكنت قد صممت على أن أحدثك بأشياء وأشياء عندما أجتمع بك ... وها أنا الآن أحس بعجزي ...

فأطرقت برأسها وتلألأت في عينيها الرائعتين دمعتان.. دمعتان من دموع الفرح والسعادة .

وكاد الملك يركع أمامها ، وخاطبها بما يعتقد أنه يلمس الوتر الحسّاس من نفس فتاة مثلها ، فقال :

— إنك تحتلين الآن قلب الملك ... وعندما يروقك ستحتلين البلاط وتسودين ...

إلا أن تلك الكلمات أحدثت أثراً آخر سوى الذي كان يتوقعه ، فقد حاولت جان أن تسحب يديها وهي تغمغم قائلة :

— مولاي ، إنني لا أرغب في الذهاب إلى البلاط ، فإنني إذا ذهبت إليه ...

فقاطعها الملك قائلاً بحرارة :

— وماذا لو ذهبت إليه ؟... إن وجودك فيه انتصار لك .. ستكونين قبلة أنظار الجميع ومثار إعجابهم ، ستكونين ملكة ذلك البلاط المحبوبة المطاعة ... وليس في نيّتي أن أهينك يا سيدتي بل أن أخضع لجميع رغباتك التي. ستكون بمثابة أوامر بالنسبة إليّ ... أواه يا سيدتي ، أرجوك أن تطلعيني على مكنونات قلبك فأنا أتحدث إليك بما يكنّه لك قلبي ... وهل يجب أن أقول لك ما في هذا القلب ؟... ألم تحزريه إلى الآن ؟... هل يجب أن أتلفظ بتلك الكلمة التي تجعل مني خادمك المطيع؟... إذن، فأنا أحبك، أحبك ...

فأطبقت جان عينيها وأخذ صدرها يعلو ويهبط ، فطوّق لويس الخامس عشر خصرها بذراعيه وأعاد قوله :

— أنا أحبك ... وأنت ؟ ... تكلمي ! ... أتوسّل إليك ... قولي ، هل يجب أن أحيا أم أن أموت ؟... فشحب وجه جان شحوباً شديداً وألقت برأسها على كتف الملك وسالت الدموع من بين أجفانها المطبقة وغمغمت تقول :

— أواه يا مليكي ! إن لم يكن سوى حبي إياك هو الذي ينقذك من الموت ، فاعلم إذن أنك ستحيا ... والله وحده يعرف كم أحبك !... منذ متى ؟ لا أعلم ... وأعتقد أنني أحبك منذ الأزل ... وليتك تعلم كم بكيت عندما علمت أنك مريض ... عندما كانت باريس كلها تبكي لأجلك !... ليتك تعلم كم صلّيت لأجلك وأنا راكعة على بلاط الكنائس !... إنني لن أستطيع

www.mlazna.com ^RAYAHEEN^

أن أقول لك كل شيء ، فأنا أحس تماماً أنني لن أستطيع أن أعبّر عن كل ما يفيض به قلبي ... إلا أنني ، منذ وقت طويل جداً، منذ أن أخذ قلبي يخفق بالحب ، كنت أشعر أنك وحدك سيد هذا القلب ... وعندما كنت أذهب إلى فسحة الغاب حيث التقيتني مرة ، لم يكن قصدي من ذلك سوى أن أسمع أبواق موكبك يتردّد صداه في البعيد وأن أراك تمر أمام عينيّ ولو لحظة واحدة!.. وعندئذٍ ، لطالما تمنّيت أن أكون تلك الغزالة التي تطاردها ... ومن يدري ؟ فربما كنت أحلم أحلاماً أقرب إلى الجنون !... كنت أفكّر أحياناً في أنك لست ملك فرنسا ، وأنه قد يأتي يوم تلتقيني فيه وتأخذني بين ذراعيك... وعندئذٍ نشيّد في تلك الفسحة من الغاب محراب حبنا ونقضي الحياة ، بعيدين عن العالم ، يعبد كل منا الآخر !...

فتأثّر لويس الخامس عشر هذه المرة حتى أعمق أعماق نفسه وصاح قائلاً :

— أيتها النفس العزيزة ! سوف أحقّق حلمك وسأشيّد لك في الإرميتاج قصراً يليق بجمالك !...

— أوه ، كلا !... لا أريد قصراً !... مولاي ، مولاي، عفوك عني ... فأنا أحبك لنفسك ... أحبك أنت شخصياً ... أما ما تبقى ، أما القصور والأعياد والمجد والعظمة والنفوذ والقوة، فإن كل ذلك يبعث الخوف في نفسي!.. إن كل ذلك لا يُحسب شيئاً أمام الحب !...

— الحب !... لقد قُيّض لي أخيراً أن أعرف الحب

الحقيقي !...

وشحب لونه واستولى عليه الاضطراب ، وكان لا يزال يطوقها بذراعيه، فجذبها إلى صدره وأصبح كل منهما لصق الآخر. وكانت جان قد فتحت عينيها ... كانت قد بدأت تنظر إليه مباشرة ... فارتعشا ارتعاشة عنيفة ... واقتربت الشفاه ببطء يبحث بعضها عن بعض ... ولم تلبث أن تلامست واتحدت في قبلة عنيفة محمومة...

وكانت الموسيقى تعزف في تلك اللحظة لحناً رقيقاً عذباً ، وقد شحب وجه جان حتى حاكى وجوه الموتى عندما قبّلها ملك فرنسا ...

وغمغم لويس الخامس عشر يقول وهو يرتعش بشدّة :

— إنني أعبدك !

فقالت في لهجة متلعثمة :

— أنا أحبك ... أحبك ... من كل نفسي ... أحبك بكل ذرّة من كياني ...

وفي تلك اللحظة أُزيحت ستارة الباب وبدا من تحتها رأس كريه راح ينظر بعينيه الزجاجيتين إلى ذلك المشهد ، ولم يكن سوى رأس هنري لو نورمان دي تيول زوج جان !...

فابتسم المسخ ابتسامة صفراء واستدار وأشار إلى أحدهم كي يقترب ، ويرى ... فاقترب ذلك الشخص بدوره وشاهد الملك وجان متعانقين فأطلق تنهدة شديدة كاد ينفجر معها صدره وأنشب أظافره في ذلك الصدر حقداً وغضباً وغاض الدم من وجهه حتى ليُخيّل إلى كل من يراه أنه سيسقط مصعوقاً ، فأمسكه دي تيول

بيده وابتعد به . وعندما أصبحا خارجاً قال ديتيول :

— حسناً يا سيد داميان ، ألم أقل لك ؟... ألم أكن مصيباً عندما اعتقدت أن للسيدة ديتيول عشيقاً ؟...

فأطلق داميان أنيناً مكتوماً ، فأردف ديتيول قائلاً :

— لقد اصطفيتك لأسرّ إليك بأحزاني ... وقد أقسمت لي أن تسهر ...

فقاطعه داميان قائلاً :

— سأسهر !... سأسهر !...

— وتنتقم لي إذا لزم الأمر ، أليس كذلك ؟...

فضمّ داميان قبضتيه وصرف بأسنانه وأجاب قائلاً :

— أجل ، أجل !... سأنتقم لك !...

كاغليوسترو

*

عاد الكونت دي سان جرمين إلى قصر المدينة ، وما أن سمع ضجة المدعوّين ورأى ما هم فيه من المسارات والمناقشات ، حتى أيقن من أن حدثاً خطيراً قد وقع .

إنه حدث من أحداث البلاط ، ثورة في حياة الملك !... وهو أمر كان أكثر أهمية ، في ذلك العصر ، من إعلان الحرب ! وكان الوزراء يروحون ويجيئون ويجتمعون ويتناقشون ، وكان قادة

الجيوش وأعضاء البرلمان ورئيس الشرطة يتبادلون الآراء بكلمات سريعة وأصوات خافتة ، وأحياناً بنظرات ونمزات ذات معنى ، وكانت النساء مزمومات الشفاه حسداً وسخطاً وقد رحن يتناقشن في ما بينهن بحدة غريبة .

ومع كل ذلك القلق ، مع كل تلك اللهفة العامة ، لبثت الحفلة في سيرها الطبيعي فكانت الابتسامات تطفو على الشفاه وكان المدعوّون يتبادلون الأحاديث الشيّقة الطريفة وكان الراقصون يدورون في الحلبة بغبطة واطمئنان ويتنقلون ببطء هنا وهناك ضاحكين عابثين . ولو لم يكن الكونت دي سان جرمين ذا فراسة عجيبة لعجز عن أن يكتشف سرّ تلك الثورة التي تشيع الاضطراب والقلق في صفوف أولئك المجتمعين . ومع ذلك ، فقد كان يخيّم على القاعة الكبرى صمت رهيب وكانت الأنظار جميعها متّجهة إلى تلك الستارة المخملية التي تغطّي باب الغرفة الصغيرة المنعزلة . فقال دي سان جرمين في نفسه :

« إنه الفصل الأوّل ، وها هو الملك يقدّم تاجه إلى تلك الصغيرة السيدة ديتيول !.. إذن ، فإنها رفضت السعادة واختارت الملكية !.. يا للطفلة المسكينة ، فإنها تسير حتماً إلى فشل ذريع مؤلم !»

وفي تلك اللحظة ، أُزيحت ستارة الغرفة الصغيرة .

وكان الملك هو الذي أزاحها ولبث ممسكاً بها لتمرّ جان ، ثم قدّم ذراعه للسيدة ديتيول وسار بها بين الجموع المحتشدة الضاجّة .

وكان هو يبتسم في رقّة ، وهي شاحبة اللون مرتعشة مرتبكة . أتراها أبصرت كل أولئك النساء يسدّدن إليها نظرات الحسد ؟ هل

شاهدت كل أولئك الرجال يستجدون منها إحدى ابتساماتها ؟

كلا ، إنها لم تبصر شيئاً من ذلك فقد كانت غارقة في نوع من اللاوعي تكاد تجهل معه مكان وجودها وما وقع لها !... وكان ما وقع لها أمراً عجيباً حقاً، فإنها أصبحت في لحظة واحدة أكثر ملكية من الملكة المسكينة ماري ...

وبعد أن اجتاز بها القاعة بكاملها ، قادها إلى مقعد دعاها إلى الجلوس فيه ثم أدار أنظاره في ما حوله فرأى امرأة قصيرة القامة نحيفة البنية جميلة التقاطيع ترتدي ثياباً فاخرة وتنطق عيناها بالذكاء ورقّة العاطفة. وكانت تلك المرأة هي زوجة الماريشال دي ميربوا، فقال لها الملك :

— أراني مضطراً يا سيدتي الماريشالة إلى أن أساهم في هذه الحفلة التي أقامها رجال الحكومة تكريماً لي . وإنني أكل السيدة ديتيول إلى رعايتك ...

فقالت الماريشالة بسرعة وصوت خفيض :

— إنني أقبل هذا الدور الذي تعيّنه لي جلالتك ، إلا أن لي شرطاً ...

فقال لويس الخامس عشر ضاحكاً :

— ما هو ؟...

— هو أن أتولّى بنفسي تقديم صديقتك الجديدة إلى البلاط !

فقال الملك :

— لقد منحتك ذلك !

— ولكن بأيّ إسم يجب أن أقدّمها ؟... باسم السيدة

ديتيول ؟... كلا ، فإنه اسم لا يليق بها !...

فقال الملك :

— سأبحث لها عن اسم يليق بها .

— إذن ، فابحث جيداً يا مولاي ... وحاول أن تجد كونتية أو مركيزية تليق بهذه الفتاة المعبودة ... إذ أنني أعتقد أن الإسم الذي ستحمله سيظل خالداً على الدهر !...

فابتسم الملك للمرأتين ، بل ابتسم للجميع راضياً مغتبطاً . واقترب الماريشالة دي ميرابوا من جان وجلست إلى قربها، وسرعان ما انعقدت حولهما حلقة متراصّة من الرجال والنساء .

وسار الملك بين الجماهير يخفره بعض رجاله ، وبينما كان يجتاز باب القاعة الكبرى إلى قاعة مجاورة إذا بامرأة ترتدي ثوباً رائعاً فاخراً تطلق صيحة خفيفة وهي تمدّ ذراعيها إلى الأمام كأنما زلّت بها القدم وأوشكت أن تسقط إلى الأرض ، فمد لويس الخامس عشر لها ذراعه يمنعها من السقوط وهو يقول بظرف وأدب :

— إستندي إلى ذراعي يا سيدتي ولا تخافي ...

فقالت المرأة بارتباك ساحر :

— مولاي ، مولاي ، إنك مثال اللطف ... لقد تأثّرت جداً عندما رأيتك تدخل إلى هنا فجأة ...

— أصحيح ؟... إذن ، فأنا لن أغتفر لنفسي ما سبّبته لك من إزعاج ، وإذا راق لك أن ترشديني إلى المكان الذي يجب أن أقودك إليه ...

— كلا يا مولاي ... إنه عارض ومضى ... وأنا لا أريد لك

www.mlazna.com

هذا العقاب ...

فقاطعها لويس الخامس عشر قائلاً :

— ماذا ؟!... ولكن العقاب هو أن تحرميني لذّة مرافقتك خلال تلك اللحظات القصيرة !...

فاحمر وجه المرأة احمراراً شديداً ، إلا أنها لم تقل شيئاً كأن التأثر منعها عن الكلام ، وقد رافقها الملك إلى مقعد قريب وانحنى أمامها وتابع سيره . وعندما ابتعد سأل قائلاً بصوت مرتفع :

— من هي تلك السيدة الجميلة ؟

فأجابه صوت إلى قربه قائلاً :

— إنها الكونتيس دي باري .

— الكونتيس دي باري ؟... لم أكن أعلم أن الكونت متزوّج !... وفي جميع الأحوال ، يجب أن أهنّئه فإن امرأته جميلة حقاً !... إنها جيو كوندا حقيقية !...

فذاعت تلك الكلمات فوراً بين أفراد الحاشية ، وعُقدت حلقة من الرجال والنساء حول الكونتيس دي باري كما عُقدت منذ لحظة حلقة حول جان . وأخذ بعضهم يسير من جان إلى جولييت ومن جولييت إلى جان ، فإن الملك أعجب بالاثنتين في آن واحد ، وبدأ الجميع يتساءلون عن التي سوف تستأثر بالملك دون الأخرى. وكان معظمهم في جانب الكونتيس دي باري وخاصة عندما رأوا الكونت دي سان جرمين يقترب منها ويستأذن بالجلوس إلى قربها.

وكانت جولييت في السماء السابعة ، فقد أبصرت الملك وجهاً لوجه وخاطبها ، وأعجب بها كل الذين ضمتهم الحفلة وحسدتها

الكثيرات من النساء ذوات المكانة والنبل العريق .

وقال دي سان جرمين عندما جلس إلى قربها :

— سيدتي ، أتسمحين للكونت دي سان جرمين بأن يكون أوّل من يهنّئك ؟...

— بماذا يا سيدي الكونت ؟

فقال بسرعة وبصوت خفيض :

— لا تقولي « يا سيدي الكونت » بل « أيها الكونت » فقط ... فإن الملك وحده هو الذي يتكلم كما تكلمت .. الملك .. والملكة .. وأبناء الطبقة الدنيا !

فاحمرّ وجه جولييت ثم اصفرّ . فمن هو هذا الرجل العجيب الذي اكتشف أمرها عند أول كلمة تلفظت بها ؟ وغمغمت تقول :

— إنني أجهل المصطلحات بعض الشيء ... فقد عشت بعيدة عن البلاط مدة طويلة !...

— إنها مصطلحات جديدة في جميع الأحوال ... فقد كان النبلاء في عهد لويس الخامس عشر يتلفظون بكلمة « سيدي » في كل مناسبة . وبعد كل حساب ، فليس لك إلا أن تشائي فتعود تلك المصطلحات التي بطلت منذ زمن طويل ...

فقالت جولييت بجرأة أُعجب بها سان جرمين :

— أيها الكونت ، إنك تضحك من صفاء سريرتي ... إلا أنك أردت أن تهنئني على حد قولك ، وأنا أسألك بماذا ؟...

فقال الكونت فجأة بصوت خافت صارم النبرات :

— بسعيك إلى النجاة من مطامعك وتجنّب الأخطار المميتة التي تكتنف تلك المكانة التي تتوقين إلى بلوغها ... فإنك لن تصبحي محظيّة الملك ... وصدّقيني إذا قلت لك إنك ستكونين الرابحة !...

فارتعدت فرائصها كأنما أصابتها طعنة مباشرة في قلبها ، وقد بلغها الاضطراب حداً لم تعد تفكر معه في دور السيدة النبيلة الذي تلعبه والذي يقضي بأن تغضب أو تتظاهر بالغضب حيال ما تسمع ، وأردف الكونت يقول :

— إنك لست الكونتيس دي باري ولن تكونيها أبداً !... سوف توجد يوماً ما كونتيس تحمل هذا الإسم ، ولكنها امرأة سواك !...

فصاحت قائلة وهي تلهث :

— من هي تلك المرأة ؟

وعندئذٍ ارتفع صوت يقول :

— يا للشيطان ! ها هو الكونت دي سان جرمين يحاول أن يلقي الرعب في قلب هذه الكونتيس المسكينة !... لا تصدّقي يا سيدتي كلمة واحدة مما يقوله لك ، فإنه يقصّ عليك قصصاً من العالم الآخر !

فقال الكونت :

— بل هي قصص من هذا العالم ! وهي صحيحة .

فقال رجل آخر :

— إن الكونت ساحر وعرّاف وقد عاش في جميع الأزمنة

وعرف نوستراداميس . وهو يبدل اسمه مع الزمن ، وقد دعا نفسه يوماً كاغليوسترو ، أليس كذلك أيها الكونت ؟

فقال دي سان جرمين ببرودة :

— ولكنني لا أزال أُدعى كاغليوسترو .

فقال الرجل الأوّل :

— أرأيت يا سيدتي ؟... إذن ، فاطلبي منه أن يكشف لك مستقبلك فيفعل .

فقال الرجل الآخر :

— وهو يعرف الماضي !

فقال الرجل الأول :

— والحاضر أيضاً !...

وكان دي سان جرمين يسمع تلك الأقوال وهو يبتسم ، قال أخيراً :

— أيها السادة ، ما دمتم ترون فيّ الرجل الذي يرجم بالغيب فسأتكهّن لكم الآن بالحاضر !

فتكاثفت الحلقة حوله ، وكان الجميع ينظرون إليه برعب خفيّ ، فاستأنف كلامه قائلاً :

— أتريدون أن تعلموا ماذا يفعل الملك في هذه اللحظة ؟

فقال أحدهم :

— إنه يرقص !

وقال آخر :

— إنه يأكل !

فقال دي سان جرمين :

– لا هذا ولا ذاك أيها السادة ، فإنه يتحدّث الآن إلى الوزير دارجانسون ، ولكن أتعلمون ماذا يقول له ؟... إنه يسأله عن نبيل يستطيع أن يقوم بأعباء المنصبين الجديدين اللذين أوجدهما في البلاط ... وهو ينظر إلى ما حوله... ويا لسعادة ذلك النبيل الذي سيقع بصره عليه !...

ولم يكد الكونت يتفوّه بتلك الكلمات حتى اندفع رجال الحاشية بأجمعهم إلى القاعة التي كان الملك فيها ، وقد دهشوا دهشة بالغة عندما أبصروه يتحدّث فعلاً إلى وزيره !...

ولم يتمالك الكونت دي سان جرمين من أن يقهقه ضاحكاً ، إلا أن قهقهته أرعبت جولييت فقالت بصوت مرتجف :

– أصحيح يا سيدي ؟...

– ماذا؟... أصحيح أنك تعرف الماضي والحاضر والمستقبل؟

أجل يا سيدتي ، هذا صحيح بعض الشيء ... ولا ريب في أنك سمعت بكاغليوسترو العرّاف الشهير ، وكاغليوسترو هو أنا ما دام السادة النبلاء الذين كانوا هنا منذ لحظة قد أكدوا لك ذلك ...

وكان دي سان جرمين يتكلم ببساطة وجدية ، ومع ذلك فقد كان من المستحيل على أيّ كان أن يؤكد أنه يؤمن حقاً بما يقوله :

فقالت جولييت :

– أنت تزعم أن الكونتيس دي باري سوف تظهر يوماً ما ، وأنها لن تكون أنا !... ألا ترى إذن أنني الكونتيس دي باري؟

وكانت جولييت تتكلم بخوف ورهبة ، كانت تقول في نفسها

إن هذا الرجل يعرفها وإنه لقيها ذات يوم دون شك ، وليس له الآن إلا أن يتلفّظ بكلمة واحدة ليقضي عليها ويجللها بالعار .

فقال دي سان جرمين وكأنه يقرأ ما يجول في خاطرها :

– اطمئني يا سيدتي ، فإنني لست بمن يخونك ، وأنا لا أعرف الناس إلا بالاسم الذي يحملونه أو يستعيرونه !

فلم تتمالك جولييت من أن تطلق صيحة خافتة ، وغمغمت قائلة :

– أرى يا سيدي أنك مطّلع على كل شيء ، فقل لي إذن من هي تلك التي ستكون الكونتيس دي باري ؟... أتوسّل إليك ...

فأجاب دي سان جرمين قائلاً بوقار :

– إنها الآنسة لانج يا سيدتي .

فاكفهرّ وجه جولييت وغمغمت تقول :

– ولكنه اسمي !

– إن امرأة سواك تستطيع أن تحمله هي أيضاً ... وقد يصبح هذا الاسم لقب أسرة أو شيئاً من هذا القبيل ...

والتفت إلى أحد القرطين الماسيّين اللذين يلتمعان في أذنيها ، وقال :

– أتسمحين لي بهذا ؟

فقالت وهي ترتعش :

– بطيبة خاطر !

وناولته القرط ، فأخذ يتأمله ويعرّضه إلى الضوء من مختلف

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الجهات ، ولم يلبث أن قال أخيراً :

– إنني أرى أشياء محزنة غريبة يا سيدتي ، أشياء لن أقولها لك إلا إذا أصررت ...

– أتوسّل إليك أن تقولها ...

– ليكن إذن !... إنني أرى غرفة صغيرة حقيرة يتوسّطها سرير صغير أنيق ترقد فيه طفلة جميلة . يا للمسكينة الصغيرة البريئة !...

فهتفت جوليت قائلة :

– آنيت ، إنها آنيت العزيزة ! شقيقتي الصغيرة !

فاستأنف دي سان جرمين قائلاً :

– سوف تترعرع شقيقتك وتبلغ السادسة عشرة من العمر وتتزوّج الكونت دي باري وتصبح خليلة ملك فرنسا !

فاغتبطت جوليت لتلك السعادة التي ستشمل شقيقتها، ولاحظ الكونت ذلك فهزّ كتفيه وقال :

– إلا أن الدهر كثير التقلب يا سيدتي ، والعرش نفسه ليس بمأمن من تقلباته ... وقد قلت لك إنني أرى أشياء محزنة ... فضعي هذا القرط مكانه ، ولنقلع عن الكلام !...

فأعادت جوليت القرط إلى أذنها وقالت :

– إنك تكلمت كثيراً يا سيدي إلا أنك لم تقل ما فيه الكفاية، فإذا كنت لا تريد أن تتابع حديثك فسوف يدعوني تصرّفك هذا إلى الاعتقاد بأنك تضحك مني ...

– إذن ، فاعلمي كل شيء !... إنني أرى صباحاً بارداً من

شهر كانون الأول ... أرى ساحة فسيحة تعجّ بالجماهير ، وأرى مقصلة في وسط تلك الساحة ...

– سيدي ، سيدي !...

– ستسمعين الآن إلى النهاية !... وأرى مركبة تدنو من المقصلة وهي تقلّ امرأة لم تكد الجماهير تبصرها حتى انهالت عليها بالسباب والشتائم !... ثم قيدت إلى المقصلة ... وسقط رأسها!..

فاكفهرّ وجه جيوليت وقالت وهي تلهث :

– من هي تلك المرأة ؟...

– إنها الكونتيس دي باري ... الآنسة لانج ... الطفلة التي تنام الآن في السرير !...

فغمغمت جوليت تقول وهي ترتعش كالورقة في مهب الريح :

– جنون ! جنون !

فانحنى الكونت دي سان جرمين عليها وقال :

– إن كل شيء محتمل الوقوع ، وفي وسعك إذا أردت أن تنقذي صغيرتك آنيت من الموت ... ولكن يجب أن تبادري إليها فوراً ، فإذا تأخرت دقيقة واحدة فات الأوان . ولا بأس من أن تبيعي كل ما لديك من الجواهر ، فإنك ستجمعين بذلك لا أقلّ من مائة وخمسين ألف ليرة ، وسوف أساعدك إذا لزم الأمر ... واذهبي بهذه الثروة وعيشي في مقاطعتك... هناك... في فوكولور حياة اعتدال وشرف ، واعتني بتربية شقيقتك وكوني واثقة من أنك ستتمتّعين وإياها بالسعادة ...

وما أن تفوّه دي سان جرمين بتلك الكلمات حتى هبّ واقفا وحيّا بكل احترام وانصرف . فأخذت جوليت تنظر إليه يبتعد عنها وهي مضطربة قلقة. وفي تلك اللحظة رأت الكونت دي باري فدعته إليها وقالت له :

- لنذهب يا سيدي ، فأنا لا أريد البقاء هنا دقيقة واحدة . لنذهب ، وأرجوك أن ترافقني إلى منزلي ... فإن لديّ ما أقوله لك .

فقال دي باري ساخراً :

- لعلك تريدين أن تقولي إلى منزلنا !...

- كلا ، كلا ، بل إلى منزلي ، إلى منزلي الحقير ، فإنني لن أعود إلى قصرك أبداً ...

- ماذا أصابك أيتها الصديقة العزيزة ؟

فأشارت إلى الكونت دي سان جرمين ، الذي كان يتكلم في تلك اللحظة وهو يضحك وسط جمهرة من النساء الجميلات ، وقالت :

- هذا الرجل !...

- ولكنه الكونت دي سان جرمين العزيز .

- أجل ، وقد أفضى إليّ بأشياء رهيبة !...

فضحك دي باري وقال :

- لقد سخر منك ، وهي عادة متأصّلة فيه !... إنه يلهو بإلقاء الرعب في قلوب الناس ...

- كلا ، كلا ، إنه يعرفني ... يعرف اسمي الحقيقي ويعرف

البلدة التي أبصرت فيها النور ...

فصرف دي باري بأسنانه وقال :

- إذن ، فهو يعرف أشياء كثيرة !... ويل له !... أما أنت فاحذري لنفسك، وإياك والعمل بنصائح هذا الرجل المزعج.. عليك أن تسيري في الطريق إلى النهاية ... فتذرّعي بالشجاعة واستقيمي في جلوسك ... إن الملك ينظر إليك !

منزل شارع بوسي

*

كان السابع من كانون الأول في ذلك العام لاذعاً في برده وزمهريره، فكان نهر السين مكسواً بتلال هائلة من الجليد تسير على سطحه كأنها بواخر جبّارة وكانت الجداول الصغيرة التي تجري في كثير من الشوارع متجمّدة تماماً . وعند المساء ارتفعت الحرارة قليلاً وبدأ الثلج يتساقط بغزارة .

وكان ذلك بعد حفلة قصر المدينة الشهيرة ببضعة أيام .

فماذا كانت جان تفعل في ذلك اليوم ، وبماذا كانت تفكر ؟..

وماذا كان الملك يريد منها ؟...

كل ذلك سيعرفه القراء إذا راق لهم أن يتبعوا معنا رجلاً كان يجتاز شوارع باريس في ذلك المساء وقد تدثّر بمعطف كبير رفع ياقته إلى أذنيه اتّقاء للبرد، وسار مسرعاً في طريقه وهو يحاذر جهده

أن تزلّ به القدم على الجليد .

وكان يغمغم بكلمات متقطعة ، وكلما بلغ حانة يقف أمامها ونفسه تحدثه بدخولها ، غير أنه لا يلبث أن يتنهد ويتابع طريقه وهو يلعن وينفخ بشدة .

وبلغ شارع بوسي ، فدخل منزلاً قديماً ذا طوابق ثلاثة وأخذ يصعد الدرج الطويل متثاقلاً . وعندما بلغ الطابق الثالث رأى نفسه أمام درج حلزونيّ ضيق شديد الانتصاب لزج الدرجات . ومع ذلك فقد تسلقه كله لغاية سطح المنزل ، وهناك جذب بضعة أنفاس طويلة وأزاح معطفه قليلاً فظهر وجهه ، وإذا هو نوح بواسون السكير الشهير .

وكان ذلك المسكن الحقير الذي وقف أمام بابه ودخله ، هو منزل صديقه الشاعر كرابيون . وكان مما يلفت النظر في ذلك المنزل وجود عشرات الكلاب والقطط التي تملأه نباحاً ومواءً ، فإن الشاعر الرقيق القلب لم يكن يرى كلباً أو هراً شارداً إلا ويأتي به إلى منزله ، وكان يرى في ذلك الخليط العجيب من الكلاب والهررة « أولاده وأصدقاءه وجلساءه » . وقد أطلق على كل حيوان اسم بطل من أبطال رواياته : فهذا يدعى فيلوس وتلك « الآنسة » بلانشيت وذلك نيرون وهذه زنوبيا ... إلى آخر السلسلة .

وكان المنزل يتألف من غرفة صغيرة للخدمة ، وغرفة فسيحة ينام فيها الشاعر مع « أولاده » ، وقد اكتظّت إحدى زواياها بما يقارب خمسمائة كتاب ، تؤلف بمجملها مكتبة الشاعر ، كلها لمشاهير رجال الفكر والأدب في ذلك العصر وقبله .

وكان قرب النافذة الوحيدة ، التي يتسرب ضوء النهار من خلالها إلى الغرفة ، طاولة كبيرة يستعمل الشاعر جزءاً منها كمكتب والجزء الآخر كمائدة . وكان المكتب مكتظاً بالأوراق والكتب والغلايين وأكياس التبغ ـ وكلها فارغة ـ أما المائدة فقد كان عليها قطعة من الخبز وبقيّة من قطعة لحم موضوعة على ورقة وزجاجات كثيرة العدد إلا أنها كانت كلها فارغة مع الأسف !

وكانت هناك مدفأة أيضاً إلا أنها خالية من النار ، وكان عليها، هي أيضاً ، مجموعة من الغلايين الفارغة ، وكمية هائلة من ريش الأوز إذ أن الشاعر دأب على مبدأ الاحتفاظ بجميع الريشات التي استعملها في الكتابة .

وكان هناك أيضاً خمسة مقاعد : إثنان منها لا بأس بها ، أما الثلاثة الباقية فإنها لم تكن تستطيع أن « تقف وحدها » ما لم « تستند بظهورها » إلى الجدار .

ذلك كان المنزل الذي يعيش فيه الشاعر كرابيون وهو يدخّن وينظم الشعر دون انقطاع ...

وعندما دخل نوح بواسون منزل صديقه ، كان الشاعر ملتفاً « بمعطف منزليّ » لم يكن في الحقيقة سوى معطف قديم رثّ من مخلّفات الجيش لا يتجاوز ثمنه بضعة فرنكات .

وعندما أبصر « أولاد » الشاعر صديق « أبيهم » ارتفع النباح والمواء وسادت الفوضى ، إلا أن كرابيون قبض على مطرقة صغيرة ورفعها مهدّداً فاختبأت الهررة تحت السرير والمقاعد وكفت الكلاب عن النباح .

WWW.MAZIKA.COM

والتفت الشاعر إلى صديقه وصاح قائلاً :

- إن السماء هي التي أوفدتك إليّ !

فقال نوح بشيء من الكآبة لم تخفّ على كرابيون :

- لماذا ؟

فأشار الشاعر إلى زجاجات الخمر وقال :

- فارغة !...

ثم تناول غليونه من جيبه وأخذ يمتصّه وأردف يقول :

- ليس لديّ تبغ !...

ثم نظر إلى المدفأة الخامدة وقال وهو يلتفّ بمعطفه :

- إنني أشعر ببرد شديد !...

فجلس نوح بواسون إزاءه وقال :

- يا للقدر الغاشم يا صديقي !...

فقال كرابيون بقلق شديد :

- ألا تحمل مالاً ؟

- بلى ، بلى ، لا يزال لديّ ولله الحمد ست قطع ذهبية ...

فصاح كرابيون قائلاً :

- هاتها ! هاتها !...

فقال نوح وهو يتنهد :

- أواه يا صديقي، إنني لم أشعر طيلة حياتي بمثل التأثر الذي أشعر به اليوم ... فاصغ إليّ ...

فقال كرابيون :

- إنني جائع وظمآن ومقرور، وبي شوق عظيم إلى التدخين..

وما دمت لا أملك ما يسدّ رمقي ويطفىء ظمأي ويدفئني ويوفر لي متعة التدخين ، فإنني لن أصغي إليك ... فتكلم إذا شئت !..

فأخذ نوح بواسون يبحث في جيوبه ، ولم يلبث أن أخرج كل ما فيها فأعطاه لصديقه الشاعر وقال :

- إذهب وجئنا بما يلزم ، فأنا أيضاً في ظمأ شديد .

فاندفع كرابيون إلى الخارج . وبعد ربع ساعة عاد ومعه رجل يحمل حملاً كبيراً من الحطب وسلّة مملوءة بالزجاجات فوضع الكل في الغرفة وانصرف . وكان كرابيون يحمل هو أيضاً حملاً كبيراً من اللحوم والخبز والطيور المحمّرة وتبغاً له وسعوطاً لصديقه . وما أن وضع ما يحمله حتى صاح قائلاً بمرح :

- أشعل النار يا بواسون ، أشعل النار !

والتمعت النار في المدفأة وشاعت الحرارة في جوّ الغرفة . وكان النباح والمواء يتصاعدان من كل جانب وقد شمّ « الأولاد » رائحة اللحم والطيور فعمد كرابيون إلى تهدئة تلك « الثورة الجهنمية » فأخرج من كيس كبير كان قد جاء به معه كمية كبيرة من اللحم ووزّعها بالتساوي بين « أولاده » كدورة أولى ، ثم كرّر ذلك بضع مرات إلى أن انقطع النباح والمواء واستلقى « الأولاد » على الحضيض بفعل التخمة .

وعندئذٍ استدار الشاعر نحو صديقه وقال له :

- والآن ، هيّا بنا إلى قاعة الطعام !

وجلس الصديقان إلى طرف الطاولة وأخذ يجرعان الخمر ويأكلان بشهية الذئاب . وكان نوح يتململ في مقعده ، فأدرك كرابيون

ما يجول في خاطره فقال له :

— إنسَ الآن قصتك المحزنة ودعنا نأكل بسلام ، فلا شيء يقتل الشهية كالحزن .

فقال بواسون :

— هذا صحيح ، فإنني عندما أكون حزيناً أفقد شهيتي ، إلا أنني أشرب أكثر ...

فملأ كرابيون القدحين ، غير أنهما وُجدا فارغين بعد لحظة ...

وأخيراً ، وبعد أن التهم الصديقان كل ما كان على الطاولة ، أخذ كرابيون زجاجة من الخمر وضعها على المدفأة واقترب الرجلان بمقعديهما من النار فأشعل كرابيون غليونه وحشا بواسون أنفه بالسعوط ، ثم ملآ القدحين مجدداً ...

وغمغم كرابيون قائلاً وهو يرسل من فمه سحابة كثيفة من الدخان :

— لله ! ما أجمل الحياة !...

ثم خاطب صديقه قائلاً :

— أنا مصغٍ إليك !

فقال بواسون :

— إذن ، فتصور أيها الصديق المحترم أنني تلقيت زيارة ... زيارة رهيبة ... لا يمكنك رغم ذكائك أن تكوّن فكرة عنها .

— ربّاه ! ألعلها زيارة بعزبول صاحب القرنين الطويلين ؟..

— كلا ، كلا ، إنها زيارة أفظع بكثير !... فقد جاءني رجل ادّعى أنه موفد إليّ من قبل رئيس الشرطة !...

— وماذا في ذلك ؟ ألعلك ارتكبت جريمة ؟ إن مرأى رجال الشرطة لا يهمني أنا .

— أجل ، أجل ، إلا أن ذلك الرجل الذي ادّعى أنه يتكلم باسم سيده ... لم يكن سوى بيريه نفسه رئيس الشرطة !...

— إنه لشرف كبير بعد كل حساب !... وماذا قال لك ؟

— هذا إذن !... ألا يعني لك شيئاً أن يزعج ذلك الرجل ، الذي لا يتنازل للكلام إلا مع الملك ، نفسه ويأتي ليراني أنا ويتكلم معي ؟...

— ولكن مهما يكن من أمر رئيس الشرطة ، فإن مجرّد اقترابه منك لا يمكن أن يبعث فيك الاضطراب وأنت الرجل الشجاع ... إلا إذا كان قد قال لك ...

فقاطعه بواسون قائلاً :

— لقد قال لي أشياء فظيعة يا صديقي !... واعلم أنني قد أُعلّق على المشنقة خلال وقت قريب !...

وأخذ يبكي ، فأمسك كرابيون بيده وصاح قائلاً :

— إذا وقعت هذه المصيبة فأقسم لك أنني لن أدع يوماً واحداً يمضي دون أن أشرب زجاجة على شرفك وعلى ذكرى أخلص صديق رأيته في حياتي !... سأكتب مأساة ...

فقاطعه بواسون قائلاً وهو يمسح عينيه :

— شكراً يا كرابيون، ولكن أليس من الأفضل أن أستطيع الاستمرار في رفقتك ؟

— إنه رأيي أيضاً ، إذن فأوضح لي لماذا تخشى أن تُشنق ،

وسنرى ما يمكن أن نفعل .

فقال بواسون :

— يظهر أن خطراً جسيماً يهدّد ابنتي .

— السيدة ديتيول ؟...

— أجل جان ، وقد تنازل حضرة رئيس الشرطة وأوضح لي نوع ذلك الخطر ، فإذا قُتلت جان ...

فصاح كرابيون قائلاً :

— قُتلت ؟!... ولكن ذلك السيد بيربيه مجنون على ما أظن !

— سواء كان مجنوناً أو عاقلاً ، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون هناك أناس يتآمرون على حياة جان . وإذا قُتلت فسوف أُعتبر مسؤولاً وشريكاً ... وسأُشنق .

— ولكن ، ما هي تلك المؤامرة ؟

— لقد سألت عن ذلك ، إلا أن السيد بيربيه رفض أن يقول لي .

فصاح كرابيون قائلاً وقد تأثر حقاً هذه المرة :

— يا للشيطان ! يجب أن نحذّر ابنتك فوراً ...

— هذا هو رأيي أيضاً ، إلا أن السيد بيربيه هدّدني بأن يلقيني في السجن فيما إذا قلت كلمة واحدة لجان في هذا الموضوع !...

— إذن ، فاخبر زوجها أو السيد دي تورنهام !...

— هذا ما قلته أيضاً إلا أن رئيس الشرطة اللعين هدّدني بأن يدفنني حياً فيما إذا أطلعت ذينك السيدين على الموضوع !... إذن ،

فلم يبقَ أمامي سوى أن أختار بين السجن والدفن حياً والمشنقة !..

— إن السيد بيربيه يحيرني حقاً !... فماذا يريد منك أن تفعل إذن ؟..

فقال نوح وهو ينتحب :

— إنه أوضح لي ذلك !

— إذن ، فدع البكاء لحظة أيها الصديق العزيز وقصّ عليّ أقوال السيد بيربيه ، فإنه يُخيّل لي أنها مفتاح السر ...

فمسح نوح عينيه وجرع كأسه دفعة واحدة وقال :

— لقد قال لي السيد بيربيه إنني أستطيع أن أساعد حضرة رئيس الشرطة على إنقاذ جان ومنع وقوع جريمة هائلة ... وقال إنه يجب عليّ أن أفعل ذلك ما دامت السيدة ديتيول هي ابنتي وواجبي كأب يقضي بأن أحميها وأدافع عنها . وعندما أجبته بأنني على تمام الاستعداد لذلك حذّرني من أن أقول أيّة كلمة للسيدة ديتيول أو لسواها في هذا الموضوع زاعماً أن ذلك يؤدّي إلى التعجيل في تنفيذ الجريمة . ثم أوضح لي خطته وهي أن أساعده على خطف السيدة ديتيول فيحتفظ هو بها بضعة أيام في مكان أمين إلى أن يُلقى القبض على المتآمرين ، وعندئذ يعيدها إلى قصر ديتيول . وقد قال لي إنه لا يستطيع أن يخطفها هو بنفسه واعتمد عليّ في تلك القضية وأخبرني بأنه سيضع مركبة في الناحية التي سأعيّنها له ، فأقود أنا السيدة ديتيول إلى تلك الناحية وأصعدها إلى المركبة ... والباقي يعنيه هو وحده !... فما قولك في كل ذلك ؟

فأجاب الشاعر قائلاً دون تردّد :

www.mlazna.com
KRAYAHEENA

— إذا كان ذلك الرجل الذي تحدّث إليك هو رئيس الشرطة نفسه ، فيجب أن تطيع دون أي تأجيل إذ أن جان تكون مهددة فعلاً في هذه الحالة . ولكن ...

— ولكن ماذا ؟... تكلم !...

— ولكنني أعتقد أنك لم تر جيداً وربما كنت مخموراً ! أعتقد أن الشخص الذي تحدث إليك لم يكن السيد بيربيه ! وفي هذه الحالة يجب عليك أنت أن تبلغ الشرطة !... هذا هو رأيي .

فهزّ نوح رأسه سلباً وقال :

— أؤكد لك أنني لم أكن مخموراً وأنا واثق من أن ذلك الرجل لم يكن سوى السيد بيربيه ، فقد سبق لي أن رأيته أكثر من مائة مرّة ولا يمكن أن أخطىء في معرفته ... وأقول لك أيضاً إنه اقتفى أثري عندما رآني آتياً إليك !...

فهبّ كرابيون واقفاً على الفور ، فصاح نوح قائلاً :

— إلى إين ؟... أتريد أن تتخلى عني ؟...

— كلا ، فأنا ذاهب لأرى . فإذا كان أحدهم قد تبعك فمن الراهن أنه لا يزال ينتظرك تحت ...

واندفع إلى الخارج وأخذ يهبط الدرج، فرأى في الطابق الأول رجلاً يتحدّث إلى بوابة المنزل ، فوقف مسمّراً في مكانه إذ أن ذلك الرجل لم يكن سوى بيربيه رئيس الشرطة بنفسه !...

وعاد كرابيون إلى منزله وهو يفكر ، وقال لبواسون :

— إنك على حق ، فالأمر خطير والسيد بيربيه موجود تحت .

فقال نوح بصوت مؤثر :

— ربّاه ! سوف أُشنق أو أُدفن حياً أو أُسجن !...

— تشجّع ، وفي جميع الأحوال يجب أن نعمل بسرعة .

— ماذا يجب أن نعمل ؟... قل لي ، فإنني مشتت الذهن !...

— أصغ إليّ ، فلديّ فكرة ...

— أجل ، أجل ، إنك رجل شديد الذكاء ... تكلم ...

— أتعلم من يقيم في هذا المنزل ؟... إنها السيدة ليبون .

— العرّافة ؟

— أجل ، وهي تشغل الطابق الأول كله تقريباً !... والآن ، هذه هي الفكرة !... عليك أن تغري جان بأن تأتي إلى هنا لكشف طالعها . وسوف تروقها الفكرة نظراً لروحها الشاعرية ، وسأتي ...

— وعندئذٍ ؟...

— عندئذٍ ، ستكون المركبة واقفة أمام المنزل . وعندما تخرج جان تصعدها إليها أنت بنفسك ... وهكذا تكون قد أنقذت ابنتك وأنقذت نفسك من السجن والدفن حياً والشنق !..

— كرابيون ، أيها الصديق العزيز !... إن فكرتك أعادت إليّ الحياة وقد كان حسن حظي أنني جئت إليك !... يجب أن أعانقك ...

وتعانق الصديقان فعلاً ... ثم أكملا شرب زجاجة الخمر . وعندئذٍ قال كرابيون :

— ولكن ، ليس هذا كل شيء ، فيجب أن نعمل بسرعة

ونطلع السيد بيريه على الحظة . هيّا تعال ...

— إلى أين تقودني يا كرابيون ؟... إنني أخشى ذلك الرجل ولا أريد رؤيته ...

— يا للشيطان ! أتريد أن تُتشنق إذن ؟

— وماذا لو ذهبت وحدك أيها الصديق ؟

— يا لك من أحمق ! وكيف أطلع السيد بيريه على الأمر ما دمتَ قد أقسمت له على أنك لن تخبر به أحداً ؟

وعندئذٍ ارتفع صوت يقول في لهجة ساخرة :

— وأرى أن السيد بواسون لم يحنث بيمينه !

وفي الوقت نفسه دخل رجل إلى الغرفة ، فلبث كرابيون مدهوشاً وتسمّر بواسون في مقعده وهو يغمغم قائلاً :

— إنه هو . السيد ...

فقاطعه الزائر وهو يقول بسرعة :

— السيد بيكار كما قلت لك .. مندوب حضرة رئيس الشرطة !

فقال كرابيون :

— أرجو أن تشرفني يا حضرة السيد بيكار بدخول منزلي الحقير، وأن تشاركنا ، إذا راق لك ، في شرب كأس على شرف سيدك العظيم بيريه !...

فانحنى بيريه — وكان هو بنفسه — وقال :

— بكل سرور يا سيدي ، على شرط أن نشرب على الأثر في صحة الشاعر كرابيون الذي لا يقل عظمة عن سيدي ...

فانحنى كرابيون بدوره وبدأ يملأ الأقداح . وقد أفرغ روع

بواسون عندما سمع تلك المجاملات بين صديقه والسيد بيريه فعادت إليه شجاعته تدريجياً ولم يلبث أن أمسك بكأسه وقرعها بكأس قائد الشرطة . وعندئذٍ قال بيريه للشاعر :

— ماذا كنت تقول يا عزيزي كرابيون ؟...

— كنت أقول يا عزيزي السيد بيكار إننا — السيد بواسون الحاضر هنا وأنا — اثنان في واحد ، أي أن تفكيرنا وشعورنا وأذواقنا هي نفسها... إذن ، فتستطيع أن تدرك من هذا يا سيدي أن صديقي لا يفعل شيئاً دون أن يلجأ إلى مساعدتي .

فقال بيريه :

— وذلك ما جعله يقص عليك نبأ المؤامرة التي تستهدف حياة السيدة ديتيول ، وحسناً فعل !

فقال نوح بواسون بذهول شديد :

— حقاً ؟ هل فعلت حسناً ؟

فقال بيريه :

— أجل ، ما دام قد توصل بذكائه إلى إنقاذنا نحن الاثنين من موقف حرج . ويُخيّل لي أنه كان يتكلم عن مركبة تأتي وتنتظر أمام هذا المنزل ، أليس كذلك ؟

فأدرك كرابيون أن بيريه سمع كل شيء من وراء الباب ، فأجاب قائلاً بصراحة :

— إننا نتعهد يا سيد بيكار بأن نأتي بالسيدة ديتيول إلى هنا .

— وحدها ؟

أجل ، وحدها . وأرجو أن تحدّد لنا اليوم والساعة .

فقال بيريه في لهجة مقتضبة :

- غداً في الساعة العاشرة مساءً ... ستكون المركبة أمام باب هذا المنزل في الساعة العاشرة إلا خمس دقائق . إذن ، فيجب أن تكون السيدة ديتيول في المنزل قبل ذلك الوقت .

فقال كرابيون :

- سوف تكون هنا في الساعة التاسعة . والآن ، وما دمنا قد تبادلنا الثقة يا سيد بيكار ، ألا تستطيع أن تطلعني على نوع الخطر الذي يهدد تلك الفتاة الرائعة ؟

فقال بيريه :

- من المستحيل أن أفعل ذلك هذا المساء . وغداً يمكنكما أن تسألا السيد بيريه نفسه فيطلعكما على ما تريدان معرفته ويشكركما أيضاً على الخدمة القيّمة التي أدّيتماها له. أما أنا فإن كل ما أستطيع أن أؤكده لكما هو أن ذلك الخطر جسيم بالغ، وإلا لما كنا كبدنا أنفسنا عناء الاهتمام بهذه القضية ..

كلا ، لم يكن الشك ممكناً ما دام قائد الشرطة بنفسه هو الذي يتكلم هكذا . وكان مستحيلاً أن يرقى الشك إلى السيد بيريه !..

وما دام قد قال إن جان في خطر فمعنى ذلك أنها حقاً في خطر وأنه يجب إنقاذها مهما كلف الأمر !... ولأجل ذلك ليس على الصديقين إلا أن يطيعا قائد الشرطة طاعة عمياء !...

خطة بيريه

*

كان بيريه يومئذٍ في الأربعين من العمر ، وهو رجل نحيل

الجسم ليّن العريكة قوي الشخصية. وقد تقلب في مناصب عديدة فعمل في البدء في وزارة العدل ، ثم في مجلس الشورى ، ثم في ديوان الملك إلى أن ترقّى أخيراً إلى منصب قائد الشرطة .

وكان من أولئك الرجال العصاميّين الذين يفاخرون بأنفسهم وأعمالهم ويسعون دائماً وأبداً إلى الارتقاء ، أي أنه كان طموحاً إلى أبعد الحدود .

وقد وضع نصب عينيه أن يكون شيئاً مذكوراً في الدولة ، فإن منصب قائد الشرطة لم يكن بالنسبة إليه سوى الدرجة التي سيتاح له بواسطتها أن يرتقي إلى مقام أعلى .

وكان ماضي العزيمة شديد العناد لا يضطلع بمهمة إلا ويسير فيها إلى النهاية. وكان مشهوراً عنه أنه يعرف كيف يصيب من خصومه المكان الحسّاس .

وقد ساعده وجوده إلى قرب الملك ، بحكم وظيفته ، على معرفة الملك أكثر من أي إنسان آخر ، فكان هو الذي سعى في إقصاء السيدة دي شاتورو عن البلاط ، وعندما أصبح الملك دون خليلة عاهد بيريه نفسه على أن لا يرضى عن أيّة خليلة مقبلة إن لم تعترف بفضله عليها .

ومن الراهن أن لويس الخامس عشر لم يكن يطيق أن يبقى دون خليلة ، فما أن نأت السيدة دي شاتورو عن البلاط حتى أخذ الجميع يتساءلون عن تلك التي ستحل محلها .

وفي الليلة التي أحيت فيها الحكومة تلك الحفلة الشائقة في قصر المدينة تكريماً للملك ، وقعت عينا بيريه على السيدة ديتيول فقال

www.mlazna.com
AHEENA

في نفسه :

« هذه هي المرأة التي ستستأثر بفؤاد الملك !... »

ولمس في الأيام التالية الأثر الذي تركته تلك المرأة الفاتنة في نفس لويس الخامس عشر فأدرك أن الملك قد أُصيب بسهام الحب هذه المرة .

ولم يكن لويس الخامس عشر يتحدث مطلقاً عن السيدة ديتيول فتبادر إلى أذهان البعض أنه نسيها ، إلا أن الملك أصبح كثير التفكير شديد الذهول قليل الكلام راغباً في العزلة ، فقال رجال الحاشية :

ـ إن الملك يتضجّر !

وقال بيريه في سره :

« إن الملك عاشق مفتون !... »

وكان مصيباً في قوله ، وما أن تأكد من ذلك حتى عمد إلى تنظيم خطة جهنمية لخطف السيدة ديتيول ، وقد استغلّ سذاجة نوح بواسون وصديقه الشاعر كرابيون وحملهما على مساعدته في تحقيق تلك الخطة .

إلا أنه لم يكن قد جلا إلى الآن نقطة مهمة في تلك الخطة وهي المكان الذي سيذهب بجان إليه . ومع ذلك فقد كان واثقاً من النجاح وخاصة من المستقبل . فإن الملك سوف يقدّر له هذه الخدمة كما أن السيدة ديتيول ، التي ستدين له بنصرها ، سوف تعطف عليه وتساعده في تحقيق أحلامه .

وكان قد درس جميع سكان قصر ديتيول ، وكوّن لنفسه

فكرة راهنة عن الجميع ما عدا هنري ديتيول الذي لم يستطع أن يسبر غوره فانتهى به الأمر إلى أن يرى فيه زوجاً تافهاً لا يهتم بسوى أرقامه ... وقد كان مخطئاً في ذلك أيضاً . وكان هناك أيضاً رجل آخر لم يتنازل بيريه إلى الاهتمام بشأنه احتقاراً له ... وقد كان مخطئاً في ذلك إذ أن الرجل لم يكن سوى فرانسوا داميان .

ومهما يكن ، فعندما غادر قائد الشرطة الصديقين بواسون وكرابيون بعد المشهد الذي سردناه ، كان واثقاً تماماً من أنه قد أمّن ثروته ومستقبله .

ووجد خارج المنزل معاونه وأمين سرّه المدعوّ فرنسوا دي برني . وكان فرنسو هذا على شيء من الإلمام بمختلف المهن ، فهو شاعر وكاهن ومفكر وكل ما يُراد منه أن يكون ، وقد ابتدر رئيسه قائلاً دون كلفة :

ـ ماذا ؟ هل وقعت السمكة في الشرك ؟

فقال قائد الشرطة :

ـ أجل ، ووقع معها رجل من أهل الأدب ...

ـ يا للشيطان ! إحذر أهل الأدب يا سيدي !

ـ في هذه الحالة ، يجب أن أحذرك أنت يا برني !

ـ شكراً ، شكراً ، إنه ثناء منك يساوي ثقله ذهباً ... ومهما يكن ، فأنت تعلم جيداً أنني لا أخون .

ـ إنك أهل للخيانة ، ولكنك لن تخونني أنا ...

ـ ولماذا تظن بي ذلك ؟ أرجو أن أعلم .

ـ لأنك تحب الصعود ... فأنت شاب وقد قررت أن تجتاز

الدرج إلى ذلك الهدف الذي يسمونه العطف الملكي أربعاً أربعاً .
وقد أدركت أن خير وسيلة لذلك هي أن تتعلق بأذيال رجل يصعد... فاحذر أن تفلت تلك الأذيال وإلا فإنك ستسقط وتحطم ضلوعك ...

فالتمعت عينا دي برني لمعاناً غريباً خفي على بيربيه ، وقال :

- إنك على حق يا سيدي ، وحبّذا لو أضفت إلى قولك أنني فكرت طويلاً قبل أن أختار سيداً لي ... أي أنني انتقيت أمتن الأذيال لأتعلق بها في صعودي ذلك الدرج الشهير ...

وأخذا يضحكان هنيهة ، ثم قال بيربيه :

- لنعد الآن إلى رجل الأدب الذي وقع في الشرك ، فإنه زميل لك في قرض الشعر ويدعى كرابيون ...

- وهل وعدك بالمساعدة ؟

- أجل ، وهذه هي الخطة : غداً مساء في الساعة التاسعة والنصف ، عليك أن تقود مركبة متينة إلى شارع بوسي فتوقفها أمام باب منزل السيدة ليبون وتترك بابها مفتوحاً ...

- حسناً ، الساعة التاسعة والنصف أمام باب ليبون . من الذي سيقود المركبة ؟

- أنت نفسك !

فارتعش برني ارتعاشاً ظاهراً وقال :

- ومن الذي سيكون في المركبة ؟

- أنا ، ثم السيدة ديتيول التي ستبرح ذلك المنزل في الساعة العاشرة تماماً وتصعد إلى المركبة . وما أن أُغلق أنا الباب حتى تبادر

إلى السير بأقصى السرعة دون أن تلقي بالاً إلى صياح السيدة ... هذا إذا صاحت !

- وأين أقف ؟...

- في فرساي !... وعليّ الباقي !

وافترق الرجلان ، وبعد بضع دقائق كان بيربيه يدخل قصر اللوفر ويستأذن في الدخول إلى قاعة الملك . وكان الملك في تلك الساعة نائماً فاضطر قائد الشرطة مرغماً إلى أن يرجىء القضية إلى صباح اليوم التالي .

وأقبل بيربيه في الصباح الباكر يسأل عن الملك فعلم أنه ذهب إلى مارلي فلحق به إلى مارلي وهو يصخب ويلعن ، إلا أن سوء حظه قضى بأن لا يجده هناك أيضاً .

وأخيراً عند الساعة الثامنة مساء وقد كاد ييأس من نجاح خطته ، استطاع أن يدرك الملك في اللوفر فقال له بصوت خافت ودون أية مقدمات :

- مولاي ، إنني ألتمس من جلالتك أن تشرفني بمقابلة خاصة .

فتثاءب الملك بيدي الضجر والتعب ، فأردف بيربيه قائلاً :

- إن القضية تتعلق بالسيدة ديتيول !

وقد خاطر بيربيه ، في ذلك القول ، فاحمر وجه لويس الخامس عشر ثم اصفرّ وصمت نحواً من دقيقة راح بيربيه يتساءل خلالها قائلاً في نفسه :

« أتراه سيأمر بطرحي في الباستيل ؟... »

إلا أن الملك قال أخيراً بصوت مرتجف :

- تعال يا سيدي !

فزأر بيربيه قائلاً في سره :

« لقد قبضت منه على ناصيته !... »

ولحق به إلى قاعته وهو بادي الغبطة والارتياح .

***

ولنعد الآن لحظة إلى فرنسوا دي برني فنتبعه منذ افترق عن رئيسه في مساء الليلة الفائتة .

توجه دي برني فوراً نحو شارع ماريه فاجتازه إلى شارع فوان وهناك قرع باب منزل السيد جاك بطريقة خاصة ففتح له ، وعندما مثل في حضرة السيد جاك ابتدره هذا بقوله :

- ما وراءك يا ولدي ؟

فقال برني :

- إن قائد الشرطة يستعد لاختطاف السيدة ديتيول وسيقودها بنفسه إلى فرساي .

وأخبره باختصار بكل ما جرى، فأصغى السيد جاك إليه بانتباه بالغ ونفس مطمئنة إلا أن ارتعاش أجفانه كان يدل بجلاء على ما يعتمل في نفسه من القلق ...

وساد صمت ثقيل استمرّ نحواً من عشر دقائق كان السيد جاك خلاله يتمشى في الغرفة ذهاباً وجيئة وقد عقد يديه خلف ظهره وأطرق برأسه ... قال أخيراً :

- يجب أن لا تصل تلك المركبة إلى فرساي !

- هذا هو رأيي أيضاً يا مولاي ... ويجب أن نستعين برجال

أشدّاء ...

- أنقول إنك ستقود المركبة ؟

- أجل يا مولاي .

- ومن سيكون فيها ؟

- بيربيه والسيدة ديتيول !

- إذن فلن يكون هناك سوى رجل واحد ... ولذلك فلسنا بحاجة إلى رجال أشدّاء ، كما تقول ، بل إلى رجل واحد فقط .

أجل ، قد يكفي رجل واحد ، ولكن يجب أن يكون شجاعاً مقداماً .

- سيكون كذلك !...

- إسمح لي يا مولاي أن ألقي عليك سؤالاً ، فإن ذلك الرجل الشجاع المقدام سيعترض طريقنا ، وذلك حسن بالنسبة إليّ : فإنني أطلق ساقيّ للريح أو أتظاهر بالإغماء ، حسب الظرف ... ولكن لنفترض أن رجلنا انتصر على بيربيه ... فما الذي سيفعله به ...

فقاطعه السيد جاك وقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة :

- بالسيدة ديتيول ؟ كن مطمئناً يا ولدي فإن السيدة ستكون في أمان تام ... أتعلم أن فكرة السيد بيربيه تخدم مشاريعي خدمة رائعة ؟...

- وكيف ذلك ؟...

الأمر بسيط يا ولدي ، فغداً مساءً في الساعة المعيّنة ستذهب بالمركبة إلى المكان المحدّد ، ثم تنطلق في طريق فرساي ... فإذا اعترضك أحد في ذلك الطريق ... أوقف العربة فوراً ... ودعه

WWW.mlazna.com

يفعل ما يشاء !...

وصرف السيد جاك برني بإشارة لطيفة ، فانحنى هذا طويلاً وغادر المنزل. وعندئذٍ ضرب السيد جاك على الطاولة بطرقة صغيرة فظهر خادم في إطار الباب ، فقال له سيده :

— غداً مساءً ، يا عزيزي البارون ، سيبرح الفارس داساس فندق الدلافين الثلاثة على صهوة جواده ليكمن في طريق فرساي لمركبة ستمر من هناك حوالي الساعة العاشرة والنصف ، فعليك أن تساعده في إيقاف تلك المركبة مهما كلف الأمر ... أريد أن يكون النصر حليفه ...

— حسناً يا مولاي .

— وكيف تنوي أن تقدم له تلك المساعدة ؟

— سأحدث الكونت دي باري بشأنه غداً ، فيتبعه الكونت ببعض رجاله دون أن يشعر بهم . فإذا رأوه بحاجة إلى المساعدة خفّوا إلى نجدته .

— أحسنت !

***

وفي صباح اليوم التالي غادر السيد جاك منزله وتوجّه رأساً نحو فندق الدلافين الثلاثة حيث اجتمع بالفارس داساس .

فماذا قال له ؟... وأيّة مشاعر أثارها في نفسه ؟... من يدري ؟

إلا أن الحديث كان طويلاً ، طويلاً جداً . فقد بدأ منذ الصباح الباكر ولم ينته إلا عند الظهر تماماً .

وعندما برح السيد جاك الفندق أخيراً ، كان من المستحيل على الناظر إليه أن يقرأ في ملامحه أي شيء مما يعتمل في نفسه ...

وكل ما بدا من أثر تلك الزيارة الغامضة هو أن الفارس داساس كان أحمر العينين كأنما بكى كثيراً ، وأنه عمد إلى غدّارتيه ينظفهما ويحشوهما كأنه مقبل على معركة !...

العرّافة

*

لم يلقَ نوح براسون وصديقه كرابيون أيّة مشقّة في إقناع جان بزيارة السيدة ليبون العرّافة ، فقد كانت السيدة ديتيول ، منذ تلك الحفلة الراقصة في قصر المدينة ، تترقب وقوع انقلاب خطير في حياتها . فأي انقلاب هو ؟ ذلك ما كانت تجهله كل الجهل .

وكانت سعيدة مطمئنة في تلك الأيام ، فقد ذهب السيد ديتيول زوجها في سفر طويل وأخذ معه أمين سره فرنسوا داميان فلبثت وحدها في القصر مع السيدة دي هوسيه ووالدها السيد دي تورنهام . وكانت ، إذا سألها أبوها عن حالها ، تجيب قائلة :

— أجل ، أجل ، إنني سعيدة حقاً ، سعيدة إلى أبعد الحدود ...

ولم يكن السيد دي تورنهام يدري أسباب تلك السعادة ، إلا أنه لم يهتم بمعرفة تلك الأسباب ، فقد كان حسبه من دنياه أن يرى

ابنته سعيدة وهو الذي يعيش لأجلها .

وعرض عليها يوماً ، وكان ذلك بعد حفلة قصر المدينة بأسبوع ، أن يأخذها في نزهة إلى ضواحي باريس فاشترطت عليه أن ترافقها السيدة دي هوسيه في تلك النزهة ليتم سرورها على حد قولها . إلا أن السيد دي تورنهام هزّ رأسه سلباً وقال :

— كلا ، سنكون وحدنا فقط ، فإنني أريدك مرة واحدة لي وحدي ... ولا بأس إن اتهمتني بالأنانية ...

فكان جوابها أن عانقته بحنان .

وذهبا في طريق فرساي ، وعندما بلغا فسحة الغاب في الإرميتاج لمست ذراعه برفق وغمغمت قائلة :

— هيّا بنا نزور أمّي .

فقال السيد دي تورنهام في لهجة رصينة :

— إنها غايتي الوحيدة في هذه النزهة يا ابنتي .

وتقدّم وإياها يقفان أمام البلاطة الباردة ، فركعت جان على الأوراق الميتة وتاهت في عباب التفكير ... وعندما نهضت أخيراً كانت الدموع تلتمع في عينيها فتأملها والدها بحنان لا يوصف ، ثم أمسك بيدها وقال :

لقد أقسمت يا ابنتي للراقدة في هذا الضريح على أن أجعلك سعيدة ... وقد كرست حياتي وجهودي كلها لأجل ذلك ... والآن ، جاء دورك أنت ، فاقسمي لي أمام ضريح والدتك ... قولي لي إذا كنت قد نجحت ... في إسعادك ...

— أجل ، يا أبي ، إنني سعيدة ...

— أقسمي على ذلك ...

— أقسم لك ...

وكانت تتمثّل ، وهي تقول ذلك ، نبيلاً جميلاً ينحني أمامها ويقول لها : « أحبك !... »

فقد تحقق حلمها أخيراً وأصبحت حبيبة لويس الخامس عشر !..

غير أنها أرادت أن تعلم ما سوف يكون من أمر هذا الحب ، ولذلك فما أن عادت مع أبيها إلى باريس ، ودعاها نوح بواسون وصديقه كرابيون إلى استشارة العرّافة السيدة ليبون في أمر مستقبلها حتى أجابتها فوراً بالقبول وذهبت معهما إلى منزل قارئة الطالع في شارع بوسي فبلغته في الساعة التاسعة تماماً .

وكانت السيدة ليبون ترتدي ثوباً حريرياً أسود اللون ، وما أن رأت جان حتى ابتدرتها بقولها :

— أتريدين أن تجلسي إلى هذه الطاولة يا سيدتي ؟

فجلست جان ، وجلست قارئة الطالع إزاءها وقالت تسألها :

— ماذا تريدين أن تعلمي يا سيدتي ؟

فقالت جان وهي تبتسم :

— كل شيء !...

— الماضي والحاضر والمستقبل ؟... إذن ، فسأحدّثك عنها كلها !...

وطرحت الورق على الطاولة وهي تقول :

— أتريدين أن نبدأ بالماضي ؟...

فقالت جان بلطف :

– أجل ، لنبدأ بالماضي !...

واستبدّ بها الفضول لتسمع من فم العرّافة أحداث ماضيها ، وكانت شفتاها الرائعتان تنفرجان عن ابتسامة فاتنة ، إلا أن تلك الابتسامة سرعان ما جمدت على شفتيها وعلا وجهها شحوب شديد . فإن قارئة الطالع بادرتها فجأة بقولها :

– الملك يا سيدتي ، الملك ، إنني أرى ملكاً في حياتك !...

فغمغمت جان تقول وهي ترتعش :

– الملك ؟...

– أجل ، وهذه هي الورقة التي ترمز إليه .

فدهشت جان وعراها الاضطراب وقالت سائلة :

– ألا تعرفين أيّ ملك هو ؟...

– كلا يا سيدتي !...

– إذن ، فتابعي كلامك ، لعلنا نعرفه أثناء الحديث !...

فقالت العرّافة :

– إنني أشك في ذلك !...

ومضت في قراءة الماضي فقالت :

– إنني أرى دموعاً في عينيك الجميلتين يا سيدتي ، فماذا يجري ؟... آه !... إن الملك مريض ... وأنت تبكين ... وها هو قد أبلّ من مرضه ... ومع ذلك فأنتِ لا تزالين في بكائك !...

وقلبت الورق وأردفت تقول :

– إنك تبكين خوفاً من أن لا يحبك الملك !...

فندّت عن جان صيحة دهشة ، واستأنفت العرّافة كلامها قائلة :

– إنني أرى زواجاً ... وأرى من يرغمك على الزواج ... ورغم أن الراغب في الاقتران بك رجل نبيل يوحي بالثقة ... إلا أنك تكرهينه ...

فشحب وجه جان شحوباً شديداً ، وغمغمت تقول :

– حدثيني عن الحاضر !...

– إن الحاضر أكثر بهجة من الماضي ... إنك تحبين ... وأنت محبوبة ... أتراني على خطأ يا سيدتي؟... فإن أكن كذلك فاخبريني كي أبادر إلى إبدال وضع الورق !...

فقالت جان بسرعة :

– كلا ، كلا ، إنك لم تخطئي ... ولكن لا فرق عندي سواء أخطأت أم أصبت !...

– إذن ، فسأحدّثك عن المستقبل !...

– أجل ، أجل ، حدثيني عن المستقبل !...

وفي تلك اللحظة دقت الساعة التاسعة والنصف ، فسمعت جان عجيج مركبة في الشارع . وقد سمعت العرّافة أيضاً ذلك العجيج فابتسمت وشبكت الورق ورمته على الطاولة ثم قالت :

– إذا كان الماضي مليئاً بالدموع والحاضر مليئاً بالبهجة والأمل، فإن المستقبل سيكون طافحاً بالأبهة والعظمة والإشراق . . إن الملك يحبك يا سيدتي ، أعني الملك ذلك الذي يرمز إليه الورق ، وهو ينتظرك !...

www.mlazna.com
RAYAHEENA

— أينتظرني الملك ؟...

— هذا ما يقوله الورق يا سيدتي، أما أنا فإنني لا أعلم، ويقول الورق أيضاً إنك ستصبحين ملكة !...

فنهضت جان وقالت بعظمة :

— كفى يا سيدتي !...

وأدركت العرّافة أنها تمادت في القول فانتشر في ملامحها قلق ظاهر وغمغمت تقول :

— إن تكن أقوالي قد ساءتك يا سيدتي فأرجو أن تعلمي أنني لم أردد سوى ما تبيّنته في الورق... ولست أضمر أيّة نيّة سيّئة.. فقد طلبت مني أن أكشف لك المستقبل وقد قرأته كما تبيّن لي .. وليس الذنب ذنبي إذا ...

فقاطعتها جان بقولها :

— كوني مطمئنة ، فأنا لم أرَ في أقوالك ما يسيء إليّ !...

وفكرت لحظة ، ثم أردفت تقول :

— أتعتقدين أن الورق يعلن الحقيقة ؟

— أجل، ولو كان هذا الفنّ الذي أمارسه ينطوي على الكذب والتدجيل لهجرته منذ زمن طويل !...

فأخرجت جان كيسها وسألت العرّافة عن المبلغ الذي تريده. وكانت قارئة الطالع تتقاضى مبالغ كبيرة عن استشاراتها ، إلا أنها رفضت أن تتقاضى شيئاً من جان واكتفت بأن تقول لها :

— إن الشرف الذي أوليتنيه يا سيدتي بارتيادك منزلي الحقير يفوق لديّ كل ما في الدنيا من مال !...

فقالت السيدة ديتيول في نفسها :

« سوف أكافىء هذه المرأة بقطعة فنّية ثمينة !... »

وقالت بصوت مرتفع :

— شكراً يا سيدتي ، شكراً جزيلاً ، فإنني لن أنسى أبداً هذه الزيارة ... ولكن أين الرجلان اللذان جاءا بي إلى هنا ؟...

— ربما يكونان في قاعة الانتظار .

وكان بواسون وكرابيون في تلك القاعة فعلاً ، فسارت جان إليهما وبرح الثلاثة معاً منزل السيدة ليون . وكانت جان تسير في الطليعة ، وعندما بلغت الباب الخارجي رأت مركبة تسدّ عليها ذلك الباب ، فتراجعت إلى الوراء وهي تطلق صيحة خافتة ، بيد أنها شعرت في تلك اللحظة بيدين قويتين تقبضان عليها وتدفعانها إلى المركبة .

فأخذت تصيح وهي تكاد تجن رعباً :

— إليّ !... إليّ !...

غير أن اليدين اللتين أمسكتا بها حملتاها إلى المركبة وأغلقتا عليها المنافذ، وارتفع، في داخل المركبة ، صوت يقول للسائق :

— سر بنا !...

فتحركت المركبة وراحت تنهب الأرض نهباً بينما وقف نوح بواسون وصديقه كرابيون أمام باب المنزل يشيعانها بأنظارهما وقد علا وجهيهما الاصفرار .

وعندما ابتعدت المركبة وغابت في منعطف الشارع ، قال بواسون :

ـ لقد نجت !

فغمغم كرابيون قائلاً :

ـ من يدري ؟..

طريق فرساي

*

في ذلك المساء ، عند هبوط الليل ، خرج الفارس داساس من باريس على صهوة جواده وقد تقلد حسامه وغدّارتيه . وعندما بلغ طَرِيق فرساي ، خرج من فناء فندق منعزل ستة خيّالة وأخذوا يتبعونه على بعد مائتي خطوة .

ولم يكن أولئك الخيّالة سوى الكونت دي باري ورجاله ، وكانوا يضعون على وجوههم أقنعة كثيفة وقد تبعوا الفارس لينجدوه عندما تدعو الحاجة .

وكان دي باري يسير مفكراً ساهماً ويقول في نفسه :

« ها أنا مضطر إلى حماية ذلك الرجل الذي أمقته وأكرهه ، فإن مطالب السيد جاك أصبحت لا تطاق ولا أظنّها ستقف عند حد !... آه ، لو أن رصاصة طائشة ... »

وبدرت منه حركة توضح غايته وألقى نظرة رهيبة على شبح الفارس داساس الذي كان يسير على بعد مائتي خطوة أمامه ...

وكان داساس يسير على مهل ، فلا يزال لديه متّسع من الوقت ..

كان يرتعش أحياناً تحت تأثير نوع من الغبطة المقرونة بالغضب فيبتسم ابتسامة رهيبة تدل على أنه لن يرحم أعداءه ويغمغم من بين أسنانه قائلاً :

ـ من الراهن أن السيد بيريه المحترم لا ينتظر أن أفاجئه .. لا يتوقع مطلقاً أن أنقضّ عليه ... آه منك يا خاطف النساء وخادم صاحب الجلالة الأمين !... يا لك من شقي حقير ويا لتلك المهنة الشائنة التي تتعاطاها !... ولكن مهلاً ، فسوف نصفي حسابنا !..

ولمعت عيناه لمعاناً شديداً ...

وكان يشتد شحوبه أحياناً أخرى فيقول :

ـ لو كنت فقط على ثقة من أن جان غير راضية عن ذلك الاختطاف ، لو كنت على يقين من أنها خُطفت عنوة واقتداراً ، لو كنت متأكداً من أنها أُلقيت في تلك المركبة لتقاد إلى الملك رغماً عنها !... إذن ، لكنت أشعر بقوة عجيبة ... لكنت أهاجم المركبة وأنتزعها منها ولو كان يخفرها عشرون خيالاً ... فإما أن أنقذها وإما أن أموت مكاني !...

وأطلق لجواده العنان وهو يقول :

ـ ولكن ، أتراها تحبني ؟... كلا ، كلا ، يا لي من مجنون ، فإنها تحب الملك ، وقد ظهر حبها جلياً في تلك الحفلة اللعينة وتحدث عنه جميع أهل البلاط !... ولكن سواء أحبتني أو لا .. سواء هدهد الأمل قلبي أو عصره اليأس ، فإنني سأتابع النضال إلى النهاية وسيعضّ السيد بيريه التراب هذه الليلة !... فإلى المعركة ، إلى المعركة !... وسوف نرى ما يجدّ بعد ذلك !...

وأخذ يضع الخطة لتأمين نجاح مشروعه الجريء . وكان السيد جاك قد أطلعه على كل شيء ، فوصف له المركبة والجوادين بدقة بالغة وطمأنه من ناحية الحوذيّ ، غير أنه لم يطلب منه أن يهاجم المركبة كما أن الفارس لم يتلفظ بكلمة في ذلك الموضوع . وهنا يتجلى دهاء السيد جاك وبعد نظره ، فإن داساس بعد أن سمع منه ما سمع ، قال في نفسه :

« لن تبلغ تلك المركبة فرساي وفيّ نسمة من الحياة !... إن التعرض لقائد الشرطة قد يؤدي بي إلى المقصلة ، ولكن ذلك أفضل من الألم الذي سينهشني عندما أتصوّر جان بين ذراعي الملك !...»

وبلغ جسر سان كلو في الساعة العاشرة وكان يتحتم على المركبة أن تمر من هناك... وكان على بعد عشرين خطوة قبل الجسر مجموعة من المنازل الصغيرة السرية التي يملكها بعض النبلاء ويقضون فيها أوبقات الغرام ، فاعتزم الفارس داساس أن يرقب مجيء المركبة بين الجسر وتلك المنازل . وقرّر أن يهدّد الحوذيّ بغدّارته ويدعوه إلى الوقوف ... فإذا لم يقف يطلق عليه النار ويتقدّم فيمسك بعنان الجوادين . وعندما تقف المركبة يتشقّ حسامه ويتقدّم من الباب ويرفع قبعته وهو يقول : « إنك شقي حقير يا حضرة قائد الشرطة ، ويجب أن أقتلك كما لو كنت لصاً من لصوص الليل ، إلا أنني لن أفعل ذلك بل أمنحك شرف مبارزتي ... أنا الفارس داساس . فتوجّل وامتشق حسامك وإلا اضطررت إلى قتلك دون أن تدافع عن نفسك !... »

وكان على يقين من أن بيريه سيبارزه ... وعندئذٍ ستعلم جان

أيّة قوة هي قوة الحب الصحيح ! وسيجرح خصمه ويلقيه في المركبة بعد أن يُنزل منها جان ويأمر الحوذيّ بأن يعود بجثمان سيده إلى باريس ويقول لجان : « هذا هو جوادي يا سيدتي ، فتفضلي وقولي إلى أين تريدين أن أقودك.. سأسير بين يديك ممسكاً بعنان الجواد !..»

ذلك كان حلم الفارس داساس عندما قرر أن يهاجم المركبة في المكان الواقع بين جسر سان كلو ومجموعة المنازل السرية الصغيرة . وطال به الانتظار ، وكان يستطلع الطريق إلى أبعد ما يطاله الطرف في تلك الليلة المظلمة ، ولكن المركبة لم تظهر .

فتوجّل وربط جواده إلى جذع شجرة وتقلد حسامه وغدّارتيه وخلع معطفه وألقاه على متن الجواد ووقف في وسط الطريق ولبث ينتظر .

ووقف الخيّالة الستة الذين كانوا يتبعونه لوقوفه ، وقفوا على مقربة من مجموعة المنازل الصغيرة التي مرّ بها . فأمسك أحدهم بأعنّة الجياد وانسلّ الخمسة الآخرون إلى الحقول المجاورة يتوارون فيها وينتظرون هم أيضاً .

وسمع عجيج مركبة تقترب ، وسطع مصباحان في ذلك الليل كأنهما عينا وحش مفترس ، فخفق قلب داساس خفقاناً شديداً . كانت المركبة هي تلك التي ينتظرها دون أي شك ، وكانت تقلّ جان ...

وشهر غدّارتيه وأعدّهما للانطلاق ، وكانت المركبة تسير بسرعة هائلة فإذا هي على بعد ثلاثين خطوة منه . وقد سرت القشعريرة في جسده عندما اقتربت منه ورأى على ضوء المصباحين

www.liilas.com RAYAHEEN

لونها ولون الجوادين وكانا ينطبقان على وصف السيد جاك .

فاندفع نحوها كأنه الأسد الكاسر وصاح صيحة هائلة حوت كل ما في قلبه من حقد ويأس وغيرة ، وقال :

— قف ، قف أيها الحوذيّ وإلا أطلقت النار !...

فزمجر السائق قائلاً :

— أفسح الطريق !

فأطلق داساس النار فسقط السائق على مقعده وقد ندّت عنه أنّة مكتومة . وعندئذٍ انقضّ داساس على الجوادين فأوقفها ...

ودنا من باب المركبة خافق القلب ملتهب الصدغين متقلص الشفتين وصاح قائلاً :

— إنزل أيها السيد أيّاً تكون !... إنزل وإلا ، فأقسم بالله أنني سأعاملك كما عاملت خادمك !...

فارتفعت صرخة ثاقبة من داخل المركبة ، صرخة امرأة !

وانقضّ داساس يحاول فتح باب المركبة ، إلا أن ذلك الباب فُتح في تلك اللحظة بالذات ووثب منه رجل إلى الأرض فوقف أمام الفارس وعقد ذراعيه على صدره وقال في لهجة تمتزج فيها العظمة بالاحتقار :

— من هو المتشرد الذي جرؤ على أن يعترض طريق الملك؟..

فاكفهرّ داساس ، وترنّح ، وألقى نظرة يأس وألم على ذلك الرجل الذي خاطبه بتلك اللهجة ، ولم يلبث أن وقف شعر رأسه وتاهت عيناه وغمغم يقول في اضطراب شديد :

— الملك !... الملك !...

***

أجل ، لم يكن بيريه ذلك الذي وُجد في المركبة عندما دُفعت جان إليها أمام منزل السيدة ليبون، بل الملك لويس الخامس عشر بنفسه . فإن قائد الشرطة ، بعد أن أقنع نوح بواسون وصديقه كرابيون بأن يقودا جان إلى منزل العرّافة ، اجتمع بلويس الخامس عشر كي يطلعه على القضية ، فقال له الملك :

— أتقول أيها السيد إنك تريد أن تحدثني بشأن السيدة ديتيول؟..

فأجاب بيريه قائلاً :

— نعم يا مولاي، ولكن أتسمح لي جلالتك أن أتكلم بحرّية؟

— إنني آمرك بذلك .

— إذن ، فاعلم يا مولاي أنني لاحظت في حفلة قصر المدينة أمرين ...

وصمت فجأة كأنه يتردّد ، فقال لويس الخامس عشر وهو يضرب حذاءه بسوطه ضربات خفيفة :

— ما هما ذانك الأمران ؟...

— أولهما هو أن امرأة تهيم بجلالتك ...

فأخذ الملك يضحك ويقول :

— إمرأة واحدة ؟... هذا قليل !

— إلا أن تلك المرأة تكنّ لك من الحب ما تضيق عنه قلوب عشر نساء مجتمعات ... بل مائة امرأة ... فقد راقبتها مليّاً ورأيت شحوبها واحمرارها ... وقرأت في عينيها أنها وهبتك نفسها بكلّيتها !...

— وما هو الأمر الآخر ؟...

– هو أن مولاي عاشق متيّم !...

فقطّب الملك حاجبيه بينما أردف بيربيه يقول :

– لماذا لا تريد يا مولاي أن أعلن الحقيقة؟... أنت عاشق ولا تجرؤ على أن تصرّح بحبك!... ولم يبقَ لديّ ما أقوله بعد الإفضاء بهذين الأمرين سوى أن المرأة التي تحبها يا مولاي تدعى السيدة ديتيول !...

فهبّ الملك واقفاً وخطا بضع خطوات في القاعة، ثم عاد فوقف أمام رئيس شرطته وقال له :

– أجل يا بيربيه ، أجل ، أنا أحبها ، كما تقول ، وأعلم أنها تحبني!.. وأرى في اعترافي أمامك بذلك الحب ما يخفف عن كاهلي أثقالاً هائلة !...

فقال بيربيه بهدوء :

– ولكنني أرى مولاي لا يجرؤ على إعلان حبّه ، فهو يخشى المتاعب . إلا أن خدّامه المخلصين سيمهّدون السبيل أمامه ويذلّلون كل عقبة ...

– وهل ذلّلت العقبات يا بيربيه ؟... إن هنالك زوجاً ...

– ولكن ذلك الزوج لن يُحسب له أيّ حساب ... فإن مركبة ستقود السيدة ديتيول إلى فرساي هذه الليلة !...

فندّت عن لويس الخامس عشر صيحة دهشة ، وتابع بيربيه كلامه فقال :

– إنني أعددت كل شيء ، فالسيدة ديتيول ستذهب هذه الليلة إلى منزل في شارع بوسي ... وما أن تغادر ذلك المنزل حتى تحملها

مركبة إلى فرساي وسيكون في تلك المركبة رجل هو أنا ... أما السائق فهو أحد خدم جلالتك الأمناء ويدعى السيد دي برني ...

فقال لويس الخامس عشر :

– في هذه الليلة ؟...

– أجل يا مولاي ، في الساعة العاشرة !...

وزاد فقال كأنه يجهل أيّة جريمة سافلة يرتكبها :

– هل لك يا مولاي أن تحدّد لي المكان الذي يجب أن أقود إليه السيدة ديتيول ؟...

فقال الملك :

إنك تؤدي لي خدمة لن أنساها أيها السيد بيربيه !...

فانحنى بيربيه حتى كاد جبينه يلامس الأرض وقال :

– إنني لم أفعل سوى ما أوحى به إليّ واجبي يا مولاي !...

فقال الملك :

– إنها خطة مدهشة وأيم الحق !... وأنا ، كما قلتَ ، لا أجرؤ على إعلان حبي ، أما وقد مهّدت السبل أمامي وذلّلت العقبات فدعني أتناول خطتك بشيء من التعديل !...

– أيّ تعديل يا مولاي ؟...

– يجب أن تجد السيدة ديتيول رجلاً سواك عندما تصعد إلى المركبة !...

– من هو يا مولاي ؟...

فقال الملك ببساطة :

– أنا !... هيّا بنا يا بيربيه ، خذني إلى تلك المركبة دون

إضاعة وقت !...

ونادى لويس الخامس عشر خادمه وأمره بأن يعلن أن الملك قد أوى إلى سريره وأن باستطاعة الجميع أن ينصرفوا . ثم ألقى على كتفيه معطفاً وتقلد حساماً وفتح منفذاً سرياً في القاعة وسار في دهليز طويل ووراءه بيربيه ، وبعد بضع دقائق أصبح الرجلان خارج اللوفر فتوجها بسرعة إلى شارع بوسي ، ولم تلبث المركبة أن ظهرت يقودها بروني فصعد الملك إليها بينما كمن بيربيه في جوار مدخل المنزل ، وعندما ظهرت جان رفعها بين يديه ووضعها في المركبة..

وابتعدت العربة في طريق فرساي بينما وقف قائد الشرطة يشيّعها بنظره وهو يغمغم قائلاً :

– لقد ضمنت ثروتي ومستقبلي !...

***

عندما شعرت جان بأن هناك من يدفعها إلى المركبة أيقنت من أنها وقعت في شرك ، فصاحت صيحة هائلة ... إلا أن ذراعين قويتين طوّقتاها فوراً ، فصاحت قائلة :

– دعني أيها السيد !... إنك جبان سافل !... دعني وإلا صفعتك !...

فأجابها صوت دافىء يقول بحرارة :

– جان ، جان !... أيتها العزيزة !...

فعرفت ذلك الصوت فوراً ، فدفعت عنها تينك الذراعين اللتين كانتا تحجبان بصرها . وإذا بها تشاهد الملك يكاد يكون راكعاً أمامها ، فغمغمت تقول :

– أنت يا مولاي ؟!... أنت ؟!...

– أجل يا جان ، إنني هنا عند قدميك ... عفوك عما دفعني إليه حبي !... فقد أقضّ ذلك الحب مضجعي وأصبحت لا أفكر إلا بك !... وقد أردت أن أراك مهما كلف الأمر ، فإن كل يوم أقضيه بعيداً عنك هو يوم عذاب وألم بالنسبة إليّ ... لا تحوّلي رأسك عني ، لا تبتعدي !... فإنني ما جرؤت على تنظيم تلك الخطة السافلة إلا بسبب حبي لك !... قولي إنك صفحت عني... أنظري إليّ نظرة واحدة فاستدلّ منها على أنك غفرت لي !...

فاستوت جان في جلستها ، وكانت راضية مغتبطة ... تبكي لشدة سعادتها ... فقد استولى عليها فرح طاغ وهي تصغي إلى معبودها يطلب منها الصفح والغفران . قالت بكآبة شديدة :

– مولاي ، لقد كان موقفك مني أشبه بموقفك من تلك الفتيات البائسات اللواتي لا حرمة لهنّ ...

فشحب وجه لويس الخامس عشر شحوباً شديداً ، لقد كان اللوم في موضعه ... إلا أن شحوب الملك كان لسبب آخر لا يمتّ إلى ما قالته جان بصلة ، فإنه كان يخشى أن تفلت منه ، أن تصرّ على إيقاف المركبة وتتصرف غاضبة حانقة ، فصاح قائلاً :

– أرى جيدا أنني كنت مخطئاً !...

– ماذا تعني يا مولاي ؟...

– أعني أنك لا تحبّينني يا جان !... هذه هي الحقيقة !...

– أنا ؟!... أنا لا أحبك ؟... ربّاه !...

وكان في صيحتها من الحب الصحيح والإخلاص والصدق ما

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

أدهش لويس الخامس عشر فاضطرم رأسه وازداد خفقان قلبه ، فركع وأمسك يديها وغمرهما بقبلات عنيفة محمومة وقال بصوت تغلغلت نبراته إلى أعمق أعماق نفسها :

— جان ، معبودتي جان ... إنني أحبك ... وسأحبك إلى الأبد ... إلى آخر نسمة من حياتي ...

فغمغمت قائلة :

— مولاي ! مولاي !...

— أنا أعبدك يا جان، ألا تدركين ذلك من نبرات صوتي؟.. ألم تدركي ذلك من الجرأة التي بدرت مني ؟... ألا فاعلمي أن ملك فرنسا غادر قصره سراً ليأتي إليك !...

فغمغمت تقول :

— لشدّ ما أتمنّى لو كان الذي أحبه لا يملك قصراً ولا عرشاً !..

— جان، حبيبتي جان ، لقد عبثت لأجلك بكل قانون ونظام، لقد رضيت بالفضيحة ...

— مولاي ، مولاي !... إن كنت تخشى الفضيحة فأتوسّل إليك أن تعود بي إلى باريس !...

فقال لويس الخامس عشر بسخط شديد :

— إلى أين ؟... إلى زوجك ؟...

فارتعشت ارتعاشاً شديداً ، فإنها كانت قد نسيت ذلك الزوج. وأدرك الملك أيّة هاوية تفصل بينها وبين زوجها الكريه وسرّه ذلك منها فقال :

— وهل أستطيع أن أعود بك إلى باريس بعد الذي رأيته من

ارتعاشك واضطرابك لمجرّد تفكيرك في أنك ستبصرين ذلك الرجل ؟...

فقالت بقلق :

— مولاي ، إلى أين تذهب بي ؟...

— إلى فرساي .

كلا ، كلا ، أتوسّل إليك يا مولاي ... أستحلفك باسم الحب الذي ...

فقاطعها بقوله :

— أصغي إليّ ، إنني أقودك إلى منزل تصبحين فيه سيدة مطلقة. وأقسم لك بشرفي أنني لن أطأ عتبة ذلك المنزل إلا إذا دعوتني إليك.. أو إذا دخلته فإنني لن أدخله إلا في وضح النهار كأي زائر محترم.. وسننظم الأشعار معاً ونغنّي ... سأنسى إلى قربك وجوه رجال حاشيتي المبطّنة بالرياء، سأنسى أهوال الحروب وملاحظات وزرائي، سأنسى ذلك الشيء البرّاق في الظاهر الفارغ في الواقع الذي يسمّونه الملكيّة ... أتريدين يا جان أن تذهبي عني بأشجاني ؟... أتريدين أن تكوني ملاكي الحارس ؟... أتريدين أن تكوني مهبط وحيي الذي سأستقي منه الصلاح وأنشره على فرنسا ؟... أتريدين ؟... قولي كلمة ... أشيري إشارة تدل على رضاك ، وإلا فإن هذه المركبة ستعود بك إلى باريس .. سوف أتألم ولكنني لن أشكو.. ولن أضايقك بحبي الذي يعادل حبك طهارة وصدقاً .. ربّاه !... ما بالك صامتة أيتها العزيزة ؟... هل يعني ذلك أنك ترضين بأن تكوني صديقة لويس المسكين؟... هل يعني ذلك أن قلبك يعطف

على ملك فرنسا التعس الذي لا يرى حوله سوى الخداع والتملق؟..

فأطرقت جان برأسها وخبأت وجهها بيديها ولم تجرؤ على أن تضحّي بكل تلك السعادة التي تغمرها ، وتطلب من الملك أن يعود بها إلى باريس . فأيقن الملك من أنها أصبحت له فطبع قبلة طويلة على جبينها .. وتابعت المركبة طريقها !..

***

وفجأة دوى طلقان ناريّان ووقفت المركبة !...

ولم يكن لويس الخامس عشر يتمتّع بتلك الشجاعة التي تميّز بها بعض أجداده ، كان يخشى اللصوص ويرهب الموت ولم يشاهد يوماً في معركة. فشحب وجهه شحوباً شديداً عندما انفجر ذانك الطلقان الناريان في سكون الليل ، غير أنه لم يشأ أن يظهر بمظهر الجبان الرعديد أمام فاتنته فيفقد حبها إلى الأبد ... وفتح باب المركبة، فصاحت جان صيحة ثاقبة وأرادت أن تمنعه عن النزول ... إلا أنه كان قد قفز إلى الأرض ... فلحقت به وقد عزمت على أن تموت إلى قربه .

وكان الملك يظن أنه إزاء بعض المتشردين قاطعي الطرق، وأن مجرّد إعلان اسمه سيلقي الرعب في قلوبهم ويدفعهم إلى الفرار ... وما كان أعظم دهشته عندما لم ير أمامه سوى رجل واحد كان يتراجع يائساً وقد ظهر شحوبه واضطرابه بجلاء على ضوء مصباحي المركبة.

وعندئذٍ أفرخ روع الملك وعادت إليه شجاعته فخطا خطوتين نحو ذلك الرجل وقال له :

— من أنت أيها السيد ؟... وكيف تجرؤ على اعتراض سبيل

المركبة التي تقلّ الملك ؟...

فأجاب الفارس داساس قائلاً بصوت يهزّه اليأس :

— لقد جرؤت على ذلك لاعتقادي بأنني سأجد في المركبة رجلاً يمارس مهنة خطف النساء... ولم يتبادر إلى ذهني مطلقاً أن ملك فرنسا يرضى بأن يحلّ محل ذلك الرجل ويمارس مهنته الشائنة !...

فصاح الملك قائلاً بغضب شديد :

— إنك بالغ الجرأة حقاً ، فإن ما تفوّهت به قد يكلفك غالياً !... إلا أنني أريد أن يشملك حلمي ... فاعتذر وسر في طريقك ...

فقال داساس :

— كنت أعتقد بعظمة الملوك فإذا بي على خطأ ! وكنت أعتقد بشرف المرأة الحاضرة هنا ، وأنا أعتذر الآن عن ذلك !...

فزأر لويس الخامس عشر قائلاً :

— وأنت ترتدي مع ذلك زيّ ضبّاطي ؟!... إسمك أيها السيد !

وكانت جان قد عرفت الفارس ، فأشفقت عليه ، وهي التي كانت تشعر نحوه أحياناً بعاطفة شديدة العذوبة ، واندفعت نحوه وأمسكت بيده .

وكرّر الملك قوله وقد تفاقم غضبه :

— إسمك !

فقالت جان لداساس بصوت لا يكاد يسمع :

— أصمت ، أصمت ، وبادر إلى الفرار ! ... وإلا فأنت

هالك !...

فقال الشاب للملك وهو ينتصب بعظمة :

– مولاي ، إنني أدعى الفارس داساس وأنا ضابط في فرقة أوفيرن . وقد أهنت الجلالة الملكية في شخص الملك وشخص خليلته ... فإلى من يجب أن أسلم سيفي ؟ إليها أم إليك ؟...

ودفع جان عنه وتقدم من الملك ، فلبثت السيدة ديتيول تنتظر كلمة لويس الخامس عشر وهي لاهثة مترنّحة ، فقال الملك :

– إحتفظ بسيفك أيها الفارس داساس واذهب فسلمه إلى قائد حرسي في اللوفر ومره عن لساني بأن يحتفظ بك سجيناً لديه ريثما أنظر في أمرك !...

فقال داساس بهدوء شديد :

– ها أنا ذاهب إليه يا مولاي !...

فقال الملك :

– لي كلمة أخرى أريد أن أقولها لك ، فإذا خطر لك أن تفرّ فاعلم أنني ...

فقاطعه الفارس بقوله وهو ينتصب بكبرياء :

– مولاي ، إن آل داساس لم يتعوّدوا الفرار لا من السجن ولا من الموت ، فكن مطمئناً ... ها أنا ذاهب إلى السجن ...

واستدار نحو جان وقد أخفى ألمه واضطرابه، وقال لها بصوت حاول أن يجعله قاسياً فجاء عذباً حزيناً :

– وداعاً يا سيدتي !...

ووثب إلى صهوة جواده لا يلتفت إلى الوراء ، فزمجر لويس

الخامس عشر قائلاً :

– يا له من وقح !... سوف يرى ما يكلفه التعرض لملك فرنسا !... فإذا لم يفرّ ، فإن حبلاً متيناً ...

فقاطعته جان قائلة وهي ترتعش :

– مولاي ، أصغ إليّ ... إن هذا الشاب يحبني !...

– وهذا ما يزيدني إصراراً على شنقه !...

– مولاي ، أرجو أن تعفو عنه !...

– ألم تسمعي ما قاله لي ؟... أتبكين ؟...

– مولاي ، فكر في أن ذكرى لقائنا ستكون ملطّخة بالدم !...

– إذن ، فلن يموت !

وأردف يقول في نفسه :

« إن الباستيل يقتل هو أيضاً كما تقتل فأس الجلاّد !... »

فأمسكت جان بيده وقالت :

– مولاي ، إنني ألتمس له العفو التام !...

– أنت تحبينه إذن ؟...

– كلا ، كلا ، إنني لا أحب أحداً سواك يا مولاي ... كن واثقاً من أنني لا أحب سواك ... ومع ذلك ، فاصغ إليّ جيداً، إنك إن لم تعفُ عن الفارس داساس فوراً فإنني سألقي أمري بين يديه وأطلب منه أن يعود بي إلى منزلي قبل أن يذهب إلى اللوفر !..

وكانت تختلج بشدة وقد ألقت بيديها على صدرها كأنما لتمنع قلبها عن الانفجار ، ونظر إليها الملك وهو عابس حائر ... ومع

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ذلك فقد أُعجب بها ! كانت ، في تلك اللحظة ، من الجمال والرقة بحيث تفتن القديسين ...

وكان الفارس داساس قد امتطى جواده وعاد به على مهل في طريق باريس ... ومرّ بالقرب من الملك ، فخطت جان نحوه إلا أن لويس الخامس عشر أوقفها بإشارة ونادى الفارس قائلاً :

– أيها الفارس داساس !...

فأوقف الفارس مطيّته ولبث ينتظر دون أن ينبس بكلمة ، فقال الملك :

– إنك حرّ يا سيدي !

فغمغمت جان قائلة :

– أواه يا مليكي ! أواه يا لويس !... إنك حقاً كما كنت أتصورك ... كريم حليم !...

وقد تلقى داساس أمر العفو عنه باللامبالاة نفسها التي تلقى بها الأمر بالذهاب إلى السجن ، فقد كان يقول في نفسه في تلك اللحظة :

« إن جان له ! ... للملك !... ولم يبقَ أمامي إلا أن أموت !... »

غير أن لويس الخامس عشر لم يكن ذلك المخلوق الكريم الحليم الذي تتمثّله جان في مخيّلتها، وقد رأى جيداً ما يتخبّط فيه الشاب التعس من يأس وعذاب. وعندما لم يستطع أن يحكم عليه لا بالشنق ولا بالسجن ، أراد أن يحكم عليه بعذاب أشد هولاً وهو عذاب الغيرة ، فقال له في لهجة يمتزج فيها الاحتقار الساحق بالسخرية اللاذعة :

– إنني لا أريد أن أحتفظ من هذه الليلة إلا بالذكريات العذبة التي أثارتها في نفسي ، فاذهب يا سيدي ، إنك حرّ !...

فارتعش الفارس هذه المرّة ارتعاشة طويلة وألقى على تلك التي يعبدها نظرة أخيرة مليئة باليأس ، وابتعد متغلغلاً في الظلام ...

وعندئذٍ قاد لويس الخامس عشر جان إلى المركبة ، وكانت تشعر بخجل شديد لمفاجأة الفارس داساس إياها في ذلك الموقف ، والتفت إلى الحوذيّ وقال له :

– هل أنت جريح ؟...

– أجل يا مولاي ، لقد تحطمت كتفي ... إلا أنني أستطيع أن أتابع قيادة المركبة ...

فقال الملك :

– إنك شجاع حقاً !

– إن حياتي كلها فدى الملك ...

– ما هو اسمك ؟

– دي برني يا مولاي !...

– حسناً ، إنني لن أنساك يا سيد دي برني !... فلتذهب الآن !...

وقفز لويس الخامس عشر بخفّة إلى المركبة التي أقلعت فوراً في اتجاه فرساي . وضمّد دي برني جراحه وهو يقودها وعلّق ذراعه اليسرى في عنقه بمنديل ، ولكن لو أوتي لأحد أن يرفع تلك الضمادات لاستنتج أن لا جراح هناك على الأطلاق ...

*

ولم تكد المركبة تتحرك ، ولم يكد داساس يأخذ طريق العودة إلى باريس ، حتى خرج أولئك الرجال الستة ، الذين كانوا قد تبعوا الفارس لينجدوه عند الحاجة ، من مخابئهم وقد شهدوا كل ما جرى .

واندفع الكونت دي باري راكضاً نحو الجياد فامتطى جواده وأمر رفاقه بأن يعودوا إلى باريس وسار هو في اتجاه فرساي .

وإذا كان الكونت لم يشاهد كل ما حدث بين الملك وجان وداساس، فإنه سمع كل شيء وعرف تماماً أن الملك حلّ في المركبة محل بيربيه .

وبعد أن أجتاز بجواده الخندق الذي يفصله عن الطريق ، سار في غارة سريعة ولم يلبث أن أصبح على مقربة من المركبة ، فخفف من سرعة الجواد وجعل بينه وبينها مسافة يظل معها أمره مجهولاً ، وأخذ يتبعها وهو يقول في نفسه :

« إن ذلك اللعين داساس كبير الحظ وأيم الحق !... فلو فعلت أنا ما فعله ، بل لو فعل ذلك أي إنسان كان، لطرح فوراً في الباستيل أو ضرب الجلاّد عنقه !... إن هذا الملك ضعيف خائر العزيمة ، وها هو داساس يهينه وينجو من بطشه طاهر الذيل كأن شيئاً لم يكن !... وليس هذا كل شيء ، فقد يخدمه الحظ أيضاً

ويصبح ذا حظوة في البلاط !... ها أن السيدة ديتيول أصبحت محظيّة الملك ! وهي تحبه على ما ظهر لي ... وفي جميع الأحوال، من يعش يرَ !...

وبعد عشرين دقيقة أطلت المركبة على قصر فرساي الضخم الشاهق رمز كبرياء الملك لويس الرابع عشر الذي شيّده !... ولا لزوم للقول بأن الملك كان قد أعطى برني التعليمات اللازمة ، فإن سائق المركبة لم يتوجّه نحو مدخل القصر بل حوّل مركبته دون أيّ تردّد ودار بها حول الجناح الأيمن منه، وأطلقها في ذلك الطريق الصغير الذي يؤدي إلى الناحية التي سيُشيّد فيها في المستقبل قصر تريانون .

وبعد عشر دقائق وقفت المركبة ... فقفز دي باري بسرعة إلى الأرض وأخذ يقترب منها بحذر مستتراً وراء جذوع الأشجار الضخمة ، فرأى الملك ينزل منها تاركاً جان في الداخل .

وسار الملك إلى منزل صغير وقفت المركبة أمامه ، فرفع مطرقة الباب وتركها ثلاث مرات. فلم يلبث الباب أن فُتح وبدت في إطاره وصيفة لطيفة المنظر جميلة الوجه والجسم تحمل مشعلاً بيدها ، وقد تكون عرفت الملك إلا أنها لم تدهش لرؤيته ولم تنبس بكلمة بل رفعت المشعل وأنارت به الممر .

وعاد الملك إلى المركبة ، فمدّ ذراعه للسيدة ديتيول يساعدها على النزول . وشاهدها دي باري تطلّ من باب المركبة وهي شاحبة الوجه مرتجفة ، وتستند إلى ذراع الملك وتنزل إلى الأرض . فسار بها لويس الخامس عشر لغاية مدخل المنزل وقال للوصيفة :

– سيزون، ها هي سيدتك الجديدة، وأعتقد أنك على استعداد لاستقبالها بما يليق بكرامتها وأن كل شيء جاهز لذلك .

فأجابت الوصيفة بقولها :

– نعم يا « سيدي » !...

فاستدار الملك نحو جان وقال لها :

– سيدتي ، أرجو أن تعتبري نفسك في هذا المنزل كأنك في منزلك . وأنت في منزلك حقاً ، فإن هذا المنزل أصبح ملكك من الآن فصاعداً ، وأظن أنك ستستقبلين فيه أحياناً، بين الأصدقاء الذين سيأتون لزيارتك ، خادمك الأمين المطيع .

وانحنى أمامها بكل احترام، فاضطربت جان اضطراباً شديداً وغمغمت تقول بصوت ضعيف :

– سوف تحلّ دائماً على الرحب والسعة يا « سيدي » !...

ودخلت المنزل ، فلبث لويس الخامس عشر هنيهة أمام الباب وهو يبتسم ابتسامة مبهمة ، ثم عاد إلى المركبة وجلس فيها ، وبعد بضع دقائق وقف أمام قصر فرساي حيث كان الجميع على تمام الأهبة دائماً لاستقبال جلالته ...

وسلم دي بِرني المركبة لخدم الإسطبل وهو يقول في نفسه :

« أرى أن ذلك العزيز بيربيه سيرتقي درجات عديدة ... وأنا أيضاً ما دمت متعلقاً بأذياله وما دام جلالته قد تأثر بما « نالني من جراح في سبيله » !... فهل يجب أن أطلع السيد جاك على ما حدث ؟... وإلى أي صف يجب أن أنحاز ؟... ومن الذي سينتصر ، أهو الملك أم تلك الجمعية الواسعة النفوذ التي أشكّل أنا

عضواً فيها ؟... إن القضية تحتاج إلى تفكير طويل ... إذن ، فلنأخذ يومين للراحة ... وللتفكير ... »

ودخل الغرفة التي خُصّصت له وأخذ يفكر فعلاً :

أما الكونت دي باري فإنه امتطى جواده وسار في طريق باريس . وعند الساعة الثالثة صباحاً ، بينما كان دي برني يفكّر ، وبيربيه ينتظرُ ، وجان تستعيد في ذهنها تفاصيل المغامرة التي أدّت بها إلى ذلك المنزل الصغير، والملك ينام في اطمئنان، كان الكونت يطرق باب منزل السيد جاك في شارع فوان ويمثل في حضرة القائد العام لليسوعيين .

***

وفي اليوم التالي علم الباريسيون أن البلاط انتقل إلى فرساي فاستقبلوا الحدث دون مبالاة ، وماذا يهم الباريسيين سواء كان الملك في اللوفر أو في فرساي ما دامت الضرائب تتساقط عليهم باستمرار ؟

وتراكض أصحاب المصالح ورجال الحاشية والنبلاء إلى فرساي، وعمّ الفرح صفوف النبلاء الشبّان وهم يعلمون ما في فرساي من لهو ومتعة . وتساءلت النساء عن سبب ذلك الانتقال الفجائيّ وقلق الوزراء وفكر الكثيرون في تلك السيدة ديتيول التي اختلى بها الملك في حفلة قصر المدينة .

وفكّر البعض في الكونتيس دي باري التي أعجب بها الملك في تلك الحفلة أيضاً . ودبّت الغيرة في صدور نساء البلاط واستولى عليهن القلق وأخذن يتساءلن واجمات عما إذا لم تكن هناك خليلة جديدة

www.mlazna.com ^RAYAHEEN^

حلّت محل الدوقة دي شاتورو ...

وأظهر الملك في فرساي رحابة صدر عجيبة وكياسة منقطعة النظير فظهر مع الملكة ماري ليكزينسكا أمام أهل الحاشية وتحدث إليها بلطف ، ونظر في أمور الدولة مع وزيره دارجانسون واختلى برئيس الشرطة السيد بيربيه وخاطب رجال بلاطه بلطف وتحدث إلى ما يربو على العشرين امرأة من نساء البلاط وأثنى عليهن ...

فنجم عن ذلك أن عمّت البهجة جميع الذين ضمّهم قصر فرساي، من الملكة ماري التي تُخيّل لها أن الملك سيقلع عن الغرام الأثيم ويعود إليها ، إلى الوزير الأول الذي يرأى من الملك إقبالاً غريباً على معالجة أمور الدولة ، إلى النبلاء المغمورين الذين رأوا من عطف الملك عليهم وتلطّفه معهم ما جعل الغبطة تملأ نفوسهم .

غير أن الذي أدهش الجميع أكثر من كل ذلك هو ذلك الحديث الطويل الخاص الذي جرى بين الملك وذلك الكاهن الشاعر المغمور السيد دي برني . وكان دي برني لا يزال يعلّق ذراعه في عنقه ، وقد قال له الملك بصوت مرتفع عندما اقترب منه :

— أنت جريح إذن أيها السيد ؟...

فأجاب دي برني قائلاً :

— نعم يا مولاي !...

فقال الملك بعطف ظاهر :

— يجب أن تأخذ لنفسك بعض الراحة .

— إن الراحة التي تؤمن لي الشفاء التام يا مولاي هي وجودي إلى قرب جلالتك .

فابتسم لويس الخامس عشر لذلك التزلّف وأمسك بيد الكاهن وسار به إلى وراء ستار إحدى النوافذ حيث اختلى به طويلاً .

وعندما تركه الملك أخيراً أقبل عليه معظم رجال البلاط يسألونه عن « جرحه » وعن الأسباب التي أدّت إليه ، فتكتّم دي برني ولم يفضح الملك . وقد أثنى الجميع عليه وأظهروا إعجابهم به فخُيّل له إزاء تلك المجاملات أنه صائر دون شك إلى أوج الرفعة والسعادة .

وعند الساعة العاشرة دخل الملك غرفة نومه .

ودخل دي برني غرفته هو أيضاً ، وكان الملك قد أجاز له أن يقيم في البلاط ، وكان يغمغم قائلاً :

— لقد أحسنت صنعاً في عدم ذهابي إلى مقابلة السيد جاك !.. فليحيَ الملك ، وخاصة إذا وفى بوعده لي ... ولكن ، لماذا لا يفي به ؟...

وقد أضاء غرفته وهو يقول ذلك فأبصر رجلاً جالساً قرب المدفأة أمام نار قويّة ، وكان الرجل يولّيه ظهره ، فظنّ دي برني أنه أخطأ غرفته فأدار نظره في ما حوله ، وعندما أيقن من أنه لم يخطىء وأن الغرفة غرفته ، أغلق الباب وسار إلى الرجل يقول له :

— يسرني جداً أن أراك في غرفتي أيها السيد ... وخاصة إذا شرّفتني وقلت لي ...

وتلاشت الكلمات الأخيرة في حلقه . فقد عرف الرجل عندما استدار نحوه ببطء... ونهض يقترب منه... عرف السيد جاك !.. رئيسه ، الرئيس الرهيب المرهوب ... السيد القادر على كل شيء !...

فغمغم دي برني قائلاً :

— سيدي ... مولاي !...

وخرّ على ركبتيه وشحب وجهه ، فقال السيد جاك :

— أملك روعك ، إنهض ... وانظر إليّ ... أتخشى أن يكونوا قد أبصروني أدخل إلى هنا ؟... اطمئن ...

— مولاي ...

أتكون مذنباً ؟... أهناك ما يثقل ضميرك ؟... إذن ، فاعترف لي بذنبك يا ولدي . أنت تعلم أن جمعيتنا وإن تكن لا تشفق على الخبثاء والخونة إلا أنها ترحم التائبين ... فتكلم إذن دون خوف ، أنا مصغٍ إليك ...

وفي الوقت نفسه تهاوى السيد جاك إلى مقعده بينما لبث دي برني واقفاً بين يديه مذهولاً مصعوقاً . إلا أنه سرعان ما تمالك نفسه وقرّر ما يجب أن يقوله ، فقال بصوت أكثر ثباتاً :

— أجل يا مولاي ، إنني ارتكبت هفوة أستحق عليها اللوم وهي تهاوني في إطلاعك على أحداث الليلة الفائتة ...

فقال السيد جاك بهدوء :

— ليس ذلك بالأمر الخطير ، ومن جهة أخرى فإن عذرك وجيه ...

فارتعش دي برني ارتعاشاً شديداً ، فقد لمس سخريّة لاذعة تحت ستار الهدوء الذي يتكلم به رئيسه الرهيب . قال :

— كلا يا مولاي ، لا أرى لي أيّ عذر !...

— ولكنك جريح ... وهو عذر كافٍ على ما أظن !...

فقال دي برني بغبطة :

— هذا صحيح يا مولاي ، لقد كدت أنسى ...

— ماذا ؟... أكدت تنسى الغدر أم الجرح ؟... هل جرحك الفارس داساس ؟...

— نعم يا مولاي .

— هل جرحك بالسيف ؟...

— كلا ، بل أطلق النار عليّ ...

— طلق ناري . خذ يا ولدي ، إليك بهذا المرهم الفعّال في مثل حالتك ... ولكن لا ، دعني أضمّد جرحك بنفسي وأنا المسؤول عن شفائك التام في أقصر مدّة ...

فاضطرب دي برني اضطراباً شديداً وقال وهو يلهث :

كلا ، كلا يا مولاي ... إنني لن أسمح لنفسي ... إنني خجل ...

— دعني أضمّد جرحك !

وتناول في الوقت نفسه زجاجة من جيبه ونزع سدادتها وأمسك بذراع دي برني المربوطة ، فتراجع هذا مذعوراً وخرّ على ركبتيه وطأطأ رأسه قائلاً :

— مولاي ، مولاي ، أحكم عليّ بما تشاء ... فقد كذبت... لست جريحاً !...

فصمت السيد جاك هنيهة ، ثم قال :

— هذا أشد خطورة . أتكذب ؟... أنت تعلم جيداً عقاب المرؤوس الذي يكذب على رئيسه وخاصة على قائد الجمعية العام !..

وليس لديك سوى وسيلة واحدة لتحصل على المغفرة وهي أن تعرّي نفسك أمامي وتعترف بكل شيء. فإذا كان شيطان الطمع قد غرّك فقل لي بماذا ؟... وسوف نرى !...

فقال دي برني :

ـ إن ذنبي الوحيد هو أنني لم أسرع إلى المثول بين يديك لأطلعك على كل ما حدث ، كما يقتضي بذلك واجبي ...

فلم ينبس السيد جاك بكلمة بل نهض وسار إلى حيث وضع معطفه فتناول ذلك المعطف وألقاه على كتفيه وسار إلى الباب ، فصاح دي برني قائلاً وهو يرتعش :

ـ ماذا تفعل يا مولاي ؟...

فاستدار السيد جاك نحوه وقد اشتعلت عيناه واكتست ملامحه جلالاً لا يوصف ، وزمجر قائلاً :

ـ ماذا أفعل ؟... إنني أتخلّى عن النعجة الضالّة التي ترفض أن تعود إلى الحظيرة . إنني أفرّ من هذه الغرفة الموبوءة بالخيانة والكذب !... أتذكر تلك الورقة التي وقّعتها ؟... أتذكر أنك تطوّعت فيها لخدمة مصالح جمعية اليسوعيين ضدّ مصالح الملك ؟.. إن تلك الورقة ستلقى غداً ، بل هذا المساء ، بل خلال بضع دقائق ، بين يدي لويس الخامس عشر . فقد كنتَ منذ هنيهة تتمتّع بعطفه فبدأت ليلتك هذه وأنت تحلم بالثروة ، إلا أنك سوف تنهيها في الباستيل ... ويمكنك أن تفكر هناك بخيانات جديدة إلا أن تفكيرك ذاك قد يستمرّ طيلة حياتك !...

فقال دي برني متلعثماً :

ـ الرحمة يا مولاي ، الرحمة !... إنك رهيب ... إنني أتوب ... أتوب !...

فتابع السيد جاك حديثه قائلاً :

ـ لقد حدّثتك نفسك بإطلاعي على الأمور التافهة فقط وإخفاء أسرار الملك عني لاعتقادك بأن الملك سيؤمّن لك الثروة بأسرع مما نؤمّنها نحن !... أيها الأحمق ! ألم أبرهن لك في مناسبات عدّة على أنني أعلم كل شيء في الوقت المناسب ؟...

فصاح برني قائلاً :

ـ عفوك عني يا مولاي ! إنني أعترف بأن الطمع طوّح بي وأخرجني عن الطريق القويم !... ولكنني على استعداد تامّ للعودة إليه !... ليس خوفاً من انهيار أحلامي ولا خوفاً من الباستيل بل لأنك الأقوى ، لأنني أكنّ لك إعجاباً يقرب من العبادة . فارأف بي يا مولاي واصفح عما بدر مني في ساعة ضعف، وأنت تعلم جيداً أنني أهل للتكفير عما ارتكبته ...

فعاد السيد جاك إلى مقعده قرب النار ، وقال :

ـ أراك صادقاً في توبتك يا ولدي فضلاً عن أنك ذو فائدة لنا، ولذلك فإنني أعفو عنك. فلنقلع إذن عن الكلام في هذا الموضوع..

فانحنى دي برني ولثم يد السيد جاك باحترام ، فقال هذا :

ـ والآن ، حدّثني بكل ما جرى .

فسرد برني بدقّة بالغة كل ما كان من الملك والفارس داساس والسيدة ديتيول. وكان السيد جاك يصغي إليه وهو مغمض العينين. وعندما انتهى برني من كلامه ، قال له :

www.mlazna.com
ARAYAHEENA

— أريد منك يا ولدي أن تأتيني بعد يومين بأسماء جميع الذين يقيمون في ذلك المنزل مع بيان مفصّل عن وضع كل منهم وعاداته وأذواقه وميوله ، أتفهم ؟...

— أجل يا مولاي ، وإنني أستطيع أن أخبرك منذ الآن بأن السيد بيريه كلّف إحدى الوصيفات بأن تطلعه على كل ما سيحصل بين الملك والسيدة ديتيول ...

فلاحت على شفتي السيد جاك ابتسامة رضى ، وأردف برني يقول :

— إن تلك الوصيفة تدعى سيزون وهي مخلصة جداً لقائد الشرطة ، إلا أنني لاحظت في مناسبتين أنها تنظر إليّ بشيء من الرضى ...

— هل تسمح لك بدخول المنزل ؟...

— أظنّ ذلك يا مولاي .

— وهل تسمح لك بأن تدخل معك شخصاً آخر سواء كان رجلاً أو امرأة ؟

— أنا واثق من ذلك يا مولاي !...

— إذن ، فإننا لم نخبر المعركة ولا يزال أمامنا مجال لأخذ الثأر !... برني ، أتستطيع إقناع تلك الفتاة ... ما هو اسمها ؟

— سيزون يا مولاي ، وقد قلت لك إنها شديدة الإخلاص للسيد بيريه وإن تكن تنظر إليّ بعين الرضى .

— يجب أن تقنعها بأن تتخلّى عن مركزها لامرأة أخرى ، أتستطيع ذلك ؟

— سأبذل المستحيل يا مولاي ، ولكن من هي تلك التي

ستحل محلها ؟...

— سوف أطلعك على اسمها في الوقت المناسب . والآن ، إليك أوامري : أريد منك خريطة دقيقة لذلك المنزل وبياناً مسهباً عن كل شخص يقيم فيه ، ويجب عليك أن تبدأ منذ غد بتوثيق عرى الصداقة بينك وبين سيزون ...

— أليست هناك أوامر أخرى يا مولاي ؟...

— بلى ... يجب أن تحيط الفارس داساس علماً بمكان السيدة ديتيول ، وأن تخبره بأن الملك لم يدخل ذلك المكان إلى الآن ..

— أتريد أن أبعث في نفسه الأمل ؟... سأفعل يا مولاي !..

فأومأ السيد جاك برأسه إيماءة موافقة ورفع يده وبارك برني الذي انحنى أمامه بخشوع ، ثم انصرف دون ضجة . وكان يبدو جلياً أنه يعرف تماماً مداخل القصر ومخارجه ودهاليزه وأروقته ، فقد رفض أن يرافقه دي برني في خروجه .

والحقيقة أن رجلاً كان ينتظره عند منعطف أول رواق اجتازه ، وقد قاده ذلك الرجل إلى خارج القصر ، وكان يردّ على الحرّاس عندما يطلبون منه كلمة السر . وعندما بلغا الباب الخارجي ، انحنى الرجل أمام السيد جاك باحترام كبير وقال له :

— أيكون مولاي راضياً عن حارسه الحقير ؟

فأجاب السيد جاك قائلاً :

— كل الرضى يا عزيزي الكونت ، أشكرك ... في وسعك الآن أن تعود إلى القصر .

فحيّا الرجل وخطا بضع خطوات ، وعندئذٍ قال السيد جاك :

— بالمناسبة ، أتعرف السيد دي برني ؟

— نعم يا مولاي ...

— إذن ، فدع في الوقت الحاضر المهمة التي كنت قد كلفتك بها وراقب السيد دي برني ، واطلعني في مساء كل يوم على أعماله وحركاته وأقواله حتى التافه منها ...

وابتعد قائد اليسوعيين العام ودخل رفيقه القصر . وكان السيد جاك يسير في طريقه وهو يقول في نفسه :

« ما أشدّ جبن الرجال وما أقربهم إلى الخيانة ! وما أصعب الاحتفاظ بهم في الطريق القويم !... ومع ذلك فيكفي الإنسان قليل من الذكاء والإرادة ليقلب نظام الكون !... هيّا ... ولنقم بواجبنا إلى النهاية !... »

تحت الأشجار

*

في اليوم التالي ، في الصباح الباكر ، برح السيد دي برني قصر فرساي دون أن يبصره أحد وسار في طريق باريس . وكانت ذراعه لا تزال معلّقة في عنقه .

وقد أخطأ السيد جاك في الارتياب به ، فإن دي برني كان أكثر ذكاء من أن يحاول أن يخون مجدداً ، وفي ذلك خطر عظيم عليه ، فضلاً عن أنه كان معجباً كل الإعجاب برئيسه الأعلى ، ولم

يكن ما حدث بينهما في الليلة الفائتة لينقص في نفسه شيئاً من ذلك الإعجاب ، وقد قرّر ، منذ تلك الليلة ، أن يطيع أوامر رئيسه طاعة عمياء ويخدمه بأمانة وإخلاص .

وهنا ، يجب أن نضيف أن إعجابه بالسيد جاك وأمانته في خدمته لا يحولان في شيء بينه وبين الحظوة التي نالها لدى الملك بل ، على العكس ، ربما يؤدّيان به إلى أن يخدم جلالته خدمات جديدة .

وبلغ باريس ، فتوجّه رأساً إلى فندق الدلافين الثلاثة للاجتماع بالفارس داساس . ودخل الفندق ، وبعد بضع دقائق كان في غرفة الفارس ، فحيّاه وقال له :

— أتعرفني يا سيدي ؟...

فتفرّس داساس فيه هنيهة ثم هزّ رأسه سلباً . وحدق دي برني إلى الفارس بدوره فرآه شديد الشحوب محمرّ العينين بادي الكآبة ، ورأى كيس أمتعته على السرير كأنما يعدّ العدة للرحيل عن باريس.

وقال دي برني عندما هزّ داساس رأسه سلباً :

أنا أدعى دي برني يا سيدي الفارس ويقال إنني شاعر من الدرجة الوسطى .

فانحنى داساس أمام تواضعه بأدب يخالطه الفتور ، فأردف دي برني قائلاً :

— أرى أنك لم تحفل كثيراً بأمر هذا التعارف يا سيدي الفارس ، ولذلك فسأقول لك أشياء قد تثير اهتمامك أكثر . فاعلم إذن أنني أنا الذي كنت أقود في الليلة الماضية تلك المركبة التي كانت تقلّ السيدة ديتيول وصاحب الجلالة ...

فارتعش داساس ارتعاشة طويلة وألقى على محدّثه نظرة حقد هائلة وأجاب قائلاً بغضب :

ـ أراك تمارس مهناً كثيرة أيها السيد ، فإنك تارة تنظم الشعر وطوراً ...

فقال دي برني :

ـ إسمح لي أن أقاطعك ...

فصاح داساس قائلاً :

ـ ولماذا تقاطعني وقد كدت أقول ...

ـ إنني أقاطعك مرة أخرى ... فأنا أقرأ في عينيك أنك تريد إهانتي ، وإذا أهنتني اضطررنا يا سيدي إلى المبارزة هذا المساء أو غداً ، واضطررت أنا إلى الانصراف فوراً دون أن أطلعك على ما جئت لإطلاعك عليه ...

ـ ماذا تعني ؟...

ـ أعني أنني عندما كنت أقود المركبة في الليلة الماضية شاهدت كل ما حدث بينك وبين الملك وقد أعجبت بشجاعتك وشعرت فوراً بميل إليك وأدركت ما يعتمل في قلبك من الغرام، فقلت في نفسي: هوذا نبيل سيبكي لتصوّره أشياء لا وجود لها ...

فانتفض داساس انتفاضة هائلة وصاح قائلاً :

ـ لا وجود لها ؟!.. أستحلفك بالسماء يا سيدي أن توضح!.. أأكون أنا على خطأ ؟...

ـ سأكون واضحاً دقيقاً ... هل تعتقد أن السيدة ديتيول تبعت الملك بمطلق اختيارها !...

ـ أجل !...

ـ وهل تعتقد أنها تحبه ؟...

ـ أجل ، واحسرتاه !...

ـ أخيراً ، هل تعتقد أنهما لم يفترقا في تلك الليلة ؟...

فأطرق داساس برأسه ولمعت دمعتان في عينيه ، فقال دي برني :

ـ إنك مخطىء في هذه النقاط الثلاث ...

فسرت قشعريرة طويلة في جسد الفارس ، ومضى دي برني في حديثه فقال :

ـ يجب أن تعلم أولاً أن السيدة ديتيول لم تجلس في المركبة إلى جانب الملك إلا على أثر مكيدة منظّمة ، أي أنها اختُطفت اختطافاً . وقد دافعت عن نفسها بشدة وأصرّت على النزول من المركبة . ولو لم يعدها الملك بأن يقودها إلى منزل ستكون فيه كأنها في منزلها لرمت بنفسها من المركبة !...

وكان الفارس يصغي إلى قول محدّثه وهو يهزّ رأسه سلباً ويقول في نفسه :

« إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم تستنجد بي عندما لقيتها ؟... »

واستأنف دي برني كلامه فقال :

ـ صحيح أن تلك المرأة تحس ببعض الميل إلى الملك ... أو على الأقل إلى ما تراه من أبّهة الملكية وعظمتها . إلا أن ذلك لا يعنيني ... وها أنا قد وصلت إلى النقطة الثالثة وهي أن السيدة

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ديتيول تقيم الآن في منزل صغير في فرساي لم يدخل إليه الملك إلى هذه اللحظة وأنها لم تدخل ذلك المنزل إلا بعد أن أجاز لها الملك أن تستقبل فيه من تشاء من الناس ... حتى زوجها .

وقد تلفظ دي برني بالكلمتين الأخيرتين « حتى زوجها » وهو يضحك ، فأمسك داساس بذراعه وقال له :

ـ هل أنت واثق مما تقول ؟

فقال دي برني وهو يطلق صيحة ألم :

ـ يا للشيطان ! هل تنسى يا سيدي أنك حطمت كتفي ؟..

ـ عفواً ... أهي إذن طلقة غدّارتي ؟...

وتألّم الفارس عندما علم أنه هو الذي آذى محدّثه ، إلا أن دي برني أسرع يطمئنه بقوله :

ـ إنه جرح بسيط في جميع الأحوال وسيلتئم قبل ثمانية أيام ، إلا أنه علّمني أن لا أهتمّ بسوى المهنة التي خُلقت لها ، أي نظم الشعر !...

وعاد إلى متابعة الحديث الذي قطعه عندما قبض الفارس على ذراعه ، فقال :

ـ أجل ، أنا واثق من أن الملك لم يدخل إلى الآن ذلك المنزل ... أقسم لك بشرفي !...

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ إنك تحب أيها الفارس وأنا أحب أيضاً . على أنني لا أحب السيدة ديتيول ، كن مطمئناً ، بل أحب فتاة لطيفة ظريفة هي وصيفة السيدة ديتيول . سيزون .. إسمها سيزون .. لا تكتم عني

شيئاً ، فهي تطلعني على كل ما يهمني ويهم أصدقائي . ويسرّني أن تكون من أولئك الأصدقاء يا سيدي .

ومدّ داساس يده إلى دي برني يصافحه ، وطلب من خدم الفندق أن يأتوه بزجاجة من خمر إسبانيا . واستمرّت الأحاديث طويلة ممتعة . وقد أجاب دي برني عن كل سؤال طرحه عليه داساس ، فقال إنه يكره الملك ويروقه أن يلعب معه دوراً مؤذياً ، وطلب من الفارس أن يسير معه إلى فرساي ليرشده إلى المنزل الذي تقيم فيه السيدة ديتيول . وعندما رأى منه قبولاً وموافقة ، قال له :

ـ إذن ، فعليك أن تتبعني دون أن يبدو ذلك عليك وتقف أمام المنزل الذي أقف أمامه ، ولكن أوصيك بأن تتجاهلني حتى ولو لقيتني وجهاً لوجه .

فقال الفارس :

ـ كن مطمئناً ، فإنني لن أعرفك مهما حدث ...

ـ إذن ، فهيّا بنا !...

وغادر الشابان الفندق فامتطى كل منهما جواده وليثا يسيران جنباً إلى جنب إلى أن خرجا من باريس . وهناك ودّع كل منهما الآخر وابتعد دي برني عن داساس نحواً من مائتي خطوة .

وكان الليل قد أخذ في الهبوط عندما بلغا فرساي ، فدار دي برني حول جناح القصر الأيمن وسار على مهل إلى أن بلغ منزلاً صغيراً منعزلاً ، فرآه داساس يترجّل عن جواده أمام ذلك المنزل ويقف هنيهة ، ثم رآه يمتطي جواده مجدداً ويتوارى .

وأدرك داساس قصد رفيقه من تلك الحركة فترجّل فوراً

وربط جواده إلى جذع شجرة وسار نحو ذلك المنزل ، فوقف تحت الأشجار على بعد عشرين خطوة من الواجهة وأخذ يتفحّصه ويقول في نفسه :

« هنا ! إنها هنا ! ولا يمكن أن يكون ذلك الشاب قد خدعني ، فأيّة فائدة له من خداعي ؟... أجل ، إنها هنا !... فلماذا لا أدخل وأحدثها بما أعانيه من الألم ؟... »

إلا أن داساس لم يكن وحده أمام المنزل الصغير في تلك اللحظة بل كان هناك رجل آخر وقف يراقب ذلك المنزل هو أيضاً ، وكان يلتف بعطف فضفاض رفع ياقته إلى عينيه . وحانت منه التفاتة فأبصر الفارس فابتسم وأسرع يستتر وهو يقول في نفسه :

« أنجز دي برني وعده ، وهذا هو الفارس ... إن أمثولة تلك الليلة أعطت ثمارها !... »

ولم يكن ذلك الرجل سوى السيد جاك .

ولبث الفارس داساس ينظر إلى المنزل ، وقد حاول أكثر من ثلاث مرات أن يتقدم من الباب ويطرقه إلا أن الخجل منعه . ومع ذلك ، ولكثرة ما أكد لنفسه أنه لن يستطيع أن يعيش ما لم يتزوّد من جان ولو بنظرة واحدة ، فقد انتهى به الأمر إلى أن ينفصل عن جذع الشجرة الذي كان قابعاً وراءه ويتقدم بضع خطوات إلى الأمام ، وعندئذٍ اصطدم برجل كان يسرع في سيره ، فصاح الرجل قائلاً :

ـ إلى الشيطان أيها المزعج !

فأجاب داساس قائلاً بغضب :

ـ إلى الشيطان أيها الأعمى !

وعندئذٍ قال الرجل بسخرية لاذعة :

ـ ولكن ، ها هو ذلك العزيز داساس على ما أظن !...

فقال داساس وقد عرف الرجل :

ـ الكونت دي باري !

وكان الرجل هو الكونت دي باري فعلاً ، وقد أقبل يطوف حول المنزل تنفيذاً لبعض أوامر تلقاها دون شك . وعندما أيقن من أن داساس أمامه ألقى إلى ما حوله نظرة سريعة فرأى المكان موحشاً مقفراً . وانفجر حقده الهائل فتذكر أن داساس أهانه وأذلّه وجرحه ، وتذكر أيضاً أن السيد جاك الرهيب كان يقف دائماً حائلاً بينه وبين الفارس . أما الآن فإن السيد جاك بعيد وليس له إلا أن ينقضّ على خصمه بطعنة سيف يقضي بها عليه ، وإذا لم تكن القاضية ، إذا جرح الفارس فقط وأصبح تحت رحمته ، فإن الخنجر كفيل عندئذٍ بالإجهاز عليه .

وتراجع داساس خطوتين ، فقد كان يعلم أن دي باري ينطوي له على عداء شديد ، وكان هو أيضاً يمقت الكونت رغم قول السيد جاك له إنه ساهم في إنقاذه من الباستيل .

وعندما تراجع داساس ، رفع قبّعته وقال بأدب :

ـ بلغني أيها الكونت أنك بذلت جهوداً كبيرة في سبيل إنقاذي من الباستيل ، وأنا أشكرك شكراً جزيلاً ...

فقال دي باري :

ـ إنك تدهشني يا سيدي ، فأنا أجهل تماماً أنني ساعدت على

إخلاء سبيلك ...

فأعاد داساس قبّعته إلى رأسه وقال :

ـ إذن ، فقد أخطأتُ في شكرك وأنا آسف على ما بدر مني.

فقال دي باري في لهجة ساخرة :

ـ دع عنك هذه الترهات ، فإنك ما قدّمت لي الشكر إلا بسبب الخوف .

فصاح داساس قائلاً وقد أدرك مقصد الكونت :

ـ أيّ خوف ؟...

ـ الخوف من أن أناقشك الحساب على طعنة سيف فاجأتني بها ... فإذا كان الناس عندكم في أوفيرن يفون دين الشرف بالثناء والشكر ، فاعلم أن تلك العملة لا أقبلها مطلقاً ...

فأجاب داساس قائلاً ببرودة جليدية :

ـ إن الناس في أوفيرن لا يستردّون الثناء والشكر إلا احتقاراً منهم لسيف الرجل الذي يقف أمامهم ...

فصرف دي باري بأسنانه وصاح قائلاً :

ـ إذن ، فاستعدّ !

وألقى كل من الرجلين معطفه جانباً واستلا حساميهما ووقفا وقفة الحذر ، وزمجر دي باري قائلاً :

ـ إحذر لنفسك هذه المرة ، فإنني لن أراعيك .

وانقضّ عليه بطعنة صاعقة ، فردّها داساس وقال ساخراً :

ـ إنك مختلّ الشعور أيها السيد ، إلا أنني سأكون أكثر منك تسامحاً وسأراعيك مكتفياً بأن أسِمَكَ في خدّك ..

www.mlazna.com

فزأر الكونت قائلاً :

ـ أيها الشقي الحقير ! إنها المرة الأخيرة التي تسخر فيها مني !

وانقضّ عليه في وحشيّة ، إلا أن رجلاً اندفع فجأة من حيث لا يدريان فوقف بينهما وقال بلهجة الأمر :

ـ إخفضا السلاح !...

فزمجر دي باري قائلاً :

ـ تنحّ أيها السيد ، وإلا فوحقّ الشيطان ...

فأزاح الرجل معطفه وإذا هو السيد جاك . قال يخاطب دي باري :

ـ أغمد سيفك ، أنا آمرك بذلك ...

فبدرت من دي باري حركة تمرّد ، إلا أن نظرة واحدة من السيد جاك قضت على كل ما اعتمل في نفسه من ثورة ، فأطاع وهو يقول :

ـ لقد فقدت شرفي !...

فقال داساس :

ـ لا تقل ذلك أيها السيد ، فإنني رهن إشارتك عندما تريد ..

فقال بحنق :

ـ شكراً يا سيدي !

وعندئذٍ استدار السيد جاك نحو الفارس داساس وقال :

ـ أصغ إليّ ولو مرة واحدة يا ولدي ، إن الكونت دي باري ليس صديقك ولا أنت صديقه ، ولكن يجب أن تكونا حليفين ...

فقال داساس بأنفة :

— في أيّ مشروع ؟... في أيّة مهمة ؟...

فأخذه السيد جاك على حدة وقال له :

— أصغِ إليّ يا ولدي ، فأنا الذي أنقذتك من الباستيل وأنا الذي آسيتك وأنا الذي احتفظت لك بالسيدة ديتيول إلى الآن نقية طاهرة ...

فارتعش داساس وأردف السيد جاك قائلاً :

— أنا الذي أبلغتك أن أحدهم يريد اختطاف السيدة ديتيول وأرسلتك في أثر المركبة التي كانت تقلّها ، وأنا الذي أوفدت إليك هذا الصباح السيد دي برني ... واعلم أنني لا أزال مصمّماً على منع الملك عن هجر الملكة ماري ، فضلاً عن أن هناك أسباباً معنويّة وسياسيّة تأبى عليّ أن أدعه يمتلك السيدة ديتيول ... هل تصدّقني ؟...

فتصاعد الدم إلى وجه الفارس وأجاب قائلاً :

— أجل ، أنا أصدّقك ... إنني أجهل من أنت وأجهل الأسباب الحقيقية التي تدعوك إلى سلوك الطريق الذي تسير فيه... إلا أنني أصدّقك !...

— هذا كل ما أريده ، فإن معرفة الأسباب والدوافع الحقيقية التي تجعلني أتصرف كما أتصرف لا تهمك في كثير أو قليل ، وكل ما يهمك هو أنني أريد أن أحول بين الملك والسيدة ديتيول إلى الأبد ... إن في ذلك مصلحة لي ولك . إذن ، ألا ترى أننا حليفان ؟

فقال داساس وهو يلهث :

— أجل ، إننا حليفان !

— والآن ، أصغِ إليّ جيداً . إن الكونت دي باري مكلّف بمراقبة هذا المنزل ليمنع الملك بالقوة ، إذا لزم الأمر ، عن الدخول إليه ... ألا تراه حليفاً لك ؟...

فصمت داساس ، واستأنف السيد جاك قائلاً :

— أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً دون الكونت دي باري ، أتسمع ؟... ولك أن تقاتله إذا شئت ، ولكن عندما تصبح السيدة ديتيول في مأمن من كل خطر ...

— وكيف أعرف ذلك ؟...

— سأخبرك به بنفسي إذا وعدتني بأن تعتبر شخص الكونت دي باري مقدّساً إلى ذلك الحين ...

فقال داساس :

— أقسم لك على ذلك .

— هذا كل ما أريده يا ولدي ، وداعاً ... بل إلى اللقاء القريب !... بالمناسبة ، أين تقيم ؟...

— ولكن ... في فندق الدلافين الثلاثة ، وأنت تعرف ذلك يا سيدي .

— أجل ، ولكنني لا أسألك عن محل إقامتك في باريس بل هنا في فرساي !...

— ليس لي محل إقامة في فرساي يا سيدي .

فرفع السيد جاك ذراعيه نحو السماء ، وقال بعطف

بالغ :

— يا للعشّاق ، ما أقصر نظرهم وما أشدّ تهورهم ! يجب أن تقيم في فرساي يا ولدي وسأدلك على منزل ...

فقاطعه داساس قائلاً :

— ولكن أمتعتي كلها في باريس .

— دع عنك القلق ، فسيأتونك بها .

— وليس في كيسي سوى قليل من المال .

— لا عليك من هذا الأمر ، فإنك لن تدفع شيئاً في المنزل الذي أريد أن أرسلك إليه . سر في هذا الطريق الذي أمامك إلى نهاية الشارع ، وهناك أدخل زقاق الحزّانات وقف أمام باب المنزل الرابع إلى اليسار واطرقه طرقتين ، وقل للذي سيفتح لك إنك مرسل من قبل السيد جاك .

قال السيد جاك ذلك وأشار إلى الفارس إشارة وداع لطيفة ، ثم اقترب من الكونت دي باري فأمسك بذراعه وجذبه إليه وقال له :

— هل أنت مجنون يا عزيزي الكونت ؟... كيف تعترض سبيل ذلك الشاب المحترم في اللحظة التي كان يحاول فيها دخول المنزل ، بل كيف تبارزه وتقاتله ؟... ألا تعلم ماذا يحل بمشاريعي إن أنت جرحته أو قتلته ؟...

فزمجر دي باري قائلاً :

— إنني أكرهه !

— أعرف ذلك ... ولشدّ ما يؤلمني أن لا أجد حولي سوى

رجال لا يستطيعون أن يسيطروا على نزواتهم ! ولكن إصبر قليلاً ، ألا تستطيع الصبر ؟... وعندما يحين الوقت سأسلمك الفارس الصغير .

فقال دي باري بفراغ صبر :

— متى يكون ذلك ؟

سأقول لك ... والآن ، أريد منك أن تكون حليفه ، ويجب عليك أن تحترمه وتعتبر شخصه مقدساً . وبما أنك وعدتني بذلك قبلاً ونكثت بوعدك ، فأنا أريد الآن أن تقسم ...

فتردّد الكونت هنيهة ، ثم قال :

— أقسم لك .

فقال السيد جاك في لهجة قاسية :

— حسناً !

فأدرك دي باري أيّ تهديد يكمن وراء تلك اللهجة إن هو حنث بيمينه ، واستأنف السيد جاك قائلاً :

— وجوليت ؟... هل وصلت ؟...

— إنها في منزل زقاق الحزّانات منذ ساعتين .

— حسناً ، حسناً . قل لي يا عزيزي الكونت ، هل أنت بحاجة إلى المال ؟... أجل ... إذن ، فتعالَ إلى منزلي هذا المساء ... أما بشأن جوليت فكن على استعداد للذهاب بها عندما يبلغك دي برني أوامري ...

وابتعد الرجلان في اتجاه فرساي والسيد جاك لا يزال ممسكاً بذراع دي باري .

في ضيافة السيد جاك

*

ولبث الفارس داساس وحده وقد أدهشته دعوة السيد جاك الغريبة واللهجة التي وُجّهت بها والتي كانت أشد غرابة. أيقبل ؟..

إن ذلك الرجل كان يثير عجبه ويخيفه رغم أنه هو الذي أنقذه من الباستيل وأرشده إلى مقرّ جان .

وأحسّ الفارس أنه سيلبّي تلك الدعوة وأنه سيذهب إلى ذلك المنزل الذي قُدّم له مع علمه بأنه قد يستسلم ، بعمله ذاك ، إلى ذلك الرجل الرهيب المتمتّع بقوة هائلة والمحاط بالأسرار والألغاز.

وبدت له العودة إلى باريس في مثل الظروف التي كان فيها ضرباً من المستحيل ، فإن وجوده في فرساي ضروريّ لحماية جان والدفاع عنها، أما إذا غادر فرساى فإنها قد تقع في مخاطر تؤدي بها إلى العار وربما إلى اليأس والموت ...

وأوشكت النقود القليلة التي كان يحملها أن تنفد ، فإنه جاء إلى باريس وهو يظن أنه سيبرحها خلال وقت قصير . ولذلك فقد اكتفى بمبلغ صغير حمله معه لا يتعدّى راتبه الشهري . قال في نفسه :

« عليّ أن أذهب إلى ذلك المنزل ، وسوف أرى ما يجدّ بعد ذلك !... أما أن أغادر فرساي ... فذلك مستحيل ، وقد حان الوقت لأجازف بكل شيء حتى بالأنفة والكرامة !»

ونقم على نفسه ، إلا أن الحب سرعان ما اتّقد في صدره فأرسل على أطراف أصابعه قبلة نحو منزل جان، ثم سار نحو جواده فاعتلى صهوته . وبعد بضع دقائق بلغ زقاق الخزّافات فوقف أمام المنزل الرابع لجهة اليسار ، وهو منزل حقير في ظاهره يتألّف من طابق واحد فيه ثلاث نوافذ مغلقة .

فطرق الباب طرقتين، وبعد هنيهة فُتحت كوّة في ذلك الباب وخُيّل للفارس ، خلال لحظة خاطفة ، أنه يبصر وجه السيد جاك.

إلا أن داساس جزم بأنه كان مخطئاً ، إذ أنه ، عندما فُتح الباب بعد ثانيتين فقط ، أبصر خادماً وقف أمامه وقال له بدهشة:

— ماذا تريد يا سيدي ؟...

فكاد داساس يجيب بأنه أخطأ الطريق ، وصمّم على الانصراف إلا أن فكرة إنقاذ جان عادت فوراً إلى مخيّلته فأجاب قائلاً :

— أنا آتٍ من قبل السيد جاك ...

فعندما سمع الخادم اسم السيد جاك تبدّلت ملامحه من العبوس إلى البشاشة وصفّق بيديه وقال للخادم الذي أسرع يلبي نداءه :

— خذ جواد هذا السيد إلى الإسطبل .

ثم استدار نحو داساس ودعاه إلى الدخول بإشارة من رأسه ، فدخل الفارس وسار به الخادم في رواق ضيّق ثم صعدا درجاً وهبطا آخر ، وعندئذٍ رأى داساس نفسه في فناء فسيح تقوم على جوانبه ثلاثة مساكن صامتة مظلمة كأن لا أحد فيها . وكان أحدها يقع إلى اليسار والآخر قبالته تماماً إلى اليمين ، أما الثالث فكان في نهاية الفناء .

www.mlazna.com
AKRAHEEN

فاتجه الخادم نحو المسكن الذي على اليسار وقال للفارس :

— هل لك أن تتبعني يا سيدي الضابط ؟

فأمسك داساس بذراع الخادم وقال له :

— ألعلّ خبر مجيئي قد بلغك أيها الصديق ؟

فأجاب الخادم قائلاً :

— كلا يا سيدي ، مطلقاً . إلا أن لدينا هنا ثلاثة مساكن خالية معدّة لاستقبال الضيوف ، وهم في معظمهم من النبلاء المحترمين الذين يشوقهم أن يقيموا في فرساي مختبئين إما لهفوة ارتكبوها وإما لسبب آخر ، وفي جميع الأحوال ، أنا لا أسألهم مطلقاً عن ذلك .

وولج الرجلان قاعة جميلة فاخرة الأثاث وأوقد الخادم المشاعل فإذا هناك مكتبة وأرغن ، أي ما يلهو به كل من أراد الاختباء، فقال داساس :

— من هو مولاك ؟

فأجاب الخادم قائلاً بدهشة :

— ولكنه السيد جاك الذي أوفدك إلينا !...

— وتقول إن فريقاً من النبلاء يختبىء في هذا المنزل ؟...

— أجل أيها الضابط ، وكلهم مثلك ، من الشبان الذين قامروا وخسروا مالهم ... أو شقّوا عصا الطاعة على السلطة ... أو أغوا بعض النساء فقامت عليهم قيامة أزواجهن... وكل هؤلاء الملتجئين إلينا يمكنهم أن يقيموا هنا ما طابت لهم الإقامة ويستطيعون أن يذهبوا عندما يروق لهم ... إلا أنك يا سيدي عاثر الحظ ...

فسأل داساس قائلاً :

— لماذا ؟

— لإنك الآن وحدك هنا ، وسوف يعتريك الضجر ، فإن المنزل يخلو اليوم من الضيوف... إلا أن ذلك الضجر سيطهر نفسك من أدران الخطيئة التي ارتكبتها ... وفي جميع الأحوال ، فإنني تحت مطلق تصرفك وإذا كان في استطاعتي أن أنفي عنك الضجر..

فقاطعه الفارس قائلاً بلطف :

— شكراً ، شكراً يا صديقي ...

وبدا له السيد جاك في تلك اللحظة كأنه رسول العناية الإلهية إلى السيّئي الحظ والمتعبين واليائسين ...

واستأنف الخادم كلامه فقال :

— هذه غرفة النوم ، وتلك قاعة الطعام ، وهذه كتب المطالعة ، وهذا هو الأرغن إذا كنت من المولعين بالموسيقى . والآن ، إذا أردت أن تحيطني علماً بمواعيد طعامك وبما يروقك أن تأكله في تلك المواعيد ...

فبدرت من داساس إشارة عدم اكتراث ، فألحّ الخادم قائلاً :

— تفضّل وحدّد لي على الأقل نوع الخمر الذي تشربه .

— أتريد إذن أن تعاملني كأنني أحد الأمراء ؟...

— وما يدريني إن لم تكن أميراً متنكّراً ؟... فقد جاءني مرة أحد أولئك الأمراء ، وكدت أفقد وظيفتي لأنني لم أحضر له الشمبانيا ذات مساء ... ومنذ ذلك الحين دأبت على اتخاذ كل حيطة ، فإن كل ما تطلبه ستجده عندي ...

— إذن ، فإن سيدك غني جداً ، أليس كذلك ؟

— لا أعلم ، وكل ما أعرفه أنه ينفق على ضيوفه دون حساب.

فقال داساس :

— أريد أن أختبر ذلك بنفسي فوراً ، فإنني لم أذق طعاماً منذ الصباح وأشعر بشهية جهنمية . فانظر في خزانتك وجئني ببعض اللحوم الطرية وبزجاجة من الخمر المعتقة الذكية الطعم والرائحة ...

فقال الخادم :

— إن كل شيء جاهز يا سيدي .

وفتح باباً ودعاه إلى الدخول ، فاجتاز الفارس الباب وإذا هو في قاعة للطعام أُعدّت فيها مائدة أنيقة حوت كل ما لذّ وطاب من لحوم وطيور وخمر فاخرة يأخذ لونها باللبّ. فقال داساس متعجباً :

— إن ما أراه أشبه بالأساطير وأيم الحق !...

وجلس إلى المائدة وأخذ يأكل ويسرّح بصره في جوانب القاعة ، وكان كل ما فيها ثميناً أنيقاً يحمل الحرف الأول من اسم السيد جاك .

وعندما انتهى من الطعام، أحسّ بدوار خفيف في رأسه وبدت له الحياة زاهرة زاهية بلون الورد ، وشعر بقوة هائلة تتفجر في عروقه ، قوة غلابة يستطيع أن يقهر بها أي إنسان حتى الملك نفسه . وماذا في ذلك ؟... ألم يقاوم الملك في ما مضى ؟...

وكان يستنتج من كل ما يعرفه إلى تلك اللحظة أن جان لا تزال تقاوم لويس الخامس عشر ، ولماذا تفعل ذلك إذا كانت تحب الملك

حباً صحيحاً؟... إذن، فهي لا تحبه وكل ما بها لا يتعدى الإعجاب بأبّهة الملكية وعظمتها .

وتذكر أن جان فكرت فيه قبل أي إنسان وهي في مصابها ، وتذكر تلك النظرة العذبة التي ألقتها عليه في حفلة قصر المدينة ..

وعاد الأمل إلى نفسه ، فطلب من الخادم أن يقوده إلى غرفة النوم ففتح الخادم باب غرفة جميلة فاحت منها الروائح العطرية والتمعت نار لطيفة في مدفأتها ، وكان الفارس المسكين ينتقل من مفاجأة إلى مفاجأة حتى خُيّل له أخيراً أن ما يراه أمامه لم يكن سوى أسطورة تحققت .

وعندئذٍ قال له الخادم :

— بالمناسبة ، إذا راقك يا سيدي أن تخرج هذه الليلة في مهمة من مهمات الحرب ... أو الحب ...

فقاطعه داساس قائلاً :

— إذن ؟...

ففتح الخادم خزانة كبيرة واستأنف كلامه قائلاً :

— هذان ثوبان بلائمان قامتك تماماً ولا يمكن لأحد أن يعرفك وأنت ترتدي أحدهما ، وهذان معطفان ، وهذان قناعان يمثلان وجه ذئب ، وهذه غدارات وسيوف من مختلف الأحجام والأنواع لك أن تختار منها ما تريد ...

وكان الثوبان جديدان فاخران وكذلك المعطفان ، وكانت السيوف متينة مصقولة والغدارات محشوّة ، فقال داساس :

— إن لديّ هنا كل ما يلزم لمجابهة حصار .

فأجاب الخادم قائلاً بلامبالاة :

— أو لشنّ هجوم ، وقد اتفق لأحد أولئك الشبان المجانين الذين نزلوا هنا قبلك أن تحمّس عندما رأى هذه المعدّات فراح يهاجم بمفرده منزل تلك التي يهواها ... أواه ! إننا نتوقّع كل شيء يا سيدي ...

فارتعش داساس ومرّ بيده على جبهته ، وانصرف الخادم واختفى .

فلبث داساس وحيداً يتفحّص بدهشة بالغة الثياب المعلّقة في الخزانة ، ومدّ يده إلى الثوبين فإذا في جيب كل منهما كيس منتفخ . فصاح قائلاً :

— يا لله !... إن هذا يتعدّى الأحلام !...

وتناول أحد الكيسين فوجد فيه مائة قطعة ذهبية وورقة تحوي بضعة أسطر ، فصاح يقول :

— ألفا فرنك !... يا لله !... هذا يعادل راتبي عن ثمانية أشهر !... ولا يوجد مبلغ مماثل في الكيس الآخر !... وعندئذٍ قرأ الورقة ، وكانت موقّعة بحرف « جيم » وقد جاء فيها ما يلي :

« أنفق دون خوف ، فإن هذا المال للمصاريف الصغيرة وقد خشينا أن نزعجك فلم نضع أكثر . وفي جميع الأحوال ، فعندما يفرغ أحد الكيسين سلمه للخادم الذي خصصناك به فإن لديه الأمر بأن يملأه لك ... كن شجاعاً أميناً صبوراً . »

فزمجر داساس قائلاً :

— أقسم بالله أنني سأقبل ما دام الأمر كذلك ! أريد أن أرى

إلى أين ستنتهي بي هذه الغرائب !... أعتقد أنني شجاع وأمين . أما الصبر فإنه مسألة أخرى ، مسألة فيها نظر !... ويُخيّل لي أن السيد جاك المحترم يلعب لعبة غريبة ، فماذا يريد ؟... إنه يعاملني كأنني صديق قديم ... بل يعاملني معاملة الوالد العطوف ... إذن ، فلأصبر وسنرى ما يجدّ !...

وأوى إلى سريره ، ولم يلبث أن نام نوماً عميقاً وراح يحلم أنه في قصر أسطوري وأن كل ما يلمسه يستحيل ذهباً خالصاً ، وأن جان معه في ذلك القصر وهي تمدّ له ذراعيها باسمة هانئة ...

المسكن المقابل

*

بينما كان داساس غارقاً في نومه وأحلامه العذبة في المسكن الذي على اليسار ، كانت تجري حوادث غريبة في المسكن المقابل الذي يبدو أنه مهجور .

وكان هذا المسكن صورة طبق الأصل عن المسكن الذي ينام فيه الفارس إلا أن أثاثه كان أكثر أناقة وألطف منظراً كأنما جُهّز على تلك الصورة لتسكنه النساء .

وكانت تسكنه امرأة ، وهي جوليت باكو المومس التي قدّمها الكونت دي باري في حفلة قصر المدينة باسم الكونتيس دي باري .

www.liilas.com ^RAYAHEEN

وجلس في القاعة الصغيرة شخصان يتحدّثان باهتمام وحماس ، وهما الكونت الحقيقي والكونتيس الزائفة . وكانت جولييت باكو قلقة مضطربة خائفة وكان دي باري يحاول تهدئة روعها وإزالة قلقها واضطرابها .

وقالت المومس كأنها تتابع حديثاً سابقاً :

— ولكن ماذا يريد مني ؟... فإذا كان الملك مغرماً بتلك الدمية ، ماذا أستطيع أن أفعل أنا ؟...

فأجاب دي باري قائلاً :

— أصغي إليّ يا عزيزتي ، فأنا أريد أن أوضح لك خطة ذلك الرجل الذي هو مولانا في الوقت الحاضر والذي ندين له بالطاعة العمياء ... وهي خطة بسيطة للغاية وعمليّة للغاية ، فإن السيدة ديتيول موجودة في منزل ... إفترضي أنه المنزل المقابل الذي رأيته عندما دخلت إلى هنا .

— إنه غير مأهول ...

— هذا صحيح ، ولكن افترضي أنه مأهول ، وأن السيدة ديتيول بالذات هي التي تقطنه ... أتفهمين ؟... أنت هنا ... والسيدة ديتيول في المنزل المقابل ... ولتتابع الافتراض ، هي أن السيدة ديتيول جاءت تأخذ مكانك على أثر مناورة سأوضحها لك فيما بعد ...

— تأخذ مكاني هنا ؟

— أجل هنا ، وتكونين أنت قد أخذت في الوقت نفسه مكانها في المنزل الذي تسكنه ...

— وبعد ذلك ؟...

— ألا تفهمين ؟...

— كلا يا عزيزي ، فإنني لا أرى سوى أحاجٍ وألغاز .

— ومع ذلك فالأمر بسيط ...

— وعمليّ ، على حدّ قولك !...

— أجل ، إنه كذلك . فلنفترض أن ملك فرنسا تلقّى في إحدى الليالي المظلمة كلمة من السيدة ديتيول تدعوه فيها إلى قربها ، ولنفترض أيضاً أن الملك سار إلى الموعد وبلغ المنزل ودخله فرأى الأنوار مطفأة بسبب حياء السيدة الصغيرة ... وفجأة رأى نفسه بين ذراعي امرأة ليست سوى ...

فقاطعته قائلة :

— جولييت باكو ، كونتيس دي باري !... هذا رائع !..

— أليس كذلك؟ وعندما يلاحظ الملك ذلك التبديل ، عندئذٍ سيكون عليك أن تزيلي من نفسه كل أسف ...

فصاحت المومس قائلة بعزم :

— إنني أتكفّل بذلك ! ولكن ماذا يحل بالسيدة ديتيول في ذلك الوقت !

— إنها ستكون هنا كما قلت لك ، ويكون في المنزل المقابل شاب جميل يعبدها ، فما أن يراها حتى يجثو عند قدميها بينما يجثو الملك عند قدميك ، ويبرهن لها على أن الحب والشباب يساويان الملكية بينما تبرهنين أنت للويس الخامس عشر على أن خطأه في شخصية المرأة التي يضمها بين ذراعيه ليس بذي بال .

فقالت جولييت :

— إنها حقاً خطة مثالية !

— أجل ، إنها كما تقولين . فقد أعددنا كل شيء ونظمنا كل شيء وتوقّعنا كل شيء ... والآن ، افترضي أن ذلك الشاب الظريف الذي حدثتك عنه ...

— ذلك الذي سيجثو عند قدمي الدمية الصغيرة ؟ ...

— أجل ، إفترضي إذن أن ذلك الشاب قد أهان في الماضي رجلاً شريفاً ... مثلي ، وأن عليه أن يؤدي حساباً لذلك الرجل. فلا يكاد يخرج من غرفة معبودته ، بعد أن يقضي فيها ما طاب له من أوقات الغرام ، حتى أتصدّى له — أنا أفترض أنني ذلك الرجل المهان وأضع نفسي مكانه — وأقول له : إلينا نحن الاثنين يا داساس !...

— أيدعى داساس ؟...

فضحك دي باري ضحكة رهيبة وقال :

— أجل ، ولا ريب في أنه سوف يحاول أن يشهر حسامه ليشرّفني بالقتال ، إلا أنني ، قبل أن يتمكن من ذلك ، أكون قد أغمدت خنجري في صدره إلى القبضة ... والآن إليك أجمل ما في الخطة ؟...

فقالت جولييت وهي ترتعش :

— ما هو ؟...

— عندئذٍ يهرع بعض ذوي النوايا الحسنة فيأتون برجال الشرطة، فيصل هؤلاء ويرون الجثّة أمام باب السيدة ديتيول التي تكون

هي أيضاً قد أهانت في الماضي ذلك الرجل الشريف الذي حدثتك عنه ...

— أي أنت ؟...

— لا يهم فيما إذا كنت أنا أو سواي، وعندئذٍ تنزل بالصغيرة ديتيول تهمة القتل فيقبض رجال الشرطة عليها وتبدأ محاكمتها . وسيكون هناك لا أقل من عشرين شاباً يشهدون بأنها جرّتهم إلى هذا المكان لترتوي من الفسق والفجور ، ثم حاولت أن تقتلهم واحداً واحداً كما كانت تفعل مرغريت دي بورغونيا بعشّاقها بعد ليلة واحدة من ليالي الغرام ... فيحكم على السيدة ديتيول بالموت وينفّذ فيها الحكم وتلبثين أنت وجدك سيدة الموقف ... ألا يسرّك ذلك ؟...

فقالت جولييت في نفسها :

« يا للفظاعة ! يا للفظاعة ! »

وقالت تخاطب دي باري :

— يا للخطة الجهنمية ! أتكون أنت صاحبها ؟

فقال دي باري بصوت قاسٍ :

— لقد أبديت بعض الملاحظات في الجزء الذي يتعلق بالرجل الشريف الذي أهين ...

وساد صمت ثقيل استمر بضع دقائق راحت جولييت تتأمل محدّثها خلالها بخوف ورعب ، وكان دي باري يحدّق إلى النار بعينيه القاسيتين ويبتسم ابتسامة قاتمة وهو تائه في عباب التفكير . ولم يلبث أن قال كأنه يخاطب نفسه :

ــ أجل ، إننا أعددنا كل شيء ورتبنا كل شيء وتوقّعنا كل شيء ، فلا الملك .. ولا هي .. ولا هو ، خاصة هو ، يستطيعون أن ينجوا منا .

ــ ومتى يجب أن يتم كل ذلك ؟...

ــ إن الأمر أصبح الآن في يد دي برني ...

ــ دي برني ... ذلك الشاعر الصغير ؟...

ــ بل ذلك الرجل الكبير .

ولم تدرك جوليت باكو من لهجة الكونت ما إذا كان يقول ذلك عن صدق واقتناع أو أنه يريد الهزء والسخرية ، فقالت :

ــ وما شأن دي برني في كل ذلك ؟ إنني لم أتحدث إليه سوى مرتين ، وقد بدا لي أنه مختل الشعور ... أريد أن أعلم ...

فألقى دي باري على المومس نظرة حادة وقاطعها قائلاً :

ــ أرى أنك تريدين معرفة أشياء كثيرة أيتها العزيزة ...

فارتعشت جوليت ، إلا أنها أخفت اضطرابها تحت ستار من اللامبالاة ، فاستأنف دي باري كلامه قائلاً :

ــ على كلٍ منا أن يقوم بتمثيل دوره في هذه المأساة ، فإن لدي برني دوره ولي دوري ولك دورك . وكل ما يُطلب منك هو أن تحسني تمثيل دورك دون أن تهتمّي بسواك ...

ــ هذا صحيح ، ومع ذلك فأنا أريد أن أعرف شعورك تجاه ذلك الرجل الذي يقودنا ويعيّن لنا الأدوار .

ــ السيد جاك ؟...

ــ أجل !... فمن هو ؟ وماذا يريد ؟ وماذا يدعى ؟

فأجاب قائلاً بصوت ارتعدت له فرائص جوليت :

ــ إن السيد جاك يدعى السيد جاك . أما من هو وماذا يريد ، فذلك ما أجهله كما تجهلينه . وكل ما أعرفه أنه يدفع بسخاء يفوق سخاء الملوك ، وأنه يوحي إليّ بإعجاب وخوف لا حدّ لهما ، وأعرف أيضاً أنني أفضّل أن أصطدم بالملك نفسه على أن أصطدم بذلك الرجل المخيف الذي يعلم كل شيء ويسمع كل شيء ، ولا أكون مبالغاً إذا قلت لك إن رجاله منتشرون في كل مكان حتى في قاعات قصر اللوفر ودواوينه يطلعونه على كل شاردة وواردة . هذا كل ما أعرفه عنه ، وإنني ، لأجل دوام النعمة التي أسبغها عليّ ، لا أحاول مطلقاً أن أكتشف ما يريد أن يخبّئه .. وإذا كنت ذكيّة ، فعليك أن تفعلي كما أفعل .

وكان دي باري يتكلم بصدق كليّ هذه المرة . وقد تأثرت جوليت باكو بالخوف الذي استولى على رفيقها الرهيب وهو يتحدّث عن السيد جاك فلم تجرؤ على الإلحاح ، قالت :

ــ مهما يكن من أمر السيد جاك فإنه يعاملني معاملة حسنة .. وهذا المنزل ... بل هذا السجن ... يرضيني بما يحويه من نفائس وتحف ، وماذا تريد فتاة فقيرة مثلي أكثر من ذلك ؟...

فقال دي باري بسخرية لاذعة :

ــ فتاة فقيرة ؟... أنت ؟... ولكنك كونتيس يا عزيزتي ، فلا تنسي ذلك أبداً .

ــ إنني لا أنسى ذلك على المسرح ، أما هنا ، وراء الستار ..

فقاطعها صوت يقول فجأة :

www.mlazna.com
RAYAHEEN

— إنك مخطئة يا ابنتي .

فارتعش دي باري وجوليت واستدارا كتلة واحدة ، فإذا هما في حضرة السيد جاك ، فشحب وجهاهما وشلّ الرعب قواهما .

من أين دخل ؟ وكيف انتصب في وسط القاعة وهو يبتسم ابتسامته الأبوية ؟...

وكانت الأبواب كلها مقفلة ، فلم يبقَ من ريب لديها في أنه يتمتّع بقوة تفوق قوى البشر ، وردّدت جوليت في نفسها قول دي باري :

« إنه يعرف كل شيء ويرى كل شيء ويسمع كل شيء ! »

واستأنف السيد جاك كلامه فقال :

— إنك مخطئة تماماً إذ تعتقدين أنك لست الكونتيس دي باري إلا في بعض الظروف فقط ، فأنت الكونتيس دي باري دائماً وأبداً ، وهذا هو الدليل ...

وأخرج ورقة نشرها على منضدة أمام جوليت والكونت ، فطالعاها بدهشة بالغة وذهول شديد . وكانت وثيقة زواج قانونية مذيّلة بتوقيع كاهن رعيّة سانت اوستاش وتواقيع بعض الشهود ، تثبت عقد قران الكونت دي باري على جوليت باكو ويرجع تاريخها إلى ثلاث سنوات خلت .

واستأنف السيد جاك كلامه فقال لجوليت :

— إلى اللقاء القريب يا ابنتي .

وقال لدي باري :

— هل لك أن ترافقني أيها الكونت ؟... إنني في حاجة إلى

خدماتك إذ يجب عليّ أن أجتاز الحقول التي تحيط بفرساي وأنا أخاف السير وحدي أثناء الليل !

فتبعه دي باري وهو يترنّح .

ولبثت جوليت فترة طويلة تتأمّل وثيقة الزواج وهي تفكّر ، وأخيراً ، غمغمت تقول وهي ترتعش :

— حسناً ، إنني بين يدي ذلك الرجل وسأمضي حتى النهاية .. سأمنع السيدة ديتيول من أن تصبح خلية الملك ... ولكن ...

ووقفت عن الكلام وهي تلبث وتنظر إلى ما حولها كأنها تخشى أن يفاجئها أحد ، ثم أنهت كلامها فقالت :

— ولكنني لا أريد أن يُقتل ذلك المسكين داساس !...

الوصيفة سيزون

*

كان المنزل الصغير الذي تقطنه السيدة ديتيول في فرساي يتألف من طابقين : الطابق الأرضي ويشمل غرف الخدم وقاعة الاستقبال وقاعة الطعام والمطبخ ، والطابق الأول والأخير ويشمل خمس غرف : أربع منها تؤلف جناح السيدة ديتيول والخامسة للوصيفة .

ولم تكن الوصيفة سوى تلك الفتاة سيزون التي تحدّث عنها دي برني للسيد جاك ، وكانت تشرف على إدارة شؤون المنزل بهمّة وعناية وكانت الخادمات الثلاث الباقيات يأتمرن بأمرها ويطعنها

طاعة عمياء .

وكانت سيزون في الثانية والعشرين من العمر وهي ذكيّة فطنة تكفيها الإشارة ، وقد سبرت غور الحياة على ما يبدو فكوّنت لنفسها نهجاً خاصاً .

وعندما جاء دي برني يحاول إغواءها لبث يرمين يطوف حول المنزل دون جدوى ، فقد كانت النوافذ كلها مقفلة كأنما المكان غير مأهول . غير أن دي برني كان طويل الأناة فصبر صبر الصيّاد المتربّص للطريدة ، وأخيراً كوفىء على صبره وطول أناته ، فإن سيزون فتحت إحدى النوافذ وأطلّت منها إلى الخارج دون أن يبدو عليها أنها أبصرته ، فضمّ أطراف أصابع يده الطليقة ـ وكان لا يزال يعلّق ذراعه في عنقه ـ ورفعها إلى شفتيه وأرسل قبلة إلى الفتاة ، فضحكت وأغلقت النافذة . غير أنها كانت قد أبصرت دي برني ورأت أنه جريح ، ورغم أنها لم تكن شديدة الإحساس بطبعها ، فإنها لم تستطع أن تتمالك نفسها من الارتعاش .

وربما يكون دي برني قد اعتمد على جرحه في استمالتها، فالنساء يتأثرن دون شك فيما إذا أبصرن جريحاً ، فضلاً عن أن للجريح ميّزة خاصة تنبىء بأنه من أهل السيف والمعارك أي أنه شجاع والشجاعة كانت ولا تزال تستهوي النساء .

وعندما أرسل لها تلك القبلة تابع الطواف حول المنزل وهو يقول في نفسه :

« ليأخذ الطاعون جميع النساء !... ما هذا ؟ أأرسل لها قبلة فتضحك مني ؟... أأكون قد أخطأت في اعتقادي بأنها تميل

إليّ ؟... »

وجاء الليل وأخذ الظلام يهبط شيئاً فشيئاً ، وكان البرد شديداً فأخذ دي برني يرتعش . وألقى نظرة أخيرة على المنزل ونال في نفسه :

« سأعود غداً وألقي إليها برسالة ، لقد احتككت اليوم « بالعدوّ » ، وهذا يكفي . »

وكان على وشك الانصراف عندما فُتح باب المنزل فجأة ثم أُغلق بعد أن مرّت من خلاله امرأة ملتفّة بمعطف فضفاض أزلت قلنسوته على وجهها ، فعرفها دي برني فوراً ... إنها سيزون .

ومرّت الفتاة على مقربة منه وهي تتظاهر بأنها لم تراه ، فاقترب منها وحيّاها وقال لها :

ـ أنا لا أرضى لآنسة محترمة أن تسير في الليل دون رفيق ..

فأطلقت صرخة قصيرة وقالت :

ـ لقد أفزعتني يا سيدي !...

ـ هل قضى عليّ سوء الطالع أن أروّع أجمل فتاة أعرفها وقد وهبتها قلبي وحياتي ؟ .. هل أخفتُ سيزون اللطيفة الأنيقة ؟ ..

فقالت بدهشة مصطنعة :

ـ ماذا ؟... هل تعرفني يا سيدي ؟

فقال وهو يمثّل دور العاشق المتيّم :

ـ يا قاسية القلب ، كيف تستطعين أن تخاطبيني بهذا الكلام وأنت تعلمين جيداً أنني أحبك وقد سمعتني أتنهّد أمامك ؟...

ـ لم أسمعك تتنهّد يا سيدي !... أقسم على ذلك .

وكانت صادقة في قولها هذه المرّة ، فقال بحرارة :

– ألم تلاحظي أنني أحبك؟... يا للشيطان ، ولكنني أوقفك في هذا المكان البارد ... فعفواً عني ، وتأبّطي ذراعي كي أرافقك إلى حيث تذهبين ...

– إنك حقاً رجل شريف يا سيدي ... أنا ذاهبة لأبتاع قفازاً لسيدتي .

فارتعش دي برني سروراً ، فإن فرساي لم تكن في ذلك العصر سوى قرية صغيرة لا يمكن أن يوجد فيها ما تريده الفتاة . إذن ، فإن سيزون تكذب ، وهي لم تغادر المنزل إلا لأجله هو ... فصاح قائلاً :

– أتريدين شراء قفاز؟... ولكنني لا أريد مطلقاً أن تعرّضي نفسك في هذا الليل للرياح الباردة وللوقوع بين أيدي السكارى والرعاع . سأجيئك غداً بصندوق من القفازات ...

فبدا على سيزون أنها تفكّر ، ولم تلبث أن قالت :

– أصحيح ؟...

– أجل ، فإن سيدات البلاط يكلفنني دائماً بشراء مثل تلك البضائع .

فراق لسيزون أن يساويها بسيدات البلاط ، وأردف دي برني قائلاً :

– إذن ، سأجيئك بالصندوق ...

– متى ؟...

– هذا المساء ، ولكن أين أسلمك إياه ؟

– هنا !...

– كلا ، ليس هنا . فإن لديّ حديثاً طويلاً أريد أن أفضي به إليك ، ثم أنت تعلمين أنني جريح وقد يؤذيني الوقوف في تيّار الريح !...

– ربّاه ، هذا صحيح !... أصغ إليّ يا سيد دي برني...

– ماذا ؟... أتعرفين اسمي ؟...

فخجلت من تسرّعها وأطلقت صرخة قصيرة جديدة ، إلا أنها لم تلبث أن قالت :

– هل تعدني بأن تكتم السر وتلزم الصمت وتكون شديد الحذر ؟...

– سأكون كتوماً كالجماد حذراً كالأعمى صامتاً كالأبكم ... فالمحبّون عميان وبكم إلا عندما يتأملون معبودهم ويتغنون بأوصافه..

– إذن، تعال في الساعة العاشرة مساء وقف أمام باب الحديقة الصغير ...

ولم تكد تتلفظ بتلك الكلمات حتى انطلقت نحو المنزل واختفت . فلبث دي برني مسمّراً في مكانه وقد أذهله ذلك النجاح السريع ، إلا أنه لم يلبث أن قال في نفسه مرتاباً :

« كنت أفضّل لو أنها أظهرت مزيداً من المقاومة !... ولا بدّ من أنها تعدّ لي مفاجأة غير متوقّعة ، فقد تكون أكثر دهاء مما أتصوّر !... »

وانصرف قلقاً وهو يقول :

– وفي جميع الأحوال ، سوف نرى .

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

وبلغ غرفته . وفي الساعة التاسعة أصلح من زينته وهندامه وأخفى غدّارة تحت معطفه وخنجراً في وسطه وسار إلى مكان اللقاء.

وما أن دقت الساعة العاشرة حتى كان يطرق باب الحديقة الصغير طرقاً خفيفاً، ففُتح الباب فوراً وظهرت سيزون وقد وضعت سبّابتها على شفتيها توصي دي برني بالتزام الصمت ، وأمسكت بيده ، بعد أن أغلقت باب الحديقة ، وقادته إلى غرفة في الطابق الأرضي ، فأقفلت الباب وأسدلت الستائر وأضاءت مشعلاً وقالت :

— إن الجميع نيام ، ولكن السيدة خفيفة النوم جداً وهي تستيقظ لأقل حركة . إذن ، فعليك أن تتكلم بصوت خفيض.. هل أتيتني بالقفازات ؟...

— القفازات ؟...

وكان دي برني قد أقلع عن التفكير في تمثيلية القفازات ، فقال متظاهراً بالأسف :

— لقد نسيت وأيم الحق ، فإن تفكيري فيك كان من القوة ...

فقاطعته بقولها :

— أواه يا سيدي ، فإنك سوف تسبب لي التأنيب وربما الطرد ...

فرأى دي برني أن يحوّل مجرى الحديث ، فجسّ ذراعه المعلقة في عنقه وصاح صيحة ألم ، فقالت سيزون بتأثر حقيقي :

— يا للسيد المسكين ! أتتألم ؟... إذن ، فقد جُرحت

جرحاً بليغاً ؟...

— أجل ، فقد أُصيبت ذراعي اليسرى بطعنة سيف في مبارزة ، إلا أن الوقح دفع الثمن فوراً فقد اخترقته بسيفي من جانب إلى جانب !...

فصاحت سيزون قائلة :

— مبارزة لأجل امرأة حسناء ، أليس كذلك ؟...

— أجل ، ولكن أتصدّقينني إذا قلت لك لأجل من ؟...

— أصدّقك يا سيدي ، فإن النبلاء أمثالك لا يكذبون !...

— إذن ، فاعلمي أنني بارزت لأجلك أنت !...

— لأجلي ؟!... إنك تضحك مني يا سيدي !

— كلا ، كلا ، فقد بارزت لأجلك أنت . وما وجه الغرابة في الأمر ... ما دمت أحبك ؟...

— تحبني ؟!...

واحمر وجهها وأخذ صدرها يرتفع ويهبط ، وراقها أن يحبها أحد النبلاء كأنها من سيدات البلاط .

وكان دي برني شاباً جميل الملامح أنيقاً جذاباً ، وكان يتحدث إليها بلهجة يبدو فيها الصدق والاحترام ، وقد أسكرها الاحترام بصورة خاصة . واستأنف دي برني الكلام فقال :

— أترتابين في حبي ؟... ألم تدركي بعد أنني أحبك ؟... وهل كنت ترينني أطوف حول هذا المنزل وأجثو عند قدميك لو لم أكن أحبك ؟...

وجثا عند قدميها ، فشعرت بغبطة لا توصف وأمسكت بيده

تُنهضه وهي تقول :

— ولكن كيف ولماذا قاتلت لأجلي ؟

فأجاب قائلاً :

— سأوضح لك ذلك !

وبحث في مخيّلته الخصبة عن أكذوبة تجوز عليها ، وسرعان ما وجد تلك الأكذوبة فقال :

— لا ريب في أنك تعرفين السيد بيربيه قائد الشرطة ، أليس كذلك ؟

فقالت وهي ترتعش :

— ماذا تعني ؟

— لا أسرار معي يا سيزون ! فأنت تعلمين جيداً أنني أمين سر قائد الشرطة ، ولذلك فأنا لا أجهل أنه هو الذي وضعك هنا..

— أجل ، وبعد ذلك ؟...

— منذ ثلاثة أيام سمعت السيد بيربيه يوضح لأحد النبلاء ، واسمحي لي أن أكتم اسمه، ما ينتظره منك !

— ولكنه أقسم لي ...

— لا تثقي بكلامه يا سيزون ، فإن السيد بيربيه رجل مات ضميره منذ زمن طويل... وكان يقول لذلك النبيل إنه سيقف منك على بعض أسرار صاحب الجلالة... فضحك النبيل وقال فيك كلاماً سيئاً فلم أعترضه . بيد أنني ، عندما خرج ، لحقت به في الشارع وقلت له إن حمّالة سيفه قديمة الطراز مضحكة إلى حدّ بعيد ، فغضب ، فأصررت على قولي . فكان أن تواعدنا على اللقاء في اليوم

التالي في إحدى زوايا اللوكسمبورغ ... والتقينا .

— وهل فعلت كل ذلك لأجلي ؟...

— أجل ، فإن فرانسوا دي برني يجود بحياته في سبيل التي يهواها !...

وقد قال ذلك وطوّق خصرها بذراعيه فمانعت في البدء إلا أنها استسلمت أخيراً وجادت عليه بالقبلة التي يطلبها ، فقال كمن استطارته نشوة الغرام :

— سيزون ، أحبك ... يجب أن تمنحيني موعداً للقاء !...

— ولكنني منحتك ذلك الموعد ... ما دمتَ هنا !...

— أجل ، إلا أنني أريد أن تأتي إلى غرفتي !...

— إلى غرفتك ؟...

— أجل ، في القصر . لا تخشي شيئاً فسوف أدخلك بنفسي وسنقضي ساعات جميلة ، فضلاً عن أنك ستشاهدين تحف القصر وغرفة الملك ، فإنني أستطيع الدخول إلى حيث أريد .

فسُرّت لما يعرضه عليها ، غير أنها تنهّدت وأجابت قائلة :

— إن ذلك مستحيل !...

— ليس في الحب مستحيل يا سيزون ، وما دمت أحبك فسأبذل جهدي ...

فقاطعته بقولها وهي تبتسم :

— أواه ! إن المستحيل الذي أقصده لا يأتي من جهتك أنت، فأنا لا أستطيع مغادرة المنزل لحظة واحدة وإلا تعرّضت لغضب الملك وانتقام حضرة رئيس الشرطة ...

وأردفت تقول برصانتها المعهودة :

ـ أريد أن أطلعك على شيء أيها السيد دي برني ...

ـ أرجو أولاً أن تناديني فرنسوا فقط ... ثم تعالي اجلسي على ركبتيّ كي أستطيع أن أصغي إليك ...

فجلست على ركبتيه بدلال وطوّقت عنقه بإحدى ذراعيها فبدت جميلة فاتنة بما تفيض به نفسها من الحب الصادق . قالت :

ـ يجب أن تعلم يا فرنسوا أنني أفكّر في مستقبلي ...

ـ أنا واثق من أنك تفكرين في ذلك المستقبل كامرأة جميلة .

فأجابت قائلة بلطف :

ـ كلا ، بل أفكر فيه كفلاّحة قروية .

فقال دي برني في نفسه :

« إذن ، فالأمر أكثر خطورة !... »

وأردفت سيزون قائلة :

ـ أتعلم ما الذي أتقاضاه من السيد ليبل خادم غرفة الملك عن عملي هنا ؟

ـ لا أستطيع أن أكوّن فكرة واضحة ، فربما كنت تتقاضين ألف ليرة ...

ـ إنني أتقاضى ألفين وخمسمائة ليرة في السنة يا سيدي !

ـ يا لله ! ولكنني لا أتقاضى أكثر من ذلك رغم أنني أمين سرّ قائد الشرطة !...

ـ حسناً ، وهل تعلم ما الذي أتقاضاه أيضاً من السيد بيريه عن كلمة أهمس بها في أذنه مرة بعد مرة ؟... إنه يدفع لي ألفين

وخمسماية ليرة في السنة . فيكون مجموع ما أتقاضاه خمسة آلاف ليرة ...

ـ أتعلمين أنك دقيقة جداً في علم الحساب كأنك تخرّجت من معهد السيد آلامبير ؟...

ـ ولا تنسَ أنني أربح أيضاً من شراء لوازم المنزل نحواً من ألف ليرة في السنة بما يجعل مجموع ما أتقاضاه ستة آلاف ليرة . فإذا استطعت أن أحتفظ بمركزي هنا ست سنوات أكون قد جمعت في النهاية ستة وثلاثين ألف ليرة ، لنقل أربعين ألفاً ، وهو مبلغ لا يستهان به .

فقهقه دي برني ضاحكاً ، فقالت :

ـ ما بالك يا سيدي ؟

ـ إنه حديث ممتع عن الحب وأيم الحق ... وهو لا يخلو من الطرافة !...

ـ رويدك يا سيدي ، فإن كل إنسان يتحدّث عن الحب كما يستطيع ، ولطالما رأيتُ الحب والأرقام تسير جنباً إلى جنب !..

ـ تابعي حديثك يا فتاتي ، فهو ذو فائدة لي !

ـ إذن ، فأنا هنا منذ سنتين ، وعليّ أن ألبث أربع سنوات أخرى أمينة مخلصة ... وبعد انقضاء ذلك الزمن أصبحُ في السادسة والعشرين من العمر ، وابنة ستّ وعشرين سنة لا غبار عليها ، فأستطيع أن أجد بالأربعين ألف ليرة التي أملكها زوجاً يلائم ذوقي..

ـ وعندئذٍ ستقيمين في باريس ، أليس كذلك ؟...

ـ كلا يا سيدي ، فإن إقامتي في باريس مع أربعين ألف ليرة

www.mlazna.com
RAYAHEEN

فقط لن تسعدني ، وإذا جازفت بذلك المبلغ في التجارة أخشى أن أخسره . بينما إذا أقمت في موربانقال ، قرب فيلر كوتيريه ، فإن ذلك المبلغ سيكفيني لأن أحيا حياة السيدات وأشتري طاحونة وحقولاً ومزرعة وزوجاً .

— أحسنت ، أحسنت ، فإن حكايتك مدهشة وسأكتب قصة عنها .

— إذن ، فأنت ترى جيداً أنني أرتكب حماقة جنونية فيما إذا جازفت بسعادتي في سبيل مشاهدة سرير الملك وثياب نومه عن كثب . ومن جهة أخرى ، فإنني سوف أشاهدها هنا !

فكان دي برني يصغي إليها وهو يفكّر في وسيلة ناجحة لإقصائها عن مركزها . قال فجأة :

— إسمعي ، إن تفكيرك يعجبني ... إلا أن حبي لك يدعوني إلى الإصرار على أن أراك في غرفتي لتكوني لي بكليتك ...

فهزّت رأسها سلباً ، فقال :

— تعالي إلى غرفتي فأنفحك بمبلغ من المال لا يتفق لك أن تجمعيه في عشر سنوات هنا ... إنك ستحصلين ليس على أربعين ألف ليرة بل على ستين ألفاً .

فشحب لونها وألقت على دي برني نظرة عميقة وهي تقول :

— أتتكلم جدّياً ؟

فقال ببرودة :

— إنني لم أكن في أي وقت مضى جاداً مثلي الليلة . وأزيد

فأقول إنك ، في تظاهرك بترك مركزك ، قد تؤدين خدمة عظيمة للملك ولسواه من ذوي الشأن والمكانة ...

فارتعشت سيزون ارتعاشاً شديداً .

ستون ألف ليرة !...

إن ذلك يحقق لها حلمها دفعة واحدة دون عناء ومشقة !

وأدركت بشعورها الباطنيّ أن دي برني لا يمزح ، وأنه في خدمة أفراد ذوي مقدرة ونفوذ . وأيقنت من أن الثروة أصبحت على قيد خطوة منها وليس لها إلا أن تمدّ يدها فتقتنصها .

وكانت سيزون تتمتّع بإرادة عجيبة ، فقرّرت أن تلبي رغبة دي برني غير أنها تريّثت في الأمر فلم تعلن عن قبولها إلا بعد جدل طويل . قالت أخيراً :

ـ من الراهن أنني أحبك حقاً ... فقد سحرتني ... متى تريد أن آتي إليك ؟

ـ لا أدري يا صغيرتي ، فربما غداً وربما بعد ثمانية أيام . سوف أجيء بنفسي لآخذك .

ـ وبانتظار ذلك ؟...

ـ سآتي إليك كل مساء ، وأريد أن تبيّني لي بدقة تامة ما تقومين به هنا من الأعمال .

فقالت ضاحكة :

ـ ألعلك تريد أن تحلّ محلي ؟

فقال برصانة :

ـ ربما !

وانصرف عنها وقد استطاره ذلك النجاح الباهر ، فأسرع راكضاً إلى زقاق الخزّانات . ورغم أنه بلغ ذلك المكان في ساعة متأخرة من الليل ، فقد مثل فوراً بين يدي السيد جاك وقال له :

— مولاي ، لقد أصبحت سيزون في صفنا . وستبرح المنزل لدى أول إشارة مني ... أنا أعترف أمامك بأن نجاحي السريع في هذه القضية يقلقني ...

فقال السيد جاك :

— أترتاب في تلك الفتاة ؟

— لا أدري يا مولاي ، وكل ما أعلمه هو أن رضوخها لمشيئتنا سيكلفنا مالاً كثيراً .

— كم ؟

— ستون ألف ليرة يا مولاي ، إنه مبلغ كبير ، ولكن ...

— هل وعدتها بستين ألف ليرة ؟...

— قلت لها إنها ستجد هذه القيمة عندي فور تركها المنزل ...

— كان عليك أن تطلعني على ذلك منذ البدء. سوف تأتي الفتاة فلا تقلق ... لقد سمعتك تحدثني عن الحب وغمزات العيون فأثار ذلك بعض القلق في نفسي ولم أكن واثقاً من أننا سننجح. أما الآن، وقد أصبحت القضية قضية مال ، فإن كل شيء سيسير على ما يرام ...

— إذن ، فقد قبل مولاي أن ...

— أجل يا ولدي ، فغداً ستكون الثمانون ألف ليرة لديك . إذهب ...

— ولكنني قلت ستين ألفاً يا مولاي لا ثمانين ...

— أصحيح ؟... إذن ، فيمكنك أن تحتفظ بالباقي لشراء الورق الذي ستكتب عليه أشعارك الجميلة .

فانحنى دي برني وقال :

— هل من أوامر جديدة لدى مولاي ؟

— كلا ، بل عليك أن تنتظر وتكون على استعداد لتخرج بتلك الفتاة من المنزل وتقود إليه الوصيفة الجديدة التي ستحل مكانها ... بالمناسبة ، بلغني أن السيد ديتيول في فرساي وهو يجرّ وراءه ، أينما ذهب ، رجلاً يدعى داميان ... يجب أن تعلم ما يريده ذلك الرجل .

— السيد ديتيول ؟... ولكنه يبحث عن امرأته ...

فقال السيد جاك ببرودة :

— إنني أتكلم عن داميان ... عليك أن تأتيني بأخباره ، فأنا أريد أن أعرف ما هو وماذا يريد ...

فحيّاه دي برني باحترام وانصرف وهو يفكّر في ذلك المبلغ الطائل الذي سيهبط عليه من السماء ، فإن السيد جاك وعده بعشرين ألف ليرة . قال في نفسه :

« هذا جزاء أمانتي وإخلاصي ، فالأمانة والإخلاص لهما ثمنهما ... »

أسرار

*

انقضت أربعة أيّام .

وفي تلك الأيام الأربعة عاش لويس الخامس عشر حياة مثاليّة، فكان يهتمّ بشؤون المملكة في النهار ويجلس في المساء بين رجال حاشيته فيباسط هذا ويمازح ذاك ويلاطف الملكة ماري ويتحدّث إلى شعرائه ببرح ويناقش وزراءه برصانة ... وبكلمة مختصرة ، كان كما يجب أن يكون الملك.

وفي مساء اليوم الرابع ، حوالي الساعة العاشرة ، أوى إلى مخدعه . وكان قد خلع معظم ثيابه عندما وقعت عيناه على ورقة مطويّة موضوعة على منضدة أمامه ، فتناولها آليّاً وقرأها فشحب وجهه شحوباً شديداً .

وكانت الورقة تحتوي هذه الكلمات :

« إن السيدة ديتيول في ضجر ، وقد عزمت على العودة إلى باريس في صباح الغد . »

فقال الملك لخادم غرفته :

— ليبل ، من الذي وضع هذه الورقة هنا ؟

فأجاب الخادم قائلاً :

— أنا يا مولاي !

— هل قرأتها ؟

— كلا يا مولاي ...

— من أعطاك إياها ؟

— وصيفة المنزل الصغير ...

— متى ؟...

— منذ ساعة .

— ألم تقل لك شيئاً ؟...

— كلا يا مولاي ، سوى أنها ...

— سوى أنها ماذا ؟... تكلم أيها الأحمق !...

— سوى أنها ستكون وراء باب المنزل بعد منتصف الليل ..

فكتم لويس الخامس عشر صيحة فرح طاغٍ وقال بهدوء :

— ليبل ، ألبسني ثيابي فوراً ...

— ماذا ؟... أتريد جلالتك أن تبرح القصر في مثل هذه الساعة ؟...

— ألبسني ثياباً فوراً ، أقول لك ... وعليك أن ترافقني .. فأنا لن أخشى شيئاً وأنت معي .

فألقى ليبل نظرة سريعة على الساعة فإذا هي تشير إلى العاشرة والنصف . فحمل الملك ثيابه وأخذ يلبسه إياها وهو صامت .

وعندما برح الملك القصر أخيراً ، يرافقه خادم غرفته ، كان الليل قد أوشك أن ينتصف ، فهبط لويس الخامس عشر درج القصر وهو خافق القلب ملتهب الصدغين ، وسار بخطوات سريعة في اتجاه المنزل الصغير ...

***

www.mlazna.com

ماذا حلّ بالفارس داساس خلال تلك الأيام الأربعة ؟

استيقظ الفارس من نومه متأخراً بعد تلك الليلة التي قضاها في منزل السيد جاك ، حيث خُيّل له أنه في بلاد ألف ليلة وليلة ، فعجب لأول وهلة لوجوده في ذلك المكان وظن أنه لا يزال يحلم . إلا أن رؤية الكيس الذي كان قد ألقاه على المنضدة في الليلة الفائتة ، ذلك الكيس الذي يحتوي ألفي فرنك ، دلّته على أنه في عالم الحقيقة . ففكّر فوراً في أن هناك كيساً آخر مماثلاً في الخزانة وعزم على أن يستفيد إلى النهاية من سخاء السيد جاك . فوثب من سريره الوثير وغسل وجهه وأتمّ زينته ، ثم عمد إلى أحد الثوبين فأخذ يرتديه وهو يقول في نفسه :

« يلوح لي كأنه صُنع خاصّة لأجلي !... وفي جميع الأحوال ، إنه خير من زيّ الضابط الذي أرتديه والذي يلفت إليّ الأنظار أينما ذهبت . »

وعندما أصبح جاهزاً للخروج ، سار إلى الباب وإذا الخادم يقف أمامه قائلاً :

— أتخرج يا سيدي الفارس ؟

— أجل يا صديقي ، أيكون الخروج ممنوعاً ؟... إن يكن كذلك فلا تزعج نفسك بقوله لي إذ أن ذلك لن يمنعني عما عزمت عليه .

— كلا يا سيدي ، لا منع هناك ... ولماذا المنع ؟ وكل ما أريد أن أسألك إياه هو ماذا تريد أن تأكل هذا النهار ؟

فقال داساس في نفسه :

« إن الحلم يستمرّ ... »

وقال للخادم .

— كل ما تريده يا صديقي ... ما هو اسمك ؟

— خادمك لوبين يا سيدي الضابط ... وكنت أريد أن أوصيك أيضاً بأن لا تُظهر نفسك كثيراً في وضح النهار .

— لماذا يا لوبين ؟

— لاعتقادي بأن سيدي لم يعرض عليك ضيافته إلا لأنه يراك مهدداً بأخطار جسيمة ...

فارتعش داساس وأرهف أذنيه ، فأردف الخادم يقول :

— لقد اتفق لأحد الذين سبقوك إلى الإقامة عندنا أن سقط قتيلاً ...

— سقط قتيلاً ؟!...

— أجل ، وكان في عنفوان الشباب مثلك ، جريئاً مثلك... فغادر المنزل ذات يوم ، كما تفعل أنت الآن ، وعاد إلينا في الليل وقد أُصيب بطعنتي سيف ومات بعد ساعة واحدة . وقد علمنا بعد ذلك أن الشاب المسكين خرج يطوف حول منزل تقيم فيه امرأة يهواها ، وأن بعض الذين يغارون عليها — وقد يكون زوجها — فاجأه وقتله ... أتفهم ؟... وفي جميع الأحوال ، فقد ظننت أن من واجبي أن أحذّرك يا سيدي الفارس .

— يبدو لي أنك سليم النيّة يا صديقي ، وأرى كي أشكر لك اهتمامك بأمري أن أكافئك بهاتين القطعتين الذهبيتين ...

فرفض لوبين بأدب أن يأخذهما وقال إن مولاه سيطرده فيما إذا

قبل المكافآت ، وزاد فقال إن من واجبه أن يملأ الجيوب الخاوية لا أن يأخذ منها .

فغادر داساس المنزل وهو يفكر في تلك الرواية التي سمعها . وكانت تنطبق في فصولها على حالته تماماً ، وقد أدهشته اللهجة التي خاطبه بها الخادم فقد كانت تنطوي على تهديد بعث بالقشعريرة في جسده .

غير أن الفارس لم يكن من الرجال الذين يتراجعون أمام مثل تلك الأمور ، فصمّم على أن يقوم بما وطّد النيّة على القيام به . فإذا افتضح أمره فإنه لن يعدّ عنقه للذبح بالسهولة التي يتصوّرها البعض ، وإذا قُتل في النهاية ، فإنه يستريح من العذاب .

وسار رأساً في اتجاه المنزل الصغير وقد عزم على دخوله ورؤية جان ، عزم على أن يلقي بنفسه عند قدمي معبودته ويلتمس عفوها عما بدر منه عندما فاجأها في المركبة إلى جانب الملك . وكان يرغب في التماس ذلك العفو لاقتناعه بأنها خُطفت بالرغم منها ، فكان يركض ركضاً إلى المنزل الصغير وقد صمّم على قرع الباب فور وصوله . إلا أنه ما أن أشرف على المنزل حتى خفّف من سرعته ووقف في النهاية تحت تلك الشجرة التي اصطدم قربها بالكونت دي باري . وهناك خانته الجرأة ، فحاول أكثر من عشرين مرّة أن يتقدّم من باب المنزل وفي كل مرّة كان يتراجع قبل أن يبلغ ذلك الباب . فنقم على نفسه وثار غضبه لجبنه وتردّده ... فشدّد أخيراً من عزيمته وسار إلى الباب بحزم وقرعه ... ولبث ينتظر خافق القلب تهزّه الرعشة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ...

فلم يفتح الباب ، ولم يأته أيّ جواب ، وبدا المنزل خالياً مهجوراً . فعاد يدق الباب بقوّة ويكرّر الدقّ بإصرار وعناد .. دائماً السكون نفسه .

أخيراً ، أبصر قروياً يقف أمامه ويرفع قبّعته قائلاً :

ـ ولكن هذا المنزل مهجور يا سيدي وعبثاً تقرع بابه ، فقد مضت شهور طويلة وأنا أمرّ أمامه يومياً دون أن تقع عيناي على أي إنسان ...

فتصبّب جبين داساس بالعرق البارد ... فهل برحت جان ذلك المنزل ... هل نقلوها إلى منزل آخر ؟... كلا ، ذلك مستحيل. ورأى أنه لا يمضي في قرع الباب لئلا يلفت إليه أنظار أولئك الغيورين الذين حدّثه عنهم لوبين ... فانسحب وعاد يائساً إلى ذلك المنزل السريّ في زقاق الخزّانات .

وقضى الساعات الطويلة في وضع الخطط لليوم التالي ، فهو قد طاف حول المنزل الصغير ورأى باب الحديقة المنخفض فقرّر أن ينسلّ منه في المرة القادمة إلى داخل المنزل .

وجاءه الخادم لوبين بأشهى الطعام وأطيب الخمور ، فأكل وشرب . وعندما لعبت الخمر برأسه أوى إلى سريره ليستأنف أحلام الليلة الفائتة ما دامت اليقظة تروّعه وتثير أشجانه .

إلا أن النوم جفاه طويلاً ... وعندما أغفى أخيراً توالت عليه الأحلام المزعجة بدلاً من أحلام الحب العذبة ، وقد برزت تلك الأحلام في ثوب الحقيقة الحيّة الملموسة ... أتكون حقيقة يا ترى ؟...

وكان في الغرفة مصباح ضئيل النور، وكان الفارس يستطيع أن يميّز على ضوء ذلك المصباح كل ما في الغرفة من أثاث ...

فهل كان يحلم ؟... هل كان مستيقظاً ؟... من يعلم ؟!

غير أن عينيه كانتا مشقوقتين عندما خُيّل له أنه يسمع حركة خفيفة هي حركة باب يُفتح في حذر متناه ... ولم يكن ذلك الباب سوى باب غرفته الذي كان ينظر إليه صدفة في تلك اللحظة .

فارتعدت فرائصه رغم شجاعته ، ولا لزوم للقول بأن داساس كان نادر الجرأة .

ولكن ذهنه المشوّش والأسرار الصفيقة التي تكتنفه وذلك المنزل الرهيب الشبيه بالفخ المنصوب لاقتناص البشر وذبحهم في الليل، كل ذلك حمله على الاعتقاد بأنه سيُقتل دون أن يستطيع الدفاع عن نفسه .

ونظر إلى الغدّارتين الموضوعتين على المنضدة قرب السرير ... وأوشك أن يثب نحوهما عندما فتح الباب تماماً وبدت في إطاره امرأة . فلبث داساس جامداً في سريره مشقوق العينين وقد استبدّ به فضول غريب . فمن هي هذه المرأة ؟... وماذا تريد منه ؟...

وكانت المرأة ملتفّة بمعطف أسود وقد أخفت وجهها خلف قناع أسود يمثّل وجه ذئب . ووقفت على عتبة الباب ورأى داساس عينيها تلمعان من خلال ثقبي القناع لمعاناً رهيباً ، فاستولى عليه اضطراب شديد تغلغل حتى أعمق أعماق نفسه .

فمن هو هذا الشخص الأسود ؟... ومن أي جحيم خرج ؟...

وارتعش ارتعاشة طويلة عندما رأى المرأة ـ الشخص الأسود ـ

تتقدّم نحو السرير ، فأراد أن ينهض ويصيح ويفتح عينيه تماماً ، إلا أنه أحسّ بالشلل يعتريه لشدّة رعبه .

ودنت منه المرأة وهي تسدّد أنظارها إليه . وكانت تقف أحياناً تتفحّص الأرض بقدمها قبل أن تطأها . وأخيراً ، بلغت السرير فانحنت على الفارس بلطف وهي تهمس بصوت لا يكاد يسمع قائلة :

ـ لا كلمة ... ولا حركة ... وإلا فسأدفع حياتي دون شك ثمناً لما أجيئك به ... إنك تسمعني ، أليس كذلك ؟ أظهر لي أنك تسمعني بفتح عينيك ثم بإغماضهما ... ولكن أستحلفك بالسماء أن لا تتكلم !...

فأطاع داساس ... وفتح عينيه وأغمضهما ، وإذاسمعا يسمعه بدهشه . فإن المرأة زادت في الانحناء عليه حتى كاد فمها يلتصق بأذنه وغمغمت تقول بصوت خافت ضعيف :

ـ أيها الفارس داساس ، لا تدخل مطلقاً إلى المسكن المقابل لهذا المسكن ... لا تدخل إليه لا ليلاً ولا نهاراً ، ومهما تكن الذريعة التي سيدعونك بواسطتها إلى دخوله !... أفهمت ؟... إن تكن قد فهمت ، أعد الحركة نفسها ...

ففتح داساس عينيه وأغمضها للمرة الثانية ، وعندئذٍ شعر بقبلة غريبة على جبينه ، قبلة ملتهبة وباردة في آن واحد ، ففتح عينيه فجأة وإذا بالمرأة المجهولة، الشخص الأسود ، تنتصب إلى جانب السرير..

ووضعت المرأة سبّابتها على شفتيها توصيه بالتزام الصمت مجدداً وسارت نحو الباب بحذر كما جاءت ، فخرجت وأغلقته وراءها

www.mlazna.com
KRAYAHEEM

واختفت في الظلام كأنها شبح من الأشباح ...

فلبث داساس ساعات طويلة يتأرجح بين الشك واليقين ويسائل نفسه ما إذا لم يكن حالماً ...

ولكن لا ، فإن الشخص الأسود ترك وراءه في الغرفة رائحة عطرية نفّاذة جاءت برهاناً دامغاً على أن الفارس لم يكن في عالم الأحلام ، إلا أنه أخذ يتساءل مجدداً كيف يمكن أن تدوم الرائحة العطرية كل تلك المدة الطويلة بعد ذهاب المرأة ، فجلس في سريره ونظر إلى ما حوله فرأى على أغطية السرير منديلاً ثميناً مطرّز الحواشي نسيته المرأة هناك عندما اتكأت بيديها على السرير .

وكان المنديل يحمل حرفي « الجيم والباء » مطرّزين تحت تاج كونتية ، وتنبعث منه تلك الرائحة العطرية التي تملأ الغرفة . فقال داساس في نفسه ساهماً :

« لماذا حذّرتني من دخول المسكن المقابل ؟... فماذا يجري هناك ؟... وماذا يحدث لي إذا دخلته ؟... »

وعاد إلى الرقاد بعد تفكير طويل ... وعندما استيقظ في اليوم التالي كانت الشمس قد أشرقت . وبينما كان ينزل من سريره وقعت عيناه على ورقة مطويّة موضوعة على منضدة السرير ، فتناولها وقرأ فيها ما يلي :

« عليك بالصبر . فقد جازفت أمس بمجازفة خطيرة وارتكبت أخطاء جسيمة . عندما يحين الوقت سنحيطك علماً ، فكن على استعداد . إن التي تحبها ستشاهدها في موعد سوف نحدّد لك يومه وساعته بواسطة ورقة أخرى كالتي بين يديك ... وعندما تذهب

إلى منزل المرأة التي تحبها، عليك أن تقف أمام باب الحديقة الصغير، فإنها ستخرج من ذلك الباب . والآن ، تذرّع بالصبر ولا تخرج إلا قليلاً ، وخاصة لا تذهب إلى هناك ... »

فغمغم داساس قائلاً :

— أرى القضية تزداد غموضاً كما تزداد وضوحاً !...

وشعر تماماً بأنه مسيّر ، وأنه وقع في دوّامة هائلة . إلا أنه كان عاشقاً وقد دعاه حبه إلى الثقة بنظم تلك المسرحية الرهيبة التي يتحتم عليه ، هو داساس ، أن يلعب فيها دوراً يجهله كل الجهل..

وانقضت الأيام التالية دون وقوع أيّ حادث . وكان الخادم لوبين يأتيه خلالها بأشهى الأطعمة وأجود الخمور ويدفع عنه الملل بثرثرته ...

وفرغ صبر داساس في صباح اليوم الرابع ، فقرّر أن يقوم بمحاولة جديدة في جهة المنزل الصغير ، إلا أن عيناه وقعتا في تلك اللحظة على ورقة، تماثل الورقة التي قرأها قبلاً ، موضوعة على منضدة السرير ، وكانت تحتوي ما يلي :

« في هذا المساء، عند الساعة العاشرة ، إذهب إلى المنزل الصغير وقف أمام باب الحديقة ، فإن التي تهواها ستبرح المنزل من ذلك الباب في تلك الساعة ... أما ما تبقى فإنه يعنيك وحدك ... »

فخفق قلب داساس خفوقاً شديداً وحاول أن يقبّل الورقة التي تحمل الخبر السارّ ، إلا أن وجهه امتقع فجأة ، فقد رأى في تلك الورقة حاشية لم يفطن لها في البدء ، وكانت تقول :

« إذا راق لك أن تظل في ضيافة أصحاب هذا المنزل ، وإذا

طاب لك أن تقيم هنا مع المرأة التي تحبها ، فعليك أن تدخل وإياها المسكن المقابل ، فإنه مؤثث بما يلائم النساء ويوفر لهن الراحة.»

فارتعدت فرائص داساس وغمغم قائلاً :

— المسكن المقابل ؟... ولكن أية مكيدة جهنمية ينظمها أرباب هذا المنزل ؟... وماذا يريدون ؟... ومن هو ذلك المنكود الذي عزموا على قتله ؟...

الوصيفة الجديدة

*

في مساء ذلك اليوم نفسه ، كان في المسكن المقابل الذي أوحى إلى داساس بتلك الأفكار المخيفة ، ثلاثة أفراد : السيد جاك وجولييت باكو والكونت دي باري .

وكانت الساعة الرابعة ، ومع ذلك فقد أضيئت المصابيح كلها في القاعة الصغيرة التي جلس فيها أولئك الأشخاص الثلاثة. وتكلم السيد جاك فقال يخاطب جولييت :

— إن الثوب الذي ترتدينه يا ابنتي يزيدك جمالاً وتألقاً ، وهو يشبه ثوب منافستك تماماً . إلا أنني أريد أن أراك في الثوب الآخر فربما كان ينقصه شيء ... وفي جميع الأحوال ، لا يجب أن ندع شيئاً للصدفة ...

فأطاعت جولييت ودخلت غرفتها . وبعد عشر دقائق خرجت

وهي ترتدي ثوباً يشبه تماماً ثوب الوصيفة سيزون . فتأملها السيد جاك هنيهة بانتباه ، ولم يلبث أن قال :

— أحسنت يا ابنتي ، ولكن هل لك أن تعيدي على مسمعي ما يجب عليك أن تقوليه ؟

فتلفظت ببضع كلمات سريعة أوجزت بها أمثولتها ، فقال السيد جاك :

— ما هو اسم الطاهية ؟

— السيدة كاترين ، عمرها أربعون سنة ، كثيرة الغرور ، وسأحمل لها معي قطعة من الحرير ...

— وما هو اسم الخادمتين ؟...

— بيريت ونيكول ، كلتاهما في العشرين من العمر ، ذكيتان نفعيتان ، وقد اختارتهما سيزون بنفسها ، وتتقاضى كل منهما خمسة آلاف ليرة في العام ...

— وأنت ، من أنت ؟...

— شقيقة سيزون الكبرى ...

فبدا الارتياح على السيد جاك ونهض فأمسك بيدها وقال بصوت اصطنع فيه التأثر :

— إعلمي يا ابنتي أن مصالح خطيرة تتوقف على جرأتك ومهارتك ... وقد وضعت فيك ثقتي التامة ...

وساد صمت طويل أخذ السيد جاك يذرع خلاله أرض القاعة ذهاباً وجيئة ، وإذا به يقف فجأة ويقول :

— هيا بنا ، فقد آن الأوان !...

وخرج الثلاثة من المنزل . وكانت تنتظرهم مركبة أمام الباب، فصعدت جولييت إليها واتخذ دي باري مكاناً إلى جانبها واقترب السيد جاك من السائق وقال له :

— الستون ألف ليرة ، أين هي ؟

فأجاب السائق قائلاً :

— في الصندوق يا مولاي .

— هل وعيت تعليماتي كلها ؟...

— أجل يا مولاي ، ستصعد فتاة إلى هذه المركبة وعليّ أن أقودها إلى خارج باريس ، ولكن إلى أين ؟...

— إلى فيلاكوتيريه ، وإذا طلبت منك هناك أن تقودها إلى قرية موريانفال المجاورة فأجبها إلى طلبها . ولكن عليك أن تمنعها من الاتصال بأيّ إنسان في الطريق . وعند عودتك ستطلعني على كل ما اتفق لك ...

وصعد السيد جاك بدوره إلى المركبة . وبعد عشر دقائق كانت تقف بركبها الثلاثة على بعد مائتي خطوة من المنزل الصغير . فترجّلوا والتفّت جولييت بمعطف أسود أخفى ثوب الوصيفة الذي ترتديه، وطافوا حول المنزل. وكان رجل ينتظرهم أمام باب الحديقة الصغير فتقدم نحوهم بسرعة. ولم يكن هذا الرجل سوى دي برني، فقال له السيد جاك :

— هل أنت على استعداد ؟

فأجاب قائلاً وهو يخفي اضطرابه :

— أجل يا مولاي !...

فاستدار السيد جاك نحو الكونت دي باري وناوله ورقة مطوية وقال له :

— يجب أن توضع هذه الورقة في غرفة الملك ، ويجب على خادم الغرفة ليل أن لا يدع مولاه يغادر القصر قبل منتصف الليل.. إن الفارس داساس سيكون هنا في الساعة العاشرة ، فتذكر ما يجب عليك أن تقوم به في تلك اللحظة ...

— حسناً يا مولاي ، لقد فهمت .

وتناول دي برني الورقة وسار في طريق القصر الملكي . فقال السيد جاك يخاطب دي برني :

— الاشارة ، أعط الإشارة ...

وفي الوقت نفسه ألقى نظرة أخيرة إلى ما حوله فرأى جولييت تقترب من الباب الصغير وهي تحمل صرّة صغيرة بيدها ، فلمعت عيناه ارتياحاً وأسرع يختبىء تحت الأشجار .

وطرق دي برني باب الحديقة ثلاث طرقات ففُتح على الأثر وبدت سيزون وهي شاحبة الوجه مضطربة . واستولى عليها التردد فجأة فهمّت بالرجوع ، إلا أن دي برني كان قد قبض على ذراعها وجذبها إلى الخارج . وفي الوقت نفسه انسلّت جولييت بسرعة إلى الحديقة وأغلقت الباب وراءها .

— وقالت سيزون تخاطب دي برني وهي تتكىء على ذراعه :

— فرنسوا ، إنني شديدة الاضطراب ، ولن أنسى طيلة حياتي ما أعانيه من القلق في هذه اللحظة ... أتقسم لي على الأقل أن أحداً لا يريد شراً بالملك أو بالسيدة ديتيول ؟

— أقسم لك على نصيبي من الجنّة أنه لن يصيبها أيّ أذى . ولكن تعالي الآن، إن المركبة تنتظرك لتقودك إلى فيلاركوتيوبه، والمال في الصندوق ، والسائق طوع أمرك ... وأنت الآن غنيّة تتعمين بالثروة .. أما أنا فإنني سأحتفظ بذكرى أيام الحب الأربعة التي قضيناها معاً ...

فلم تستطع سيزون جواباً لفرط تأثرها، فاكتفت بأن تضمّ إليها ذراع دي برني . وسارا معاً نحو المركبة فصعدت سيزون إليها ، ولم يكد دي برني يودّعها ويقفل عليها الباب بالمفتاح حتى انطلق الجوادان ينهبان الأرض. وبعد بضع دقائق كانت المركبة قد اختفت وراء الأفق البعيد .

فعاد دي برني إلى السيد جاك والمحنى أمامه قائلاً :

— قضي الأمر يا مولاي... وعليّ الآن أن أنتظر أمام الباب الكبير ريثما تدقّ الساعة العاشرة ... فإن هذا الباب هنا مخصّص للفارس داساس ...

فقال السيد جاك :

— حسناً يا ولدي، وعندما أعود إلى منزلي في باريس سأكافئك مكافأة تعادل إخلاصك وذكاءك ، فقد بدا لي فيك من المزايا في هذه الأيام ما يجعلني أفتخر بك .

فانحنى دي برني مرة أخرى ، وعندما رفع رأسه كان شبح السيد جاك يختفي في الظلام .

***

اجتازت جولييت الحديقة بسرعة فائقة ودخلت قاعة صغيرة في

الطابق الأرضي يضيئها مصباح واحد .

وكانت قد دأبت منذ ثلاثة أيام على درس خريطة دقيقة للمنزل وضعها دي برني بناءً على إيضاحات سيزون وإرشاداتها ، فأدّى بها ذلك إلى أن تعرف المنزل الصغير كأنها سكنته في ما مضى .

فخلعت معطفها وألقت به في قعر خزانة ووضعت الصرّة التي تحملها بيدها تحت مقعد ... وعندئذٍ نظرت إلى ما حولها . وكانت ترتعش ارتعاشاً شديداً وقد وضعت يديها فوق قلبها كأنما لتمنعه من الانفجار . إلا أنها تمالكت نفسها بعد بضع دقائق فلمعت عيناها ببريق العزيمة واجتازت القاعة إلى المطبخ بخطوات ثابتة وانتصبت فجأة أمام الطاهية وقالت لها :

— أسرعي يا كاترين ، أسرعي !... فها إن الساعة تكاد تدق السابعة وعشاء السيدة ليس جاهزاً بعد ... وأنت تعلمين جيداً أنها لا تحب الانتظار ...

فالتفتت الطاهية إليها وقد عقل الذهول والدهشة لسانها، فقالت لها جولييت :

— ما بالك تنظرين إليّ بهاتين العينين ، أمجنونة أنت ؟... عندما تعود شقيقتي ...

فقالت الطاهية بصوت مختنق :

— شقيقتك !...

— أجل ، سيزون ... ما بالك ؟... أيدهشك أن تكون سيزون شقيقتي ؟.. ولكنها قالت لي إنك عنيدة وإنني سألقى منك، في اليومين اللذين سأقوم فيهما مقامها هنا ، متاعب جمّة !... هيّا

www.mlazna.com RAYAHEEN

يا سيدة كاترين ... إلى العمل !... وإذا سُررت منك خلال هذين اليومين فإنني سأهديك قطعة جميلة من الحرير ...

فابتسمت الطاهية ابتسامة عريضة وقالت وقد أفرخ روعها :

— إذن ، فأنت تحلين هنا محل الآنسة سيزون ؟... لو عرف ذلك مولانا ...

فقاطعتها جولييت بقولها :

— وبييريت ونيكول ؟... أين هما تانك الكسولتان ؟...

وخرجت من المطبخ ودخلت غرفة الخادمتين . فأبدت بييريت من الدهشة عندما رأتها ما أبدته الطاهية كاترين في اللحظة السابقة بينما لبثت نيكول جامدة ساكتة . فدعتها جولييت إليها بإشارة وقالت لها همساً :

— هل أطلعتك سيزون على ما سيكون ؟

— أجل يا سيدتي ...

— إذا عملتما — أنت وبييريت — بما أشير به عليكما ، ربحت كل منكما خمسة آلاف ليرة .

فقالت الخادمة وقد غرّها الطمع :

— ماذا يجب أن نفعل ؟

— عليكما أن تفتحا الباب لذلك الذي سيطرقه بعد نصف الليل ، أما قبل ذلك الوقت فلا تفتحاه لأيّ كان حتى ولو ملأ الدنيا صياحاً وتهديداً .

— وبعد ذلك ؟...

— عليكما أن تطفئا جميع المصابيح التي تنير الدرج ، وأن

تقودا ذلك الزائر إلى غرفة نوم مولاتنا ...

— إنه أمر بسيط ، ولكن إذا طردتني مولاتي لأجل ذلك ؟

— إنها لن تطردك فلا تقلقي... ولكن لنفترض أنها طردتك ، فعندئذٍ ستدخلين في خدمة السيدة دي روهان الشهيرة وتتقاضين خمسة آلاف ليرة أخرى أي أنك ستحصلين على عشرة آلاف ليرة . أتقبلين ؟ أجيبي ...

فقالت نيكول بعزم :

— أجل ، إنني أقبل ...

— ها هي مولاتنا تناديني ... فاذهبي إلى رفيقتيك وامنعي كل ثرثرة فارغة ، ولك أن تزعمي أمامها أنني شقيقة سيزون وأنك رأيتنا معاً في كثير من الأحيان ...

وأسرعت جولييت تتسلق الدرج وتدخل القاعة الكبرى وقد تمدّدت فيها جان على مقعد طويل وراحت تحلم وهي تمسك بكتاب في يدها . فتأملت السيدة ديتيول القادمة بنظرة فاحصة طويلة وقالت لها أخيراً :

— أأنت الوصيفة الجديدة ؟

— نعم يا مولاتي ، وأعتقد أنك لن تأسفي على غياب شقيقتي خلال المدة التي سأقضيها في خدمتك .

— أتكون سيزون شقيقتك ؟

— نعم يا مولاتي ، وذلك يُرى جلياً على ما أظن إذ أن لنا القامة نفسها وقد ارتديت ثوبها نفسه كما ترى مولاتي .. فقد أخبرتني سيزون بأنك لا تساهلين في ما يتعلق بأناقة وصيفاتك يا مولاتي...

فاستأنفت جان تقول :

— لقد أخبرتني سيزون بأنها ستتغيّب ثلاثة أو أربعة أيام .

— أجل يا مولاتي ، وذلك بسبب بعض القضايا التي تهمنا نحن الاثنتين ... ولما كانت شقيقتي أكثر مهارة مني في معالجة مثل تلك القضايا ...

فقاطعتها جان بقولها :

— أجل ، إن سيزون أخبرتني بذلك ...

وقالت في نفسها :

« ولكن أين أبصرت هذا الوجه ... وهاتين العينين ؟... سأجلو ذلك غداً صباحاً ... »

وعادت تقول بصوت مرتفع :

— ما اسمك ؟

— جولي يا مولاتي .

— سأدعوك سيزون كشقيقتك لئلا أغيّر من عادات المنزل ... إذن ، فاعلمي يا سيزون أنني أحسّ ببعض التعب وأنني لن أتعشى هذه الليلة ... فاحملي إليّ بعد نصف ساعة كوباً من الحليب ، ثم عودي وساعديني على خلع ثيابي لآوي إلى الفراش ...

وكانت جان قد بدأت تحسّ في معدتها بذلك الألم الذي سيلازمها طيلة حياتها . وأدهشها من الوصيفة الجديدة أنها لم تتحرك من مكانها على أثر الأمر الذي تلقّته ، كما لاحظت الشحوب المفاجىء الذي كسا وجهها فقالت لها :

— ما أصابك يا سيزون ؟... لماذا لا تنفّذين أمري ؟...

وكانت جولييت تخشى أن تتقوّض خطة السيد جاك من أساسها فيما إذا أوت السيدة ديتيول إلى سريرها في ذلك الوقت المبكر ، فقد بُنيت تلك الخطة على أساس واحد وهو أن تظل جان مستيقظة إلى ما بعد الساعة العاشرة ، فأجابت قائلة :

— لا شيء يا مولاتي ، لا شيء ...

وانصرفت بسرعة . فقالت السيدة ديتيول في نفسها :

« يا لهذا التصرّف الغريب !... يبدو لي أن هناك خيانة ما.. فما بال لويس لا يأتي إليّ ؟... ما باله لا يتحرك وأنا في انتظاره على أحرّ من الجمر ؟... ماذا يفعل ؟... أتراه يفكر بي ؟...

ونسيت أن الملك أقسم على أن لا يأتي إليها إلا إذا استدعته هي !... وكانت ضجرة قلقة ...

وكانت تلك الورقة التي كتبها السيد جاك وأمر بأن توضع في غرفة الملك صادقة في ما ورد فيها عن ضجر السيدة ديتيول ... فقد كانت جان تتمنّى دائماً أن ترى الملك إلى قربها ، بينما كان لويس الخامس عشر يخشى أن يأتي إليها لاعتقاده بأنها ستصدّه فيما إذا أقبل دون دعوة منها . قالت في نفسها :

« قد أكون خاشنته وهو الذي يحبني كثيراً !... لقد كنت قاسية ظالمة ... آه يا مليكي المحبوب ، إصفح عني ... أغفر لحبيبتك !... »

وعادت تفكر في سيزون وفي « شقيقتها » التي حلّت محلّها . فقد كانت تنفر من سيزون وتمقت تصرّفاتها التي لا تخلو من القحة في بعض الأحيان ، وكانت تتمنّى أن تستبدلها بسواها ... إلا أنها

لم تكد ترى جولييت حتى استولى عليها قلق غامض لا تدري كنهه، وقد ضاعف ذلك القلق ما رأته من اضطراب الوصيفة الجديدة وغرابة تصرفاتها .

فما معنى ذلك الشحوب الذي كسا وجهها فجأة؟... وما معنى ذلك الارتباك الذي استولى عليها ؟... وخاصة ، كيف يتفق أن تشبه شبهاً تاماً امرأة كانت ـ هي جان ـ متأكدة من أنها أبصرتها في ما مضى ؟... وأخيراً ، أين أبصرت تلك المرأة التي تشبهها الوصيفة الجديدة ذلك الشبه التام ؟...

وبعد أن أعملت فكرها طويلاً في هذه الأمور ، طرحتها جانباً وعادت تفكر في الملك . ودقت الساعة الثامنة فأيقظتها دقاتها من أحلامها ، وفي تلك اللحظة دخلت جولييت تحمل كوب الحليب وهي لا تزال على ما كانت عليه من الشحوب والاضطراب ، فبادرتها جان بقولها :

ـ ضعي هذا الكوب جانباً يا جولي ، وساعديني على خلع ثيابي ...

فلحقت بها جولييت إلى غرفة النوم ، وقالت لها فجأة بصوت مرتعش :

ـ ماذا ؟!... أتريدين أن تنامي الآن يا مولاتي ؟...

فقالت جان متعجبة :

أجل ، فهل من مانع ؟

ـ ربّاه ! لو كنت أملك الجرأة يا مولاتي ...

ـ على ماذا ؟... إنك تخيفينني يا جولي !... تكلمي ...

ـ لو كنت أملك الجرأة يا مولاتي لنصحتك ...

ـ بماذا ؟!... أنصحي ... يا لك من فتاة غريبة الأطوار!.. ربّاه !...

فقالت جولييت بعزم :

ـ من الأفضل لك أن لا تنامي يا مولاتي ...

فتفاقم قلق جان وصاحت قائلة :

ـ أمجنونة أنت ؟... لماذا لا تريدين مني أن أنام وأنا في حاجة إلى النوم ؟...

فتابعت جولييت كلامها كأنها لم تسمع ، قالت :

ـ ولو كنت أنا مكانك لما امتنعت عن النوم فحسب ... بل لارتديت ثياب الخروج ولبثت على استعداد تام لمغادرة المنزل !..

فانقلب قلق جان إلى رعب شديد وأخذت تتفرّس في جولييت التي أطرقت برأسها ، ولم تلبث أن قالت لها :

ـ تكلمي ... إنك تخفين عني شيئاً ، فما هو ؟...

ـ مولاتي ...

ـ يلوح لي أنك لست هنا إلا لحمايتي !... فإن اضطرابك ونصائحك الغريبة ...

فصاحت جولييت صيحة قصيرة وخبأت وجهها بيديها وخرّت على ركبتيها وأخذت ترتعش ارتعاشاً متواصلاً . فازداد رعب جان وصاحت قائلة :

ـ أرأيت أنني لم أخطىء في قولي إنك هنا لحمايتي ؟...

فقالت جولييت وهي تشهق :

www.mlazna.com RAYAHEEN

— مولاتي ، أنت ترين جيداً أنني لا أخونك ... ما دمت أحاول إنقاذك !...

— تحاولين إنقاذي ؟... وهل أنا مهدّدة ؟...

فنهضت جوليت ونظرت إلى الساعة بيأس وهي تقول :

— مولاتي ، أتوسّل إليك أن تدعيني ألبسك ثيابك ... ستسألينني بعد ذلك ... وسأقول لك كل شيء !...

واندفعت نحو خزانة الملابس وعادت منها بعطف وثوب وأخذت تساعد جان على ارتدائهما ، ثم التفتت مرة أخرى إلى الساعة وقالت :

— إنها الساعة التاسعة الآن ، وأمامنا ساعة كاملة للنجاة ...

وكانت جان قد انتهت من ارتداء ثيابها ، فقالت باضطراب لم تقوَ على إخفائه :

— تكلمي الآن ...

فقالت جوليت بحزم :

— لن أتكلم إلا في الطابق الأرضي يا مولاتي .

— لماذا ؟...

— لنكون على ثقة من النجاة يا مولاتي ... فتعالي ، تعالي وثقي بي ... فإنني أخون الذين أوفدوني لأجلك يا سيدتي ...

فخُيّل لجان أنها في حلم ، وسارت وراء جوليت إلى قاعة صغيرة في الطابق الأرضي ... كلا ، لم يعد الشك ممكناً ، فقد أيقنت من أن هناك شركاً منصوباً لها . فتهاوت إلى مقعد وتاهت في عباب التفكير . ورغم البرد الشديد فتحت جوليت الباب الخلفي

للقاعة وهي تقول :

— لحظة يا مولاتي . .

واندفعت إلى الحديقة . وبعد بضع دقائق عادت إلى القاعة وقالت لجان :

— لقد قمت بما عليّ يا مولاتي ، فقد دفعت مزلاج الباب الصغير وأقفلته من الداخل وتركت المفتاح في القفل ، إذن ، فتستطيعين أن تذهبي عندما تريدين .

فقالت جان بحزم :

— إنني لن أغادر هذا المنزل ما لم أقف على حقيقة الأسباب التي تدعوني إلى مغادرته !...

فألقت جوليت نظرة خفيّة على الساعة فإذا هي لم تبلغ العاشرة بعد . وكان عليها أن لا تحمل جان على براح المنزل قبل تلك الساعة ، فبحثت عن حديث تشغلها به ، ولم تلبث أن قالت فجأة :

— لقد خدعتك يا مولاتي ، فأنا لست شقيقة سيزون .

— ولكن سيزون نفسها قالت لي ...

— إن سيزون كاذبة مثلي !... وهي شريكتي في المكيدة .. وقد تقاضت ثمن خيانتها كما تقاضيت ذلك الثمن أنا نفسي ، فإن الذين يضمرون لك الشرّ عرفوا كيف ينظمون خططهم ...

فبذلت جان مجهوداً كبيراً لامتلاك روعها وقالت :

— من هم أولئك الذين يكيدون لي ؟...

— إنهم أعداء الملك !...

فصاحت جان صيحة رعب ، فهل تفضّل أن يستهدفها المتآمرون

بخططهم على أن يستهدفوا الملك . وارتعدت فرائصها عندما تبيّنت من كلام محدّثتها أن الملك في خطر وهالها أنها لا تستطيع إنقاذه . فقالت بصوت يمتزج فيه الخوف بالعزيمة :

ـ أخبريني بكل شيء أو أجيبي عن الأسئلة التي سألقيها عليك .. وإياك والكذب وإلا قتلتك بيدي !...

فصاحت جولييت قائلة :

ـ لن أكذب يا سيدتي ، ولماذا الكذب ؟... فلو كنت أريد أن أضحّي بك لكتمت عنك الخبر ، وهو سهل عليّ كما لا يخفاك ...

فقالت جان بهدوء :

ـ أجل ، هذا صحيح ... وسأكافئك مكافأة لا تحلمين بمثلها إذا أجبتني بدقة عن أسئلتي ... فمن هم أولئك الذين يكيدون للملك ؟...

ـ لا أعرفهم يا مولاتي ، وكل ما أعلمه هو أنهم من النبلاء .

ـ لماذا انتدبوك أنت للكيد لي ولم ينتدبوا سيزون ؟

ـ لأن سيزون خافت ، وقد قبلت أن تذهب دون أن تتحمل أيّة مسؤولية .

ـ من أي شيء خافت سيزون ؟

ـ خافت أن لا تنجح المكيدة ، وعندئذٍ ينتقم منها الملك شر انتقام ... فاكتفت بأن تتقاضى مبلغاً كبيراً من المال من الذين يضمرون الشر للملك ولكن أفسحت المجال لمن هي أكثر شجاعة منها ..

ـ أي لك أنت ؟...

ـ نعم يا مولاتي .

ـ وماذا كان يجب عليك أن تفعلي ؟..

ـ أولاً ، أن أدعوك إلى الرقاد باكراً حتى إذا حلّت الساعة العاشرة تكونين غارقة في النوم ...

ـ وبعد ذلك ؟...

ـ وعند الساعة العاشرة يطرق أعداء الملك الباب فأفتح لهم ..

ـ وبعد ذلك ؟...

ـ لا أدري يا مولاتي ... ولكن يُخيّل لي أنني سمعت ...

ـ ماذا سمعت ؟... أسرعي في الكلام ، فها هي الساعة العاشرة أوشكت أن تدق ...

ـ سمعت أن المتآمرين سيقبضون عليك يا مولاتي ويستكتبونك ، طوعاً أو كرهاً ، رسالة للملك ...

فارتعشت جان ارتعاشاً شديداً ، وأردفت جولييت تقول :

ـ وتكتبين رسالة للملك تطلبين منه فيها أن يأتي إليك ... فيأتي الملك ... وهنا لم أعد أعرف شيئاً ...

فصاحت جان تقول في ذعر شديد :

ـ ولكنني أنا أعلم ... فإنهم ينصبون شركاً للويس !... ربّاه ، كيف السبيل إلى تحذيره ؟...

وفي تلك اللحظة طُرق باب المنزل الكبير طرقاً شديداً ، فقالت جان وهي ترتعش :

ـ ها هم قد أقبلوا ... فاسرعي ونبّهي الخادمات إلى أن لا يفتحن لهم ...

فقالت جولييت بهدوء :

- كوني مطمئنة يا مولاتي ، فإنني اتخذت جميع الاحتياطات لإنقاذك ، وقد أقفلت ذلك الباب وها هو المفتاح !...

وفي الوقت نفسه طرحت المفتاح على الطاولة أمام جان ، فقالت هذه باضطراب شديد :

- ما العمل الآن ؟... ما العمل ؟...

- بادري إلى الفرار يا مولاتي ... أهربي بسرعة ... ها إن الطرقات تشتدّ ... وقد يأتون إلى باب الحديقة !... إلى الهرب يا مولاتي ... أسرعي ، فإذا تأخرت لحظةً واحدة يفوت الأوان !...

- أجل ، أجل ، يجب أن أهرب ... وأحذّر الملك !...

فقالت جولييت :

- تعالي يا مولاتي ، تعالي ...

وأمسكت بذراعها وسارت بها إلى باب الحديقة ، وهناك فتحت الباب وقالت :

- إنتظري لحظة يا مولاتي ، فإنني سأتثبّت أولاً من أن لا خطر عليك ...

فقالت جان :

- سوف أكافئك مكافأة ملكية ...

وخرجت جولييت ، فألقت نظرة سريعة إلى جميع الجهات وعادت إلى جان وقالت لها :

- لا أحد هناك يا مولاتي ، فهيّا ولا تخشي شيئاً ...

فاجتازت جان الباب ، وعندئذٍ استدارت نحو جولييت وقالت لها :

- وأنت ؟... تعالي معي !...

فاكتفت جولييت بأن تجيب قائلة :

- أهربي ... أهربي ...

ودخلت الحديقة على الأثر فأقفلت الباب ودفعت المزلاج ووقفت تنتظر لاهثة إلى أن سمعت وقع خطوات جان وهي تبتعد بسرعة ، وعندئذٍ دخلت المنزل واستدعت نيكول وقالت لها :

- يجب أن تُطفأ أنوار المنزل كلها خلال خمس دقائق ...

- سأفعل ...

- وعند منتصف الليل ... عندما يُطرق الباب ...

- سأفتح ...

- وتمسكين بيد الرجل الذي سيحضر وتقودينه إلى غرفة مولاتنا ...

وبعد أن أعطت جولييت تلك التعليمات واطمأنت إلى أنها ستُنفّذ بحذافيرها ، صعدت فوراً إلى غرفة السيدة ديتيول وارتدت ثياب نوم تشبه ثيابها تماماً ولبثت تنتظر ...

منزل زقاق الخزّانات

*

عندما رأت جان باب الحديقة يُغلق وراءها فوراً شعرت بأن

تلك التي ادّعت أنها تحاول إنقاذها قد خدعتها ، فخطر لها أن تعود أدراجها وتنادي الخادمات ليفتحن لها وتدخل المنزل مهما كلف الأمر . ولكن ربما كانت جولي قد قالت الحقيقة ، وفي هذه الحالة لم يبقَ لها ما تفعله في المنزل .

وتوالت الطرقات على مدخل المنزل في تلك اللحظة ، ففكرت بالملك والأخطار التي تتهدّده فارتعشت وغمغمت تقول :

- كلا ... هو أولاً !... يجب أن أحذّره ... أن أنقذه !...

واندفعت رأساً في اتجاه قصر فرساي ، فقد صحّ عزمها على أن تذهب بنفسها إلى الملك وتنبّهه إلى الخطر المحدق به . ولكنها ما كادت تبلغ الأشجار القريبة من المنزل حتى رأت شبح رجل يتقدم نحوها ، فكتمت صيحة ذعر كادت تنطلق من بين شفتيها ، إلا أنها كانت شجاعة ، كما رأينا في مناسبات عديدة ، فانتضت خنجراً صغيراً ذهبي القبضة اعتادت أن تحمله في صدرها وقالت بصوت ثابت النبرات :

- أياً كنت يا هذا ، قف مكانك ودعني أمرّ !... وأندرك بأنني مصمّمة على الدفاع عن نفسي إلى النهاية ... أنظر إلى الخنجر في قبضتي !...

فتراجع الرجل خطوة وانحنى باحترام وقال بصوت مرتعش :

- إن مصابي عظيم يا سيدتي لأنني أرعبتك ، وقد تكونين ظننتني أحد لصوص الشرف !...

فصاحت قائلة :

- الفارس داساس ؟!...

- أجل يا سيدتي ، الفارس داساس الذي جاء يلقي بحبه عند قدميك ويضع سيفه في خدمتك ...

فأطلقت جان صيحة فرح ومدّت له يديها الاثنتين وهي تقول :

- أيها الفارس داساس ، إن أيّ لقاء في مثل الظروف التي أنا فيها لا يمكن أن يوحي إليّ بالثقة التي أوحاها إليّ لقاؤك أنت ...

فأشرقت أسارير داساس وأخذ قلبه يخفق ، فقالت جان :

- لنبتعد أولاً عن هذا المنزل ...

- إستندي إلى ذراعي يا سيدتي و كوني على يقين من أنك لن تخشي شيئاً وأنت تحت حماية هذه الذراع !...

فقالت وهي تتأبّط ذراعه بثقة تامة :

- أنا أعرف ذلك جيداً .

وأخذا يسيران ، وكان داساس يعتقد أنه في حلم فلم يجرؤ على الكلام ، ولزمت هي الصمت أيضاً . ولبثا هنيهة على تلك الحال ، وكان الصمت أشد وطأة على جان منه على الفارس الذي كان سابحاً مع أفكاره العذبة ، فقالت فجأة :

- كيف اتّفق أيها الفارس أنك كنت أمام هذه الحديقة في اللحظة نفسها التي كنت أغادرها فيها ؟...

- يا لله من هذا السؤال !... إنني ، منذ عرفت مقرّك ، دأبت على الطواف حوله كأنني نفس معذّبة ...

- و كيف عرفت أنني في هذا المنزل ؟...

- تبعت المركبة التي جاءت بك إليه .

www.mlazna.com
ARAYAHEEN

وقد كذب داساس مرتين في ما قاله . فإن دي برني هو الذي أرشده إلى المنزل ، والورقة التي وصلته في الصباح هي التي علم منها أن جان ستبرح مقرّها في الساعة العاشرة ليلًا . ولكنها حال العشّاق ، وأي عاشق لم يرتكب ما ارتكبه داساس ؟

وكانت جان تفكر بالملك في تلك اللحظة وتريد أن تنبّهه مهما كلّف الأمر إلى الخطر الذي يهدّده . إلا أنها لم تكن تستطيع أن تطلب ذلك من داساس ، منافس لويس الخامس عشر في حبّها . ولكن شيئاً واحداً طمأنها ، فإن أعداء الملك المجبولين لا يستطيعون أن يستدرجوه إلى الشرك إلا بواسطة رسالة تكتبها هي ، ومادامت لم تكتب تلك الرسالة فإنهم لن يستطيعوا أن يستدرجوه إلى كمينهم . إذن ، فلا خطر يهدّد لويس الخامس عشر ، في الوقت الحاضر على الأقل ، وقد قرّرت أن تؤجل تنبيهه إلى فرصة أخرى .

غير أنها قرّرت أيضاً أن لا تبتعد عن فرساي ، فاستأنفت الكلام قائلة :

— إلى أين تقودني أيها الفارس ؟

— إلى حيث تأمرين بأن أقودك يا سيدتي . فإذا كنت تريدين أن تعودي إلى باريس فإن جوادي هنا و . . .

فقاطعته بقولها :

— كلا ، كلا ، يجب أن أبقى في فرساي . . .

فانتشرت سحابة من الحزن أمام داساس وتنهّد تنهدة عميقة ، فإن فرساي تعني الملك . غير أنه أبى أن يدع الغيرة تستولي عليه وهو في أوج السعادة والغبطة ، فقال بشيء من التردّد :

— إذا كنت تريدين أن تبقي في فرساي ، فليس هناك سوى وسيلة واحدة تؤمّن لك ذلك . . .

— ما هي ؟ . . .

فقال وقد احمر وجهه كأنما أتى أمراً مخجلًا :

— هي أن أقودك إلى منزلي !

فقالت ببساطة كلية :

— إن ذلك خير ما تفعل . . . فإنني لن أخشى شيئاً وأنا في منزلك وتحت حمايتك . . .

فغاظ داساس أن تقبل دعوته بكل تلك البساطة . وكان ينتظر منها أن تمانع فلم تفعل بل وافقت بكل طيبة خاطر على أن تذهب إلى منزله كأنما تذهب إلى منزل أخيها . . . وآلمه أن تحبّه كأخيها وشعر تماماً بأنها لن تحبه حباً آخر . ومع ذلك فقد كان يشعر بكثير من الفخر والغبطة وهو يقودها إلى منزل زقاق الحزّانات .

ووقف وإياها أمام باب المنزل السري ، ذلك المنزل الذي يقيم فيه ضيفاً على السيد جاك . وعندئذٍ عادت إلى ذاكرته فجأة كل تلك الغرائب التي لقيها في ذلك المنزل فارتعش ارتعاشاً شديداً ، وتذكر زيارة ذلك الشبح الأسود ، بل تلك المرأة الغامضة المجلببة بالسواد التي حظّرت عليه أن يدخل المسكن المقابل مهما كانت الذريعة ، وتذكر الورقة التي قرأها في الصباح ، تلك الورقة التي قيل له فيها إن المسكن المقابل هو الذي يوضع تحت تصرّفه عندما يدخل المنزل مع جان . . . فشعر بالخطر الهائل الذي سيعرّض له

نفسه والمرأة التي يحبها فيما إذا دخل المنزل الرهيب، وهمّ بأن يعود من حيث أتى ... ولكن فات الأوان ، فإن الباب كان قد فُتح وبدا في إطاره الخادم لوبين يدعوه للدخول ، فقال في نفسه :

« إنني هنا لحمايتها مهما حصل في هذه الليلة ... وغداً صباحاً سأبحث لها عن منزل آخر ... »

ودخل المنزل فتبعته جان وهي في شغل من هواجسها الخاصة عن ملاحظة ترتيبات ذلك المنزل الغريبة . وكان الخادم لوبين يحمل مشعلاً بيده ويسير أمامها، وعندما بلغ الفناء انعطف إلى اليمين ودخل المسكن المقابل للمسكن الذي كان يقيم فيه داساس . وكان الفارس يسأله عن سبب ذلك التبديل في المساكن ، إلا أنه خشي إذا تكلم أن يلفت أنظار خصومه ويثير قلق جان. فدخل المسكن ويده على مقبض سيفه ، وقال للخادم لوبين بلهجة قاسية :

— أين غدّارتاي ؟

فقال الخادم وهو يبتسم :

— ها هما يا سيدي ...

وأشار إلى غدّارتين موضوعتين على طاولة ، فاطمأنّ داساس وقال في نفسه :

« أعتقد أنهم لن يحاولوا ، في هذه الليلة على الأقل ، شيئاً ضدي أو ضد جان ما داموا قد أتوني بأسلحتي ... إلا إذا ... »

وعنّت له فكرة مفاجئة بشأن الغدّارتين فتفحّصهما بدقّة فإذا هما محشوّتان بالرصاص . فاطمأن تماماً عندئذٍ وبدأ يعتقد أن الشبح الأسود الذي حظّر عليه دخول المسكن لم يكن إلا وهماً وخيالاً .

ومن جهة أخرى ، فقد كان منظر القاعة الصغيرة التي دخلها الفارس وجان وراء الخادم لا يبعث على أيّة خشية، وقد دهشت جان دهشة بالغة لما رأته في تلك القاعة من أثاث أنيق فنظرت إلى داساس بحنان وهي تقول في نفسها :

« إنه يريد أن ألقى هنا من الراحة ما كنت ألقاه في منزلي ، ولا شك في أنه أنفق مرتب بضع سنوات في فرش هذا المسكن !.. يا للشاب المسكين !... »

وغاب لوبين بضع دقائق عاد بعدها ينحني أمام جان ويقول لها:

- إن العشاء جاهز يا سيدتي !

ولم تكن جان تشعر بأيّة شهيّة للأكل ، غير أنها خشيت أن تسيء إلى داساس فيما إذا رفضت أن تجلس إلى مائدته فسارت إلى قاعة الطعام . وهناك ، تفاقمت دهشتها عندما وقعت عيناها على أصناف الطعام وأثاث القاعة ، فقالت للفارس وهي تجلس إلى المائدة :

— ما هذا الجنون الذي أقدمت عليه أيها الفارس ... هذا الأثاث الثمين ... وهذا العشاء ...

فارتبك داساس وهو الذي لم يفكر مطلقاً في كل ذلك ... والآن ، وقد وقع ما وقع ، فكيف يقول لها الحقيقة ؟... كيف يقول لها إنه ليس في منزله ؟...

وغمغم قائلاً :

— سيدتي ...

فقالت جان فجأة :

— ولكنك كنت تنتظرني إذن ؟

فاحمرّ وجهه وصاح قائلاً :

— أجل ، كنت أنتظرك ، أتجهلين أنني أنتظرك دائماً ؟

ونقم على نفسه لكذبه ، فأردف يقول بصوت مرتجف :

— أتوسّل إليك أن تكفّي عن إلقاء الأسئلة يا سيدتي ... إفترضي أنك انتقلت إلى منزل مسحور ... وأن كل ما نراه ومحيط بنا ليس إلا سحراً ...

فقالت وهي تتظاهر بالمرح :

— ولكنك تخيفني ، فأنا أرتاع من السحر والسحرة ...

فصاح قائلاً :

— لا تخشي شيئاً ، فما دمت إلى قربي فإن أحداً لن يجرؤ على الدنوّ منك ...

وقد تلفّظ داساس بتلك الكلمات بقوّة وحماس شديدين كأنما يوجّه إنذاراً خفيّاً إلى أعدائه المفروض أنهم مختبئون في مكان ما في المنزل ، فقالت في نفسها بحنان بالغ :

« يا للشاب المسكين ! »

وألقى داساس إلى ما حوله نظرة نارية وعادت عيناه تستقرّان على جان فإذا هي هادئة باسمة مطمئنة ، إلا أنها بدت له بعيدة عنه بأفكارها ... بعيدة جداً رغم أنها على مقربة منه ... فأطرق برأسه ولزم الصمت واغرورقت عيناه بالدموع ...

***

انطلق الكونت دي باري في طريق قصر فرساي وهو يحمل تلك

الورقة التي أمره السيد جاك بأن يوصلها إلى غرفة لويس الخامس عشر ، فبلغ القصر في الساعة السابعة مساءً .

وكان القصر الملكي في تلك الساعة يزخر بالحركة كأنه خلية النحل ، فإن الملك كان يتأهّب للعشاء . فدخل الكونت دي باري قاعة الطعام ، وكانت تغصّ بالنبلاء وقد احتشدوا في الزوايا وفجوات النوافذ كي يتشرفوا برؤية الملك وهو يأكل . وأقبل لويس الخامس عشر فجلس فوراً إلى المائدة وأخذ يأكل ويأكل — وكان شرهاً نهماً — دون أن يعير الحاضرين أيّ اهتمام . وفجأة ، وكان قد بدأ يحسّ بالشبع ، أسقط فوطة المائدة التي كان يعقدها على صدره فاندفع الحاضرون — وكلهم دوق وكونت ومركيز — يتسابقون لالتقاطها ، وكان الكونت دي باري أسبقهم إليها فاغترفها بكلتا يديه وقدمها للملك ، فابتسم لويس الخامس عشر للكونت «المجلي» وقال له :

— كيف حال السيدة الكونتيس يا دي باري ؟ لماذا لا نراها في القصر ؟...

فارتعش الكونت سروراً وأجاب قائلاً :

— إن الكونتيس دي باري ستكون سعيدة جداً فيما إذا تشرّفت بالمثول بين يدي مولاي ، ولكنها لن تأتي إلى فرساي إلا غداً أو بعد غد ، وما دامت جلالتك قد أمرت فإنها ستأتي في أقرب وقت ممكن لتقدّم لمولاي واجب الاحترام .

فوافق الملك بإيماءة من رأسه ، وسمع رجال الحاشية ما دار بينه وبين الكونت دي باري من الحديث فكادوا يلتهمون الكونت

WWW.MLAZNA.COM

بعيونهم غيرة وحسداً .

غير أن دي باري لم يلبث طويلاً في حضرة الملك ، فقد انسحب بعد بضع ثوانٍ وتوارى بين الجمهور . وكان يتلفّت إلى ما حوله كأنه يبحث عن شخص معيّن ، وصعد إلى الطابق الثاني فطرق باباً وقال للخادم الذي فتح له :

- هل أستطيع أن أرى السيد ليل ؟

فقال الخادم :

- إنتظر لحظة يا سيدي كي أسأله ...

وغاب الرجل هنيهة عاد بعدها يقول للكونت :

- أجل يا سيدي الكونت ، فتفضل واتبعني ...

ودخل دي باري إلى قاعة خادم غرفة الملك وقال له فوراً بصوت خفيض :

- أنكون وحدنا يا ليل ؟

فأجاب ليل قائلاً :

- تكلم دون خشية يا كونت ، فإن للجدران آذاناً في القصر كله إلا في هذا المكان .

فأخرج دي باري من صدره الورقة التي أعطاه إياها السيد جاك وقال :

- هذه للملك !

فتناول ليل الورقة وقرأها وهزّ برأسه موافقاً وهو يقول :

- أخيراً !...

فقال دي باري :

- ليل ، يجب أن لا يقرأ الملك هذه الورقة قبل نصف الليل .

- أي أن يصل إلى هناك بعد انتصاف الليل بقليل ؟... حسناً يا كونت ، كن مطمئناً وأكد للذي أرسلك أن أوامره ستُنفّذ بحذافيرها ...

وشيّع ليل زائره إلى الباب ، وهو شرف لم يكن يمنحه للكثيرين ، فعاد دي باري فوراً إلى قاعة الطعام فوقف هنيهة بين رجال البلاط ، إلى أن أبصره الملك مرة ثانية ، ثم غادر القصر دون أن يلفت إليه الأنظار وتوجه رأساً إلى منزل زقاق الخزّانات فبلغه في الساعة التاسعة وقال للخادم الذي فتح له :

- أين الفارس داساس ؟

- لقد ذهب منذ ساعة .

- ولكن الأوامر تقضي بأن لا يغادر المنزل قبل الساعة التاسعة والنصف .

- لقد رفض أن يبقى إلى ذلك الوقت يا سيدي الكونت !

فتوجّه دي باري عندئذٍ إلى المنزل الصغير ، وهناك لقي دي برني قابعاً تحت الأشجار ، على بعد عشرين خطوة من البوابة الكبيرة ، وساعته في يده . فقال له الكونت :

- أين الفارس داساس ؟

- أمام باب الحديقة ، وقد تحققت من ذلك بنفسي !

- إن الساعة الحاسمة تقترب ...

- لم يبقَ أمامنا سوى ربع ساعة فقط .

- ومولانا ، أين هو ؟...

ـ لا أعلم ، ولكن كن متأكداً من أنه ، هو أو شبحه ، قابع هنا في مكان ما يراقبنا ...

ـ إن كل ما يهمنا هو أن تنجح جولييت !...

فقال دي برني :

ـ ستنجح ، فكن مطمئناً .

ولزما الصمت التام عندئذٍ ولبثا قابعين تحت الأشجار ينتظران حلول اللحظة الحاسمة ... ومرّ ربع الساعة ، فغمغم دي برني قائلاً :

ـ إنها الساعة العاشرة تماماً ، فهيّا يا كونت ... لقد حان وقت العمل ...

ـ إذن، فقم أنت بجولة حول المنزل وتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام بينما أذهب أنا إلى المدخل الكبير لأبدأ مهمتي ...

فأخذ دي برني ينسلّ من شجرة إلى شجرة ، واقترب دي باري من البوابة الكبيرة وأخذ يطرقها بلطف ثم بعنف متزايد . وكانت تلك الطرقات هي التي أرغمت جان على الفرار كما قلنا ...

ولحق به دي برني بعد عشر دقائق ، فقال له دي باري باهتمام :

ـ هل قضي الأمر ؟

فاكتفى دي برني بأن يقول له :

ـ تعال ...

وسار به إلى حيث لاح لهما شبحان يسيران في الظلام جنباً إلى جنب ، فأشار دي برني إليهما وأردف قائلاً :

ـ الفارس داساس والسيدة دبتيول !

فأشرقت أسارير دي باري بفرح وحشيّ وقال في نفسه :

« إنه لي ... لقد أصبح تحت رحمتي هذه المرة !... »

وقال دي برني :

ـ لقد انتهى دوري هنا ، وداعاً !

ـ فقال دي باري سائلاً :

ـ أتعود إلى القصر ؟

ـ أجل ، وذلك لأرى تصرّفات صاحب الجلالة عن كثب ..

فقال الكونت :

ـ وأنا سأتبع داساس لأرى ما سيكون منه !...

وسار دي برني في طريق القصر بينما لبث دي باري يتبع الفارس وجان وهو يقول في نفسه :

« على شرط أن يذهبا إلى هناك !... »

وشحب وجه لمجرد تفكيره في أن داساس قد لا يقود رفيقته إلى منزل زقاق الحزّانات ... وعندئذٍ سوف يفلت من يده ، بيد أنه قال في نفسه بعزم :

« ليكن ما يكون ، فإن لم يذهب إلى هناك أقتله فوراً !.. »

ولكنه اطمأن وطابت نفسه بعد أن سار ما يقارب الخمسمائة خطوة وراء الفارس ورفيقته ، فقد رأى داساس ينعطف إلى زقاق الحزّانات ويسير بجان نحو منزل السيد جاك ويدخلانه معاً، فغمغم قائلاً بفرح لا يوصف :

ـ أخيراً ! أخيراً !...

وقد نسي في تلك اللحظة جولييت ، والسيد جاك ، والدور

الذي يلعبه ... نسي كل شيء ولم يعد يفكر في سوى الانتقام من خصمه . وانتظر نحواً من نصف ساعة أمام باب المنزل كأنما يستعيد هدوءه ، وأخيراً طرق طرقاً خاصاً ففتح الباب فوراً دون أن يبدو منه أحد ، فدخل دي باري وأغلق ذلك الباب دون ضجة واتجه إلى المسكن الذي على اليسار ، ذلك المسكن الذي كان يشغله داساس ، فجلس واستند بمرفقيه إلى منضدة ووضع رأسه بين يديه وتاه في عباب التفكير ...

***

وانقضت ساعات طويلة ، ودقّت الساعة الخامسة صباحاً والكونت دي باري لم يتزحزح من مكانه قيد شعرة . وكأنما أيقظته دقات الساعة من تفكيره فألقى إلى ما حوله نظرات دموية كأنه قاتل عزم على ارتكاب جريمته ... وخشي أن يفاجئه السيد جاك وهو على تلك الحال فيقرأ ما في ضميره ، وكان يعلم جيداً أن السيد جاك سيمنعه عن القتل ويأمره بأن ينتظر ... وهو لا يريد أن يمتنع ولم يعد يستطيع الانتظار !... فتناول غدّارة كان قد وضعها على المنضدة أمامه عندما دخل المسكن، وتأملها بضع دقائق وهو ساهم ، ثم أعادها ببطء إلى المنضدة وغمغم قائلاً :

ـ كلا ، كلا !... إن صوت الطلق الناري سيثير ضجة شديدة ... فضلاً عن أن الرصاصة قد تطيش حتى على خطوتين... ثم إن مطلق الرصاص لا يشعر بالرصاصة وهي تخترق الصدر وتنفذ إلى القلب ... إذن ، فهذا أفضل !...

وكان «هذا» هو الخنجر . فثبّته في قبضته وخرج بهدوء إلى

الفناء الصغير ... وتسلّل ببطء نحو المسكن المقابل ... ذلك المسكن الذي يوجد فيه الفارس داساس وجان في تلك اللحظة !...

المنوّم

*

لندع الفارس داساس وجان في منزل زقاق الخزّانات في فرساي، والكونت دي باري يتحيّن الفرصة لقتل الفارس ، والملك يتوجّه بسرعة قصوى إلى المنزل الصغير تنتظره جوليت ، وشبح السيد جاك الرهيب المهيمن على كل تلك الأحداث الغريبة ، لندع كل ذلك ونعود بالقرّاء لحظة إلى باريس .

في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم نفسه الذي كانت تجري فيه كل تلك الأحداث في فرساي ، ترجّل أحد النبلاء من مركبته أمام فندق الدلافين الثلاثة وسأل عن الفارس داساس ، فقالت له صاحبة الفندق بلهجة لا تخلو من الكآبة :

ـ إن حضرة الفارس ليس هنا ...

ـ متى يعود؟...

ـ لا أعتقد أنه سيعود !...

وتنهدت كلودين الحسناء فارتعش النبيل ونظر إليها مستوضحاً فأردفت تقول :

ـ منذ بضعة أيام جاء إلى الفندق سيد شاب فاختلى طويلاً

www.mlazna.com
RAYAHEEN

بحضرة الفارس ، ثم امتطى الاثنان جواديهما وغادرانا معاً . ومنذ ذلك اليوم لم يعد الفارس إلى الفندق ... وفي اليوم الذي تلا ذهابه جاءنا رجل يرتدي ثياب الخدم فدفع كل ما لنا عليه من ديون وأخذ معه كيس الأمتعة الذي كان قد تركه في الفندق واختفى دون أن ينبس بكلمة ...

فلم يظهر النبيل دهشة أو استياء لغياب داساس بل شكر صاحبة الفندق وودّعها وصعد إلى مركبته وقال للحوذيّ :

- إلى القصر !...

واندفعت المركبة بسرعة فائقة ، وكان النبيل الذي يستقلّها يرتدي ثياباً فاخرة بالغة الأناقة مكسوّة بالجارة الكريمة النادرة من ماس وزمرّد وياقوت وسافير ، فكان المارّة يفسحون له الطريق وهم يقولون بإعجاب لا يخلو من الرعب :

- الكونت دي سان جرمين !...

ولم يكن ذلك النبيل سوى الكونت دي سان جرمين، ولكن أحداً لم يكن يعرف سبب اهتمامه العجيب بأمر الفارس داساس..

وبعد بضع دقائق بلغت المركبة ساحة لويس الخامس عشر فوقفت في الزاوية الشمالية منها أمام قصر شاهق جميل المنظر رائع الهندسة ، فدخل الكونت ذلك القصر الذي كان مكتظاً بالتحف الرائعة والأثاث الثمين النادر كأنه من قصور ألف ليلة وليلة ... ولو قُيّض في تلك اللحظة لرجل دقيق الملاحظة أن يتأمل دي سان جرمين لرأى أنه فقد كثيراً من ذلك الهدوء العجيب الذي يتحلّى به عادة ، فإن سحابة من القلق - بل من الهم - كانت تبدو بجلاء

فوق جبينه العريض الزاخر بالجرأة وقوة الإرادة ...

وضغط الكونت مرّتين على زرّ من الماس بحجم البندقية مثبت في لوح من الذهب الخالص ، فظهرت على الأثر وصيفة شابة فقال لها :

- أتكون السيدة هنا ؟

- نعم يا مولاي .

- إذهبي واسأليها إذا كانت تستطيع أن تتفضّل باستقبالي ..

فغابت الوصيفة بضع دقائق عادت بعدها تقول له :

- إن السيدة تنتظر مولاي .

فاجتاز الكونت عندئذٍ بضع قاعات ملأى بالنفائس النادرة يليق بكل قاعة منها أن تكون متحفاً ، وبلغ أخيراً قاعة شرقيّة الطراز والأثاث تمدّدت على مقعد طويل فيها امرأة رائعة الجمال ساحرة العينين ممشوقة القوام لا تكاد تبلغ الثانية والعشرين من العمر ، وقد هبّت واقفة عندما دخل الكونت ، فقال لها بحنان بالغ :

- أرجو أن لا أكون قد أزعجتك يا إيفا العزيزة ...

- أنت تزعجني يا سيدي العزيز ؟... أنت الشعاع النيّر في حياتي ، أنت الذي يحييني وجودك إلى قربي ويعرّضني غيابك للكآبة والضجر ؟... لماذا تخاطبني بهذه الأقوال ؟...

- أجل يا ابنتي العزيزة ، إنني مخطىء ... فقد عرفت حبك لي وكان يجب أن أعلم ايضاً أنني أحلّ هنا دائماً على الرحب والسعة..

فغمغمت المرأة تقول :

— جورج ، جورج ، أجل ، إنني أحبك ... ولن أكون سعيدة حقاً إلا عندما نغادر معاً هذه البلاد التي لا تستطيع فيها أن تكون لي بكليتك ... ولكن ألا تبقى ، اليوم على الأقل ، بضع ساعات إلى قربي ؟

— وأسفاه يا إيفا العزيزة ... كلا ، وقد جئت لأقول لك إنني سأضطر إلى التغيب طيلة هذا اليوم وربما طيلة يومين أو ثلاثة .. وربما أكثر ...

فأطرقت إيفا برأسها والتمعت بين أهدابها الطويلة الرائعة دمعتان تفوقان الماسات التي يتحلّى بها الكونت صفاءً وجمالاً ، فأخذها دي سان جرمين بين ذراعيه وقال :

— لا تجزعي يا ابنتي ، فسوف أتدبر الأمر بحيث لا يؤلمك غيابي ...

وضمها إليه بشدة طيلة بضع دقائق فأخذت ترتعش وتلاشت خفقات قلبها السريعة العنيفة رويداً رويداً وحلّت محلها حركة منتظمة بطيئة لا تكاد تُلحظ ، وأطبقت عينيها ثم فتحتهما كأنها تغالب النعاس ، وإذا النعاس يغلبها فتطبقهما تماماً .

وتصلّب جسدها بين ذراعي الكونت دي سان جرمين كأنه التمثال ، وعندئذٍ أرخى الكونت ذراعيه ببطء وسحبهما من حول خصرها فلبثت في الوضع نفسه الذي كانت عليه قبل تلك اللحظة ، فقام دي سان جرمين يضع حركات بطيئة أمام وجهها بكلتا يديه ، وعندئذٍ انقطعت تلك الحركة المنتظمة التي كانت تُرى فوق قلب المرأة وانشقت أجفانها وجمدت عيناها جموداً تاماً ... وسكنت

فيها كل حركة ... فقال دي سان جرمين عندئذٍ بصوت آمر لا أثر فيه للحنان :

— أتنامين ؟

فأجابت المرأة قائلة :

— أجل أيها الأستاذ ...

— حسناً ، إنتبهي ... أصغي إليّ واستعملي بصرك إلى أقصى حد ... هل تعرفين الفارس داساس ؟...

— كلا أيها الأستاذ ... إنني لم أرَه قط ...

— لا أهمية لذلك ... إتبعيني ... ها أنا أغادر القصر وأسير في شارع سانت اونوريه ... وأقف أمام دير اليعقوبيّين ، أتتبعينني ؟...

— أجل ... فقد سبق لنا أن سرنا في ذلك الطريق مرة ...

— حسناً ، إن أمام الدير فندقاً ... ها أنا أدخله ... إتبعيني دائماً ... ها أنا أصعد الدرج الذي يبتدىء في القاعة العامة ... وأدخل الغرفة الثالثة في الرواق الذي على اليمين ... هل أنت في الغرفة ؟

— نعم أيها الأستاذ ...

— إنها غرفة الفارس داساس ، وهو ليس فيها ... إن الغرفة خالية ... عودي إلى هذا الصباح ... إنك تفهمين ، أليس كذلك ؟... تخطّي الزمن ... ماذا تريدين في هذا الصباح ؟..

— أرى صاحبة الفندق تروح وتجيء وترتب الغرفة ...

— حسناً يا ابنتي ... عودي أيضاً إلى الوراء ... إلى الليلة

الماضية ...

فقالت إيفا دون أيّ جهد :

ـ لا أحد في الغرفة ...

ـ إلى الوراء أيضاً ... إلى البارحة ... لا شيء ؟... إلى أول أمس ... لا شيء ؟... عودي دائماً إلى أن تبصري في الغرفة سيدين شابين ...

فظهر على إيفا أنها تبذل جهداً عنيفاً هذه المرة ، فقد ازدادت عيناها انفتاحاً وتقلص جبينها ، أما جسدها فإنه لبث متصلباً جامداً ، قالت فجأة :

ـ ها أنا أبصرهما ...

ـ أتستطيعين أن تعرفي أيهما هو الفارس داساس ؟...

فقالت النائمة دون أيّ جهد :

ـ أجل ، فقد سمعت الشخص الآخر يدعوه هكذا ..

ـ إذن ، فأنت ترين الفارس داساس الآن وتعرفينه ، أليس كذلك ؟

ـ أجل أيها الأستاذ ... إنني أراه وأسمعه ... أنا أرى الشابين .. إنهما يشربان زجاجة من خمر إسبانيا .. ويحاول الشخص الآخر أن يأخذ الفارس إلى فرساي .. إن داساس حزين ومغتبط في آنٍ واحد .. إنه يشكر الشاب الآخر .. ويعتقد أنه صديقه .. إنهما يغادران الغرفة معاً ... ويمتطيان جواديهما .. ها هي فرساي ... إنهما يبلغان منزلاً صغيراً محاطاً بالأشجار يقع وراء الجناح الأيمن من القصر الملكي .. إن الصديق يذهب .. والفارس

يبقى ...

فقال دي سان جرمين بغبطة ظاهرة :

ـ ففي .. ستحاولين أن تعرفي من يقيم في ذلك المنزل .. ولكن استريحي أولاً .. إجلسي في هذا المقعد ..

فأطاعت المرأة وجلست ، وعندئذٍ تصبّب عرق غزير من جبينها فأخذ سان جرمين يمسحه بمنديله بلطف ، ثم حوّل نظره عن وجهها ولبث هنيهة مفكراً ساهماً ، ثم ذهب يجلس هو أيضاً في مقعد في الطرف الآخر من القاعة .

واستمرت الاستراحة ساعة وبضع دقائق عاد دي سان جرمين بعدها إلى إيفا وأمسكها بيديها ، فارتعشت المرأة وعندئذٍ قال المنوّم :

ـ هل أنت على استعداد لدخول المنزل ؟ أدخلي يا ابنتي ... يجب أن تدخلي ..

فقالت إيفا :

ـ ها أنا في المنزل .. هناك نساء .. خادمات .. وسيدة واحدة ..

ـ أتعرفين السيدة ؟..

ـ أجل أيها الأستاذ .. إنك دللتني عليها مرة وأمرتني بأن لا أنساها .. إنها السيدة ديتيول .

فقال دي سان جرمين في نفسه :

« لقد كنت واثقاً من ذلك ! وقد وضح الآن كل شيء .. »

وأردف يقول مخاطباً إيفا :

www.mlazna.com RAYAHEEN

- إتبعي الآن الفارس داساس، وقولي لي هل دخل ذلك المنزل خلال الأيام التالية ؟...

فساد صمت طويل كانت النائمة تحاول خلاله أن تجيب عن هذا السؤال . قالت أخيراً :

- إنه لم يدخل المنزل ...

- حسناً ، أين هو الآن ؟

- إنه في منزل صغير على مقربة من الخرّانات ...

- حدّدي لي موقع ذلك المنزل ...

- إنه يقع في الزقاق الذي يؤدي إلى الخرّانات ، وهو منزل متواضع المظاهر بابه من خشب السنديان المتين المصفّح بالمسامير الحديدية الضخمة وفي أعلى الباب كوّة صغيرة ... إنتظر لحظة ، وفوق الكوّة الصغيرة صليب صغير مُنقش في وسطه حرف «جيم» ..

فارتعش دي سان جرمين وقال :

- ذلك يكفي ، فأنا أعرف الآن صاحب ذلك المنزل ... وتقولين إن الفارس داساس موجود هناك ؟...

- إنه الآن في الجزء الخلفيّ من المنزل ، في مسكن يقع في الجهة اليسرى من فناء صغير ... وهو في هذه اللحظة يقرأ ورقة .. أجل ، أنا مصغية إليك ... أتريد أن تعرف ما في الورقة ؟... إنتظر لحظة .. لا يمكنني أن أقرأ .. ولكن بلى ، فاسمع .. يجب على الفارس أن يذهب إلى ذلك المنزل الصغير المحاط بالأشجار وأن يكون هناك في الساعة العاشرة من مساء اليوم .. وعليه ، عندما يرى السيدة تبوح ذلك المنزل ، أن يقودها إلى منزل زقاق

الخرّانات ويدخل وإياها المسكن الذي على اليمين ..

فقال دي سان جرمين :

- هل يوجد سوى الفارس في المسكن الذي على اليسار ؟

- يوجد خادم فقط .

- وفي المسكنين الآخرين ؟... أنظري جيداً ...

- لا يوجد أحد في المسكن الذي في طرف الفناء ... أما في المسكن الذي على اليمين فيوجد رجل وامرأة ... سبق لك أن دللتني عليهما وقلت لي إنهما الكونت والكونتيس دي باري ...

فقال سان جرمين وهو يرتعش :

- إن القضية تزداد وضوحاً ... هل تسمعين ما يقولان ؟...

- إنهما لا يقولان شيئاً ...

- إذن ، فأنا مضطر يا ابنتي إلى أن أطلب منك أن تبذلي مجهوداً هائلاً ...

فازداد تصلّب جسد النائمة ، وضغط دي سان جرمين يديها بين يديه واستأنف قائلاً :

- أريد أن تسمعي ما يقوله كل منهما في نفسه ...

فلبثت إيفا نحواً من نصف ساعة تبذل مجهوداً جباراً ، وكان الكونت ينحني عليها ، لاهثاً يتصبّب جبينه بالعرق ، ويحدّق في وجهها بقوة ويضغط على يديها . وغمغمت تقول كأنه حشرجة المنازع :

- لا أستطيع !... لا أستطيع !...

فقال دي سان جرمين بلهجة آمرة صارمة :

- يجب أن تستطيعي !.. هيّا .. أبذلي مجهوداً آخر .. أصغي .. أتسمعين ؟..

فقالت إيفا بصوت ضعيف :

- إنني أسمع ..

- حسناً يا ابنتي .. إنك مدهشة ..

- إنني أسمع أيها الأستاذ .. أسمع جيداً ..

- إسمعي ما تقوله المرأة ..

- هي تقول في نفسها إنها ستصبح ملكة في بلاط فرنسا ... وإنها، عندما تملك السلطة، ستأمر بالقبض على السيد جاك والكونت دي باري .. إنها تراهما في الباستيل فتبتسم .. ها هي تبصر الفارس داساس .. إنها لا تريد أن يموت وهي تريد إنقاذه .. والآن ، ها هي ترى السيدة ديتيول ..

- كفى يا ابنتي .. والآن ، إسمعي الكونت دي باري .. ماذا يقول في نفسه ؟..

- يقول أشياء طافحة باليأس وخاصة بالحقد ..

- بالحقد ؟.. على من ؟..

- على الملك ... على السيد جاك ... عليك أنت يا سيدي العزيز !.. يا للشقيّ !.. إحذر لنفسك يا مولاي !..

- وبعد ذلك يا ابنتي ؟..

- الحقد دائماً .. على المرأة الجالسة إلى قربه .. على السيدة ديتيول .. على الفارس داساس .. إنه يريد قتله وهو يتأهب لارتكاب الجريمة ويبحث عن الفرصة المناسبة .. إنه يريد أن يقتله أمام مدخل

المسكن الذي على اليمين عندما يغادره الفارس .. وهو لا يعرف حتى الساعة الطريقة التي سيقتله بها ..

فقال دي سان جرمين وهو في غاية التعب :

- كفى يا ابنتي ، كفّي عن الإصغاء والنظر وعودي إليّ ..

فطافت ابتسامة رضىً على وجه النائمة ، فقال الكونت :

- أصغي إليّ ، إنني أمنعك عن الاستسلام للحزن أثناء غيابي، أتسمعين ؟... فكري في أنني سأعود إليك قريباً واغتبطي ... والآن ، نامي بسلام يا ابنتي واستفيقي بعد ساعتين ..

ومسح جبينها بيديه بضع مرات فعادت إلى حالتها الطبيعية ولبثت نائمة نوماً هادئاً وهي تبتسم ، فطبع الكونت على جبينها قبلة طويلة ثم دخل غرفته فخلع ثيابه الفاخرة وجواهره وارتدى ثوباً بسيطاً لبس تحته درعاً ضيّقة الزرد لا يؤثر فيها الرصاص ولا الخنجر، ونادى خادماً همس في أذنه ببضع كلمات ، فغاب الخادم هنيهة عاد بعدها يقول :

- إن مركبة سيدي الكونت في انتظاره .

فنزل دي سان جرمين إلى فناء القصر وصعد إلى مركبة بسيطة الشكل عادية المظهر وقال للسائق :

- قف عند المنازل الأولى من فرساي ، وأيقظني ..

وتمدّد الكونت على مقاعد المركبة وغمغم قائلًا :

- سأنام حتى أبلغ فرساي ، فإن ذلك كافٍ لأستعيد قواي بعد تلك الجلسة المرهقة ..

وبعد عشر ثوانٍ كان يغط في نوم عميق بينما كانت تنهب المركبة

طريقها نهباً في اتجاه فرساي ...

الكونتيس دي باري

*

كانت الساعة تدق نصف الليل عندما غادر لويس الخامس عشر قصره يرافقه خادم غرفته ليبل ، وبعد عشرين دقيقة بلغا المنزل الصغير فقال الملك لرفيقه دون أن يتمّ بما سيعرّضه له من البرد الشديد :

— ستنتظرني هنا !

فقال ليبل :

— حسناً يا مولاي !

وقال في نفسه :

« يا لك من أنانيّ !... فأنت لا تبالي فيما إذا متُّ برداً !... ولماذا تبالي ؟... إنك عندئذٍ ستتّخذ لك خادماً آخر ... ولكن صبراً !... »

وكان الملك قد توجه رأساً إلى باب الحديقة وطرقه طرقاً خاصاً ففُتح الباب فوراً ... فخفق قلب لويس الخامس عشر وقد استعاد في ذهنه ما قرأه في تلك الرسالة المقتضبة :

« إن السيدة ديتيول في ضجر ، وقد قرّرت أن تعود غداً إلى باريس . »

وكانت الجملة الأخيرة هي التي أقلقته وأشاعت في نفسه الاضطراب، فإن الذي كتب الرسالة يعرف نفسية لويس الخامس عشر معرفة تامة ، قال الملك في نفسه :

« تعود إلى باريس !.. تذهب !.. تفرّ !.. يا للشيطان ! وما جدوى ما تكبّدته من العناء في اختطافها إذن ؟.. »

ولاحظ وهو يدخل المنزل أن الظلام التام يسود المدخل والدرج، فتردّد هنيهة إلا أن الخادمة نيكول كانت قد أمسكت بيده ، فقال لها :

— من ؟.. سيزون ؟..

فأجابت قائلة بصوتها الموسيقيّ :

— أجل يا سيدي !..

وكان المفروض أن يجهل جميع سكان المنزل الصغير شخصية الزائر ، أو يتظاهرون بجهلها ، ولذلك خاطبته نيكول بكلمة « سيدي ». ولم يكن الملك يعرف صوت سيزون ، وهو الذي لم يخاطبها إلا نادراً ، فترك نيكول تقوده إلى حيث تريد ، إلا أنه سألها قائلاً :

— ما سبب هذه الظلمة ؟

فقالت نيكول في لهجة مقتضبة :

— إنه أمر مولاتي ..

فقال لويس الخامس عشر في نفسه :

« يا للحياء الرائع !.. سأعمل بإرادتك يا عزيزتي جان ولن أحملك على أن تخجلي أمامي .. »

www.mlazna.com ARWAHEEN

وقال بصوت مرتفع :

— أخبريني يا سيزون ، أأنت التي كتبت لي ؟

— أجل يا سيدي .

— وتقولين إن السيدة دينيول ضجرة ؟

— إنها ضجرة حتى الموت وهي تبكي ليلاً نهاراً .

— أتتحدث عني ؟

— إنها لا تفعل سوى ذلك ..

— قوديني يا سيزون ، قوديني !.. يا لهذا الظلام الشديد .. من حسن الحظ أنني أعرف الدرج .

وصعد الدرج على مهل ونيكول تقوده دائماً وهي ممسكة بيده. وفتحت الخادمة باباً في الطابق الأول فلاح لعينيه نور ضئيل يستطيع معه أن يسير وحده بسهولة وإن كان لا يقوى على تمييز الأشياء بوضوح .. وكان الباب باب غرفة جان ، فوقفت نيكول جانباً ودخل الملك الغرفة وخطا ثلاث خطوات وهو شاحب الوجه خافق الصدغين . وكانت هناك امرأة تقف إلى جانب المدفأة فصاحت صيحة قصيرة وارتمت في مقعد طويل رجراج وهي تخفي وجهها بيديها وبمنديلها ، فغمغم الملك قائلاً بحرارة :

— جان ، جان !.. أتراني أخيفك حقاً ؟..

فهزّت برأسها سلباً ورأى لويس صدرها يعلو ويهبط فاقترب قليلاً ودار حول المقعد واستند بيديه إلى ظهره ـ ظهر المقعد ـ وقال :

— أتخفين وجهك عني يا قاسية ؟.. ولكنني لن أحاول رؤيته

رغماً عنك .. جان ، جان !.. أتضجرين حقاً وأنت بعيدة عني؟.. أصحيح أنك ترغبين في رؤيتي بالقرب منك ؟..

فلم تجب ، إلا أن الملك كان يرى جسدها يرتعش تحت ملابس النوم الشفافة . فاستأنف كلامه قائلاً :

— أجيبي يا جان ... لماذا تشيحين بوجهك عني ؟... لماذا لا تنظرين إليّ ؟.. لطالما رغبتُ في أن أراك أنا يا جان المعبودة !.. لطالما ترقّبت هذه اللحظة بفارغ الصبر !... رحماك ، أنظري إليّ ...

فقالت جولييت هامسة :

— لا أجرؤ ...

فدار الملك أيضاً حول المقعد ووقف أمام تلك التي كان يظنّها جان وغمغم قائلاً :

— لا تجرئين ؟... ولكن انظري إليّ عند قدميك ... إن صوابي يضيع .. هذا العطر الذي يفوح منك .. هذه اليد اللطيفة التي أضغطها .. هذا الحصر الرقيق الذي أطوقه بذراعي ..

فتراجعت إلى الوراء وخبّأت وجهها في وسائد المقعد .. فتنهّد الملك وغمغم قائلاً :

— أيتها الحبيبة المسكينة !.. لقد أدركتُ ما هناك !.. إنه النور !.. أنت تخافين أن أبصر احمرار وجهك ..

وأسرع إلى المصباح فاطفأه وعاد إلى جولييت فأخذها بين ذراعيه وقال بصوت يخنقه التأثر :

— أخيراً .. لا تقولي شيئاً إذا أردت .. أصمتي ..

فغمغمت جولييت تقول بصوت لا يكاد يسمع :

— مولاي !.. مليكي !..

فغمغم لويس الخامس عشر يقول :

— جان ، رحمة بي .. لا تنادني هكذا ... ليس هنا سوى عشيقك الذي يعبدك والذي يريد أن يقسم عند قدميك أنه سيعبدك دائماً ...

فتنهدت جولييت وأسلمته شفتيها وهي تقول :

— لويس .. حبيبي !

وليست غايتنا هنا أن نصف الحيَل والمشوّقات التي استعملتها المومس لتخدع لويس الخامس عشر ، وكل ما نقوله هو أن الملك لبث عند قدميها يتابع مناجاته وكانت جولييت تتحاشى الكلام قدر المستطاع ، وإذا تكلمت فإنها كانت تهمس همساً في أذن لويس .. فخُدع الملك وجازت عليه الحيلة ..

وانقضت ساعات طويلة مليئة بالسحر بالنسبة إلى الملك ، حافلة بالاضطراب والرعب والقلق بالنسبة إلى جولييت . وإذا الساعة تدقّ الرابعة صباحاً ...

وفجأة استولت على جولييت غيرة جنونية وغاظها أن تكون قبلات الملك وعهوده لسواها ... غاظها أن تكون جان هي التي يقبلها الملك ويعشقها بشخصها هي جولييت .. وكانت قد أيقنت من التأثير الهائل الذي أحدثته في نفس لويس الخامس عشر ، وكانت تعلم أيّ جمال صاعق هو جمالها فأرادت أن تجعل الملك يحبها لنفسها وليس لأنه يظنها امرأة أخرى يحبها . قالت في نفسها :

« ولماذا لا يحبّني لنفسي؟.. ألا أضاهي تلك التي يحبها جمالاً؟.. بل ألست أجمل منها ؟..»

وعصف في نفسها غضب هائل لكبريائها كأنثى جديرة بالحب فأسرعت إلى مصابيح الغرفة وأضاءتها كلها دفعة واحدة . وعندئذٍ فقط أدركت سوء فعلتها فغبّات وجهها بيديها واستدارت نحو المدفأة ولبثت تنتظر ... فماذا سيقول الملك وقد خدعته ؟... وكيف خدعته وهو الذي يستطيع بمجرد إشارة منه أن يرسلها إلى الباستيل ؟ .

ودهش لويس الخامس عشر عندما رأى جان تتملّص من بين ذراعيه وتسرع نحو المدفأة ، إلا أنه اغبط اغتباطاً شديداً عندما رآها قد أضاءت المصابيح فاقترب منها وأرغمها على أن تستدير نحوه وقال :

— شكراً يا جان ، شكراً يا ملاكي المحبوب ... لقد أدركتِ أنني أتعذب في هذا الظلام الذي يحجب جمالك عني ... أدركتِ أن حبنا يستطيع الآن أن يظهر أمام نور الشمس ... ألا ارفعي يديك العزيزتين عن وجهك ما دمت قد أضأت النور .. فأنا أتوق إلى رؤيتك ...

وأمسك بيديها يرفعهما عن وجهها فمانعت جولييت لحظة في البدء ، إلا أنها امتثلت فجأة فرفعت يديها ... وما أن بدا وجهها للملك حتى ركعت عند قدميه وهي تقول :

— الرحمة !... العفو !...

— جان ؟!.. أنتِ ؟... من أنتِ ؟...

وقد قال ذلك بصوت قاسٍ واستولى عليه الخجل والدهشة هنيهة ، ثم عضّ شفتيه وقد احمر وجهه على عادته كلما يوشك غضبه أن ينفجر . . .

ولبثا في موقفهما ، هي جاثية عند قدميه مضطربة خائفة وقد شعرت بفداحة جرمها، وهو واقف مذهول وقد اعتراه ذلك الخجل الذي يشعر به الرجل المخدوع . واستمرّ ذلك بضع ثوانٍ خُيّل لهما أنها جاوزت الساعة ، وأخيراً ، تراجع الملك بضع خطوات وبدرت منه حركة احتقار خفيت على جولييت المرتعبة ، ورأى أن يسحقها هكذا باحتقاره ، فيخرج من المنزل ويترك خادم غرفته يقوم بحراسة الباب ، ويعود وحده إلى القصر فيطلب من رجال الحرس أن يسرعوا للقبض على تلك المجهولة المحتالة . وصمم على أن لا يشفق عليها وهي التي نالت من كبريائه كرجل وكملك .

هذا ما كان يفكر به بينما لبثت جولييت جاثية على ركبتيها لا تستطيع أن تتلفّظ بكلمة .. وطاش صوابها عندما أبصرته يتأهب لبراح الغرفة وقد أولاها ظهره وأنف حتى من النظر إليها كأنها ليست موجودة ، كأنها كتلة مهملة ، كأنها لا شيء .. فحاولت أن تتوسّل إليه ، أن تغمغم ببضع كلمات تطلب فيها الصفح ، إلا أنها لم تستطع فقد كانت كأنما أُصيبت بالشلل .

وارتدى الملك ثيابه وتدثّر بمعطفه ووضع قبّعته على رأسه وسار إلى الباب . غير أنه ، في اللحظة التي كاد يجتازه فيها ، وقف فجأة وقد شحب وجهه .. فماذا حلّ بجان ؟.. وأين هي الآن؟.. وكان قد نسيها في لحظات انفعاله الأولى وخُيّل له هنيهة أنها

هي التي ابتكرت هذه الخدعة . غير أنه طرد هذه الفكرة فوراً ، وعندئذٍ استولى عليه قلق شديد وخشي أن تكون ذهبت ضحيّة بعض المكايد . فعاد إلى جولييت فأمسك بمعصميها وأنهضها وغرس عينيه في عينيها وزمجر قائلاً بصوت قاسٍ :

— أين السيدة ديتيول ؟... ماذا فعلتِ بها ؟...

فتلاشى رعب جولييت وعادت الغيرة تضطرم في صدرها فرفعت إلى الملك وجهاً زاده الغرام جمالاً ، بشفتيه الملتهبتين وعينيه المغرورقتين بالدمع ، وقالت ببرارة :

— كن مطمئناً ، فإن التي تحبها في أمان يفوق أمان هذه الشقية الواقفة أمامك والتي لا تحبها يا مولاي ...

وسمع الملك هذه الكلمات المؤثرة التي تنمّ عن كآبة وألم ، فتأمل المرأة المجهولة باهتمام متزايد وتذكر تلك الساعات العذبة التي قضاها بين ذراعيها فأيقن من أنها صادقة في قولها بأن جان بعيدة عن الخطر ، وعندئذٍ استبدّ به الفضول فأراد أن يعرف من هي هذه المرأة وكيف جاءت إلى ذلك المكان فحلّت محل السيدة ديتيول وخدعته ، أراد أن يعرف كل ذلك فقال بصوت صارم إلا أنه خالٍ من الاحتقار هذه المرة :

— من أنت يا سيدتي ؟

فأجابت جولييت قائلة :

— يؤلمني يا مولاي أن يكون وجهي لم يترك في نفس جلالتك أيّ أثر ... أنا التي دفعني الجنون إلى الاعتقاد بأن الملك تنازل وألقى نظرة عليّ في حفلة قصر المدينة .. وها أنا أتبيّن خطإي!..

www.mlazna.com ^RAYAHEEN^

فصاح الملك قائلاً وقد عرفها :

— الكونتيس دي باري !...

ورفع قبّعته عن رأسه وحيّاها بلطف ، فإن لويس الخامس عشر لم يكن يحب دي باري فقد كان وجه الكونت المتجهّم يبدو له كاللطخة السوداء بين وجوه رجال حاشيته الضاحكة المرحة . فآثار نفوره من دي باري عطفه على جولييت فابتسم وراقه أن يكون قد خان الكونت في « زوجته » .

وابتسمت جولييت أيضاً ، وربما تكون قد أدركت ما يعتمل في نفس الملك فزال عنها الخوف . وكانت تعلم تماماً ما لجمالها من سلطان على القلوب ، كانت تعلم أن جمالها سلاح ماضٍ فتّاك لا يستطيع أيّ رجل أن يقاومه حتى ولو كان الملك ، فضلاً عن أن الدهاء الذي تتمتّع به جولييت كان يخلع على جمالها مزيداً من القوة والسحر . فما أن رأت الملك يبتسم حتى أيقنت من أن الخطر قد زال تماماً ، وعندما صاح الملك يقول : « الكونتيس دي باري !.. » وحيّاها ، سرى الاطمئنان في نفسها فقالت :

— نعم يا مولاي ، إن هذه المائلة بين يديك هي الكونتيس دي باري ، وهي تتوسّل إليك أن تصفح عما أقدمت عليه بوحي..

— بوحي من ؟... أرجوك ، تابعي كلامك ...

— بوحي ذلك الإله الظالم الذي يدعونه الحب ، فإنه هو الذي قادني إليك يا مولاي ...

فخفق قلب لويس الخامس عشر لذلك الجواب ، ولم يكن منه إلا أن عاد فخلع معطفه ورمى به عند أقدام السرير وجلس في مقعد

بالقرب منها وقال :

— إذن ، فإن ذلك الإله الظالم هو الذي أمسك بيدك وقادك إلى هنا ؟...

فقالت جولييت برصانة :

— أجل يا مولاي ، فإن سهامه أصابت قلبي وفتكت به بقسوة ...

— إن المغامرة مثيرة فعلاً يا سيدتي ، ويجب أن تطلعيني مفصّلاً على كل ذلك ...

— كلمة واحدة يا مولاي قبل أن أبدأ قصتي ... هل أنت آسف الآن على تلك المغامرة ؟

فأجاب قائلاً بصراحة :

— كلا !...

والتمعت عيناه ببريق غريب ، فإن جمال جولييت وجسدها الناريّ فتناه وأضاعا صوابه . وأدركت هي ذلك جيداً فاكتسى جبينها مسحة من الكبرياء . لقد سيطرت على الملك هذه المرة ، وستصبح خلال وقت قريب سيدة ذلك البلاط التي لم تكن تحلم حتى بالاقتراب منه ، فقالت بصوت يرتعش تأثراً :

— إذن يا مولاي ، فما دمت غير آسف على ما جرى ... ما دمت قد صفحت عني ... فإنني سأجرؤ الآن على أن أطلعك على قصتي ... واعلم يا مولاي أن التبعة تقع عليك وحدك في ما أقدمت عليه ...

فقال متعجباً :

— كيف ذلك ؟

— تذكر يا مولاي تلك الحفلة في قصر المدينة ... تذكر تلك الدقيقة الساحرة المسكرة بالنسبة إليّ ... تلك الدقيقة التي تنازلت فيها وقدتني إلى مقعدي ... أتعتقد يا مولاي أن ذلك التلطف الذي بدر منك لا يبقي أثراً في قلب المرأة ؟... كنت أحبك يا مولاي منذ زمن طويل ... وأخشى إذا بحت بكل ما في قلبي أن تستهين بي جلالتك ...

— كلا يا سيدتي ، مطلقاً !... فأنا أحب الصراحة وخاصة إذا سمعتها من فم رائع وزادتها عينان جميلتان بلاغة وسحراً !...

قضي الأمر ، وسقط الملك في الشرك !... فغمغمت جولييت تقول وهي ترتعش :

— مولاي ، مولاي ، إذا لبثت تقول لي مثل هذه الأقوال فإنك ستقضي عليّ بالموت لشدّة سعادتي كما أوشكت أن أموت في اللحظات السابقة لشدّة رعبي ويأسي ...

— تموتين ؟... لماذا ؟...

فصاحت جولييت تقول باندفاع جذّاب :

— أجل يا مولاي ، فإنك لو لبثت تحتقرني ... لو لبثت تسحقني بغضبك ... لمتّ دون أيّ شك !... فإنك ما تكاد تذهب حتى ...

— ماذا كنت تريدين أن تفعلي يا سيدتي ؟

فنهضت جولييت بسرعة وتوجهت إلى خزانة فتناولت منها زجاجة صغيرة وعادت بها وهي تقول :

— كنت أريد أن أجرع ما في هذه الزجاجة من سمّ فأقضي بذلك على حياتي وقد نغّصها اليأس والخجل !

فانتزع لويس الخامس عشر الزجاجة من يدها بسرعة ، فأطلقت جولييت صيحة رعب وصاحت قائلة :

— إياك وأن تفتحها يا مولاي ، فإن رائحتها وحدها تكفي للقتل !...

فارتعش الملك ارتعاشاً عنيفاً وذهب إلى النافذة فرمى الزجاجة منها بعنف فتحطمت على جدار الحديقة ... وكانت الزجاجة تحوي فعلاً سماً زعافاً صاعقاً ، فقد كان مقرراً أن تجرّب جولييت مفعول ذلك السمّ أمام الملك بأن تسقي ما في الزجاجة كلباً صغيراً كان موجوداً في المنزل لتلك الغاية . وعندما يجرع الكلب السم ويموت يدرك الملك أية امرأة عاشقة مخلصة هي تلك التي كادت تنتحر في سبيله . ولكن تصرّف الملك حال دون تلك التجربة ، وكان قد اقتنع بحبها وهذا كل ما تريده .

وعاد الملك يجلس قربها وهو يقول :

— ها أنت ترين جيداً يا سيدتي أنني لا أريد أن تموتي !

فغمغمت جولييت قائلة :

— مولاي ، كنت أريد أن أحتفظ بذلك السم إلى اليوم الذي تهجرني فيه ...

وقد تمادت في الجرأة هذه المرة ، فإن الملك لم يكن يريد أن يتكلم عن المستقبل ولذلك فإنه لم يجب . واستأنفت جولييت كلامها بسرعة فقالت :

— مولاي ، إنك طلبت مني أن أقصّ عليك حكاية قلبي وهي حكاية بسيطة ... فقد أُرغمت على الزواج من رجل لا أحبّه ولم أحبّه في أيّ وقت مضى ...

فقال لويس الخامس عشر وهو يبتسم :

— ذلك الكونت المسكين !

— إنه غيور فظ دائم العبوس ... هذا هو الكونت دي باري يا مولاي !

— إنها صورة لا ترضي ، ولكنها دقيقة صادقة .

— آه يا مولاي ، لو تعلم كم تعذّبت ! فقد حبس عليّ في ذلك القصر البعيد في مقاطعة موحشة جافية وحظّر عليّ مغادرته .. فلم أكن أستطيع أن آتي إلى باريس إلا في أوقات معيّنة ... وكنت أشعر دائماً وأنا في باريس بأن عينيه عليّ لا تفارقانني لحظةً واحدة ...

— إذن ، فسيعلم أنك ...

— كلا يا مولاي ، فإنه يظنّني الآن في قصر جزيرة سان لويس في باريس ، ويعتقد أنني لن آتي إلى فرساي إلا غداً أو بعد غد ...

فتذكر الملك عندئذٍ ما قاله الكونت دي باري له أثناء عشائه ، فإذا به يطابق تماماً ما تقوله جوليت . واستأنفت المرأة كلامها فقالت :

— وفي إحدى الزيارات النادرة إلى باريس ، بينما كنت أتجول في شوارع المدينة برفقة الكونت ، شاهدت رهطاً من النبلاء يعود

من الصيد فلفت نظري بينهم نبيل يكسف كل ما حوله بجماله وأناقته فسألت دي باري عن اسمه فلم يبح لي به ... وشعرت فوراً بأن ذلك النبيل الشاب قد ملك عليّ نفسي ... إلا أنني أبصرته مرة أخرى ... وكان في تلك المرة يستقل مركبة ذهبية وتحيط به السيوف اللامعة وقد تجمعت جماهير الشعب على طريقه وهي تهتف بأصوات كأنها قصف الرعد : « ليحيَ الملك !... »

وتوقفت هنيهة عن الكلام وهي تلهث ، ولا لزوم للقول بأن ما تفوّهت به أحدث تأثيراً عظيماً في نفس الملك . وقالت تتابع حديثها :

— مولاي ، إنني لا أستطيع أن أصف لك عذابي عندما علمت أن ذلك الذي أهواه لم يكن إلا ملك فرنسا !

— لماذا يا سيدتي ؟... وهل الملك قاسٍ إلى ذلك الحدّ ؟...

— كلا ، كلا يا مولاي ... ولكنني أدركت عمق الهاوية التي تفصل بيني وبينك !... أدركت أن من المستحيل أن يتنازل الملك وينظر إليّ ... ثم كانت تلك الحفلة في قصر المدينة فلامس الأمل قلبي هنيهة عندما تلطف مولاي وكلمني... إلا أنني أدركت فوراً أن الكلمات اللطيفة التي أسمعتني إياها إن هي إلا مجاملات سطحية أملاها عليك ظرفك وتهذيبك ... ثم كلمني دي باري عن العودة إلى الأقاليم ... وعندئذٍ ضاع صوابي فعزمت على أن أجازف بكل شيء حتى بحياتي لأكون لمولاي ولو لساعة واحدة .. أجل يا مولاي ، لقد قرّرت أن أتمتّع بساعة واحدة من الحبّ وليالٍ بعدها الموت !...

فقال الملك بلطف :

ـ لا تتكلمي عن الموت يا سيدتي وأنت في عنفوان الشباب وأوج الجمال ... فإن مثلك لا تتكلم إلا عن الحب ...

فأيقنت جولييت من أنها أصبحت ذات سلطان عظيم على الملك، فقالت وهي ترتعش :

ـ وبعد أن اتخذت ذلك القرار عمدت فوراً إلى تنفيذه فلجأت إلى السيدة ديتيول ...

وقد قالت ذلك وهي تتأمل ملامح الملك بدقة لترى أيّ أثر سيحدثه ذلك الاسم في نفسه ، فارتعش الملك ومرّت سحابة من الحزن على جبينه ... أجل ، هناك جان !... وكان قد نسيها!... فأطلق تنهدة عميقة وتاه في عباب التفكير . ولم تخفَ حالته على جولييت فأردفت تقول ببراءة :

ـ أنا أعلم يا مولاي أن السيدة ديتيول تحبك كما أحبك أنا .. وأنت تحبها أيضاً دون شك ...

فقاطعها الملك وقال بشيء من البرودة :

ـ أرجوك يا سيدتي أن لا تهتمي بعاطفة السيدة ديتيول نحوي أو بعاطفتي نحوها ...

فقد كانت جان لديه في مكانة رفيعة وكأن الكلام عنها في مثل هذا الموقف يسيء إلى كرامتها وطهارتها ، وأردف قائلاً :

ـ قولي لي فقط كيف عنّت لك فكرة اللجوء إلى السيدة ديتيول ... هذا كل ما أريد أن أعرفه ...

فقالت جولييت بجرأة :

ـ إنها صديقتي يا مولاي .

فارتعش الملك وصاح قائلاً :

ـ صديقتك !

فأيقنت جولييت من أن اللحظة الحاسمة قد حلّت، وأدركت أن المهارة والجرأة وحدهما توصلانها إلى النصر النهائيّ ، فقالت بإصرار :

ـ إنها صديقتي، وأعتقد أنك تدرك مقدار حبي لك يا مولاي من إقدامي على خيانة صديقة كالسيدة ديتيول ... إنها صديقة أضحي لأجلها بدمي بكل سرور... فأنا لم أعرف قلباً أنبل من قلبها ولم أرَ في حياتي امرأة تفوقها عذوبة وذكاء وجمالاً !...

وكان ثناء الكونتيس دي باري على السيدة ديتيول ضربة معلم، فقد تأثر الملك به تأثراً شديداً ... وأخذت جولييت تبكي ، مما زادها جمالاً على جمال ، وهي تردف قولها :

ـ أجل ، لقد خنتها ما دمت أعرف حبها لك يا مولاي ... أما أنا فإنني لم أجرؤ مطلقاً على إعلان حبي أمامها ... ومنذ أن حلّت في هذا المنزل حيث جئت يوماً لرؤيتها ...

ـ جئت لرؤيتها ؟

ـ نعم يا مولاي !...

ـ هنا ؟... في هذا المنزل ؟...

ـ نعم يا مولاي !... فإنها أرسلت من يبلغني أنها تقيم هنا فأسرعت إليها ... وقد أخبرتني بقصة المركبة التي وقفت أمام باب العرّافة وحدثتني عن الرحلة التي قامت بها مع مولاي من

www.mlazna.com
RAYAHEENA

باريس إلى فرساي ...

فاستاء الملك استياء شديداً من تصرفات جان الرعناء، واستأنفت جولييت كلامها فقالت :

وعندما عرفت أن الملك سيأتي إلى هنا عاجلاً أو آجلاً ، اتخذت قراري .. إلا أنني أعترف أمامك يا مولاي بأنني ما كنت لأجرؤ أبداً أن أسير في ذلك القرار إلى النهاية لو لم تقل لي جان بنفسها ..

وتوقفت عن الكلام وهي ترتعش ، فقال الملك بفراغ صبر :

— ماذا قالت لك ؟...

— قالت لي إنها لن تقبل أبداً أن تستسلم لجلالتك !

فضحك الملك ضحكة مغتصبة أخفى تحتها غضبه وتأثره ، فأردفت جولييت تقول :

— إن حبها لمولاي بالغ في المثالية ... فهي تريد أن تحب الملك إلا أنها لا تريد أن تستسلم إليه ... ومن جهة أخرى ، فقد يكون ذلك الحب مشوباً بعاطفة ... شفقة ... نحو ضابط فقير لا أعرفه ولم ترد هي أن تبوح لي باسمه ...

فقال الملك وقد ثارت أعصابه :

— ولكنني أعرفه أنا وذلك يكفي !... آه ، إذا تجهر بحبها لي بمناسبة وغير مناسبة بينما لا تجرؤ على أن تتكلم عن ... ذلك .. الفارس . وذلك يعني أنها تحبه هو !...

— مولاي ، أنا لم أقل ذلك !...

— أجل، ولكنني حزرته أنا !... تابعي حديثك يا سيدتي .. فإن قصتك ساحرة جذّابة ...

— ماذا أقول لك يا مولاي ؟... فربما كان حبي أنا أقلّ مثالية !... ولكنني أردت أن أعرف السعادة ، أردت أن أكون لك جسداً وروحاً ولو متّ في سبيل ذلك !...

فصاح الملك قائلاً :

— إنك لن تموتي ! أقسم لك ...

فخنقت جولييت صيحة الفرح الطاغي التي كادت تنطلق من بين شفتيها وقد أدركت من صيحة الملك أنه قضي على جان . قالت تتابع حديثها :

— وأمس يا مولاي ، قالت لي السيدة ديتيول إنها قرّرت أن تعود إلى باريس لبضعة أيام ... وعبثاً لفتّ نظرها إلى أن جلالتك قد تأتي إليها — وهي تضحية كبيرة تمتُ بها وأنا أتكلم هكذا — فأجابتني بأن الملك لن يأتي ما لم تدعُه هي إليها !...

— هذا صحيح ! فقد كنت مغفّلاً !

— مولاي ، مولاي !... أقسم لك أن هذه الأفكار لم تخطر في بال صديقتي المسكينة !

— صديقتك ؟!... تلك المحتالة ؟!...

— كلا يا مولاي ، كلا ! إنها ليست كما تقول بل امرأة ذات نهج خاص في الحب !... وقد أضافت أنها مضطرة إلى رؤية بضعة أشخاص في باريس ...

— بضعة أشخاص ؟!... شخص واحد فقط !... ذلك الضابط ... ذلك الفارس !...

— لا أعلم يا مولاي !... وكل ما أعرفه هو أن الجنون

استولى عليّ ... فراقبت رحيل جان ... وعندئذٍ استدعيت سيزون وطلبت منها أن تكتب تلك الرسالة التي وصلتك دون شك ...

وكان هذا البرهان الجديد مما زاد في اقتناع الملك بصحّة رواية جولييت ، وأردفت الكونتيس دي باري تقول :

— ولم تشأ سيزون أن تكتب تلك الرسالة في البدء ، فقلت لها إن السيدة ديتيول تأمرها بذلك فأطاعت ... وعندئذٍ لبثتُ أنتظر جلالتك وأنا أرتجف رعباً... وأكاد أموت حياً!.. ولكنني أقسم لك يا مولاي أنني لم أكن أريد أن أظهر أمامك حقيقة شخصيتي ... كنت أريد أن أذهب ... وأموت !... وجئتَ يا مولاي ... وأنت تعرف باقي القصة ... والآن ، إذا كان مليكي لا يزال غاضباً عليّ ... فإنني على استعداد تام لقتل نفسي.. هذه قصتي كلها !...

وانفجرت جولييت بالبكاء عندئذٍ ، فغمغم الملك قائلاً :

— لا تبكي ... لا تبكي ...

— واحسرتاه يا مولاي !... كيف لا أبكي ؟... أقسم لك أنني لست آسفة على الحياة ...

فقال لويس وهو يطوّقها بذراعه :

— على ماذا تأسفين إذن ؟

— على حبك !...

— إذن ... فدعي الأسف ... لأنني ...

— مولاي !... ربّاه ... لويس !... حذار !...

فأنهى لويس الخامس عشر جملته بقوله :

— لأنني أحبك !...

فسقطت بين ذراعيه كأنها تموت ... كأنها لم تستطع أن تتحمّل دفق السعادة الذي غمرها ...

انتهى الجزء الأول من هذه الرواية
ويليه الجزء الثاني والأخير وهو بعنوان « منافس الملك »

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^